المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة



سياحت نامه إبراهيم بيك

(الجزء الأول)

تأليف
زين العابدين المراغي

ترجمة
محمود سلامه علاوى

192

المشروع القومى للترجمة

سياحت نامه إبراهيم بيك

(الجزء الأول)

تأليف

زين العابدين المراغى

ترجمة

محمود سلامة علاوى



إهـــداء

أهدى هـذا الجـزء مـن هذه الرواية إلى أخ صديق فى زمـن عزَّ فيه الأصدقاء ، وإلى زميل وفى غدا فيه الأوفيـاء عملة نادرة الوجود إن لم تكن منقرضة ، أهديه إلى الدكتور يوسف عبد الفتاح فرج ، مـدرس علـم اللغـة والدراسـات الشـرقـيـة بكليـة دار العـلـوم – جامعـة القاهـرة .

د . محمود سلامه علاوى

تصدير

كانت الرحلة من أهم وسائل نقل المعلومات والأخبار بين الشعوب الاقوام فى العصور القديمة والوسطى سواء فى الشرق أو الغرب . إلا أن الرحلة فى الشرق الإسلامى اكتسبت الجانب الأدبى حين مزج الرحالة المسلمون الخبر والوصف بالفصاحة والبلاغة ، فغدت جنساً من أجناس الأدب العربى والفارسى ، وصارت رحلة مثل رحلة ابن جبير فى القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى مثالاً للأدب البليغ ونموذجاً رائعاً يفيد منه متعلمو اللغة والفصاحة فضلاً عن الأخبار والوقائع والوصف لما رآه هذا الرحالة من مبدء حركته حتى نهايتها . وصنع ابن بطوطة فى القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادى صنيعه وإن لم يبار ابن جبير في فخامة لفظه وقوة تعبيره ، لكنه بحكم طول رحلته مكاناً وزمانا أرفد الدارسين والمعنيين بمعلومات قيمة لسائر بلدان العالم الاسلامى إبان تلك الفترة خاصة أحوال إيران والهند وبلاد ما وراء النهر والروم (الأناضول) ، وقدم الأدب الفارسى مقلداً العربى نماذج لأدب الرحلة والسياحة أبرزها رحلة ناصر خسرو للبلاد العربية في القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى ورحلة ناصر الدين شاه لأوربا فى القرن الرابع عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى ورحلة زين العابدين المراغى الذى سماها رحلة إبراهيم بيك فى ذات القرن الرابع عشر الهجرى . ويعد كتاب رحلة إبراهيم بيك سجلاً حافلاً تاريخياً صور المؤلف فيه كافة المجالات السياسية والاجتماعية والفكرية فى المجتمع الإيرانى فى العصر القاجارى ، خاصة فترة حكم ناصر الدين شاه ، ودون فيه مشاهداته وملاحظاته بصدق عن كل قرية ومدينة إيرانية دخلها .

ورحلة إبراهيم بيك تضم أجزاء ثلاثة ، الجزء الأول الذى يصدر الآن ، ثم الجزء الثانى والثالث وسوف يصدرهما المجلس الأعلى للثقافة بعد ذلك تباعاً بعون الله ، وقد انفرد هذان الجزءان بالقيمة الأدبية بعد القيمة السياسية والاجتماعية عن الجزء الأول ، خاصة الجزء الثالث الذى حوى أخلاطاً من الشعر والأمثلة والمأثورات الدينية والشعبية .

وقد عاصر المؤلف أحداث الثورة الدستورية بايران فى بدايات القرن العشرين لأنه توفى عام ١٩١٠ م عن عمر يناهز الثالثة والسبعين .

هذا أول كتاب رحلة يصف أحوال إيران فى الفترة المعنية يقدم فى ثوبه العربى على يد أخى وزميلى الدكتور / محمود سلامة علاوى وقد تحلّى هذا الثوب بالأمانة والدقة والجمال فى آنٍ ، أمانة النقل وجمال التعبير ولسوف يشعر القارئ الكريم بالمتعة العقلية والروحية إذا وقع هذا المؤلّف بين يديه ، والمرجو من الدكتور / محمود أن يديم جهده واجتهاده على هذا الدرب والله هو الموفق .

المراجـع

محمد علاء الدين منصور

أستاذ اللغات الشرقية - آداب القاهرة

١٩٩٩/١٢/٦

المقدمة

يحفل الأدب الفارسى بكثير من كتاب السياحة والرحالين الذين أثروا الأدب الفارسى بما دونوه فى مذكراتهم خلال رحلاتهم ، ومن أولئك الكتاب : ناصر خسرو فى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى وناصر الدين شاه فى القرن الرابع عشر الهجرى التاسع عشر الميلاد ، وزين العابدين المراغى موضوع دراستنا .

وتعتبر رواية سياحتنامة إبراهيم من الروايات الهامة التى ظهرت فى العصر القاجارى حيث جعل كاتبنا من هذا الرواية ، سجلا تاريخيا صور فيه كافة المجالات السياسية والاجتماعية والفكرية فى المجتمع الإيرانى فى العصر القاجارى ، خاصة فترة حكم (ناصر الدين شاه) فزاد هذا من قيمة الكتاب السياسية والاجتماعية ، كما تميزت هذه الرواية عن غيره من كتب الرحلات ، وذلك لأنه جمع بين السياسة والرحلة والرواية ، وقد ظهر الجانب السياسى لهذا الكتاب حينما منعت الحكومة الآيرانية تداوله بين الأفراد ، كما فرضت غرامة على كل من يضبط وفى حوزته هذا الكتاب ، وهو كتاب رحلة وذلك لأن كاتبنا دوّن ملاحظاته ومشاهداته بصدق ودون مبالغة عن كل قرية ومدينة إيرانية دخلها . أما الجانب الروائى فقد برز فى الأجزاء الثلاثة لهذه الرواية ، خاصة الجزء الثانى والذى

دار حول مـرض بطل كاتبنا (إبراهيم بيك) ثم وفـاته بعد ذلك ، بسبب ما رآه من المساوئ المنتشرة فى المجتمع الإيرانى ، وقد دون المراغى هذه الرواية فى أسلوب بسيـط بعيد كل البعـد عن الصنعة اللفظية التى كانت سمة كثير من الكتاب الايرانيين انذاك .

وتدور هذه الرواية حول ابن تاجـر تبريزى ، أخذ عن والده فى مصـر حبه المـتعصب لبـلاده وحضارته القـديمة ، وبناء على وصية أبيـه قام برحلة إلى إيران . بصحبـة وصيّة العم يوسف ، وعلى النقـيض مما كان يتـوقع وجد الجنه التى وصـفهـا والده له جحيمـاً يعانى من الفاقة والفقر والنفـاق الدينى والفساد فى إدارة الدولة ، ودولة إيران ، وحينئذ سجل فى يومياته كل شئ رآه فى إيران يومـاً بعد يوم اندفع فى تعليـقات سـاخرة معلقـاً على كل عـلامة من عـلامـات العـفن فى الدولة ، وعلى كلّ حـالة ظُلم صادفـته فى طريقه ولم يغفل شـيئاً لم يدونه فى رحلتـه . القوة الغـاشمـه ، الإجراءات الشـريرة للشاه وبطانتـه والوزراء وكبـار الموظفـين ذوى الألقـاب البـراقـة ، والتعذيـب وإبتزاز الأمـوال من الناس وتخلف الشـعب فى غـياب كلـى للقانون والعـدل ، وكذلك انتشار الظـلم والحالة السيئة للمدارس والتـعليم عموماً . وانتقد كذلك الخدمات الصحية وانتشار آفة تدخين الأفيون وتدهور التجارة والصناعة وتخلف الزراعة . وكان نقده لكل ذلك صريحاً ولم يهمـل حتى الكتـابـات البديعية والأبجدية الفـارسية يضاف إلى ذلك مقـابلة زين العابديـن المراغى لوزراء الحربية والـداخلية

والخارجيـة ، حيث ناقشهم فى الأمور الخـاصة والدقيقـة المتعلقة بوظائفـهم ، وقد وجـد المؤلف فى ذلك الفرصـة المناسبـة لتنوير الشعب ، كما رسم مقارنة بين الحالة الحاضرة السيئة وبين الأمجاد الفارسية القـديمة . ولهذا ليس غريباً أن تتردد كثيـراً أسماء الشاه عباس ونادر شاه وميرزا تقى خان أمير كبير .

بسم الله الرحمن الرحيم

الواضح الجلى للعلماء المستنيرين الذين أوجه إليهم الحديث ، أن المطبوعات هى أول العوامل الرئيسية لرقى الشعوب وسعادتها وحسن حظها فى هذه الأيام ، على وجه الأرض ، أجل فحينما يكون الواقفون على المطبوعات بعيدين عن الهوى والغرض فإنهم ينأون عن جلب المنافع غير المشروعة فلا يضعون أنفسهم موضع الأغراض والتملق ومن ثم يصونون عزة أنفسهم ويجعلون شعارهم حب الوطب والمواطنين ، ويولون حب الوطن كل اهتمامهم ، فيعطفون على الدوام أنظارهم إلى البحث عن أسباب الرقى والتحضر الحقيقى للدولة والشعب ، فلا يمدحون أى صديق دونما استحقاق مهما بلغت محبتهم لهذا الصديق ، ولا يفترون على أى عدو لهم بحكم غرض من الأغراض وعليهم أن يعتبروا البهتان جرماً عظيماً مما ينافى الأسلوب الإنسانى .

لا شك إذن أن أحاديثهم ستؤثر فى المواطنين صغيرهم وكبيرهم ، وستكون سبباً فى إصلاح نقائص الأمور ، ويجب على المؤرخين وكتاب الرحلات بخاصة أن لا يكتبوا شيئاً إلا ما رأوه رأى العين أو ما سمعوه من أناس ثقات ، وعليهم أن يدققوا فى هذه النكات ويمحصوها أكثر من أى شئ آخر .

واليوم بات معلوما للجميع أن السبب الرئيسى لرقى دول الغرب هو من ميامن مطبوعات تلك الدّول المحظوظة التى بعد أن ترى جميع نقائص أوطانها من كل طبقة من طبقات الأمة وكل شُعبة من شُعب المملكة وتسمع بها ، وبعد التأكد التام من صدق ما شاهدوه وما سمعوه ، يثبتونها فى صحائف الأوراق المطبوعة أمام الأنظار العامة بلا أدنى ملاحظات شخصية أو أغراض نفسية ، ثم يدعون أولى الأمر بإصلاح تلك النقائص وما أن يسمع أولو الأمربتذكير المطبوعات حتى يقدموا دون أن يفوتوا دقيقة على البحث فى ذلك النقصان ، فإذا كان قول المطبوعات صحيحاً ، فأنهم يهيئون على الفور أسباب إصلاحه « النقصان » ويثنون بدورهم على القائل وإذا كان هناك خطأ فى الأمور أحياناً فأنهم يبينونه فى لغة حسنة حتى يزيلوا خطأ المطبوعات إذن يمكن القول للسكان السعداء فى تلك المناطق لساناً ناطقاً وكذلك عيناً بصيرة وأذناً سمّاعة وللأسف فإننا لسوء الحظ محرومون من هذه النعم الثلاث .

والقصد من عرض المقدمات هو أن تكون صورة هذه المرحلة خالية من كل نوع من ألوان الأغراض والتهويل ، والتى تحكى عن إظهار بعض نقائص وطننا العزيز والتى صادفتنا فى مكان ما فلم نجوّز فى مذهب حب الوطن أن يظل هذا الكنز مخبوءاً تحت أطباق الثرى.

ولهـذا هيأنا نفـقات طبع هذا (الكتـاب) ونشره على أنفـسنا بمحض ملاحظة حب الوطن والمواطنين فـينا ، ونعلم بقوة القلب أنه لن، يمتـد من أى من المواطنين العـملاء المنـصفين أصـبع الرد والتعرض إلى كلمة واحدة من كلماته لأن ما كتب فى هذه الرحلة وأمثالها يمكن أن يراه كل واحد بعينه هو ، بقليل من الاهتمام فى تلك المناطق من وطننا التـعيس فى كل يوم بلا زياده أو نقـــصان وهـــو الـذى كـان قـد رآه السائح الغيـور وحـرره . اذن فليطبق كبـراء الوطن الماضى على حاضرهم بدون أدنى غـرض أو مرض بمجـرد الملاحظة بل حين ينظرون فى مـادرج فى هذه الرحلة بنظر الانصـاف ، فيـقومـون فى حـركة فتـية بإصـلاح هذه المعايب والمفاسـد التى هى فى نظر الأجانب سبب إنقـاص الشأن العظيم للدولة والشعب وخراب الملك وتفرق الرعيـة وعلة كثير من الخور والعار ، فإنهم بذلك يعيدون المياه إلى مجاريها .

ومنـذ القـدم كـان لايـران والإيرانيين العمـران والفخر بين جمـيع الأمم فخلدوا أنفـسهم بهـذه الوسيلة ،كمـا أنه لن ينسى تاريخ الأمة مطلقاً تخليد أسمائهم .

غدا حيـاً خالداً كل من عاش طيّبَ السـيرة . . . لأن الذكر الطيب يخلد اسم صاحـبه / والتمس من القراء المحتـرمين خاصة أن لا يذكـروا المؤلـف باللعـن والـسـب مالـم يتمـوا قـراءة هذه الرحلة . وفى خاتمة القراءة ندعهم إلى انصافهم أذا كان يستوجب

الرحمـة أو يسـتحق اللعنة وما نرجوه فـقط إذ ذاك من الله تعالى هو أن يزيّن إيمان كل أخـوه الوطن والديـن بزينه (حب الوطن) الخلاصـة إن الحديـث فى أمـثـال هـذه الموضوعات والكتابة فـيها منا والتوفيق من الله الواحد الأحد .

(يارب اغفر لنا بفضلك   هذه الذنوب التى بدرت منا)

رحلة إبراهيم بيك

قبل أن نبدأ كتابة رحلة إبراهيم بيك فالأنسب والالزم أن يكتب مختصر من سيرته حتى يحيط المطالعون بأسباب رحلته كما ينبغى ويتوجب . فهو إبراهيم بيك ابن أحد تجار (أذربيجان) قدم والده إلى (مصر) قبل خمسين عاما عازما التجارة ، وأتخذ هذه المدينة الكبيرة التى يغبطها كثيراً من البلاد الإسلامية مسكنا له حين اقتضت الوسعة التى حدثت فى أمر تجارته وتبدل بهذا عزم رحيله إلى الإقامة .

وقد جمع هذا الشخص المحترم فى فترة وجيزة ثروة كبيرة بسبب أمانته وديانته وهما أول أسباب حسن الصيت ورقى التجارة ، وجذب إليه الاهتمام العام نظرا لصفاء نيته وحب الخير بلاده .

ولم يغير هذا التاجر المستقيم الطاهر الاعتقاد خلال السنوات الطويلة التى كانت مقيما أثناءها بمصر عادة من عاداته المستحسنة القومية أو طوراً من أطواره الإيرانية المرُضية فى وضع معاشرته مع الناس .

وكان يتصرف فى مأكله ومشربه وملبسه على غرار أجداده ، وكان متعصبا قوميا أشد ما يكون التعصب ، وظل لسنين عدة لم يتحدث كلمة عربية واحدة مع أحد ، بل لم يُرد أن يتعلم

العـربية . وكـانت أحاديثـه كلهـا عن إيران ، وكان دائم التـرنم بنغمـات إيــران ، وكان يسأل عن وضع بلاده وحال مواطنيه كل مـن يــراه ، فكــان بجـسـده فــى مـصر وبخـيــاله فى إيران ، وكان يستضيف عددا من معارف أولاد وطنه فى كل ليلة من ليالى الشتاء . وكان حديث ضيوفه ينحصر فى قراءة كتب تواريخ إيران وسير الملوك القدماء .

وكان مـيزرا يوسف المعـروف معلمـا لابنه فى بيتـه لسنوات طوال وكان يقرأ عليه كتـاب ناسخ التـواريخ . وقصص الاكاسرة من أمثال كيخسرو وجـمشيد وبهمن وشابور [١] وانوشـيروان [٢]

(١) شابور الأول : جلس على عرش إيران (من ٢٤١ م - ٢٧١ م) ، ويعتبر أحد ملوك الأسرة الساسـانية المشاهير ، وكـان محبوبا من شعب إيران لكنه لم يـفد إيران كثيرا بفـتوحاته بالنسبة للسياسة الخارجية ، ذلك أن غروره كـان يقضى على انتصاراته أحيانا ، ويعتبره البعض دارا (داريوش) الأسرة الساسانية ، ولكن لايوجـد وجه للمقارنة بينه وبين ذلك الملك العظيم ، ومن أعماله : بناء سـد شادروان أو القيصـر ، الذى بنى على يد مهندسى الروم وأسـراهـم على نهـر كـارنـون فى شوشـتر ، وأيضـا بناء (مدينة سـابور) التى كانت تقع بالـقرب من كـازرون فى فـارس ، وينسـب إليه كـذلك بنـاء جنـدى سابـور فى خوزستان بين (شـوشتر ودزفون) .

- حسن پيـرنيا : تاريخ إيران القديم (ترجـمة) محمـد نور الدين عبد المنعم والسـباعى محمد السباعى : ص ٢٥٥ ، ٢٢٩ .

(٢) انوشـيروان : تولى عـرش إيران من (٥٣١ و ٥٧٦) يعـتبـر المؤرخون الشـرقيـون انوشيروان أعظـم ملك فى إيران القديمة ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن ملوكـا مثل كوروش وداريوش الكبير قد دخلوا فى طى النسيان لكن هذا لم يحدث لانوشيروان ، أما عن كونه ملك فى ملوك الأسرة الساسانية فهذا أمر لاشك فيه ، والتاريخ يبين أنه نادرا ما تجتمع صفات القيادة وخصـائص إدارة الدولة فى شخص واحد ، ويمكن القـول أنه كان ملكا عادلا وحـازما وإدارياً وقائداً .

- المرجع السـابق ، ص : ٣٧٦ .

وغيرهم وكـان يزهو بنفسه [1] وكل عام فى شهـر رمضان المبارك كان يستـأجر أربعة من القراء العرب ذوى الأصـوات العذبة حتى آخر الشـهر وكـان القراء يتلون القـرآن المجيـد أثناء الليل كله من الافطار حتى السـحور ، فيهـدى ثـواب التـلاوة إلى روح الشاه عباس الكبير الصفوى [2] الطاهرة والذى بقى له كثير من الأعمال والمآثر الخـيرية العظيـمة فـى كل ركن من أركان الدولة الايرانيـة والتى لاتزال لم تصل لها يد الدهر بالتخريب والهدم .

وكان يقرأ عقب كل صلاة الفاتحة من باب الإخلاص ليترحم بها على روح ذلك الملك الشـهير ، وكان شغـوفا بقراءة (تاريخ نادرى) [3] وقرأ هذا الكتاب كثيرا حتى أنه استظهره كله .

وبعد وفاة هذا الشخص الغـيور المحب لبلاده ، بقى عنه ابن هو إبراهيم بيك الذى تعنون هذه الرحلة بأسـمه ، وكنت تعرفت بهـذا الابـن بعـد وفـاة أبيـه ، وبعـد فتـرة مـن الوقـت ذهبت

(١) ميـرزا يوسف : هو المعروف فى المجلـدات الثلاثة للسـياحة بالعم يـوسف . ورفيق إبراهيم بيك فى سياحته فى المدن الإيرانية .

(٢) الشاه عبـاس الأول : جلس على عرش إيران من (١٥٨٧ - ١٦٢٩ م) ، وهو من ابرز الملوك الصفـويين الذين حكموا إيران ، وقـد اعاد هذا الملك تنظيم أوضـاع إيران الداخلية وكذا سياستها الخارجية بعـد أن كانت متردية ، حتى أن إيران خطت فى إيامه خطوة واسعة فى سبيل التقدم لاسيما بعد أن كثرت متاجر العرب فى إيران وكثر تردد التجار عليها .

- بطروشفسكى وآخرون : تاريخ إيران (ترجمة) كريم كشاورز . ص ٥١١ ، ٥٢٠

(٣) مؤلف كـتاب (تاريخ نادرى) : مـيرز مـهديخان ، ويـقع الكتاب فى مـجلد واحد ويدور حول غزو نادرشاه للهند .

إلى (مصر) ، فقصدت بسبب المعرفة القديمة منزل (إبراهيم بيك) مباشرة ، فنزلت به ، وذات يوم بينما كنت أتفقد مكتبته رأيت ستة أو سبعة مجلدات من كتاب (تاريخ نادرى) فى أشكال مختلفة مخطوطة ومطبوعة فتعجبت أن يكون فى مكتبة واحدة هذه النسخ العديدة لكتاب واحد ، والذى طُبع فى عدة مدن مثل (طهران ، وتبريز ، وبومباى) ومناطق أخرى ، حتى إننى سألت عن سبب هذا إذ قلت : لماذا جمعت كل هذا العدد من نُسخ كتاب تاريخ نادر ؟ قال : هى ذكرى عن أبى ، إذ كان المرحوم شغوفا بهذا الكتاب حتى أن الجميع كان يعرف هذا الأمر (إن كل من كان يصادفه نسخة جيدة من الكتاب المذكور مخطوطة أو مطبوعة كان يأتى بها إلى والدى المرحوم ويبيعها إليه بثمن مرتفع ، حتى أن المجلدات الأخرى العديدة التى أوقفت أخذت من هذه المكتبة) .

الخلاصة : أن التعصب الإيرانى عنده بلغ حدا يعجز القلم عن وصفه . وعلى سبيل المثال حينما كان يتحدث أحد عن إيران بسوء عمدا أو جهلا كان يعتبره لادين له ولا غَيره عنده ، حتى أنه كان يقاطعه حتى آخر العمر . وفى مصر ، عدد آخر من التجار الكبار الأثرياء ، وقد بلغت ثروة كل منهم خمسمائة ألف ، وتخلى جميعهم عن جنسياتهم نظراً لظلم ولاة الأمر فى (إيران) وعدم مبالاتهم ، ونسب كل واحد من هؤلاء التجار نفسه إلى دولة من الدول الكبرى مثل (إنجلترا وفرنسا وروسيا)

حتى يبتعدوا عن شرورهم وكانوا ينصحون هذا الشخص الغيور من باب إرادة الخير قائلين له : إذا لم تتخل عن جنسيتك الإيرانية فقد ظلمت وارثيك وأعقاب أسرتك وختنتهم . لأن السفراء والقائمين بالأمور الإيرانية فى البلاد العثمانية والقوقاز يعتبرون أنفسهم الأوصياء والورثة الحقيقيين للأموات والمقيمين على الأحياء الايرانيين لهذا لايعطون شيئا بعد موتك إلى ورثتك ، كما نرى كل يوم أمثال هذا ونسمع عنه ، إلا أن هذا الشخص الغيور لم يسمع لكلمة واحدة من هذه الكلمات ولم يكن يقبل كلمة على أى وجه قط مع أنهم تصيدوا له الاسباب مرارا وحبسوه وجرّموه . إلا أنه كان يتحمل ولم يستسلم إلى ترك التابعية لفرط غيرته ، حتى أن (حاجى ميرزا نجفعلى خان) الذى لاتزال شراره كل ما للإيرانيين فى (إسلامبول) وسائر البلاد العثمانية ، ويذكر الجميع اسمه باللعنة الابدية - وبعد وفاة هذا الرجل ذى الطبع المحبوب - فإن نجفعلى خان لم يسكت حتى أخذ الف ليرة [1] إنجليزية من وريثه مع أن والد إبراهيم بيك قد كتب وصيه شرعية مُحكمة وكان كلما وجد فى الوصيه مكانا ضيقا لكلام كان يستعيذ للجميع بالله من نفسه .

وخلاصة الكلام أن إبراهيم بيك كان فى العشرين من عمره حين توفى والده ، وقد خاطب ابنه قُبيل وفاته فى وصيته بلغة جديرة بمثل هذا الاب قائلا :

١ - الليرة الانجليزية تساوى جنيها إنجليزيا ذهبيا .

- سليم حداد : جدول نقود العالم ، ص ٣

بنى العـزيز : أديت لك مـا كـان واجب الابوة ، وعلمـتك علاوة على اللغات الوطنية والقومية ، اللغات الأجنبية ، والفنون المتداولة التى تناسب امـثالك وهى اليوم من العلوم التى يحـصلها الرجال ، واتقنتها جميعا باقتضاء الذكاء الفطرى . ولا أقول شيئا فى طهر أخلاقك وعـفتك وديانتك غير حـمد لله ، وأنا فى هذا الخصوص راضٍ عـنك قرير العين والله عنك راض ، ولكن الآن وشمع حياتى عـلى وشك الخمود ، فأنى أوصيك فاسـتمع جيدا حتى تستقيم لك الداران .

أولاً : أنى أودعك أمك بعد الله ، ولسوف تعلم بنفسك كم عانينا أن وهى فى تربيتك .

ثانيـاً : أهتم بعمك (مـيـرزا يوسـف) الذى كان مـعلمك ومربيك لأن احترام المعـلم بعد احترام الاب والأم واجب لازم . خـاصـة وأن (يوسف) رجل أمين ومـتـدين وحـسن الفـعـال والصداقـة ، وكـان من بدايـة عمـره معنـا ، فينـبغى أن تعده من أهل بيتنا .

ثالثاً : لاتفـرِّط مطلقا فى عادة من العـادات القوميـة الحسنة ولاتصـدق من يقـول شـراً عن إيران من الاخساء ومن لاغـيره لهم ، ولاتشـاركـهم فى الإساءة إلى الوطن ولـو كانوا صـادقين بفرض المثال .

رابعًا : اخف سـرك عن كل شخص إلا عن صديق مـجرب طاهر الفطرة زاهد فى حطام الدنيا [1] .

خامسًا : احذر الأشـخاص المداهنين الذين يتحـدثون بوجه التملق . وفـر فراسخ ممن يمتـدحك ويزكيك وجهـا لوجه ، لأنه علاوة على ما يتمناه منك فهـو يلقى بك فى قمة الغرور والعجب وهما أسوأ الصفات الإنسانية المذمومة ، ويبليك بمرض الكبر أسوأ الامراض طُرا .

سادسًا : اقل من الذهاب ودعهـم يأتونك كثيرا ، أى أرغب فى الاتيان بالضيوف أكثر من الذهاب لكى يسـتضيفوك ، وحذار أن تترك الصلاة والفرائض ولاتفـرط فى السخاء ، اعط لا بالقدر الذى تصير به مـشهورا ولا تعط بالقدر الذى تكون به مـعروفا ، أى أذا صـرت مشـهورا ، فـإن المتـسـولين سـيأتون لك من كل حدب وصـوب ، فإن لم تعطهم عادوك ، وهـــذا الحديث ليس فى حق الفقـراء ، وأنما المقترضين المتـملقين ، وكل مـن يقــول كل شئ إذا لم تصدقه أو تقبله فلا تجادله أو تعارضه فهو يخدعك وأوصـيــك واؤكد فـى الوصيـة أن لا تتـاجر لمدة ست أو سـبع

(١) ذكر الكتاب هذه العبارة كـالاتى : (رازخودرا ازهمه كس ينهان دار ، مكر ازدوست مجرب باك فـطرت كه أنهم درحكم كيمـياست) والكيميـاء تعنى عند المتأخرين علم وصـياغة يبحث بهـا عن طبيعة جـميع الأجسام وكـيمياء السـعادة عند الصوفيـة تذهيب النفس باجتناب الرذائل واكتساب الفضائل وهى تخليص القلب من الكون باستثناء المكون .

- بطرس البسـتانى : محيط المحيط (قـاموس مطول للغة العـربية) بيروت ١٩٨٣ م ص ٨٠٣ .

سنوات ، فالحمـد لله أنت فى سعة من العيش فـاهنأ حتى تصل سن الثـلاثين ، وفى خلال هذه الفـترة ، قم بالسـياحـة فى كل مكان فى العالم ترغب . وقـد كتبت باسمك فى دفـتر الف ليرة مسـتقـلة من أجل هذه السيـاحة وليس لوارث آخـر شأن بهـا . ولاتقصر السياحـة على رؤية خراب المدن وعمارها ، فامكث فى كل مكان عـدة أيام ولاحظ بدقة وضع المعـيشـة والحيـاة لجمـيع القاطنين فى تلك الديار ، وتـعرف على إحصاء التـجارة السنوى فى تلك البلاد وحـتى تعلم ما هى البضائع والمحـاصيل التى تأتى من البلاد الأجنبية إلى ذلك البلد ، وأى كمـية تباع فيها سنويا ، وكذلك الكمية التى تُصدر للخارج من الأمتعة والمحاصيل من ذاك البلد سنويا ، وصادق عدداً من الأفراد الصادقين المعتبرين فى كل مـدينة تصلهـا حتى يكتـبـوا لك دائمـا ويراسلوك . واصطحب يوسف عمك فى سياحتك هذه لو كان بقيد الحياة ، إذ إنه سيقف بجـانبك فى الشـدائد . وأنت تعـرف أصـدقـائى فى هذه المدينة فأظهـر لهم الاحترام ، وابتـعد عن الأشخـاص الذين لم يكونوا اصدقاء لى ، لأننى عانيت كـثيرا فى اختيار أصدقـائى ، ومعرفة النـاس وتجربتهـم يتوقـف على كـثير من المعانـاة وهـو فى الواقع فن . واكـتب فى دفتـر جيـبك فى كل مـدينة تصل إليهـا تاريخ دخولك وخـروجك مع كل مشاهداتك اليومـية حين تصل ، لأن ذلك يفيد . وقد كتبت باقى الوصـايا الشرعية فى وصيتى واحدة

واحدة ، والأن استـودعك الله وقد صار إبراهيم بيك يشُـار إليه بالبنان من قبل العـدو والصديق بعد وفاة والده ، باقـتضاء الفطرة النقية فى حسن الاخلاق والاستقامة وطهارة الذيل ، فكل أعماله مـوزونة وسلوكـه مـرضٍ من كل وجـه ، وتفـوق على أبيـه فى التعصب لقومه إلى حد أنّ أولاد وطنه الظرفاء حينما كانوا يريدون الهزل معـه كانوا يحادثونه صدقا أو كـذبا عن عدم انتظام إيران ، وسوء حـال الجندى الإيرانى وبيع الدولة للاقاليم فى مقـابل مبلغ من الرشوة (تعطى) للـحكام الذين يلفقون أنواع التـهم والحبس والتجريم للناس من أمثال أمير الأمراء ورئيس المدينة وقائد الشرطة ورئيس الفـراشين ، ووجود خمـسة عـشر محـبسا بـه السلاسل والخنادق فى المدينة الواحدة ، وكذلك وجود عـشرة أو اثنى عشر موضعا (ملجأ) [١] فى المدينة الواحدة مثل منازل العلماء أو رئيس أصطبل الحكام أو فلان كـبير الضباط ، وقـذارة المدن وعدم نظافة المساجـد واغلاقـها مدة أحـد عشر شـهراً ، وفى فـصل الخريف (يرى) تكدس الأشخاص السفلة فى المسـاجد بالشمام والبطيخ [٢] ووضع الحمامات الشديد السوء ومياهها الآسنه ودخول الكثير من أشتات الناس المصـابين بالامراض المعدية حوضـا واحدا عفنا اسنا

(١) وكانت العادة قـد جرت فى فارس منذ القدم على أن يعتصم الناس فى أحـد المساجد إذا آنسوا عنفا من جانب السلطان (وقد اطلق على هذه العادة اسم (بست) أى ملجأ .

(٢) لقد شاهد المراغى بعض الايرانيـين وهم يأكلون فاكهة البطيخ والرمان ويلقـون بالقشر فى المسجد دون مراعاة لحرمته أو قدسيته أو على الأقل المحافظة على بيت الله نظيفا . انظر :

- المراغى : سياحتنامه ، جـ ١ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

تغير لون مائه من القذارة وصار سبب كثير من الأمراض المعدية ، ومنافسة العلماء وخصومتهم مع بعضهم البعض واحتفاظ كل منهم بعشرة أو اثنى عشر رجلا من الصعاليك والأوباش باسم (السيد) عندهم ليشجعوهم حين يرغبون على نهب الرعيه وسلب بيوت الحكام ، وبعد تخريب الأسواق ينهبون كل ما يتصورونه وتكون الحماية أحيانا التى يوليها لهم الحكام وهضم الرعيه السبب المحض لإظهار الخصومة لهم . وهجرة الرعية العاجزة عن الوطن من مثل هذه التعديات التى لا تنقطع وكانوا يتحدثون هذه الأحاديث أن صدقا وأن كذبا ، ويوجهونها إلى إبراهيم بيك ، فكان المسكين يضطرب عند سماع هذه الأحاديث فيعتبر بعضهم لادين له والبعض الآخر بلا غيرة .

وكثيراً ما كان ينتهى الأمر من السباب إلى التضارب بالأيدى والعصى وحينا إلى نتف اللحى وتمزيق الجيوب ، ولما كان أصدقاؤه يعلمون حالته تلك فلم يكونوا يتأثرون من ضربه الفاحش وشتمه . وكانوا أحيانا على النقيض يطلبون إرضاءه باحاديثهم ، فيجلسون ينتظرونه فى المقهى ، وما أن كانوا يرونه قادما من بُعد يبداون فى الثناء على إيران وتمجيدها وبمجرد أن يرى إبراهيم المسكين وضع الأحاديث فإنه يسعد وينشرح صدرا لها ويصير كله أذانا صاغية . وأول أثر إظهار سرور قلبه أن يخرج علبة السجائر ، ويضعها على المنضدة ، ويهدى كل

الجالسين فى المقهى قائلا : بسم الله تفضلوا السجائر ، ويأخذ المتحدثون فى التحدث فيما بينهم أحيانا عن حكم الملك أيضا بقولهم : أن جلالة الملك الهمايون [1] قد أمر بصورة مؤكدة أن تُقام مكاتب لخدمة المواطنين فى كل مدينة ، وقد أصدر الأوامر الصارمة لحكم الأقاليم ليعاملوا الرعية بالعدل والإنصاف ، وقد أعدّ فى هذا الصدد كتيب لكل حاكم بعنوان دستور عمل الحكام من قبل وزراء دار الشورى فلقى شرف الصدور من الإدارة السنيه المهمايونية لتنفيذه ، وكان آخر يقول :

أن ظل السلطان يعد الأن مائة الف فارس وراجل بكل نوع من الأسلحة الحديثة والمهمات اللازمة ، وكان إبراهيم المسكين ينشرح صدراً عند سماع مثل هذه الأحاديث ، وتسكره السعادة إلى حد أنه لم يكن يعرف يديه من رجليه وينادى عامل المقهى قائلا : هات للسادة شايا ونرجيله ، ويقدم السجائر للجالسين حوله من ناحيه أخرى ، ويكون الحديث حارا من كل طرف . وكان شخص آخر يقول :

إننى أعلم جيدا أنه باشارة واحدة من جلالة الملك يمكن اعداد خمسين الف فارس جاهز للقتال من قبائل (شاهيسون وطالشى) فقط فى ظرف أسبوعين بحيث تكون كل نفقاتهم عليه . وكان آخر يقول : ماذا يكون هؤلاء بالنسبة لجنود بختيارى إذ إنه

(١) لقب من القاب الملوك الإيرانيين بمعنى الميمون والمبارك . .

فى ظرف أسبوعين يمكن اعداد مائة ألف جندى مسلح وعلى أهبة التحرك والقتال ، فلا يدعه آخر يكمل حديثه فيحكى عن شجاعة جنود (مـراغـه) [1] و(افشـار)، وفى نهاية هذا المجـلس كان إبراهيم يدفـع بكـل ممنونيـة ثمن القـهـوة والنرجـيلة عن كل الحاضرين ، بل كان يدفع من نفقته أحيانا حساب الغداء والتجوال بالعربة أيضا .

وينقـل حاجـى كـريم وهـو من (أصفهـان) وكـان يقيم فى مصـر ،حكاية من هذا القبيل . واعـجب من كل هذا ، كان يقول كنت فى مـصر فى أحد الأوقـات سئ الحظ ، إذ كنت أمر بضائقة مـالية ، وأخذت من جميع المعارف مـالا قرضا ولم أظن بعد ذلك أن أحدا سوف يساعدنى بشاهى واحد .

لهذا فـقد قصرت يدى عن كل مكان ، وقـضيت ليلى دون عشـاء ، والأسوأ من كل هذا أننى لـم أدفع أيجار المنزل لمدة سـتة أشهر ، وضاق العـربى (المصرى) وصاحب المنزل بعد هذه المدة الطويلة من كثرة المماطلة ، فعرض الامر على المحكمة ، وأخذ به حكما بأن يحصل منى على اثنتى عـشرة ليرة حق الإيجار ويُخلى المنزل ويستولى علـيه ،فاستمهـلته عشرة أيام بالعجـز والالتماس لامزيد عليهمـا وظللت أفكر . . ماذا أفعل يا إلهى . وكأن قلبى

(١) مراغه : مدينة فى آذربيجان ، انظر :

- الحموى : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٤٧٩

ألهم بأن علاج هذا الامر فى يد إبراهيم بيك ، ثم بدأت فى تدبير حل هذه المشكلة ،وأعددت ورقة وكأن أحد اقربائى قد ارسلها لى من (طهران) ، وبـعد ذلك ذهبت إلى (حـاجى ميـرزا رفيع) التـاجر الأصفـهانى ، وأخذت منه لفـافة قديمـة من قشر التـمر الإيرانى ووضعت ذلك المكتوب داخل تلك اللفافة ، وجلست على قارعة الطريق مـنتظرا إبراهيم بيـك ، وكنت أعلم أنه يمر مـن هناك كل يوم فى وقت محدد إلى أن ظهر على بعد وكنت اخرجت إذ ذاك الورقة من جيبى ، وكأنى لا أعلم بمجيئه . ثم أخذت شيئا فشيئا فى قراءة الخطاب ، ولما اقـترب رفعت رأسى فجأة والقـيت عليه السلام ، فرد بصـوت عـال : وعليكم السلام . من أيـن اتيـت "يا حاجى كريم" قلت : من مكتب البريد ، فقد كان لى خطاب من طهـران . قال : من طهـران ؟ قلت : نعم . قال : حـسن جدا ، هل هـناك أخبار جـديدة ؟ قلت لـم اتم قراءتـه حتى الآن ولكن اسم الملك وغيـره باد فيه ، فقال فى نهـاية الحديث لنذهب إلى هذا المقهى ، ونرتشف كـوبا من الشاى وتقرأ أنت مـا يسمع من الأخبار ، فـأجبته : مع أن لدى اشغالا كـثيرة لكننى بما أننى اعلم أنك تميل إلى سماع أخبار طهـران ، فأى مضايقة فى هذا ؟ فلنذهب وندخل المقهى ، ودخلنا المقهى وأوصينا على الفور على القهوة والنرجـيلة وجلسنا ، قال : حسن اقـرأ لنرى أية أخبار ، فأخذت أتلو الخطاب من أول الورقة مضمون الخطاب :

أخى المكرم وصلنى خطابكم وقد سعدت كثيرا بسلامة ذلك الأخ العزيز وكنت قد أرسلت خمسا وعشرين ليرة فى حوالة (حاجى عبد الرازق اغا) التاجر فأخذت المبلغ المذكور ، وارسلته وفقا لطلبك إلى (أصفهان[1] باسم (مشهدى محمد رضا) الذى سيسلم بدوره عشر ليرات إلى منزلك ويدفع خمس عشرة ليرة قرضا لاغا حسن ، وبلاشك أنه سيكتب لك بنفسه ، وليس ثمة موضوع آخر يمكن أن أخُبرك به ، إلا إنه منذ عدة أيام حدثت مسألة هامة .

وكادت دولة إيران تعلن الحرب على إنجلترا وربما حدث ، ولكن منذ عدة أيام انتهت محادثات العداء إلى أن حلً الهدوء إلى حد ما ، وكان سبب هذا مما عُلم من القرارات أن الوزير المفوض الإنجليزى ، عله أجاب فى مسألة سياسية خافية علينا ، جناب الصدر الأعظم اجابة تخلو من الاحترام فعرض الموضوع على الهمايون بدوره ، فشرف بالصدور من جانب قرين الشرف الملكى فى نفس تلك الساعة ، وأمر بصورة مؤكدة جناب وزير الشئون الخارجية أن يخابر (لندن) برقيا بأنه ينبغى أن تعزلو سفيركم فى مدة اسبوع واحد وتستدعوه إلى لندن وتحاسبوه ، وإلا فإن جيش إيران سيتحرك

(١) اصفهان : تعتبر من أهم المدن الفارسية ، فُتحت فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب (ر) - وهخدا : لغت نامه ، جـ ٦ ، شماره حروف (أ) ، ص ٢٧٧٨ .

إلى (هراة) [1] فى الاسبوعين القادمين ، وسجعل من الاستيلاء على جميع الهند نصب همته ، وفى نفس اليوم ، صدر أمر برقيا إلى سيادة ظل السلطان بأن يستعد الجيش الرابع للتحرك فى خلال الاسبوعين القادمين بالمهمات المقتضاة نحو ميناء (بوشهر) .
وعلاوة على هذا ففى الرابع والعشرين من ربيع الأول ، أعدت رسوم العرض العسكرى فى المدينة العاصمة ، وكانت جديرة بالمشاهدة ، فقد قام الجيش الهمايونى الخاص وسائر الجيوش المتأهبة للركوب وكانوا يقربون من خمسين ألفا من المشاه والفرسان ورجال المدفعية بمناورات فى ميدان التدريب بلغت من المهارة والشجاعة حداً أن سببت مزيد الحيرة والتعجب من قبل الوطنيين ، والأجانب ، وكان قبلة العالم يتولى بنفسه النفيسى الهمايونى القيادة . الخلاصة أنها كانت معركة ، وكان نائب السلطنة وزير الحربية كأحد القواد يجرى هنا وهناك ، ولم يكن أحد يعرفه من كثرة ما علق بوجهه من التراب والغبار وقد اسود وجه السماء لدخان المدافع المنتشر فى الجو ، فلم تكن أشعة الشمس تصل الأرض .

(١) هراه : مدينة مشهورة وعظيمة من أمهات مدن خراسان ، انظر :
- الحموى : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٩٥٨

كانت انجلترا تحاول بسط نفوذها فى هراه منذ عهد محمد شاه (١٨٣٤ - ١٨٤٨) باعتبارها مفتاح الهند فى حين كانت روسيا تحاول دوما اختلاق الفتن والحروف فى هذه المنطقة ، انظر :
Lenczowiski : Russa and The West in Iran, p. 1.

الخلاصـة : ثم وصلت برقيـة فى ذلك اليوم من " لندن " لكننى لم أعرف ما جاء بها إلا أن الوزير المفوض الالمانى توسط ، ووصلت من نفس صـاحب الجـلالة الإمبـراطـور الالمانى برقـية إلى قـبلة العالم : أود مـن صاحب الحـضرة العليـا الهـمايونيـة باقـتـضـاء المـودة الكاملة التى بينـنا أن تنظروا ، وتبـذلوا العناية الملكية ، فى شـأن الصلح والصلاح العـام ، لأنه لا يخفى على الضميـر الطاهر الهمايونى أن اليوم كلمـا أرتفع صوت المدافع فى أحد الاماكن فى العالـم ، فان حربا عـامة ستشمل العالم كله لأن سياسة الدول مـرتبطة ببعضها البعض ، وحـينذاك سيظهر الهرج والمرج فى أمور العالم ، وستقلـب أسس التجارة رأسا على عقب فى البلدان الـتى هى سـبب تعـايش عـبـاد الله ./ إنـنى بحكم صداقـتى الشخـصية بذلك الملك الواعى لا أريـد أن تصبح دولة إيران العليا سبب نشوب هذه الحـرب ، وأتوقع أن تعفو عن فعل ذلك السفيـر عديم التدبير ، لهـذا تبين أن الحرب لن تنشب لكنه قـرر أن يعتـذر الوزير المفوض الانجـليزى لجناب الصـدر الأعظم ضمـن عرض وأن يرضى خـاطره على نحو علنى ويندم علـى ما قاله . ويقال إنـه تقرر أن يخرج الوزير المفوض المذكـور لمدة شهر آخر معذولا من طهران ، وأن دولة إيران لن تـقبل سفارته مطلقا وسيحل مكانه سـفير آخر ، والآن ينبغـى أن تشاهد وجه إبراهيم بيك فقد غُص حلقه من فرط السعادة ، وأخذ يقول لنفسه أفديك بنفسى أيهـا الملك . فلاشك ينبـغى أن يحدث مـثل هذا والصدر

الأعظم بدوره عظيم ذو غيرة وليحفظهما الله من البلاء ، وكان المسكين منتشيا من السعادة بهذه الاخبار إلى الحد الذى لايمكن وصفه .

وينهض (حاجى كريم) الأصفهانى بعد قراءة كل الخطاب ويقول : اسمح لى ثانية فإن لدى امراً ويجب أن أذهب ، فأذن لى . فيقول إبراهيم بيك : بمنتهى صفاء القلب اين تذهب يا حاجى كريم والوقت غداء ؟ فلنذهب لنأكل شيئاً فنحن جوعى .

حاجى كريم : لا ، لا انحسر ظلك ، ينبغى أن أذهب ، فلدى أعمال كثيرة ، وأن شاء الله وقت أخر ، فى رعاية الله ، فى حفظ الله ، ويذهب حاجى كريم . ويدفع إبراهيم بيك ثمن القهوة والنرجيلة ثم يخرج من المقهى ولكن من شدة سعادته لا يدرى أين يذهب ، وماذا يصنع ، ودون تفكير يطلب عربه ، ويصل السائق ويركب معه . ودون أن يحدد مكانا ، يقول للسائق : سر وإبراهيم ليس فى وعيه ، ويظل السائق سائرا إلى أن يخرج من المدينة ، وحينذاك يقول : يا حضرة البيك أين أذهب بكم فيجيب : تجول ، تجول ، وبعد تجوال طويل يقرب إلى الغروب ، لا يتناول غداءه ولا عشاءه ، ويصل منزله بنفس السرور البادى عليه ، واتجه مباشرة إلى المكتبة ليخرج التاريخ النادرى ، ويبدأ فى قراءة تفصيل سِفر (نادر) إلى الهند ،

وتغـمره نشـوة جـديدة بالإضافـة إلى ذلك السـرور ، وفى تلك الاثناء تصل أمـه ، وتقـول : يا بـنى أين تناولت غـداءك اليـوم جـعلتنا ننتظرك ؟ إننى لم آكل فى أى مكان شـيئـا قط ومع ذلك شبعان حتى لو لم أكل شيئا لمدة عشرة أيام آخر . فلن أرغب فى الطعـام . الخلاصة : إن إبراهـيم بيك قضى تلك الليلة منـشرح الصدر إلى الحد الذى يعـرفه هو نفسه . وفى الصـباح يخرج من المنزل ابكر من عادته كـل يوم ظانا أنه سيقـابل واحدا أو اثنين من رفاقه فيتحدث معهم عن تفصيلات خطاب الامس لحاجى كريم ، واليـوم أيضا يشـعر بالسـعـادة من مذاق المثل (وصف العـيش نصـف العيـش) ولا يصـادف أحـدا بالقضاء ، فيجد فى البحث عن حـاجى كريم ، فـيجـول من هذه المقـهى إلى تلك ومع هذا لايجده ، ومن ناحـية أخرى فـأن حاجى كـريم الاصفهـانى كان يعلم أيضـا أن خطته قـد اثمرت وأن إبراهيم سـيجـرى وراءه ، وينبغى أن لايخـرج من منزله فى ذلك اليوم حتى يحوز مـقصوده علـى نـحـو أسـرع ، ولايجـد إبـراهيم بيـك المسـكين فى ذلك اليوم مـع كل السعادة الـتى غمرت قلبـه بسبب تلـك الأحاديث والاخبار الطيبة السعيدة أحدا يشاركه سعادته ، فيعود مضطرا إلى المنـزل وقت الغـروب ويشغل نفـسه بالاطلاع ثانيـة بعض الوقت بعـد اداء الصــلاة وتنـاول طعـام العـشاء وفـى الصـباح يخـرج

من البـيت كعـادتـه المقـررة ، ويذهـب مـبـاشرة إلـى المقـهـى الكـبرى التى تقع فى مـيدان (محمد على باشا) [1] ووقت الظهر يظهـر حـاجى كريم من علـى بعد أذ كـان كـامنا له ، ويرى أن إبراهيم بيك جالس وحيـدا ، يتظاهر بأنه لا يراه ، ويريد أن يعبر من ذاك المكـان ، إلا أن إبراهـيم بيـك يراه فـيدعـوه فى عـجلة قائلا : يا حاجى . . . يا حاجى ، ويعـود حاجى كريم ، إذ كان يترقب تلك الفـرصة ، ويرى إبراهيم بيك فيلقى عليـه السلام ، وبعد رد التـحية يقـول : أين أنت أيها الحـاجى العزيز ؟ فيـقول حاجى : أن لدى أمراً فى هذا المكان .

إبراهيم بيك : بسم الله اجلس قليلا كى نرتشف بعضا من الشاى . . لا . . لا . . . ينبغى أن أذهب . مـا هـذه العجـلة يا والدى اجلس . اجلس . حاجى كريم : لا لا أستطيع . إبراهيم بيك : أيهـا الحـاج العزيـز أنى أعلم أنه ليس عندك دكـان وليس لديك وظيفة أو عمل فلم كل هذا التمنع ؟ فيقول حاجى كريم : حقا ما تقول ، أنا ليس لدى عـمل فائت ، لكن لدى عذرا فوق كل هذا ، فيأخذ إبراهيم بيـك بذيل (حاجى كريم) ويقول له : اجلس لنرى ما هو عذرك ، فيقول حاجى كريم : حقيقة أن على قرضا لأحد المـصريين العرب ، غير النجبـاء وأنا أيضا فى المقابل دائن لواحد ، ووعد أن يدفع أول الشهر القادم ، ولكن ينبغى أن

(١) هذه اشارة إلى مجىء الكاتب إلى مصر .

أدفع للعربى [1] اليوم ، وليس فى استطاعتى هذا ، ونحن الآن خارج المقهى ، وبما أن المال ليس جاهزا ، فأنى أخشى أن يرانى (ابن المحروق) [2] فى الحارة ، فيأخذ فى طلب دينه والشدة على ، وتصاب أنت أيضاً بالخجل وأنا بالفضيحة ولو كنت داخل المقهى وسط المجتمعين وازدحام المشترين ، فمن المحتمل أن لايرانا ولكن لايحتمل هنا أن يرانى حين يمر بهذه الناحية ، وإذ ذاك (هات الحمار وحمله المعركة) [3] .

ويقول إبراهيم بيك : كم هو دينك ؟ خمس عشرة ليرة لاغير . إبراهيم ، لاتهتم ، اجلس الله كريم ، كريم ، فيجلس حاجى كريم وينادى إبراهيم بيك عامل المقهى ، ويطلب منه المقلمة ويخرج من جيبه دفتر (شيكات) أى حوالات ، ويكتب فيها شيئا ويعطيها لحاجى قائلاً : هاك حوالة بخمس عشرة ليرة ، خذها من البنك فى أى وقت تحب الذهاب فيه . والأن اشرب قهوتك هادئا ، وحين تقضى طلبك هات مالى واعطنيه ، حاجى : أن كرمك لزائد وحقيقة فأنك خلصتنى من براثن هذا العربى الخسيس . والأن فإنى أكتب لك سندا عند الطلب وأعطيك اياه . وأن شاء الله لن يمر عشرون يوما حتى أسترد مالى وأوصله لك ، وأن لم اتمكن من ذلك ادفعه لك على ثلاثة أقساط كل قسط خمس ليرات .

(١) يسمى الكاتب كل شخص مصرى عربيا .

(٢) اوردها الكاتب (بدرسوخته) : انظر نفس الصفحة .

(٣) مثل يضرب حين الاستعداد للامر وتداركه قبل وقوعه .

إبراهيم بيك : إن الامر لايحتاج سندا وإنما كلامك حجة ، ويتحدثان فترة ، ويسأل إبراهيم بيك : هل خطاب أمس الأول معك ؟

حاجى : نعم . اعطنيه سأقُرا بنفسى شيئا منه فأى خطاب هو طيب المضمون ! أكاذيب هذه التى ينسجها أولاد المحاريق ومن لا حياء لهم حين يقولون أن السفراء والقناصل حتى أفراد الجالية الأجنبية فى إيران يفعلون كل ما يريدونه ، وليس فوق أيديهم يد . فلتأتوا يا أولاد المحاريق ولتقرأوا بأنفسكم بعيونكم العمياء ، هذه الورقة التى كتبها مسلم من طهران لمسلم آخر [١] ، وفى تلك الاثناء يخرج حاجى الورقة من جيبه ليعطيها له ، ويقول إبراهيم بيك : ألا يوجد مطلب آخر أيها العم الحاج ؟ كلا فلو كان هناك شيء فلماذا أخفيها عنك .

ويبدأ إبراهيم فى قراءة الورقة ، ويقرأ ويقول : فداوءك روحى ، امض الله سيفك ، ويقرأ الخطاب عدة مرات بشوق وسعادة غامرين ثم لايمل ، ويقول فلتدع يا حاجى كريم هذه الورقة عندى بضعة أيام ، فيقول حاجى : (مخافة أن يعرف لون مسلكه) ، طالما أنه لم يرد اسم امرأة أو طفل فى الخطاب فإنى لا أتضايق ، لكنك نفسك تعلمْ أنه مع هذا لايجوز ، ويأخذ الخطاب ويلقى السلام بعجلة ويذهب ويدفع إيجار المنزل

(١) هذه الورقة أو الخطاب كتبه حاجى كريم فى مصر ليقضى حاجته (القرض) من إبراهيم بيك بعد أن يسمع إبراهيم بيك ما ورد بالخطاب فيسر لسماع الأخبار الطيبة عن إيران .

ويستريح . ويمكن أدراك التعصب القومى لدى إبراهيم بيك من هذه الحكاية ، وهذا الشاب الغيور منذ عرف نفسه لم يكن ينطق اسم (الإسكندرية) بسبب غزو الإسكندر [1] لإيران وتخريب كثير من عمائر ذاك البلد ، وإحراقه مدينة (اصطخر) [2] العاصمة القديمة لإيران وقتل دارا بمكائدة .

ولم يذكر اسم الإسكندرية على لسانه ، ولو اضطر أحيانا لذكر اسم تلك المدينة كان ينطقها " ميناء بر مصر " ، وهذا قليل من كثير لتعصب وحمية شديدين ، ومختصر من سيرة إبراهيم بيك ، وإن كان ليس من المستبعد أن يحمل بعض قصار النظر حالاته هذه على الحميه الجاهلية ، والتعصب الجائر . والأمر ليس كذلك ، فهذا المواطن العزيز على الرغم من كونه شابا إلا أنه شاب مجرب بالغ بصحبة الشيوخ . كامل عاقل ذكى واع بوضع زمانه ويعد من مثقفى عصره ، وغاية الأمر هو أنه كان بغير اختيار حين يسمع اسم إيران ، فقد سيطر عشق الوطن على سائر وجود هذه الشاب ، ولم يترك له قدرة على أن يسمع من أحد اسم معشوقه بسوء ، وهذا يعد خصلة من خصاله الحميدة .

(١) الإسكندر المقدونى أو الرومى أو الأكبر ، ولد عام ٣٥٦ ق . م ، وجلس على العرش عام ٣٣٦ ق . م ، وتوفى عام ٣٢٣ ق . م ، وقد فتح كثيرا من البلاد ومنها إيران وعرف أيضا بالإسكندر ذى القرنين .

- دهخدا : لغت نامه ، جـ ٥ ، ص ٢٣٦٧ .

(٢) اصطخر : من أكبر الأقاليم الفارسية وأهمها ، ومركزه مدينة : اصطخر ، وهو يضم بعض المدن والقرى مثل : بيضاء ومائين ويزد .

- دهخدا : لغت نامه ، جـ ٦ ، شماره حرف (أ) ، ص ٢٧٥٥ .

الخلاصـة : اننى كنت قد ذهبت من إسلامـبول إلى الخارج وعدت بعد شهرين وحينما وصلت إلى المنزل . قال ابنى : جاءنا يا أبى ضيـفان من مـصر ، مكثا ثلاثة أيـام ، وذهبا إلى ايران ، فسألت ما اسمهما ؟ قال إنهما كتبا لك ورقة فوق مكتب المكتبة ، فـاقرأهـا ، فأخـذت الورقـة من عليـها ، وقـرأتهـا فكان هذا مضمونها :

فـداؤك نفسـى ، أتينا إسلامبول عازمين زيارة المشهد المقدس (بعد أن خرجنا) فى مصر ، ومعى العم يوسف ، ونزلنا ببيتك الذى هو فى حقـيقة الأمر مـنزلى ، وآسف لأنى لم أحظ بشرف لقائـك . وقـد عانينا الكثـيـر خـلال الأيـام الثلاثـة ، وتوجهنا نحو خـراسان [1] فـى اليـوم الرابـع عـن طريـق " باطـوم " ولـو وصلنا بالسـلامـة سوف نكرر الزيارة ، لـو احللتم حقـوق الصداقة والمودة ، وقد رأيت بين كتبك مجلدا من "كتاب أحمد" فحـملته مـعى حتى أشـغل نفسى بالاطلاع عليـه فى طريقى [2] وعلى الرغم من أن كـاتب الكتـاب يبـدو لى النظر رجـلا عـالما

(١) خـراسان : أول حـدودها مما يلى العراق ازادوار (قـصبه جـوين وبيهق) ، وآخـر حدودها مما يلى الهند طخارسـتـان وغزنه وسجستان وكرمـان وتلك اطراف حدودها ، وتشتمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراه ، ومرو .

- عبد الله ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٤٠٩ ليبزج ١٩٦٩ .

(٢) كتاب أحـمد : أحد كتب طالبـون التى يعرض فيهـا المؤلف إلى التقدم والمخـترعات الحديثة من خلال بطل الكتاب الابن " أحمد " .

وكاملا وقـد حرر فيه موضوعـات رئيسية وكبـيرة وعديدة ، لكنه بصدد وضع إيران فـقد كتب بعض الأشياء ايمـاءً واشارة ، ويبدو أنه لا يعلم شيئا عن إيران مطلقا أو أنه أخطأ أو أنه ليس منا [1].

فالتمس له الدعاء ولك السلام من العم يوسف أيضا

امضاء

إبراهيم

(١) لقد عدل المراغى عن قوله هذا أى طعنه فى كتاب طالبون وذلك فى المجلد الثالث من السياحة .

ومعلوم أن الكاتب إبراهيم بيك صديقى وقد تحسرت كثيرا فليتنى كنت موجودا حين دخولهما (إسلامبول) لكنت أخرجت من رأسه فكره السياحة فى كل إيران ونصحته أن يكتفى على الأقل بزيارة " المشهد القدسى " ويذهب عن طريق " باطوم) وعشق أباد ثم يعود بعد الزيارة من نفس الطريق ، لأننى أعلم أنه حينما يتجول داخل إيران سيرى الوضع المؤسف للوطن فيتعب ولن يكون سعيدا ، علاوة على أننى خشيت أن يطيل لسانه ويسب الحكام لرؤية تلك الأوضاع غير المستقيمة فيبتلى بالشر لأننى أعلم حاله جيدا ، وكان يحكى هو بنفسه : أنه ذات يوم رأيت فى مصر فى حديقة بلديتها ثلاثة أو أربعة من الإيرانيين يتجولون ورأيت بينهم رجلا فى الستين من عمره ذا لحية ملونة ويرتدى ملابس قديمة ممزقة وحذاء باليا وجوارب نسائية حمراء وبيضاء وكان كعبه أيضا ممزقا قذرا ومتسخا جدا ، ويخرج من الحذاء والجوارب ويسير فى أوج الكبرياء وكان لسان حذائه يقفز أمامه فى كل بضع خطوات مسافة ثلاثة أقدام ، وكان يرتدى فوق رأسه قلنسوة من قماش الجوخ القديم وقد تغير لونها (القلنسوة) من السواد إلى الخضار ، ورأيت أنه قد علق رمز الأسد والشمس على جبهته ، والدرجة الثالثة للاسد والشمس ومعها ثلاث أو أربع ميداليات فضية بياقة قيادته الكثيرة الأمزاق واتضح أن هؤلاء حجاج إيرانيون أتوا مصر للسياحة ، وتقدمت والقيت السلام وقلت زيارة مقبولة يبدو لى أنكم عائدون

من زيـارة بيت اللـه ، قـال نعـم . وليجعـل اللـه لك نصـيبا فى الزيارة أيضا وبعد ذلك سأل أين تعلمت " الفارسية " ؟ قلت أننى إيرانى فسأل من أين ؟

قلت من أذربيـجـان وسألت من أين أنتـم ؟ قال من مـدينة (خمـسـة) وسألـت عـن اسـمه فقـال " الحـاج الياور " قلـت هل حجـجت حديثا " فـالياورية " تعنى منصـبا فمـا هو اسمك الأصلى قال رسـتم الياور ، قلت حسن جدا ، فـهو اسم إيرانى عظيـم وأنا أتوسـم فيك هـذا ، قـال مـاذا ؟ قلت هنا مصـر وهى ملتقى كل الشعوب ، وفى كل خطوة يرى كثير من الضباط والقواد (والياورات) ، وأنتم تلاحظون كيف يرتدون ملابس نظيفة وجـمـيـلة بنظام ، وينبـغـى أن ترتدوا اللبـاس اللائـق بالمنصب العسكـرى لكم والذى هو سبب افـتخارنا ومـحط حفظ احـترام نيشان القلنسوة والحفاظ على المكانة السامية لدولتنا ووطننا .

وليس بهـذا الشكل المهـلهل الذى نخـجل منه ، قـال نحن زائرون وهذا لبـاس ولابنا المحلى ، قلت كان ينبـغى عليك ترك هذا اللباس هناك وكـذلك شارة القلنسوة والنيشـان والميداليـات ، لا تأتى بها هنـا والآن فاخلع مالبـست واستعـمله فى ولايتك ، فقال أنت رجل فضولى فـما شأنك لعلك حاكم الولاية ؟ قلـت لا ، ليس هناك تعصب قومى يمنعنى من أن أخـبرك باستنكار هذا العمل المـشين ، ورأيت أن حالة الحاج الـياور قد تغـيرت دفـعة

واحدة ، قال أنك تُهيننى (يا بن المحروق) ، فلو كنت فى إيران لكنت قد أمرت بضربك بالعصا (يقول هذه الكلمات وهو يشتاط غـيظـا) وعنــد سـماع هذه التـجـاوزات ارتفع دمى فى عـروق رأسى ، فلطمتـه دون خوف أو تردد مرات مـتعاقبـة . وأمسكت بمجامع ثـيابه وأطرت قلنسـوته على الأرض ، وفـى تلك الاثنـاء تجـمـع عــدد من أتباعـه ولــم يتـركـونا ، كمـا تقدم رفـيق من رفقائه وقـال أتعلـم يا بن بلدى مع من تتشاجر ؟ أنه حاجى ياور الذى له فى ولايتـه سبع قطـع من الأرض الجيـدة ، له البســاتين والطواحـين وهو فـى بلده قـائد فـرقـه . وهو فـلان وفـلان . الخلاصة أننى ارتـعشت ، ارتعاش الحمُى لشـدة الغيظ ، وعدت إلى منزلى ، ألعن الشيطان [١] .

والآن ينبـغـى أن نتصور كــم مـن البلايـا سـتلحــق بمثــل هـذا الإنسـان فى إيــران مـن جــراء لسانـه وعلى كل حال فأنى لا استصوب سياحته لإيران بسبب هذه الملاحظات وكنت فى قلق تام عليه ، ولـم يمر ثمـانية أشهر على هذه المقـدمة حتى ذات يوم اخبر خادم المنزل أنه قد عاد الضـيفان اللذان قد سبق أن ذهبا إلى إيران ، إبراهيم بيك والعم يوسف - وأسرعت إلى البيت ودخلنا الحجرة بعد المصافحة والتعانق والترحيب ، قلت كنت قلقا عليك يا أخى ، ولو كنت اعرف مكان اقـامتك لاستفـسرت عليكم من

(١) هذا مثال يضربه الكاتب ليبين سرعة غضب الشاب إبراهيم بيك .

خلال (المبرقة) ، والحمد لله انكم عدتم بالسلامة ولعلكم لم تتعرضوا لمشاق الباخرة والسفر إن شاء الله ، قال : لا ، أننا واجهنا بعض العناء كتلاطم الامواج فى (طربزون) سرعان ما انتهى . . . فى أى باخرة جئتم ؟ فى الباخرة الروسية . حسن وكيف احوالكم ؟ هى على ما يرام بفضل دعائكم ، والآن كيف قطعت طريق (بادكوبه) هذا السفر الطويل بالخيل والبغال ؟ وعلى أى نحو كان ؟ ولماذا لم تخبرنى قبل سفرك ؟ قال فى الحقيقة أنه خطر لى قبل التحرك بيومين أو ثلاثة الرغبة فى هذا السفر وبعد ذلك عزمنا على الرحيل ، والسبب فى ذلك هو اغا أحمد شيرازى ، ولابد أنك تعرفه فاثناء تشريفكم لمصر كان يأتى أحيانا إلى بيتكم [1] .

قلت نعم ، نعم تذكرت ، قال أن ذلك الرجل يتقاضى فى مقابل خدماته الصادقة لمدة أربعين عاما ، خدم اثناءها أباك يتقاضى مائة وعشرين تومانا سنويا من طهران ، ولكنه انقطع لمدة عشر سنوات ، وقد ذهب إلى طهران للحصول على ذلك واتضح له أن حقه كان يجىء إلى طهران سنة تلو أخرى ، إلا أن سفارة اسلامبول [2] تعتبر نفسها وصية على الأموات وقيِّمة على الأحياء من الإيرانيين ، فتستولى فى كل يوم فى إسلامبول عى مستحقاته

(١) يذكر الكاتب فى بعض الأحيان بعض الاسماء لشخصيات غير معروفة إلا لديه .

(٢) السفارة الإيرانية فى اسلامبول .

كتـركات سائر الإيرانيـين التعسـاء فى إسلامبـول وضواحيـها ، فأكلت كل هذه الأموال بلا أدنى تفكير فى المسألة والمؤاخذة [١] .

المهم أن ذلك المسكـين قد عـاد ودخل (مـصـر) بعـد طى وتجشم كل ذاك الطريق الطويل ، وتعـرفون أنتم حالى أنه بمحض سماع خبر مجـىء هذا الرجل ، ذهبت لرؤيته وسألته عن طهران وأوضاع إيـران قائلا : ما هـى الأخبار الـطيبة ؟ قـال لا شىء ، قلت إننى أسـأل عـن وضـع السلطنـة وأحـوال وزراء المملكـة قـال لاشـىء ، وسـألت عن انتظـام أحـوال الجـيـش والادارة البـلاد قال : قـلـت لا يوجـد أى شـىء . قلـت : عـجـيب حـالك ، إلا يوجـد فى هـذه المملكة - إيران - وزير حـربيـة وزير داخلية وخارجـية ومعارف ووزارة مـالية وضرائب ووزارات للزراعة والتجارة ؟

قال مجرد أسماء ؛ إذ يوجد أيضا المنشىء والكاتب بالفعل ، حتى أنه هناك سفينتان باليتـان ترابضان فوق سطح الماء وللسفينتين وزير بحرية ووزارة ، ومن هذا المثال يمكن أن تستنتج كيف يكون حال سائر الوزارات الأخرى [٢] .

(١) يتضح من هذه الفقرة أحوال الإيرانيين الفعلة الذين هاجروا وتركوا إيران بسبب الظلم والعسف خصوصا فى عهد ناصر الدين شاه .

(٢) وصف تهكمى ساخر يبين الاوضاع السيئة فى إيران بشكل موجز .

وحقيقة فأنه قد تعس حالى من كلمات هذا الرجل العابثة المضطربة ، فعدت للبيت وكل ليلة كنت أفكر ماذا يجب أن أفعل ؟ فأن ما يقولونه فى صدد البلاد ينبغى أن لا يكون له أساس من الصحة ، فى حين إن أبى المرحوم قد سمح لى بالسياحة وليس ببعيد أنك ترى البلاد الغربية مرات ولا ترى وطنك مرة واحدة ومن الأفضل أن أسافر لزيارة "المشهد المقدس" فاشاهد فى هذا السفر سائر مدن الوطن وعلى الأخص العاصمة ، ولو وجدت مكانا مناسبا للإقامة ، فأنى سأعود إلى مصر لابيع ممتلكاتى وأرحل هناك مع الأهل والعيال ، فاقضى باقى العمر فى أرض الوطن الطاهر ممارسا عملا بالتجارة أو الزراعة ، ثم قلت ليوسف عمى فى نفس اليوم : اعد حاجيات السفر ومتطلباته ، فإننا سنتوجه بعد غد لزيارة المشهد المقدس وللسياحة فى إيران ، وكان هذا منذ ثمانية أشهر ، فأتينا هنا وذهبنا ثم عدنا ، ونحن بصدد العودة إلى (مصر) .

قلت حسن ماذا رأيت ؟ وكيف حال المملكة والحكومة ؟ تنهد وقال : لا أنت تسأل ولا أنا ارد ، ليتنى لم أذهب أبداً هناك ، ولم أر كل تلك المساوىء لكانت ذكرى وطننا بنفس الجمال ، قلت : إننى نفسى كنت أعلم أنك لن تقرعينا فى هذا السفر ، والآن تحدث عما رأيته فليس هناك ضرر ، قال كل ما رأيته وجرى لى قد كتبته كله ، وغدا أعرضه عليك فى " كتاب (رحلتى) وأقرأ بنفسك الكتاب فليس لى الحكم

عليه ، وعلى الرغم من أننى أكتب كل المساوىء وغير راض عنها . . ولكن لما أن والدى المرحوم كان قد اوصى : (اكتب كل ما تشاهده فى أى بلد تصله فقد يفيد يوما ، فلم اسلك خلاف وصية أبى . وكان قد مر جزء من الليل فتعشيت ثم قلت بعد ذلك ، إنك وصلت من السفر ، فاسترح مبكرا قدراً من الوقت حتى تستريح من تعب الطريق اراحك الله ، قلت هذا وذهبت ونمنا .

وفى الصباح نهضنا وأدينا الصلاة ، وارتشفنا الشاى ، قال إبراهيم بيك : انهض يا عم يوسف وارتد ملابسك واحضر ملابسك الداخلية حتى تستبدل ما عليك ونذهب إلى الحمام .

وتعلم أننى لم أذهب إلى الحمام منذ سبعة أشهر ، وفتح يوسف عمى الحقيبة حتى يأخذ الملابس وقال : اولا اعطنى أوراق الرحلة ، ثم أخذ كتابا وأعطانيه وقال هذا كتاب رحلتى ، كتبت فيه كل ما رأيته بدون نقص أو زيادة ، فاقرأ حينما تسنح الفرصة لك بذلك عند عودتنا من الحمام ، وأخذته بدورى ، ولما أننى اعلم أن القراء ينتظرون فصول الرحلة ، لهذا فأننى أكتب صورتها فيما يلى :

صورة كتاب الرحلة :

فى السابع عشر من الشهر الفلانى ذهبنا إلى " المشهد المقدس " مع العم يوسف معلمى والذى هو فى الحقيقة فى محل

عمى وربما والدى ، وبعد ساعتين من مغادرتنا لمصر وفى أول الامر نزلنا بجانب الإسكندرية عند الشمندورة وفى نفس اليوم دخلنا ذلك المكان قبل الغروب بساعتين ، وقضينا تلك الليلة فى المدينة المذكورة ، وفى الغد توجهنا فى الساعة الرابعة بعد الظهر نحو اسلامبول ، وكنا قد حصلنا على تذكرة من الدرجة الأولى فى باخرة البرنس عباس الخديوى .

وكان الجو طيبا ، فقضينا اليوم كله فى المشاهدة على متن الباخرة ، ولم يكن معى أى رفيق إذ كنت أفكر مع نفسى ، وفى خلال ليلتين دخلنا إسلامبول ولم نتوقف قط اثناء الطريق ألا عند القلعة السلطانية مدخل بوغاز إسلامبول ، والقلعة السلطانية هذه ذات استحكامات عظيمة جدا ، وقد شيدت وفق الطرز الفنية ويقال أن ألف قطعة مدفعية قد أعدت فى مناطق متعددة منها ، ولا يمكن عبور أى باخرة من هناك بدون إذن حرس العبور ، ومن شاهد بنفسه هذا المكان سوف يصدق قولى ، وقد انطلقت باخرتنا بعد الحصول على الإذن ودخلنا إسلامبول ، ولما كانت الباخرة تتوقف بعيدا عن الشاطىء ، لهذا فقد كان (مأمورو الجمرك) يتجمعون بالقوارب التى لا حصر لها حول السفن الداخلة لتوها ، وأدخلونا بامتعتنا إلى الجمرك ، وبعد المعاينة نزلنا مباشرة ببيت فلان أى منزل مؤلف هذه الرحلة [1] ومع أن صاحب البيت

(١) أقام زين العابدين المراغى فى ورسيا ثم فى اسلامبول بتركيا : أنظر - سياحتنامه : إبراهيم بيك جـ ٣ ، ص ١١ ، ١٢

والذى كان صديقى العزيز لم يكن فى إسلامبول وقد قابلنا من ينوب عنه بالمنزل بمنتهى الاحترام بحيث أنهم لم يتركوا دقيقة من مراسم الضيافة ، وفى الحقيقة فقد احترمونا إلى الحد الذى أخجلونا به ، ومع أننى أعتبر المنزل مثل منزلى إلا أن غياب صاحبه قد زاد من خجلنا مع أننى أعتبر المنزل مثل منزلى ، وفى اليوم الرابع ختمنا تذاكرنا من سفارتى إيران وروسيا ، وتوجهنا نحو " باطوم " [1] فى باخرة النمسا فى الدرجة الأولى ، ودخلناها فى اليوم الخامس من السفر .

وقد جاء موظفو الجمرك الروس وعاينوا الأمتعه وختمنا التذاكر أيضا فى الباخرة ورأيت على الشاطىء مجموعة من الإيرانيين كانوا فى منتهى الفاقة والفقر ، فملابسهم كلها بالية وممزقة ووجوههم شاحبة وضعيفة فتحيرت وتأسفت لحالهم ، وفى تلك الأثناء أحاطت بنا جماعة منهم قائلين : لدينا مقهى جيدة أيها السادة ، ولدينا منزل أيضا ، وأرادوا أن يحملوا امتعتنا فاشار علينا واحد منهم بأن لا نذهب معهم ، فانتحى بالعم يوسف جانبا وهمس فى أذنه قائلا لا تذهب إلى تلك المقهى ، فهؤلاء سفلة ولصوص ومحتالون ، والأفضل من هذا أن تذهبوا وتنزلوا فى فندق " ايمبريال " القريب ، وعلى الرغم من أن الليلة

(١) باطوم : مدينة وميناء مشهوران فى روسيا ويقعان على الساحل الشرقى للبحر الأسود ، انظر :

– دهخدا : لغت نامه ، شماره حرف (ب) ، ص ٤٤٨

فيه تتكلف أكثر من منين [1] ، إلا أنكم ستستريحون فيه من كل تعب .

قال يوسف عمى للحمال سنذهب إلى " فندق إيمبريال " وهناك استأجرنا حجرة واحدة بمنين عن كل ليلة ، ونمنا الليل ، وخرجنا وقت السحر ، وأقبل مواطن فسألناه متى تتوجه السيارة إلى تفليس ؟ [2] .

قال يوجد سيارة الآن ، وأخرى بالليل ، ورأينا أننا لن نلحق هذه السيارة ، وقلنا من الأفضل أن نتجول فى المدينة حتى المساء ، وسألنا عن اسم ذلك المواطن وبلده قال اسمى على وأنا لنكرانى .

وسأل هو بدوره من أين أتيتم ؟ قلت من مصر ، قال إننى قضيت فترة فى مصر ، واستفسر عن أحوال بعض الافراد ، قلت إننى أتعجب فأرى فى كل ناحية من البلد إيرانيا ، ولكن الجميع فقراء ذابلون وعاطلون ، وواضح أنهم جميعا معدمون ، قال المواطن ، نعم الإيرانيون كثيرون هنا ، ولما أن اليوم الأحد والأعمال معطلة ، فقد تجمعوا بهذا الشكل هنا وغدا سيذهب كثير منهم إلى أعمالهم ، قلت ماذا يعملون ، قال فعلة

(١) المن : عمله متداولة فى روسيا .

(٢) تفليس : مدينة قوقازية روسية عاصمة الكرجستان ومركز حكومة جمهوريات ما وراء القوقاز ، تقع على ساحل نهر (ارس) ، وقد فتحت فى عهد عثمان بن عفان (ر) .

- دهخدا : لغت نامه ، جـ ١٣ ، شماره حرف (ت) ، ص ٨٢٣ .

وحـمالون ، إلا أن أربعين أو خـمـسين منهم يبـيعـون الفواكـه وبعضـهم طباخـون وبائعو مـلابس ومتـسكعون وفى حـاجة إلى القوت الضـرورى ، قلت كم عددهم ؟ قـال : لابد أنهم أربعـة أو خمسة آلاف ، قلت سبحـان الله ايوجد فى هذه المدينة خمسة آلاف من الإيرانيين بهـذا الوضع المهين والحـالة البائسـة قال أيهـا السيـد العزيز : ماذا تقول كـل المدن والقرى وحتى قرى القـوقاز مكتظة بهذه الأعـداد من الإيرانيين وأن النسبة إذا ماقـورنت بسائر المناطق فهى قليلة جدا .

قلت لماذا تسمح دولة إيران لهؤلاء بالهـجرة عن البلاد ؟ قال رحم الله أباك ، أتسـمع أخبارا عـن يوم القيامـة ؟ (من يده فى الماء ليس كـمن يده فى النار) أولا : ليس فى إيران من أمن فـلا عمل ولا خـبز فمـاذا يصنع المساكين ؟ فبـعض من تعدى الحكام وشئ من ظلم أمير الأمراء ورئيس الشرطة والعمدة ، هؤلاء اللئام حينما " يشتمون " إن أحدا من الرعيه لديه خمسة شاهيات فأنهم يهجمون عليه بالف سبب يتصيدونه قائلين لواحد إن أخاك الجندى قد هربّ من " الجـيش " وقائلين لآخـر أن بن عمك قـد شرب الخمر منذ عدة أيام . أو أحد أقاربك قد لعب القمار ، حتى أنهم يلقـون القـبـض على الجار فى مـقابـل ذنـب لـم يفـعلـه جـاره فيحبـسونه ويجرمونه ، وإذا لم يفعلوا بأحد هـؤلاء الابرياء شيئا من هذا فإنهم يتـهمونـه بالف تهمه وافـتراء ، فهـذا الذى جعل الناس تهجر الوطن ، فملأوا بلاد الروس والروم والهند وفى تلك

المناطق أيضا ليست جثثهم وجيفهم المحقرة فى راحة من السفراء والقناصل وأتباعهم [1] .

وترى هؤلاء المساكين الحفاة فى هذه المنطقة يعملون كل يوم من الصباح حتى المساء تحت وهج حرارة الشمس الملتهبة كفعلة ، فى حين أن الكفرة قد يشفقون عليهم [2] ، وهؤلاء السفراء والقناصل والموظفون يضربونهم بالسياط بلا رحمة وبدون أى وجه حق ، ويأخذون من كل واحد أربعة من المنات كضريبة مالية كل عام وقد سمعت أن فى إسلامبول وسائر ممالك الروم تجاوزات أقسى وأنكى كثيرا من هذه ، وينبغى إعطاء السفارة كل ما يلزم من نفقة لها ، أى أن السفارة ليس لها أعمال غير هذا وإذا توفى واحد من هؤلاء الفعلة وكان يمتلك شيئا فأول من يسير فى جنازته موظفوا السفارة الذين يعتبرون أنفسهم الوارث الشرعى والعرفى وإذا لم يكن لدى أحد الفعلة شئ ،فإن جنازته تبقى ثلاثة أيام ولا يسير فيها أحد من موظفى السفارة ، وحتى يدفن الميت ينبغى أن يجمع له مال ، واليوم فإن هناك أربعين أو خمسين شخصا سجناء فى " باطوم " والقنصل لايهمه شئ فى هذا الصدد ، ولا يصغى الروس لأحاديثه (القنصل) ، فيقال مثلا إن فلانا تقاضى رشوة وتريد أن تطلق سراحه ، ولأنهم يعلمون جيدا

(١) هذه الاحداث تبين بوضوح وجلاء كم يعانى السواد الاعظم من الشعب الإيرانى .

(٢) المقصود حتى لو أن هؤلاء الإيرانيين العاملين على غير دين حكامهم فالمفروض أن يرفقوا بهم نظرا لسوء أحوالهم .

سلوكهم مع الرعية فأن مرور هؤلاء وأكثر منهم ، متعلق بوجود هذه الشرذمه المضطربة والمغرتبة من الرعيه فهؤلاء الذين هم مكلفون بالمحافظة على حقوق الرعية ، هم أنفسهم الذين يقومون بسلب الرعيه ونهبها ، فبهذا الشكل ماذا يمكن أن نتوقع من الأجنبى ؟ قلت إن دولة إيران لا تعلم شيئا عن جرائم هؤلاء وينبغى أن تقدم مذكرة وأن يشكى فيها الظلمة . قال بالله إنها تعلم أفضل منى ، طالما أن الدولة لا تعطى شيئا للموظفين الأجانب وربما تأخذ مبالغ كبير منهم ، فبلاشك لايمكن مساءلة (أحد) لماذا فعلتم هذا وذاك ؟

ومن هؤلاء القناصل الذين تراهم فى ممالك الروم والروس "أصحاب اليد الطولى" تجد أنهم أخذوا من كل شخص الفين من المئات وأرسلوها إلى تلك المناطق ، وهؤلاء أيضاً ينبغى عليهم فى غضون عام أن يعوضوا مادفعوه من الرعايا المساكين جبرا وقسرا .

الخلاصة : إن هذا هو أول ألم اشعر به فى " باطوم " ويضيق منه صدرى ، وتنهدت الصعداء وعلى الفور خفق قلبى ، وكلما تجولنا لا أشعر بشئ وذلك من دهشتى وذهولى إذ إننى كنت مشتت الفكر حتى أقبل الليل وحانت لحظة تحرك السيارة ، وحصلنا على تذكرتين من الدرجة الأولى حتى تفليس ، ثمن التذكرة أربعة عشر منا . . وأنعمنا على "على" ببعض المنات ، وودعناه وسرنا فى طريقنا ، وقد طوينا نصف الطريق فى نفس

الليلـة ، ورأيت وقت السحـر أثناء الطريق ، جبالا شاهـقة جدا في عدة مناطق ، وقد أخذت السيارة تسير تحت نفق لتقطع مسافه طويلة ، وأخذت أفكر مع نفسى قـائلا : أن ذلك الإنسان نسخة كبرى من تلك الجبـال الشاهقة التى شقها مسافـة عشرة فراسخ ، وتحيرت من تلك السيارة التى تسـير حول المدينة ، فى خلال عدة دقائق وهى كقطعة حـديدية معلقة فى وسط ذلك الجبل ، وهمت مع نفــسى ، وعندما تـخلصت من دهشتى قـلت لنفسى " همـة الرجال تقلع الجبال " .

الخلاصة : كان هناك رجل ارمنى فى العربة ، فقلت له إن علم : الهندسة يصنع العجائب فشق هذه الجبال الصخرية وإزالتها وتسيير هـذه السيارة فـن بارع ويحـتاج إلى نفقات بلا حدود ، قـال : نعم فن بارع أنفق عليـه كثـيـرا من الأموال ولكن العـام الماضى أنفقت الدولة فى صدد السكة الحديد سـتة عشر مليونا من المنات لإنشـائهـا ، وعـلاوة على ذلك فـهذه المـناطق التى تراها أكثرها وديان لم تزرع وتخلو من السكان ويسكـنها " الشياطين " واليوم بفضل بترول " بادكوبه " [1] فإن العديد من الملايين تصب من الممالك الأجنبيـه فى هذه المملكة وهذا الذى تراه فى كل شبر من القرى والقـصبات من الـعمران ، ترى فى أرض إيران أمـثال

(١) بادكوبـه : أو باكــوبه أو باكــو ، اسم ميـناء ويقـع عـلـى سـاحل بحر (شور) بمدينـة (شماخى) .

- دهخدا : لغت نامه جـ ٨ ، شماره حروف (ب) ، ص ٢٤٧ .

هذه المعادن والينابيع وفيها الخير الوفير ، ولكن نظرا لغفلة الدولة وتكاسل الشعب فإنهم لم يستخرجوا تلك الكنوز الدفينة التى لاتعد ولا تحصى من باطن ارضكم ، ولهذا فإن مواطنيكم يتدفقون على البلاد الأجنبية فى غاية الذلة والهوان ، ويمارسون الأعمال المتواضعة مثل العمل فى الفاعل أو كحمالين ، ويصل الأمر بكثير منهم " المواطنين الإيرانيين " إلى التسول ، والحقيقة أن كلمات ذلك الشامت ابن المحروق [١] كانت مثل سهم أصاب قلبى ، فماذا أصنع ، فلا يمكن المجادلة ولا مناص من أننى نهضت وذهبت مع آخرين فى ركن العربه ، ونمت من شدة الضيق والسأم ، وعندما رأيت أن يوسف عمى يوقظنى من نومى قائلا : انهض لتشاهد تفليس ، نهضت ولم يمر وقت طويل حتى توقفت العربة عن الحركة ، واتضح أننا وصلنا ، وخرجنا من العربة .

وقد حزم الحمال أمتعتنا فى العربه ، وقلت سنذهب إلى فندق " لندن " كما أوصانا " على لنكرانى " فى باطور قائلا : انزلوا فى ذلك المكان ، وبعد الوصول إلى الفندق المذكور استأجرنا الغرفة الليلة بأربعة منات ، وبعد أن نظفنا وجوهنا ورؤوسنا - من غبار الطريق - قلت ليوسف عمى لنخرج فربما يظهر طاه إيرانى فنأكل شيئا ، وذهبنا لمحل مشهور اسمه

(١) هذا الرجل الذى يصفة المراغى بأنه شامت وسفيه سيرى إبراهيم بيك بعد ذلك أنه ليس شامتا ولاسفيها وأنه صادق فى قوله .

" شيطانه بازار " ورأيت هناك أن المطبخ يضم أكثر من بـاب ، وكله قذاره والأوانى النحاسية كلهـا سوداء ورائحة المحل كريهة ، وفى نهـاية الأمر وصلـنا إلى محل كـبـابجى ولا مناص من أننا دخلنا وطلبنا كبابا واكلنا بالأيدى - دون اسـتعمال الملاعق - ولم يكن أيضـا هناك أثر لـلنظافـة ، وبعـد تناول الطـعـام شـغلـنا بالتجـول فى المدينة ، ووجدت أن وضع الإيرانيين هـنا أكثر بؤسا وشقـاء مما هـو موجـود فـى باطـوم ، إذ أن الجمـيع يعملون بالأزقة فى الأعمال المتواضعة وفى الأعمال الخراسانيه ، وقد دمى قلـبى من رؤية تلك الأحوال السيئة والأعمال المضنية والتى تثبط همم أولئك والتى لا مناص من أن يتحملوها صاغرين .

الخـلاصـة : أن كل الأعمـال المتواضعـة والمضنية فى هذه البلدان منوطة بهؤلاء الإيرانيين البؤساء وقـد سألنا مواطنا كان فى طريقنـا إلا يوجد تاجـر إيـرانى هنا ؟ قـال لماذا ؟ فى الخـيـام "خلتوف " و " بارون بكوف " وغيرهما هناك الكثير [١] .

وقد توجـهنا إلى تلك الخيـام ، وعندما دخلنا أحدى الخـيام نظرت متفحصا فى كل ناحية فرأيت جماعة كانت قد جلست فى دكاكين وكل مـنهم حوله العديـد من الأقمشـة الحريرية وقـماش "همدان" و " بروجرد" وكذلك قـماش " يزد " وبعض الخيوط وفى تلك الأثناء رأيت واحدا وقد نادى علىَّ قائلا : إبراهيم بيك

(١) واضح حتـى أن الاسماء روسـيه وهذا يحـمل كثـيرا من المعـانى . بمعنى أنه لامكان للتجار الإيرانيين فى هذا المكان .

إبراهيم بيك ،فتوقفت وتقدم والقى السلام فرددت عليه التحية ، وقال يقينا إنك لا تعرفنى قلت إننى أعرفك ولن لا أتذكر أين عرفتك ، قال فى مصر أننى منذ عدة سنين جئنا مصر من زيارة مكة المشرفة ، وقد تعرفت عليك فى متجر حاجى ميرزا محمد رفيع ، وقد استضافونا ليلة فى منزلهم ، قلت ليس ببعيد ، سار بنا إلى دكانه ، وفى أثناء الحديث قلت يبدو أن هناك كثيرا من الإيرانيين فما شاء الله إنى أرى فى كل ناحية مواطنا إيرانيا ، ولكن يؤسفنى أن الكثير منهم مطحونون وبؤساء ، قال نعم الكثير ، قلت كما عددهم ، قال يقال إنهم حوالى ستين ألفا فى القوقاز ، قلت ما هو سبب غربتهم عن الوطن وهجرهم له ؟

والتى تجعلهم بهذه الأعداد يتوجهون نحو البلاد الأجنبية ويتحملون الذل والهوان ، قال من ضلال مملكة إيران وبطالة الناس وظلم الأقوياء للضعفاء وإهمال الرعيه إنهم (الحكام) يضطرونهم إلى الهجرة إلى البلاد الأجنبية فى مقابل تومان واحد (هو ثمن التذكرة) ولا يسال أحد إلى أين تذهب (أيها المهاجر) ؟ وماذا تصنع فى هذه القصبات والقرى البعيدة والقريبة من الحدود ؟ إنها قبور وصخور القبور قلما يشاهد فيها اسم رجل ، وكل الأسماء اسماء نساء وكأن المدينة كلها نساء ، قلت ألا يوجد عمل آخر فهؤلاء كلهم فعلة ، فأجاب ليت الجميع كانوا فعلة ، فهم غالبا ما يمارسون السرقة والتسول ومن هذا القبيل فإنهم

يرتكبون فضائح لا حدود لها والتى نخجل لها ، قلت أذن ماذا يفعل القنصل وماذا يقول ؟ قال رحم الله اباك ، أن القنصل ليس له عمل سوى أن يتقاضى أربعة من المنات ثمن التذكرة وعدة منات أخرى تحت اسم الرشوة والجريمة ، فلو أن احدا توفى وكان يمتلك شيئا فإن هذا الشئ يئول إلى القنصل ، قلت ألا تستفيد الدولة من عائد تذاكر هؤلاء الستين ألفا والذى يصل عائد هذه التذاكر إلى مبالغ كبيرة ، قال وماذا تفعل الدولة ؟ أن نصف شاهى لايصل إلى الدولة ، باستثناء ما يؤخذ من القنصل منذ اليوم الأول كهديه (رشوة) منه للدولة ، ولعل ما يؤخذ من الوزراء والسفراء وهو ما يصل للدولة هو وزر هؤلاء ووبالهم .
وكل قنصل فى أى مكان يريد تذكرة فإنه يطبعها ويبيعها ولاينتهى الأمر بالإيرانيين عند هذا الحد ، فإن كل لص ومحتال وسارق من الرعايا الأجانب يريد أن يأخذ أكثر من اثنين من المنات فإنه يصرف التذاكر ، ويرتكبون باسم إيران الجرائم والأعمال الخبيثة ، وحينما يصل الأمر إلى الحكومة الروسية يتضح بعد التفتيش وتقصى الحقيقة أنه قد صنع تذكرته (بيده) وينبغى أن نلاحظ أن هذا الأمر يقلل إلى حد كبير من شأن الدولة فى أنظار الأجانب . وهذا السفير لن تبقى له مكانة فى أنظارهم ، وعندما وصل الحديث إلى تلك النقطة المؤسفة رأيت أن الغم والسأم قد سيطرا على وأخذ قلبى فى الخفقان ، فكان لابد من تغيير هذا الموضوع وتحدثت عن التجارة والبيع والشراء ، وسألت كيف

حال البيع والشراء والتجارة ؟ وأى المنتجات تنتجونها فى البلاد ؟
قال : مثل شيت همدان وحرير ميلان وتبريز [1] وكل هذه الأقمشة باتت كاسدة بالنسبة إلى السنوات السابقة إذا كنا ننتج كثيرا من الأقمشة والمنتجات أكثر ألف مرة من هذه الأيام وكنا نبيعها .

ولكن اليوم فإنه لايُنفق واحد فى المائة (على الأقمشة) بالنسبة للأزمنة الماضية ، إذ إنهم يغشون الأقمشة والالوان ويسرقون فى الأنسجة ، ويستخدمون الألوان اللامعة والبراقة والتى لا يرغب فيها المشترون بدورهم ، وسرعان ما تنتهى هذه الأقمشة وتنقرض من الوجود ، حينئذ ينبغى أن ترسل منسوجات " موسكو " الحريرية إلى إيران ، وأرى بنفسى كثيرا من الروس التجار فى خلال مدة وجيزة ، أسمع إنهم أنشأوا مصنعاً للنسيج وذلك بقليل من رأس المال ، وأصبحوا الآن من الميلونيرات فى عدة سنين بسبب التفانى والاخلاص فى العمل ، وعلى العكس أعرف عددا من الإيرانيين قد جاءوا ، فى هذا المكان ومع كل واحد منهم ثروة كبيرة ، ومع ذلك اعلنوا جميعا إفلاسهم بعد عشر أو عشرين سنة ، ولما أننا لانهتم بالمصالح القومية والعامة ، فأننا نضيع منتجات البلاد فى سبيل المصالح الشخصية القصيرة الأجل ، ونعلم أن الحرير الردىء

(١) تبريز : مدينة فى آذربيجان ، وتقع فى الأقليم الخامس ، شمال غرب إيران .
- دهخدا : لغت نامه ، جـ ١٢ ، شماره حرف (ت) ص ٣١٥ .

يصل كل المنازل ، ومن ثم لن يمر وقت طويل حتى تهمل تلك المنتجات بسبب الغش وتنقرض ، وفى ذلك الوقت فإن إضرار ذلك ستحيق باهل البلاد ، والأن كما قيل فى " تفليس " أن كثيرا من منتجات إيران قد انقرضت تماما ، وبسبب ذلك فأى إيرانى من الإيرانيين يمتلك عشرة آلاف تومان كرأسمال سوف ينخفض رصيده عن ذلك ، والجميع يرتدون القلنسوات على رؤوسهم ويتسترون فى ثياب التقوى الورع[1] .

والسبب الرئيسى لهذه الأوضاع المؤسفة ، هو غفلة الدولة ، وتعود الموظفين على الرشوة ، إن الحكم لايستقر فى البلاد من شؤم هاتين الكلمتين المنحوستين واللتين هما أُسّا خراب تلك المملكة العظيمة .

الخلاصة : إننى رأيت أنه ليس فى وسعى أن أسمع مثل تلك الكلمات وسألت متى تتحرك عربة " بادكوبة " ؟ قال أول الليل ولكن لن ادعكم أن تذهبوا واصر اصرارا شديدا فاعتدرت ، وقلت بارك الله فيك ، ينبغى أن أذهب ، وودعته ، وذهبنا مباشرة إلى الفندق ، وعلى الرغم من أن مدينة تفليس تعد من المدن الكبرى والجديرة بالمشاهدة ، لكننى حزنت وتأثرت من هذه الأحاديث ودهشت ونمت قدرا من الوقت ، واستيقظت عند تحرك

(١) إشارة من الكاتب إلى نفاق التجار وغشهم للسلع ، فالتجار أتقياء فى الظاهر وغشاشون ومحتالون فى الباطن .

العربــه ودفـعت أجــرة الفنــدق ، وأخذنا دلـيل الطريق وسرنا في دربنا ، وأثناء الطريق كـنت مشـغولا بالحـالة المضطربة لهـذه الأمة التائهة عن موطنهـا وقد عاش أفرادها فى أسوأ أوضاع الذل والهوان فى الغربة بعـيدين عن ديارهـم [١] . تناولت السيـجارة وأنا اتاوه مـتأمـلا ، وفى النهاية قـلت لنفسى من شـدة تأثرى ، ينبـغى علىَّ بعـد هذا ، أن أمضى فى مـشـاهدتى لوضع الوطن وحالة المـواطنين وكتابـة كل ما اشاهده ، والذى كـله مثيـر للهم والحزن ، فاتسع نطاق وصية المرحوم ابى ، وفى الغد اثناء العصر دخلنا (بادكوبه) وذهبنا لـتونا إلى فندق القوقاز ، وكـانت اجرة هذا الفندق رخـيصـة . فالليلة تسـاوى واحدا من المنات ولكنـها قذرة جدا ، وكـان العاملون به غير مـهذبين ، ولما كنا لن نمكث فيهـا أكثر من ليلتين ، فلم نغيـره ، وأكثر المقيمين فـيه كانوا من المسلمين وكـان كل واحـد فى المكان المخصص له يـطهو الطعـام والكباب لنفسـه ، وكان بعضهم يدخن النرجـيله ذات الأفيون ، فقلت ليوسف عمى لنخرج قـدرا من الوقت كى نتجول فنتخلص من رائحة الأفيون الكريهة والتى لاتنقطع ، وخرجنا ، وقال أحد العـاملين : أيها المواطن لـو كان لديكم شيء أى مـال أو اشيـاء نفيسة فلا تتركوها هنا ، فلو سرقـها سارقا فلسنا مسئولين عنها ،

(١) هنا يشيـر الكاتب إلى أحوال الإيرانيين الذين تركـوا إيران بسبب ظلم الحكام فتـركوا إيران ليعيـشوا مغتـربين عن وطنهم فى القوقاز والهند وغيـرها من البلاد حيث يعملـون كفعلة وحمالين وكذلك فى كل الاعمال المتواضعة .

قلت مفتاح حجرتنا فى جيبى ، قال ليس لى شأن بالمفتاح ، وقال أنا بلغتكم والسلام ، قلت لا تخف فلا نملك سوى بعض القمصان والملابس الداخلية ، ولسنا تجارا ولا صرافين ، وأخذت أضحك وأتعجب من حالة الخادم .

الخلاصة : خرجنا وذهبنا إلى شاطىء البحر ، ونظرنا على الضفتين ، ورأيت ما رأيته فى (باطوم) إذ رأيت حشدا من مواطنينا يجلسون تحت لهيب الشمس جماعة جماعة ويتنازعون فيما بينهم ، ورأيت من ناحية أخرى أناسا وقد تجمعوا حول فرد واحد وقد أخذوا يضربونه ضربا مبرحا ، ويقولون فى صوت عال اضربوا هذا (المواطن) ابن المحروق وراح كل من أقبل على هذا المواطن ، يضرب مع الضاربين ، وسألت ما ذنب هذا المسكين ؟ ومن هو ؟ وماذا جنى ؟

قالوا إنه إيرانى وعامل من عمال أحدى السفن والتى يمتلكها رجل مسلم ومن أهل (بادكوبه) ، والضاربون أيضا من عمال السفينة ومن أهل بادكوبه ، قلت كيف يضرب هذا المسلم ذلك المسكين الأعزل الغريب والبرىء ؟ قال ذلك الشخص : أن أهل بادكوبه لا يرحمون الإيرانيين ، واردت أن اتدخل ولكن ذلك الشخص كان حكيما فأثنانى عن ذلك الامر فقال لا تذهب حتى لا تلقى ما لاقاه " ذلك المواطن المضروب " وواضح انك غريب عن هذه المدينة ونحن نرى يوميا مثل هذا كثيرا فنسكت على مضض عاجزين ، فاللهم اقتص لنا ممن كانوا سببا فى هذا البؤس

والشقاء والذل والأيام السوداء [1] . فضاعفت هذه المنغصات الجديدة من حزنى والمى السابقين .

ولامناص من اننى تقدمت نحو طريق المرسى ، وتوجهت لحظة تحرك السفينة نحو (اوزون آدا) وقيل أن هناك باخرة ستذهب غدا ، لكن سيرها سيكون على سواحل غير مستقيمة ، وهى ستحمل ركابا وحمولات لمناطق مختلفة ، وهناك أيضا باخرة أخرى ستذهب إلى (اوزون آدا) مباشرة ، لكنها ستتحرك بعد أربعة أيام قلت لنفسى إن البقاء هنا مدة أربعة أيام فوق سطح البحر أفضل من الإقامة فى هذه المدينة ، وأفضل أيضا من مشاهدة أولئك الناس المظلمة القاسية قلوبهم ، وعدت من هناك مسرعا ، وكلفت عامل الفندق أن ينهى إجراءات التأشير على التذكرة حتى نذهب فى الصباح ، وشغلت ثانية بالتجوال فى المدينة ، فهذه المدينة خالية من البساتين والورود والأعشاب ، لكن عمائرها شاهقة فى الإرتفاع ، ومحالها التجارية كبيرة جدا ، والتى هى فى الغالب من ممتلكات المسلمين والأرمن ، وقد جمعوا كل تلك الثروة بفضل البترول (الذهب الأسود) والذى يختفى تحت سطح الأرض عن معظم المعادن الأخرى .

(١) لاشك أن هذا الدعاء المقصود به الملك ورجال البلاط وباقى الحكام الذين تسببوا فى تشريد المواطنين الإيرانيين .

ومما يقال إن عددا من المسلمين هناك ومن بينهم " حاجى زين العابدين تفى يوف " والذى جمع ثروة تقدر بملايين المنات وشخصيته جديرة بالاحترام والفخر ، بسبب ذوده عن حمى الإسلام ، فإن جميع المواطنين يذكرونه بالخير ، وخاصة الشعب يذكر اسمه بكل فخر واعتزاز وهو ذاته من المتعصبين والغيورين على الإسلام فليكثر الله من امثاله بين المسلمين .

وهناك عددا آخر من التجار الإيرانيين أيضا ، ولما لم أكن أعرف أحدا منهم ولم أقابل منهم أحدا ، وقلت ليوسف عمى بعد السفر إلى إيران ينبغى أن نشترى سكرا وشايا وزيتا وأرزا ، واشترينا ثلاث عشر أوقيه من الأرز ولكن كان غاليا جدا ، فسألت عن السبب ، قالوا بسبب القحط فى دولة إيران ، وقد أمرت الدولة الإيرانية وبشكل قاطع بأن لايصدر إلى الخارج (الأرز) لهذا فقد أرتفع ثمنه بسبب ندرته لمدة شهرين [1] .

الخلاصة : أننا قضينا يوما ، ودخلنا الفندق ، كى نستريح قليلا ، ومن كثرة البق والبراغيث فقد استحال النوم أن يقرب من اجفاننا حتى تنفس الصبح . وبعد أن ادينا ركعتين لله المعبود

(١) هنا لايريد الكاتب ارزا ولا زيتا وأنما اراد أن يبين ندرة الاقوات فى إيران وكيف كانت الطبقة الدنيا فى المجتمع الإيرانى آنذاك كانت تعانى من احتكار فئة الاقطاع وبعض التجار لهذا السلع بفرض رفع اسعارها ، أو لأن الزراعة فى إيران كانت متخلفة شأن كساد التجارة واهمال الصناعة فى البلاد ، وكله بالطبع ناتج عن سوء الإدارة فى البلاد وكذلك استغلال الإقطاع للزراعة والفلاحين وسلبهم أراضيهم مما أدى إلى هذه النتيجة المتوقعة .

ذهبنا على عجل إلى السفينة وهناك شربنا الشاى وتحركت الباخرة قبل الظهر بثلاث ساعات ، وفى الغد رسونا عند ميناء (انزلى) [1] وكان الجو طيبا جدا ، وخرجنا من الباخرة إذ كانت "الباخرة" تفرغ البضائع من ناحية ، وتشحن الأرز من ناحية أخرى .

وسألت شخصا شيروانيا كان هناك بقولي : كانوا يقولون فى " بادكوبه " أن خروج الأرز من إيران إلى الممالك الأجنبية ممنوع منعا باتا ، فكيف الآن يشحنون كل هذا الارز ؟

قال : (ذلك الشخص الشيروانى) متى وفى أى مكان نفذت أوامر الدولة الإيرانية حتى تنفذ هنا ؟

أجل إنه ممنوع منعا باتا من طهران ، ولكن حاكم الأقليم لم يهتم بالأوامر ، فهو يأخذ على كل جوال أرز فى (رشت) قرانا واحدا ، وفى انزلى " نصف قران " [2] (رشوه) حتى يسمح بخروج ألف أو الفى جوال فى كل باخره ، ولعله من المشاهد أن أى قارىء من القراء يمكنه أن يرى كم أصاب ذلك السائح المسكين من المنغصات ، وكم أصابه أيضا من الصدمات الشديدة ، فى كل خطوة يخطوها .

وقبيل العصر أتمت الباخرة حمولتها ، ثم سارت وكانت

(١) انزلى : الاسم السابق لميناء بهلوى ، ويقع على ساحل بحر الخزر فى شهريور .
- دهخدا : لغت نامة ، شماره (حرف) : ١ : ٤ ، ص ٣٩٦ .
(٢) القران : عملة فضية متداولة فى إيران ، وتساوى عشر التومان الذهبى .

الباخـــرة تتوقف عدة ساعــات فى كل ميناء من موانىء (سارى) و (مشــهد بابلسر) من أجل الشــحن والتفـريغ وقد رأينا فى كل ميناء من هذه الموانىء العديد من المنغصــات ، ومضت بنا الباخرة وحــتى هذا الوقت وصلنا (أوزون آدا) أى فى اليــوم الرابــع ، ومن هناك دخلنا (عشق اباد) وبدون توقف استــأجرنا عربة ذات أربع خيــول بخمــسه وأربعين من المنات ، من أجل زيارة المشــهد المقدسـى ، تلك الزيـــارة التى كنـت اتمناها منــذ سنين طوال ، وســرنا فى طريقنا حـيث رأينا بعض المواطنين فى (عــشق آباد) بنفس الحالة التى كنا قــد رأيناهـم عليها من قبل فى المــدن السابقة ثم حططنا رحــالنــا فى أحــد الاماكن ، وفى الصــباح تحـركنا ، وبعد طى مـسافــة طويلــة وصلنــا عند حـدود إيران وروســيا ، والتى هى جزء من أرض طوس [1] ، وقد أقام الروس عند حدود (عشق اباد) العــمائر الشــاهقة الفخــمة ، وقد وضــعوا فى كل ناحيـــة الموظفــين وجنــود المراقبــة والاسـتطلاع ، وقــد عطلونا مدة نصف ساعــة من أجل التأشير على التذاكر ، ثم ســمحوا لنا بالمرور ، وبعد عــشر دقــائق من السير وصلنا عنــد إحدى المناطق حيث يشاهـــد بها بعض الإشارات والعلامــات ، وقال السائق :

(١) طوس : مدينة بخـراسان تقع على بعد عشـرة فراسخ من نيسابور ، وقـد فتحت فى عهد عثمان بن عفان (ر) .
- معجم البلدان : جـ ٣ ، ص ٥٩ .
-هنا يلمح المؤلف إلى الأراضى الإيرانيـة التى استـولت عليهـا روسيـا وأصبحـت ضمن ممتلكات الدولة الروسية .

فى هذه الناحـية أرض إيران ، وفى تلك الناحـية أرض الروس ، قلت للسائق ينبغى أن نتوقف قدرا من الوقت فلدى عمل ما ؟

وظن السائق أن لدى عمـلا آخر ؟ فقال اصبـر قليلا فإن الماء قريـب فانزل هناك ؟ قلت لست فى حـاجه إلى مـاء فإن أمـرى يتعلق بالأرض ؟ وتوقـفت العربة ونزلت ورفعت قبـضة من تلك الرمال الطاهرة ولثمتـها وشممتها ثم مـررتها على عينى ، وقلت أيتها التربة الطاهرة ،يا كحل الجواهر ، إنى أشكر الله أنه أحيانى حتى شـاهدتك ، واضاء العين برؤيتك ، فأنت مأمن الاخـيار ، ومـدفن الأجـداد ، وأنت التى نشـأتنا فى المهـد على نعـمك ، فتـرعرعنا وتنعمنا على عـزك ، ولايمكننـا أن نوفـى لك حقـك إلا بأن نكون مـحبين لك ، فكم هو سـام وعظيم ذلك الحـق ، وقد قـرن الرسـول عليـه الصلاة والسـلام بـين معـرفـة حبـك والإيمان ، فماذا أقول فى وصفك إلا أنك ذات قدر عال .

الخلاصة : إننى أجهشت بالبكاء ، وفجأة انهمر بكائى على الأرض المقدسة ، وقد بكيت فرحـا بتحقيق أمنية القلب العليل ، وهكذا اعلم أن لذة ذلك البكاء سـتخلد حتى النفس الأخـير فى أعماقى ، وقـد نظر السائق نحوى دهشا ، وقـال : وهو فى قمة الدهشة : هون عليك أيهـا الشاب ، إننى اتردد على هذا الطريق منذ سنين عـدة وأراك أول إنسـان يعـز تراب بلاده هذه المعـزة ، وقلبى أنا أيضا جـريح من هذا الطريق ، فنحن من أهل "كنجه"

وأنا مثلك لى حكاية مع أرض الوطن ، وقد ابتليت بلادنا بالشقاء والبؤس وذلك لعدم مبالاه اسلافنا ، وكما تعلم الآن أن صوت (الناقوس) يحل محل (صوت المؤذن) [١] ، وماذا يمكن أن نعمل ، لو أن دولة إيران كانت دولة بمعنى الكلمة ، وكان فيها القانون والنظام والمساواه [٢] ، ولم تباع الرعية للحكام بقيمة الحيوانات ، لكنا هاجرنا إلى إيران وما تحملنا سيطرة الأجانب هنا والذين هم عدو كل شئ لدينا .

قلت ما اسمك أيها العم ؟ قال عباس ، فأثنيت عليه .

الخلاصة : إننا تحركنا حيث يحدونا الأمل ، ووصلنا بعد عشر دقائق إلى كوخ بال ، وقد جلس أربعة أشخاص حوله تحت حرارة الشمس الشديدة يدخنون النرجيلة ، ونادى شخص من بينهم : أيها المواطن هات تذاكركم ، قال السائق هؤلاء موظفون فى إيران ، ويريدون أن يعوفوا قيمة التذاكر ، وتقدمت والقيت السلام فلم يردوا على التحية ، وسأل شخص من بينهم كم شخصا أنتم ؟ قلت ترى إننا لسنا أكثر من شخصين ، فلم السؤال والجواب ؟ قال : هات تومانين .

(١) هنا يشير زين العابدين المراغى إلى تقلص الإسلام فى هذه المناطق .

(٢) هنا يلفت الكاتب القارىء إلى أصول الحياة النيابيه ، والتى تقوم على الدستور والذى يشمل القانون والمساواه والنظام ، ويلفته أيضا إلى الأوضاع السيئه فى إيران حيث حكم ناصر الدين شاه ، وفى هذا الوقت بدأ الكتاب المستنيرون عموما فى التحدث عن الحرية والقانون والقوميه .

ولم اعترض ، فقال : اذهبا بالسلامه ، ولم يسأل عن تذكره ولم يحدد موعـدا ، فمضينا متعـجبين ، وعند الغروب وصلـنا إلى قرية صغـيرة ، واسترحنا هناك حتى منـتصف الليل ، وسرنا فى النصف الثـانى من الليل ، وقبل تنفس الصـبح بقليل وصلنا المدينة ، فرأيت عددا من السـادات قد جلسوا هناك ، واتضح أن السادات قد اتوا هنا من أجل ارشاد الزائرين ، فتحلقونا وأخذ كل واحد يدعـونا بلهجـة معينـة ، فوعدنا واحـدا من بينهم بالزيارة ونزلنا عند حـافة أحد الينابيع وبعـد تجديد الوضـوء واداء الصلاة ارتشفنا الشاى ، وتناولنا بعض طعام الارز بمساعدة (اغاسيد) ، وسرنا فى دربنا ، وقد جاء آغاسيـد فى عربة ورأنا ، وبعد مسيرة نصف ساعة رأينـا القبة المباركة للروضـة المطهرة والتى هى آية من آيات الكعبة وعـلامة من علامات الجنة ، فـتحسرنا ومشـينا ثانية وقرأنا ما يقرأ عند الزياره ، وقد دخلنا تلك المدينة ونحن فى ذروة الاشتيـاق ، وقد بدت تلك المدينة جنه، وذهبنا مبـاشرة إلى منزل اغاسـيد ، وكانوا قد اعـدوا غرفة لنا ثم وضـعنا امتعـتنا ، وبعد تناول الغداء ، أخـذنا ملابسنا من قمـيص وسروال ، وذهبنا إلى الحمـام مع يوسف عمى وأغاسـيد كى نغسل أجـسامنا ونستـبدل ملابسنا تـبركا وتيـمنا بالروضة المطهـرة ، وعندما دخلنا الحـمام أوشكت رائحة الماء الآسن أن تخنقنى من بُعد ، وكانوا قد اطلقوا على المكان العميق والذى به الماء المتعفن والمخزون اسم (الخزينه)

وبعبــارة أخرى " حوض الماء " ، وكــان ماؤها من كثرة القذارة قد تغـير لونــه ، وكــانت رائحتــه الكريهــة ، تجـعــل الإنســان فــى اضطراب ، واتضح بعــد قليل من التــأمل أن هذا الماء الآسن هو أس كل الأمراض المعدية ، إذ أنه كان يرتادها الأعمى والأقرع والجريح دون اســتثناء ليــل نهار من الرجــال والنساء ، مستحمين وسط هذه المياه الضــحلة الآسنه لمدة ثلاثة شهــور ، وفى الحقيــقة أننى تعــجبت كثـيرا أن أحدا مــن أعلام هذه المدينة وعلمــائها لـم يفطن لتلك الأمراض الناجمة عن هذه المياه الآسنة ، ويعتبرون أن اسم هذه المياه مــزيلة لكل تلك الأمراض ، وفى اعتــقادى إن كل شخص يقول عن تلك المياه إنهــا طاهرة قد أهان الشريعة الغراء ، إذ إن الشارع المقدس قــد أمرنا بالنظافة وحثنا عــليها ، وهذا الماء أُسّ كل قذارة وعفونة لكثيــر من الناس ، فلونه ورائحته تغيرا إلى ذلك الحــد بحيث صــار موضع نفــور الناظرين ، فكيف يمكن أن يكون طاهرا نقيا ، وفى حمامات سائر البلاد الإسلامية مثل مصر والأقاليم العــثمانية (نجــد) مثلا أن ماء الاغــتسال محــفوظ وجار ونقى وبإمكان كل شخــص أن يغتسل من الناحــية التى يريدها ، ومن ناحية أخرى فهناك ماء بارد يتبعه ماء دافىء وصاف .

وعلى كل ذهبنا إلى الحمام نظيفين ، وخرجنا منه متسخين ، وقال أغاسيد : لتبق صرة الملابس فى الحمام ، ولنذهب من فورنا لكى نزور الروضه المطــهرة ، قلت : كلا فــالآن ينبغى أن أذهب إلى البيت فإن لى عملا ما ، وبعد ذلك نذهب لكى نقوم بالزيارة

ولما وصلنا إلى البيت قلت لاغاسيد : تفضل حتى يشعلوا « السماور »[1] ويأتوا به ، قال ليس هناك وقت ، قلت أريد أن أغتسل حتى أزيل قذارة ماء الحمام ، قال : يابنى أن مياه الخزينة « الحوض » طاهرة ونظيفة قلت لن أتحدث بصددها ، ولكن هى قذرة وآسنة ، وعلى كل حال فقد سُخّن الماء وإغتسلت ثانيه وإستبدلت ملابسى وقطعت عهدا على نفسى أن لا أذهب ثانيه إلى حمام فى إيران ، وقد سرنا بعد ذلك عازمين زيارة الإمام الثامن والذى كان منتهى آمالى ، وبعد دخولنا الروضة المطهرة وتقبيل عتابها ، لفت انظارنا انا وآغاسيد مواضع معينه فى الروضة ، وقرأنا مايقرأ عند الزيارة ، ومن بركة ذلك المقام المقدس والذى هو لطف من جنه وآية من رحمه - أن مُحى كل العناء الذى تجشمناه فى الطريق من ذاكرتى ، وأن لسانى وبيانى (أنا العبد المذنب) لعاجزان عن وصف تلك الروضه الطاهرة والجنة الحقيقية ، فماذا أكون أنا حتى أعبر عن الوصف الظاهرى والباطنى للبنة من لبنات تلك العتبة المقدسة ، والتى هى ملثم العلماء السامقين ، أولئك من لديهم تفسير الباطن وقد نالوا المرتبة بفيض زيارة تلك العتبة العلوية ويعلمون أى بساط مقدس ومقام روحانى سامق ؟ فليس هناك هم أو حزن يمكن أن يصيب الأمة طالما أنت المتكأ والملجأ ، وأى خوف من موج البحار وأنت سفينة

(١) السماور : وعاء معدنى فى وسطه مكان لاشعال النار ويستعمل لغلى الماء وصنع الشاى - عبد النعيم محمد حسنين : قاموس الفارسية ، ص ٣٨٢ .

نوح (النجاة) ؟ (بلغ العلى بكماله ، كشف الدجى بجماله ، حسنت جميع خصاله ، صلوا عليه واله) .

وبعد إنتهاء الزيارة ، أقمنا الصلاة جماعة وخرجنا ، وقد حظينا بشرف هذه العوالم مدة اثنين وعشرين يوما صباحا وظهرا ومساء ، وكنا نشاهد كل يوم ضاحية من المدينة ، وعلى سبيل المثال ذات يوم ذهبنا إلى مستشفى العتبة مع اغاسيد ، فكم هى رديئة تلك المستشفى لدرجه أن كل مريض يذهب إليها هناك ربما يهرب إلى مكان آخر عل الله يشفيه بلطفه ، فليس هناك طبيب مجرد أو علاج ، وليس هناك أثر للنظافه وسائر لوازم المستشفى ،وبهذه الحجه يبدد المشرفون الظَلَمَة مبالغ باهظة سنويا من الخزانة الملكية.

وعلى هذا النحو كان يقول أغاسيد : تصل قيمة الممتلكات الموقوفة على العتبة المقدسة كل عام إلى مايزيد على مائتى ألف تومان كدخل سنوى ، ويضيِّع السفهاء الذين لادين لهم ، كل هذه الثروة على مسميات مختلفة خاصة بهم ، فى حين أنهم ليس لهم الحق أن يتصرفوا فى شئ من تلك الثروة ، وعلى سبيل المثال فإنهم يطهون باسم الحفاوة بالزائرين كل ليلة مايقرب من حملى حمار من الأرز مع سائر متطلباته ، ويذهب كل هذا إلى بيوت أثرياء المدينة وأقربائهم الذين ربط كل واحد منهم اسمه بالعتبة المقدسة ،وقلما يرى الزائرون والغرباء وجه الحساء أو الارز ويقنع بعض كبراء الدولة بأقل شيء من "مائدة السلب والنهب"

(الرشوة) فلا يتدخلون ابداً ويبـدد الحاكم وأُتباعه كل هذه الأموال الطائلة أدراج الرياح ، وفى بعض الأحيان قد يعتدى الحكام على الناس ومع ذلك ليس هناك رادع أو مـعاقب أبدا ، ويمكن الـقول أن أهــل المدينــة أثر النــاس فى قسـوة قلوبهم ، إذ يطلبون عند المعاملات التجارية فى الشيء الذى يساوى تومانا ، يطلبون خمسة تومانــات ، ويقسـمـون بالعتبـة كذباً عند كل حـديث بلا أدنى خجل ، وكنت أنا نفســى قد أشتريت شيـئا من السوق ، وطلب (التاجــر) منى ثلاثــة تومانات كـثمن له ، وأقـسم بالعتـبه أربع مرات ، وفى نهاية الأمر اعطاه لى بسبعة قرانات .

والأدهى والأغرب من كل هذه المصائب هو رؤية وضع الجنود فى تلك المنطقة المتـاخمه والتى تجعل الإنسان يصُـعق من مشاهدة تلك الأحـوال ومخـاطـر ذلك الوضع ، وذات يوم ذهبنا للزيارة مع سيد (أغاسيد السابق الذكر) ، فرأيت عددا من الأفراد كانوا قد مروا بنا فى ملابس قطنيه باليـه جدا ، وقذرة لايتضح لونها ، ويسيرون فى أوضـاع مختلفة وعلى رأس كل منهم قـلنسوة رديئة للغاية ، وكانت أرجلهم متسخة ، ويحمل كل واحد منهم بندقية فى يده ، وكان بعضهم يناهز الخمسين عاما والبعض الآخر شباب فى سن العشرين ، وسألت اغاسـيد : ايعمل هؤلاء فى الفاعل ؟ وما هذه البنادق ؟ قال يا عزيزى هؤلاء جنود الدولة وحماتها ! ،

وكانوا يقومون بالحراسة الليلية فى الحصون ، والآن أخذ زملاؤهم أماكنهم ، فأقبلوا على السوق ، والآن سترى أن منهم الجزار والرقاع والصرَّاف وبعضهم باعة فاكهة ، وهم يسرحون من الجيش فى مقابل تقديم الرشوة لضباط الجيش من العقداء والعمداء ، وعند سماع هذه الحادثة اظلمت الدنيا امام عينى ، وتأوهت تأوها كله ألم وحزن .

قلت يا الهى كل هذا جزاءً على المجادلات المتعصبة التى صنعتها مع الناس فى " مصر " بدون وجه حق وعلى رأسها هذه الأمور ، وكل ما كانوا يقولونه من هذا القبيل لم أكن أصدقه وكنت أتشاجر معهم وأسيء إليهم ؟

قال " سيد " الأسوأ من كل هذا ، أن هؤلاء الجنود كلما حصلوا على مكسبة أو غنيمة ، فأنهم يتقاسمونها فيما بينهم ، وكل ما يتبقى مما حصلوا عليه فإنهم ينفقونه على تعاطى الأفيون وتدخين النرجيله ، فذهلت وسألت : هل هؤلاء الجنود من داخل البلاد أم من سائر المدن الإيرانية ؟ قال أنهم غرباء ، فهؤلاء من جنود (خلخال ومشكين) وحراسة المدينة موكلة إليهم ، وهم يتغيرون كل عامين أو ثلاثة .

وبعد ذلك قال " سيد " أن كثيرا من الزائرين يأتون هنا لكى يتمتعوا بالإقامة لعدة أيام ، ولو أنت نفسك لك رغبة ،

فقل لى حتى أعد الأمر ، قلت لو أقسمتَ على أن أمضى هنا أياما معدودة ، فسوف أضيق بذلك كثيرا ، قال : إنك تمتع نفسك فلماذا أقسم عليك ؟ قلت من الواضح أنك لست مطمئنا وأنا لم أكن أفعل أمراً يخالف الشريعة فى الغرب ، مثل ما يحدث فى هذا المقام المقدس ، والأرض الطاهرة نعوذ بالله أننى كنت قد سمعت كثيرا ، أن بعض الأشرار يرتكبون المحرمات فى (المشهد المقدس) ولكن لم أصدق . . . أنه لادعاء ظالم .

خلاصة الكلام أننى أوصيت يوسف عمى حتى يعد ما يتطلبه السفر إلى طهران بعد الإقامة مدة اثنين وعشرين يوما فى الأرض الطاهرة ، فأجاب يوسف عمى أننى لم أكن أرغب فى هذا السفر يا حضرة البيك ، أولا : أننى أشكرك لأننى حظيت بخدمتك على زيارة هذه التربة المقدسة ، والتى هى أساس سعادتى فى الدارين (الدنيا والآخرة) ، والآن فإن لى طلبا عندك وآمل أن تقبله منى قلت تحدث ، قال : هيا اصغ إلى طلبى وهو أن نعود إلى مصر من نفس الطريق الذى جئنا منه ، فإننى أعلم طبعك جيدا ، فإنك ترى كل يوم فى هذه المدينة من المنغصات ما يحزنك ، وأخشى لاقدر الله أن تمرض وتموت ، فحينئذ ماذا أقول لوالدتك ؟

فقـد رأيت جزاء من إيران ، " فطهـران " مثل " خـراسان " ، والجزء نموذج للكل ، (والسنه الطيـبه تبدو من ربيعهـا) ، فماذا سترى فى طهران من الأشياء ما يرضيك ؟

قلـت يا عم يوسف أعلم أنه علاوة على وصية أبـى فإننـى لم أقـصـر فى واجبك ، واعـتبـرك خلفا لابى ، ولكننـى أرجو أن لاتمنعنى قط فإنى لن أتراجع عن عـزمى .واخشى أن يصدر منى ما يخالف وصـيه أبى ، وهذه السياحـة متعلقة بى ، فـحينما لا أذهب بنفـسى إلى "طهـران" ، ولا أصل لخـدمـة وزراء المملكة وامرائهـمـا ، ولا أتقصى الحقائق عن أسـباب غفلتهم بمقـابلتهم وجها لوجـه وسؤالهم عن أسباب شقـاء الشعب وخراب الدولـة فـأن قلبى لن يستيرح ، فأما أقضى نحبى فى سبيل هذا الهدف ، أو أن اتعرف على أسباب هذه الأوضاع المؤسفة والسلام .

وتنهـد يوسـف عـمـى المسكـين علـى مضض ، ولم يتـفوه بكلمة قط ، وذهبنا بصحبه (سيد) لكى نستأجر حصانا إلى خارج المدينة حيث مسكن المكاريين ، واستأجرنا من " حاجى حسين " السائس القزوينى ثلاثة خيول بعـشرين تومانا حتى " طهران " ، رأسان من الجياد لحـملنا والجواد الثالث لحمل امتعـتنا حيث سرنا بعد يومين ، وقد ذهـبنا فى الصباح إلى الروضة المقـدسة لزيارتها

وودعناهـا ، وخـرجنا من تلك الجنة الحـقيـقيـة ونحن فى قمـة الحسـرة ، وأعطينا صانع الأحـذية تومانا واحدا وعـدنا إلى بيت (سيـد) ، فجـمع حاجيـاتنـا وأحـضر السـائس الجيـاد أيضـا وكـان الوقت مناسبا ، وانتقلنا فى نفس اليوم خارج المدينة حيث تجـمـعت القـوافـل ، وودعنا " آغـاسيـد " فى ذلك المكان ، وتناولنا العـشاء سـويا ، وأعطيناه ثلاثة ايمبـريالات ، وودعناه ، وقد نسـيت الوصية التى اوصـانى بها أبى فى هذا السـفر ، نظرا للأوقـات المريـرة التى قـضيتـهـا ، وهذه الوصيـة " أن اتعرف على بعض الأصدقاء الأوفياء فى كـل مدينة أصل إليها " وعلاوة على ذلك فقد رأيت أنه يتعـذر على تحقيق مثـل هـذا الغـرض مع أهل المدينة ، لأننى لم أجد أثرا للانسانيـة بينهم ، وكان دماء الإنسـانية قـد تجـمدت فـى عروقـهـم ، إذ إنهم كانوا يرضـون فى مقابل مصـالحهم الشخصية بتومـان واحد ، بدون أدنى تفكير فى مقـابل أن يضروا الشعب والمواطنين وأخـوانهم فى الدين بمائة تومان ، ولم يجل بخـواطرهم قط التفكيـر فى المصالح القومـية العامـة ، والمحـافظـة علـى عـزة الوطن وشئون البـلاد وتعمـير المملكة ، فـكان الحـاكم والمحكوم والآمـر والمأمــور ، والعـالم والجاهل والتاجر والمتكسب كانـوا جميعهـم يفكـرون فـى أنفسـهم وكانوا يتفننون فى الاشكال الغريبة والأساليب المختلفة التى تخدم

مصالحهم فكيف يمكن الاعتماد والاطئـمنان لصداقة هذا النوع من الأفراد؟

وفى مدينة مثـل "مشهـد" والتى لديها مقومـــات التجـارة ، لا يشـاهد فيـها شركـة واحدة ،على الـرغم من أن سـكانهـا من الأثرياء ، فـمال التجارة من الـبيع والشراء ، وانتـاج الأرض مثل السجاد والأفيون والقطن وغير ذلك إلى ما شاء الله وفير ، وهذا إن دل على شئ فهو دليل على نفاقـهم ، إلا أن لهم تسلطاً غريباً فى البذخ وتبديد الأموال والمنتجات التى تنتجها المملكة .

فحتـى السجاد غشوة بـالألوان البراقة ومـستخدمين الصـبغة الحمـراء ، أما الأفيـون فهو مـوجود كالـتراب حتـى ولو اختـفى الدقـيق، وقد منـعت الدولة أكـثر من مـرة الألوان المغشـوشة ، وأمرت بشكل حاسم أن لا يخلـط الأفيون بشوائب أخرى ، فلم يستجب أحد ذلك ، لأن الموظفين تـقاضوا رشاوى وأهملوا تلك الأوامر المـشددة ، والأسـوأ من كـل هذا ، هـو شيـوع تعـاطى الأفيون فى هذه المـملكة ، والذى ابتلى به الـرجل والمرأة والهرم والشاب ابتلوا جيـمعاً بهذا السم القاتل ، ويتعاطـاه الجميع علانية فى الأسواق ، والمحال الـتجارية ، هذا الأفيون الذى قـضى على كل سمـة من سمات الرجـولة بين الرجال المـملكة ، ولم يـبقى للأنوثة أثـراً بين النساء ، ولم تـهتم الحكومة قـط بهذه الأوامر ، ولم يـبحث ابداً عـلى علاج للـقضاء عـلى هذا البـلاء المحدق ،

والذى علاجه فى غاية السهولة ، والعجيب أن علماء البلاد لا يعتبرون أيضاً أن هذا السم القاتل مسكر ، بل إنه يذهب بالعقل أكثر من معظم المسكرات الإنسانية - حتى قيل أنه كان يتعاطى كمشروب الشاى فى منازل بعض العلماء والذين هم لصوص ولكن فى زى علماء للبلاد ، وقد جلست فى مجلس عشرة من الفقهاء الواعظين فى مسجد "كوهرشاد" بمشهد ، والذى هو أحد المساجد العظيمة ، وذلك عند إقامتى هناك ، فكان الجميع يتجاذبون أطراف الحديث فى باب الطهارة ، وغسل الأقدام ، والجميع مشغولون "بالفرع" والذى هو شىء ثانوى ، وقد نسوا الأصل تماماً كالجهاد وكيفيته وأسباب الجهاد وكيف ينبغى أن يكون الدفاع عن البلاد ؟ فلم ترد كلمة واحدة فى هذا الصدد قط ، فى حين أن عدو الدين قد بلغ منازلهم .

الخلاصة : يمكن القول إنه لم تحدث مثل هذه الغفلة وخيبة الأمل فى إيران منذ عهد الاسلاف حتى هذا الوقت الحالى ، وعلى كل حال فقد أخذ ضوء الصباح فى الظهور من حافة المدينة، وسرنا مع "قافلة الحزن والهم" وبعد عدة أيام وصلنا مدينة (سبزوار) تلك البلدة الصغيرة ، وأموال التجارة فى هذه المدينة مصدرها محصول القطن،وهو بدوره فى أيدى الأرمن القوقازيين، إذ يحضر هؤلاء العربات ويشحنون الأقطان مثل

"مصر" وسائر البلاد المتحضرة العادلة [١] واقمنا يوماً واحداً فى مدينة (سبزوار)، وحملنا أمتنعتنا من هناك وسرنا ، وبعد عدة أيام وصلنا مدينة (نيسابور) [٢] ، وكان هناك فى أول المدينة مسجد عال جداً ، فذهبنا لنشاهده ، ورأيت المسجد كعالم خال من البشر، وكان به السجاد الفخم والذى تطل طول السجادة الواحدة إلى أربعة عشر ذراعاً ، وكان ملفوفاً فى وسط المسجد .

وتقدمت أكثر فى المسجد ، فرأيت كلباً وقد نام وسط سجادة، فتنهدت ، وبكيت بكاء حاراً لم أملك فيه نفسى ، وضربت كفاً بكف وقلت يا إلهى ما هذا البساط المؤسف ؟ وما هذه الأوضاع المخذية ، وأى شئ بقى من دين أهل هذه المدينة وديانتها ؟

لو أن هذا هو إسلامهم .... فواحسرتاه لو كان بعد اليوم غد [٣] وبعد أن تقصيت الحقيقة اتضح أن المسجد محروم

(١) لم تكن مصر بلداً متحضراً ، ولم تكن حكومة الخديوى اسماعيل عادلة كما يدعى زين العابدين المراغى إذا أن ناصر الدين شاه كان معاصراً للخديوى اسماعيل ، وكانت مصر آنذاك مثل إيران من حيث الاستدانة والاعتماد على القروض . أنظر .

- الياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل "المجلد الثانى"القاهرة ، ١٩٣٢ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٦ .

(٢) نيسابور : مدينة كبيرة ، تقع على بعد مائة وستين فرسخاً من الرى . وأربعين فرسخاً من سرخس .

- الحموى : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٨٥٧ .

(٣) أى لو أن الإسلام فى جميع المدن على هذا النحو لانتهى الإسلام والمسلمون .

تماماً مـن الخطيب والمؤذن وصلاة الجـمـاعة ، وعدت إلـى المنزل وأنا فـى غاية الـيأس والقـنوط والمـرارة ، وادراك يوسف عـمى المسكين أن منغصاً جديداً قد حـدث ، وهو يعلم ما أعانى منه ولا يقول شيئاً ، وأنا بدورى لم أظهره على مدى حزنى وتأثرى فقلبى ملئ بالأحزان .

الخلاصة : إننـى تحركت مـن هناك ، وقـد وصلـنا مديـنة (دامغان)[1] بعد أن قطعنا عدة مراحل وعـندما دخلنا السوق رأيت زحاماً غريباً ، ووسطه رأيت شخصاً قد وضع يده فى فمه ، وكان هناك حـبل فى يد رجـل دميم الوجـه والذى طرفه فـى فم ذلك الشخص المربوط ، فـكان يشد الحبل نحوه حيث كـان يتبعه ذلك الشخص المربوط فظننت أن هذا نوع من الرقص واللعب حتى أن الناس وقفوا بدورهم يتفرجون ، فـسألت (حاجى حسين السائس) ما هـذه الجمـاعة يـا حاجـى ؟ فسـأل حاجـى بدوره واحـداً من المتسوقين ، قالوا : إن هذا الرجل خباز ، وقد قلل من وزن الخبز فكبله الحاكـم بالقيود ، أما الرجل الذى يشـد الحبل فهو جلاد ، وقد أصاب الخـباز فى رأسه بجـرح كما كبلـه بالقيود ، قـلت إنه لقانون عـجيب وباعث على تـعجب أشد ، وقال لو تجولـتم أكثر (فى المـدينة) فإنـكم سترون أعـجب من هذا ، فـقد قطع ثـلاثة

(١) دامغان : مدينة كبيرة بين الرى ونيسابور.
- الحموى : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٥٣٩ .

أشخاص فـى هذه المنطقة أذنـى جزار ، والجلادون يتجـولون فى السـوق من أجل الـتكسـب ، والحصول عـلى الرشـاوى ، وهم يسلبون من كل دكان شيئاً ، ورأيت فى تلك الأثناء أصوات البكاء والنحـيب ترتفع مـن تلك الناحيـة ، وكان أحد الجلادين يـحضر المسـاكين جـرا ، ووقفوا - الجـلادون - أمام كل دكـان بسـكين مخضبة بالدماء ، يجمعون الأموال ونادى يوسف عمى قائلاً : يا بيك . . . لا تنـظر . . لا تنظر . . . وفى الحـقيقة فإن قلـبى قد انقبض لرؤية هذ الحادثة ، ووضعنـا الركاب على الجياد ومضينا ، ونزلنا بخيمة تقع خارج المدينة .

حيث آبار المياة الغزيرة فى كل مـنزل من منازل الخيام الكبيرة والعظيمة من "خراسان" حتى "طهران" فلو جاء الف زائر من الزائرين فإنهم سيجدون الراحة وكذا المياة العذبة وقد أقيم جميعها بالطوب الـلبن والجص والجير فى غـاية الإحكام ، وجميـعها من الآثار المباركـة للشاه عباس الصـفوى العظيم ، والطـرق المرصوفة الطويلة هـى أيضاً ذكرى عن ذلك الشاه الـعظيم ، فليتغـمده الله برحمته ، وأول شئ يتضح من هذا (أى ما تركه عباس الصفوى) أن هذا الأمير النجيب ، كان محافظاً على الرعية ومحباً للخير كما كان ذا همه عالية ، وعلاوة على هذا فبعد اخضاع "الكرجستان" نقل كـثيراً من سكـان ذلك الإقليم فى المـناطق الحيويـة من هذه البلاد والتى كانت محل سلب ونهب التركمان وغيرهم . وكان قد

أقام القلاع الحصينة والمزودة بالعتاد والآلات بالإضافة إلى النفقات الكثيرة من قبل الدولة والتى يـقوم بحراستها الجنود ، والذين هم أتباع تلك الطائفة فى المناطق المذكورة ، وكانت ما كنت قد سمعته عن وصف هذا المـلك المحنك من أبى كـان كله صدقاً وهو قـليل من كثـير إذا كان يحضُـر والدى المرحوم أثـناء حياته كـل رمضان أربعة قراء من القراء المصريين المشهـوريين لكى يتلوا القرآن الكريم وكان يهـدى ثواب هذه التـلاوة إلى روح ذلك الأميـر المحبوب ، وأنا إن شاء الله علاوة على ذلك سأقـرر كل عام إحساناً آخر منى لذلـك الملك المغـفور له ، ينـفق كل عام ضـمن آثاره الخيـرية ، واعتبرت أنه من الواجب علىّ لو كـان التوفيق حليفى ، أن أرسم صورة لا نظير لها لهذا الملك العظـيم ذى الهمة العالية واضعها فى سياحـتى هذه حتى يـرى العدول من الشعـب صورته فيتـذكرونه بالدعاء والرحمة ،

إن بقيت شهرة طيبة لانسـان . . . . فقد بقى ما هو أخلد من القصر الذهبى[1] وحينمـا لا يحالفنى الـتوفيق فإنى سـأوصى من يقوم بطبع هذه الـسياحة بأن يفعل ما عزمت علـيه ، وربما خريطة لكل إيران فى فتـرة حكمه وراء تلك الصورة ، حتى يـعلم أجيال الشعـب مدى اتساع أرض الوطن المـقدسة ، وأيضاً فقـد وصلت

(١) كَر بما ند نام نيك آز آدمى . . . به كزو ما ند سراى زر نكار

حدود بلادنا فى عصر ذلك الأمير المحبوب إلى بلخ [1] حتى كل سواحل بحر الخزر وجبال داغستان وجبال القوقاز .

ومن بغداد إلى خليج البصرة وعمان ، فقد عانى كل المعاناه وانفق كثيراً من النفقات الباهظة من أجل المحافظة على الطرق وشوارع هذه المملكة المترامية الأطراف وكذلك فقد عمل على ترويج التجارة ، وفى الحقيقة حينما يمعن إنسان النظر فى أوضاع ذلك العصر ، سيعلم أن ذلك الملك كان مهتماً اهتماماً كبيراً بتعمير البلاد ، وكم كان مجداً وساعياً فى العمل على رفاهية الرعية وسعادتها ، خاصة بشأن زيادة تجارة البلاد والثروة القومية والتى هى أهم وسائل الرقى والحضارة ، فلم تغب عن نظره الثاقب نكتة هامة أو حيوية ، وهذه الطرق المرصوفة التى تشاهد فى مناطق كثيرة من أرجاء الدولة لهى دليل ثابت وواضح على أنه وفر التيسيرات اللازمة لوسائل النقل ، ويمكن أن نقول أنه لم تلفت دولة من الدول الأجنبية يوماً ما بالأمور الدقيقة بشأن ترويج التجارة فى البلاد مما يزيد من قوة الدولة ، كما اهتم بها هذا الملك [2] ، وفى الحقيقة فأن تحسين كل تلك الطرق الوعرة،

(١) بلخ : مدينة كبيرة بخراسان ، وتقع شمال افغانستان .
- دهخدا : لغت نامه ، جـ ١٠ ، شمارة (حرف (ب) ص ٢٣٧ .

(٢) ليس صحيحاً هذا القول ، إذ أن هناك العديد من الدولة الأجنبية وعلى رأسها إنجلترا والتى غزت إيران نفسها بتجارتهما فى القرن التاسع عشر ويبدو أن المراغى مبهور جداً بأعمال الشاه عباس الصفوى مما دفعه إلى مثل هذا القول .

ورصفها وإقامة الجسور المتينة فوق ضفاف الأنهار وإنشاء المنزل (منازل القوافل) العديدة ، والمحكمة فى المناطق المناسبة وفتح أبواب الصداقة والعلاقات التجارية مع الدول الأجنبية كان من أجل رقى التجارة .

ومع تعصبه الدينى لم يمنعه هذا من توثيق عُرى علاقات الصداقة مع الدول الأجنبية وقد شجعت أوامره المشددة على احترام سفراء الدول الأجنبية والحفاوة بهم ، وكذلك المحافظة على أرواح وأموال تجار كل دولة من أى تعد أو ظلم ، وتعيين سفراء ذوى دين وعلم فى بلاطات تلك الدول ، وعدم التفريق بين كافة الرعية والمساواه بينهم والعمل على توطيد الصداقة مع الدولة الأخرى بصرف النظر عن مذهبها ودينها ، وهذا نفسه دليل قوى على سموق ذلك الملك العظيم ، وعندما يقارن المرء كل هذا مع أوضاع السلطنات فى ذلك الوقت ، فإنه سيندهش ويذهل من فكره العبقرى ورأيه الصائب .

الخلاصة : إننا ابتعدنا عن الموضوع ، فليس هدفى كتابة التاريخ، ولكن أعمال هذا الأمير العادل المحبوب جذبتنى مضطراً، وكل ما يريد أن يعلم مدى همته العالية وصفاء نيته ودرجة وفائه فى الحقيقى فليقرأ قصة سفره مترجلاً من "أصفهان" حتى "مشهد المقدسة" إذ إنه قطع مائتى فرسخ حافى القدمين ، وفى حين أنه ظل مدة شهر يعانى من قدميه من جراء تلك المسافة

الطويلة ، ولا يمكـن لأحد أن يتحمل هذا العناء إلا بـدافع العشق الحقيقى والإرادة القوية لآل البيت الاطهار الأبرار .

أجل أن الـعاشق يتـبع المعشـوق مضطراً ويـقع فى حبـاله ، ويرى كل عناء ومشقه فى ذلك الطريق غاية الراحة .

"إن السفر فى سبيل طلب الحبيب لا يكون طويلاً ..

ويغدو شوك "مغيلان" حريراً تحت الأقدام[١] .

ويلاحظ أنه لـم يكن يتحدث فـى ذلك السفر أبداً عـن عناء الطريـق ، وكان يتحدث مـع الخدم وغيرهم فى مـنتهى البـشاشة وانطلاقه الوجه ، ومع طول المسافة التـى قطعوها ، فإنه لم يشعر بتـعب الطريـق من « اصفهـان » حتى « مشـهد المقدسـة » وكان يطوى مسافة الطريق عن طـيب خاطر ، فى حين أن الطريق كان مضنياً للـرفقاء ، ومن هنا فقد عانوا كثيـراً من هذا الأمر ، فكان يتلطف بكل رقيق ،وفى كل لحظة كان يمازح الغلمان حتى يصرف عنهم الضيق والملل ، وبهذا فلم يعتبروه تعبا من عناء الطريق .

وبعد أن تشرف بزيارة الإمام الثامن ،وكان فى كل يوم يكنس الروضة المباركة ، وكان يتقدم الخدم فـى خدمات العتبة المقدسة ، وكان ينظـف الشمعدان بيديه ، وكـان فى كل ليلة يقـص بالمقص فتيل الشمـوع ، وذات ليلة أنشد الشيخ "بهائى" عـليه الرحمة ،

(١) سفر دراز نباشد دوست بنزد طالب . . . بياى خار مغيلان حرير ميايد .

هذا الرباعى ارتجالاً ، حينما كان ذلك الملك المؤمن يقص فتيل الشموع ، وهو كما يلى :

كان الملائكة العلويون دائماً ،

فراشة شمع روضة الخلد العليا ،

أيها الخادم استخدم المقص بحذر ،

فأخشى أن تقص الملاك جبريل الأمين[١] .

ويقال أنه فى نفس هذا السفر ، ذات يوم كانوا يقولون إن الشكر لله ، فقد بقى عن ذلك الملك العادل عدة آثار عظيمة وابنية فخمة عالية ، تعد ذكرى عنه فى المناطق الهامة من البلاد .

وليس ببعيد عن خصال الملوك أن يقام العديد من المستشفيات القومية من أجل إتمام كل هذه الأعمال الخيرية والجليلة ، فى بعض المناطق من البلاد .

وكان يرد ذلك الأمير الهمام : "إن كل تفكيرى منصب على المحافظة على صحة الشعب وسعادته ، فكيف استطيع أن أفكر فى مرضهم مجرد التفكير " .

فانظروا بالله أى فكر نقى ثاقب وأى همة عالية وكلام سام.

(١) (أ) بيو سته بور ملايك علیین) (ب) مقراض باحتياط زن / أى خادم)
(جـ) برو أنه شمع روضة خلد بَرَين) (د) ترسم بيرى شهبر جبريل أمين)

حقاً إن كلام الملوك لهو أعظم الكلام ، ففى عصر حكم هذا الملك العظيم بلغ تعداد إيران أربعين مليوناً ، وكان الإيرانيون يعيشون حيواتهم بفخر تام ، وإنى أعلم يقيناً أن كل إيرانى غيور على بلاده، سيحزن لقراءة هذا الفصل ، وسيبكى بكاء حاراً ، واليوم ينبغى أن نتحسر على تلك الأيام السعيدة .

الخلاصة : لا ينبغى أن نيأس بل نأخذ من الماضى العظة والعبرة ، ونسعى لاصلاح الحال وتأمين المستقبل ، فإن السعى والكد سيحملان معهما الخير الكثير ، وعالمنا حافل بالعديد من أمثال الشاه عباس : "(مثل ذلك لم يبق وأيضاً لن يبقى) .

الخلاصة : أننا تركنا "دامغان" وبعد عدة أيام وصلنا مدينة (شهرود بسطام) "وقال حاجى حسين السائس : سنقيم هنا يومين ، ولكن ينبغى عليك أن تنزل فى حديقة لأننا سننزل بخيمة ، لأنه يوجد بهذه المدينة "حشرة الملال" والتى تسبب ذعراً للغرباء بعضّها المؤذى .

قلت لماذا تنزلون هنا مع هذا الخطرالكبير مع أن الأفضل أن نمضى ؟ قال : إن علف الخيول قد نفد وهى منهكة من عناء الطريق ، ولا يصح مع هذه الحالة أن نسوقها حتى "طهران " مباشرة) ، وعلى كل حال ، فقد اضطررنا إلى النزول ، ونصبت الخيام من أجل الإقامة فى حديقة بالقرب من المدينة ،ولما كان الموسم صيفاً فلم يكن هناك ضرر من البقاء تحت الخيمة ، ونقلنا

امتعتنا وخلدنا للراحة قدراً من الوقت ، وتذكرت أن والدى المرحوم كانت له صداقة فى (شاهرود) مع رجل تاجر اسمه "حاجى اسماعيل" وكانا يتنادلان المكاتبة والمراسلة ، ولما إننى كنت اكتب خطاباته بنفسى لذا كنت أعلم اسم المنزل الذى كان يقيم به ، وكذلك مكان تجارته ، فقلت لنفسى إنه صديق والدى وينبغى على أن أذهب لزيارته ، فقلت ليوسف عمى قم لنذهب سوياً ، وسألت عن اسم المنزل واسم الحاجى فدلونى ، ووصلنا منزله ، ولحسن الحظ أنه كان موجوداً هناك ، فألقينا السلام وجلسنا ، وقلت بعد السؤال عن الأحوال : اليس اسمك حاجى اسماعيل ؟ قال بلى ، ولكن اسمح لى إننى لا أعرفكما ، قلت أنا بن فلان الفلانى ، ومقيم فى "مصر" واسمى إبراهيم فاحتضننى ذلك الشخص المحترم عند سماع اسم أبى ، وقبَّل رأسى ووجهى ، وقال أحسنت ، لقد تأثرت للغاية عند سماع خبر وفاة والدك المرحوم ، فليتغمده الله برحمته .

إذ كان رجلا لا مثيل له ، فاللهم يجعلك عوضاً عن ذلك المرحوم .

حسناً فالآن تحدث لأرى من أين تأتى وإلى أين تذهب ؟ . . . إن شاء الله والدتك بخير وسلامه ، سمعت أن لك أختا فكيف أحوالهما ، قلت الشكر لله فهما بخير وسلامة ، فأنا آت من مشهد المقدسة ، وذاهب إلى "طهران" قال لقد سعدت كثيراً

واحسنت صنعاً بتشريفك هنا ، فأنت "ذكرى" صديق عزيز عليّ، حينئذ همس بشئ فى إن خادمه ،وذهب هو ، وعاد بعد نصف ساعة بعد أن أحضر معه صنفين من الكباب وماء السكر والبطيخ الطازج وقال حاجى فى حنو كامل : بسم الله فلنتناول لقمة الغذاء وتجمعنا حول السفرة ، فقال فى أثناء الطعام أين نزلتم؟

قلت فى الروضة الفلانية تحت إحدى الخيام ، فقال لغلامه : اذهب هناك واحضر تلك الأمتعة إلى البيت ، قلت : يقول سائسنا أنه يوجد فى المدينة حشرة "الملال" وأنى لخائف ، وعلى الرغم من أنه أصر عليَّ أن أبقى فى المدينة إلا أننى رفضت ذلك، وقال بعد تناول طعام الغذاء ، هل من عادتك أن تنام أم تشرب الشاى؟

فأجبت أننا لسنا متعودين على النوم فى أوقات القيلولة ، وأن موعد شاينا هو العصر .

وبعد ساعة شغلنا بأمر النهوض من النوم ، وحينئذ قال لابنه : أحمل هذين الضيفين حتى يتفرجا قدراً من الوقت على المدينة وشاطئ المياه ، وأرجعوا إلى البيت وقت العصر ، وبعد العشاء سأوصلكما إلى منزلكما حيث تنامان فى الخيمة ، ورأيت أنه لن يقبل العذر فلا مناص من أننى قبلت ، ونهضنا حيث مضينا ، وقلت إلى أين نذهب ؟

قال يوسف عمى : من الأفـضل أن نذهب إلى أحد مدارس هذه المدينة ، لنتفقد وضعها وسالنا "أغارضاً" أيوجد مدرسة لهذه المدينة ؟ قال نعم : بها ثلاث مـدارس ، احداهن بعيدة جداً وبها أطفالنا ، والأخرى فى سوق النجاريين وهـــــى قريبة ، ولكن لو ذهبـــنا هـنــاك ماذا سنقول ؟ فهـــناك لا يعـــــرفنى أحداً كثـيراً ، ومن الأفـضل أن يكون أحـدنا دائنـاً والآخر مديـوناً ، فنذهب بـــحجة كتــابة إقـرار حتى يتحقق غرضـكم ،وضحكت كثيـراً على هذه الحيـلة ، قلت لامـانع من أن نفعـل هذا ،وقال يوسـف عمى هل سـأسمى بـاسم مصـطنع أم أخبـرهم باسـمى الحقيقى؟ فقــال أغارضاً : تصرف بالطريقة الـتى تحبذها ، (غرض الكاتب مـجرد عبث ومزاح) ، فأطـلق على نفسـك الاسم الذى تريـده ، فلا خوف مـن أن يتجسـس أحد علـى الاسم واللـقب ويحقق فى ذلك ، وتبادلنا حديـثاً مازحاً قدراً من الوقت ، وفجأة ارتفع من النـاحية الأخرى صوت "ابتعد" وأخذوا يـصيحون من كل نـاحية "تقـدم " "قف " "ارتد ملابـسك" ونظرت وأنـا فى غاية الدهشـــة إلى تلك الناحية ، فـرأيت شـــاباً طويل القـــامة ذا شــــاربين مفتــــولين حـيث يمتـــطى صهوة جـواد ، ومعه ثلاثـون شخصاً يـتقدمـون إثر بعضـهم البـعض من الجـــانـبين ممـــسكى العصى ، ويتقدم أولئك شخص ، يرتدى ملابس حمراء

على هيـئة الشيطان ، ويأتـى خلف هؤلاء عشرة جنـود ، فسألت أغارضا ما هذه الجلبة ؟

فأجاب أنه حاكم المدينة وذاهـب فى رحلة صيد ، وقال قفوا بلا حراك أثـناء عبور ذلـك "الموكب" واحنوا رءوسـكم تعظـيماً وإجلالاً ، كمـا يفعل الآخرون ، ولمـا أمعنت النـظر ، رأيت أن الناس يسجـدون من الجهات الست والجوانب الأربعة ، بـينما هو لم يعر أحـداً اهتماما ، وأخذ يفـتل شاربيه الأيمن والأيـسر معاً ، قلت ماذا يحدث أن لم نعظم ؟

قال إنكم تعلمون أن السعاة والخـدم يحيطون به ، ويحملون فى أيديهم الـعصى ، فربما تلقون حـتوفكم [١] قلـت لا أمل أن أخُلدَّ فى الحياة ، وفـى أثناء مرور مركب الحاكم وقفنـا فى منتهى الثبات حيث أدينا التحية معظمين .

" وكان قد وصل البلاء ولكنه مـر بخير وسلام " ولما لم أكن أرى هذا الوضع فى أى مكان أصابنى التعجب والدهشة ، وقلت أن حاكم إيـران مثل حاكـم (مدينة لـندن) البالـغ تعدادها سـبعة ملايين وهو يمر "حـاكم لندن" من أى مكان ومع ذلـك لا يعيره أحد اهتماماً ، ومـا شاء الله أن يكون لحاكم مدينتنـا الصغيرة كل هذا القـدر من الجلال ! وبناء عـلى هذا ينبـغى أن تصبح المـدينة

(١) أى تلقون حتوفكم ، أن لم تعظموا له وتحيوه تحية الإجلال والتعظيم لقدر ذلك الحاكم.

"سلطنة" قلت يا "آغارضا" من أين يعطى الحاكم ما يستحقه هذا الجمع الغفير من الأموال والنفقات ؟ قال ليس لهؤلاء نفقات وأموال ، قلت ماذا إذن يأكلون ؟

قال : إنهم يمرون من الصباح حتى المساء فى الأزقة والأسواق ، وإذا ما تشاجر اثنان مع بعضهما فإنهم يلقون القبض عليهما فى الحال ، ويحملونهما حيث كبير السعاة لدى الحاكم ، ومهما كان النزاع تافها ، فأنهم يأخذون منهم تومانين لكبير السعاة،وخمسة قرانات للنائب واثنين أو ثلاثة قرانات لهؤلاء السعاة ، وبعد ذلك يسمحون لهم بالإنصراف [1] ، وحينما يتقدم أحد بشكوى من القرى المجاورة ، فإن اثنين من هؤلاء السعاة يؤمران بعمل السلب والنهب .

ولو اشتد النزاع إلى حد ما ، فإن أحد الخدم أو السواس أو الجنود أو السقاة ، أو "القهوجية" يأخذ خمسين توماناً أو مائة للأمير وحوالى عشرة تومانات لهم أنفسهم تحت اسم الجريمة والرشوة ، وحينما سمعت هذه الكلمات تسمرت فى مكانى ، وضقت ذرعاً بالسياحة ، وقلت لنفسى ليتنى كنت أعمى أو أصم فلم أر هذا الموضوع ولم أسمع هذه الكلمات ، فإننى أشتريت البلاء لنفسى مع العناء والمال الوفير الذى انفقته فى سبيل ذلك.

(١) فلننظر كيف يحصل الموظفون على رواتبهم ، أنهم يمارسون السلب والنهب والتلصص فى الأذقة والأسواق بغيه الحصول على الأرزاق .

الخلاصة : وصلنا المدرسة ، وهذه المدرسة موجودة فى سوق النجاريين وكان طولها تخمينا ثلاثين ذراعاً ، وعرضها عشرة أذرع ،وكان يتجمع هناك أكثر من مائة تلميذ من الأطفال الأبرياء ، وقد افترش بعضهم الأرض من أجل التعليم ، وبعضهم كان يجلس على قطع من السجاد ، وجلس نفر منهم فوق الحصير والباقون فوق قطعة كليم ، وكان معلمهم شيخاً معمماً [1] ودخلنا المدرسة ، وألقينا السلام ، فلم يسمع المعلم سلامنا من جلبة الأطفال ، وانزوينا فى جانب فسأل المعلم ما هو الموضوع ؟

فقال يوسف عمى : إننى مدينون لهذا الشخص بسبعين تومانـاً ، وأرغب أن تكتب حُجة باسم هذا الشخص من قبلى بالمبلغ المذكور ، فقال حسن جداً ، ما اسمك : قال :عبد الغفار واسم السيد ؟ قال إبراهيم بيك ، وسأل أيشترط هوان تبيع شيئاً؟ قال : نعم "منزلى" فسأل أين المنزل ؟ قلت : فى "أردبيل" وماذا ستدفع له فى الشهر ؟ قال تومانا شهرياً ، وكتب المعلم الحُجة لمدة ستة أشهر ، وقرأ علينا الحجة ، بعد اتمامها ، أعطيته نصف قران وأخذت منه الحجة ، ورأيت أنه مسروا للغاية ، فقلت الديك كثير من التلاميذ ؟ قال نعم وأن كان البعض الآخر

(١) واضح أن هذه المدرسة : احدى المدارس القديمة التى تخرج أئمة المساجد والملات ، وليست من المدارس الحديثة التى تمثل النوع الثانى من المدارس فى إيران .

لم يأت اليوم ، وسألت ماذا تعلم الأطفال ، قال بعضهم يتعلم الأبجدية وبعض منهم يتعلم (جزء عم) ومنهم من يتعلم القرآن المجيد ، ويتعلم التلاميذ الكبار الذين جلسوا فى هذا الصف الكلستان والبوستان / وحافظاً وكل شئ قلت يا جناب المدرس أى دخل لحافظ فى الدرس ؟ قال يعنى ماذا ليس لحافظ الشيرازى دخل فى الدرس ؟ قلت معلوم أن ديوان حافظ عبارة عن أشعار عميقة فى التصوف والتى قلما يفهمها أحد من القراء ، فماذا يمكن أن يستفيد هؤلاء الأطفال من قراءة تلك الأشعار ، والتى فى ظاهرها كلها حديث عن الخمر والمحبوب والمحبوبة والغزل ، قال فى أردبيل بلدكم ماذا إذن يعلمون الأطفال فى المدارس ؟

قلت ليست أردبيل بلدى ، قال أذن أين ؟ قلت قطعة أخرى من كرة الأرض ، قال واضح من حديثكم أنها ناحية «شيراز»[1] وبغداد ، قلت ليست أى ناحية منهما بلدى ، بل بلدى "أفريقيا" قال ينبغى أن تكون أفريقيا بالقرب من سلماس [2] إذا أننى رأيت كثيراً من المعلمين هناك ،قلت نعم لكنكم ينبغى أن تعلموا الأطفال الجغرافيا والهندسة ، قال وما الهندسة ؟ قلت أتجيد تعليم الحساب ، أيمكنك أن تجعل مقاييس الأرض (إنخفاض الأرض وارتفاعها) معلومة ؟

(١) شيراز : مدينة مشهورة ، وهى قصبة فارس فى الاقليم الثالث .
- الحموى : معجم البلدان جـ ٣ ، ص ٣٤٨ .
(٢) سلماس : مدينة مشهورة بآذربيجان .
المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ١٣٠ .

قال إنـنى أعرف هذا ، إذ أعـلِّم الأطفـال حساب الديـنار ، وأعرف أيضاً الهندسة ولكن لا أعلمها للأطفال .

قلت اكـتب شيئاً مـن الجمع والقسـمة مما يعد أولـى مراحل الحساب لنرى ، قـال ماذا أكتب ؟ قلت أكتب الفا ومـائتين وأربعة وثلاثين فكتب الأرقام بـهذا الشكل "٣٠٤ ٢٠٠ ١٠٠٠" قلت يا جـناب المعلـم ، إن هذه الأرقام تجـاوزت المليار ، الخـلاصة : أردت أن أسأل الأطـفال عـن شئ أيضـاً ، فلاحظـت أن معـظم أوقاتى سوف يتعكر صفاؤها ، فصرفت النظر ، وخرجنا من هناك سائرين وذهبنـا إلى منزل حاجى ، وبعد أن جددنا وضـوءنا قابلنا "الحاجى" حيـث كان ينتظرنا فأحـضر لنا الشاى . وسأل لـعلكم قضيـتم وقتاً طيـباً فى التجول ، قـلت لماذا ؟ فرأيت أغـارضا بن الحاجى قد أخذ فى الضحك ، فسأل حاجى لماذا تضحك يا رضا؟ قال السادة الـضيوف المحترمون أحـوالهم عجيبـة ، إذ عندما رأوا حاكـم المدينـة والسعـاة والجنود ، أصابـتهم الـدهشة مـن صوت "ابتعد" "اذهب" "قف" متساءلين مـا هذه الجلبة ؟ ولا يعلمان إن هذا هو الأمير وحـاكم المدينة ، فتنهد الحاجـى المسكين ، قال أجل يا بنى إن ضيوفنا لـم يروا مثل هذه الضجة ، ولسوء الحظ أن هذه الأعمـال منحصرة فى إيـران والإيرانيين ، وليسـت هناك أى منطقة على سطح الأرض يتحكم فـيها الحكام بهذا الشكل ، ففى كل مكان تفنن سلطات الحكام وتحدد واجبات الرعية .

أما فى إيران فعلـنا نحن التعساء أسرى أحكـام هذه القلة من الفراعنة والنماردة[1] وتابـعون لأغـراضهم الـشخـصيـة ، إذ إنه بأيديهم أرواحنا وأعراضنا وأموالنا ، ولا تبعة أو مسئولية عليهم ، وصاح "قائلا" آمـالنا لم تتحقـق ، واليوم تخلص زنـوج الحبشة وغيرهم من قيود الأسر والظلم ، وحصـلوا على جميع حقوقهم الإنسانية ،أما نحـن ففى كل لحظة يضيّقون عليـنا الخناق أكثر من ذى قبل ورأيـت أن قلب حاجى مملـوء بالهم والحزن أكثـر منى ، وبعـد ساعة من الحـديث وانتـهاء العـشاء ، أضاء خادم الحـاجى الفـانوس وأوصـلنا إلـى المنـزل ،وفى الـصبـاح رحّب الحـاجى بروءيتنا ، وبعد شرب الشاى وتناول النرجيله ، نهض حاجى وقد وعدنا بقضاء ليلة أخرى ، ولما كان مقرراً ، أن نرحل فى منتصف الليل فـقد اعتذرنا وودعناهم ، وفـى منتصف الليـل غادرنا ذلك المكان ، وقد وصلنا "خاتون آباد" بـعد أن قطعنا بعض المنازل [2] وخاتون آباد تـقع قبل "طهران" بفـرسخين ، وكنا قد تحـركنا من مشهد المقـدسة منذ ستة وثلاثين يـوماً ومن الممكن لعربـة السكة الحديد أن تجوز كل هذه المـسافة فى مدة ثلاثة أيام بلياليـهن بمنتهى الراحة وبأقل تكلفة .

(١) يشير الكاتب إلى حكام إيران بالفراعنـة ، والنماردة لكثرة ما عرف عن هؤلاء الحكام من ظلم وتعدى .

(٢) المقصود بالمنازل المحطات فى الطريق .

ومن الظلم البين أن يحرم الإيرانيون من هذه النعمة العظيمة ، فليتغمدهم الله برحمته .

الخلاصة : إننا رحلنا من هناك فى وقت السحر ، حيث وصلنا المدينة ، وسألت حاجى حسين السائس ، فى أي منزل تفضل أن ننزل به ؟ قال حارس منزل حاجى محمد حسن صديقى وسأحملكم له هناك ، وهو نفسه رجل طيب أيضاً ، وبعد ذلك سأترككم وأظن إننى لم أقصر فى أداء خدمتكم .

الخلاصة : ذهبنا حيث كانت هناك حجرة خالية لنا ، وودعنا حاجى حسين ورحل ، فغسلنا وجوهنا من غبار الطريق ، وأحضر الحارس السماور ، وارتشفنا الشاى ، فقال يوسف عمى لنذهب إلى الحمام ، قلت بعد زيارة حمام مشهد المقدسة قطعت عهداً على نفسى بأن لا أذهب إلى حمام آخر فى إيران ، فقال هنا " طهران " وهى عاصمة الإسلام الكبرى ، فلعلها تختلف عن حمامات مشهد ، قلت اذهب أنت اليوم ،فلو كان الحمام نظيفاً فسنذهب سوياً غداً ، فحمل يوسف عمى معه الملابس والفوطة ، وذهب إلى الحمام بإرشاد الحارس له وشددت العباءة على رأسى ونمت ، وعندما خلوت بنفسى ، وكان يوسف عمى يوقظنى قلت: ما حال الحمام ؟ قال : إن ماء الحمام هنا رائحته كريهة ، ولكن هناك " خزينة صغيرة لا يدخلونها " [1] فلو أردت

(١) الخزينة هنا أشبه بحوض صغيرة من الماء .

أن تحضر مـاء نقياً من هـناك ، فأنهم يسـرقون حافظتـك ، قلت حسـناً فلنـذهب غدا ، فنـاديت علـى الدليل فـأتى ، وسألتـه ما اسمك؟ قال مشهدى عبد الله ، قلت دلنا على محل كباب جيِّد ، قال : اتجهـوا إلى الجهة الـيمنى من هـذه السوق وهنـاك محلان متقابلان ، والمحل الجيد فى الناحيـة اليمنى وهو نظيف كعادته ، ولاحظت أنه ينبغى أن يكون معـنا دليل ، فى هذه المدينة دائماً ، فماذا نفعل ؟ ومن أين لنا بالعثور على مثل هذا الرجل ، وأخذت أسير مفكراً فى هذا الأمر ، ورأيت أثناء الطريق رجلاً أجنبياً قصد أحد الإيرانـيين ،وتحادثاً الاثنان مـع بعضهمـا باللغة الإنجلـيزية ، وكان الإيرانى يتحدث اللغة مثل الإنجليز بطلاقه ، على نحو وكأنه أحد الإنجـليز ، فتـعجبـت كثيـراً ، حيث أنهـم لا يدركون أنـنى شغلت نفسـى من ناحية أخرى مصغياً لحديثـهما ، وسأل الإيرانى كيـف الحال ،قال الإنجـليزى : عـلى ما يـرام وحقيـقة لم أفـهم موضوع الثلاثـين ألف تومان والتى هى من أجـل الصدر الأعظم وهو آخر مبلغ نـوَّه به لشخص السلطنة ، وقال غـدا أيضاً سيوقع جلاله هـمايون [1] وبعـد ذلك انفـصل كل منـهما عـن الآخر ، ورحل الإنجليزى بينما رحت أنا أمعن فيه النظر .

قلت ياللعجـب كيف تعلَّم هذا الإيرانى اللغة الإنجـليزية بكل هذه الفصاحة والسلاسة ، وكأنه أدرك ما كنت أفكر فيه، وسألنى

(١) هنا الكاتب يشـير إلى الرشاوى التى كانت تقدم إلى الصـدر الأعظم والملك من أجل أن يحصل الإنجليز على كل ما يريدونه من امتيازات وقروض ، إذ كان المال هو مفتاح كل شئ لهم.

لماذا تنـظر إلى منـدهشا أيهـا المواطن ؟ قلـت فى الحقيـقة أن كل دهشتى بسبب طلاقة لسانك فى اللغة الإنجليزية ، فأعجبتنى كثيراً قال لعـلك على درايـة باللغة الإنجـليزية ، قـلت إننى ألـم بها ، فسـألنى بـالإنجلـيزية فـأجبتـه فتـعجب هـو الآخر لمعـرفتـى هذه اللغة، فـسأل أين تذهب ؟ قلت إلى مـحل كباب حيث نتـناول فيه الغذاء، قال إذن ينبغى أن تكونا ضيفى ، فأجبته إن كرمك لزائد ، فاسمح لنا «ودلنا على محل جيـد ، وتفضل تتناول معنا الطعام ، وسوف نكون شاكرين لك ، فدلنا علـى محل هونظيف بالفعل ، ويختلف عن حال الكباب فى «تفليس» وهو فاخر جداً ، وسألت أثنـاء الحديث مـا عمل ذلـك الإنجليـزى ؟ وماذا ال قـال هذا الرجل هو مـندوب الشركة البريطـانية ، جاء طهران لكـى يحصل على بـعض الامتيازات واحـتكار المعادن فـى دولة إيران ، والآن كان يقول تم الأمر وأخـذت الامتياز ولعله أعطـى الصدر الأعظم ثلاثين ألـف تومان كرشـوة وليس من أجل المـملكة ، قـلت أين تعلمت اللـغة الإنجليزية ؟ قال : كنت قد أقمـت فترة فى بمباى ، وهنـاك تعلمـت ، وقلت آمل أن تـتم كرمك وتـذهب معنـا إلى المنزل ، فنتحـدث قليلاً ، فقبل واتينا إلى المـنزل ، وأثناء الحديث سأل عن سبـب سفرنا وسأل عن اسمـى وجنسيتى ،قـلت أنا من أصل إيرانى ، ولـدت فى "مصر" واسمى إبراهيـم ، وقد جئت من مصر من أجل زيارة "المشهـد المقدس "ومن هناك دخلت من أجل السياحـة وسألت أنا بدورى عن اسمـه وبـلده ، قال اسمى

"مشهدی حسن" والمشهور (بحسن کرمانی) ، قلت آمل منك بالذات أن لا تنسانا ، ولا تقصر فی کرم ضیافة الغرباء فی هذه الأيام المعدودة ، والتی نقیم خلالها فی هذه المدينة ، قال حباً وكرامة ولكن قل لى ماذا تعملان فی طهران ؟ قلت ليس لنا عمل أو مهمة محددة ، وإن كنت فى الحقيقة آمل أن أصل لخدمة عدد من كبار الوزراء في هذه المدينة ، إذ لدى بعض الاقتراحات والعروض أريد أن أعرضها عليهم ، ولكن لا أعلم فی يد من يكون مفتاح هذا الباب المغلق؟

وغير معلوم لدى أيضاً كيف أحصل على الشخص الوسيط الذی یساعدنی فی تحقیق هدفی [1] قال لعلك ستقدم طلباً وتحتاج فلاناً كوسيط ، قلت لا أريد أن أقول أحاديثى بنفسى لمن أراه .

قال إنى لا أعرف مثل هذا الوسيط ، فلو كان التوسط أو الالتماس من أجل عمل فإنى أعرف مثل هذا الوسيط ،ولكن لا أعرف الشخص الذى يجالس الوزراء ويأخذ بيدك،قلت من هو ذلك الشخص الذى تجعل منه "الواسطة" وتطلب منه الالتماس؟

(١) لقد ذكر إبراهيم تيمورى فى كتابه "عصر بن خبرى" نقلا عن اللورد كرزون : انه لم تكن تتم مهمه من المهام إلا بوجود شخص ثالث بين الطرفين كوسيط مما أدى إلى ظهور الرشوة ، وأصبحت هذه الرشوة لا تقتصر على المعاملات التجارية وأمور التوظيف والاستخدام بل أن الوساطة أو الرشوة قد تسربت إلى أى نوع من الأعمال والأمور الاجتماعية أيضاً أنظر : .
- عصر بن خبرى ، ص ٢٥ .

وما اسمه ؟ قال لا شأن لك باسمه ورسمه ، فهوصديق حميم لدى ويحبه كل الوزراء ورجال الدولة ، وجميع الأفراد فى هذه المدينة يعملون . واليوم فى طهران كل من يحتاج إلى واسطة فى العمل أو من أجل العمل بمعنى أصح يرجع إلىّ ، فآخذ عشرة تومانات " ممن يريد العمل " وأعطيها له وبذا ييسر الحصول على ذلك الأمر. وكل عمل يتم عن طريق تلك الواسطة يعطينى عشرة، قلت : أيها الصديق أعطيك تومانين وسأعطى ذلك الرجل ما يريده ولا شأن لك به ، وأريد منك بالمناسبة أن تدلنى عليه ، قال لك ما تريد ، ولكن سأخبره أولاً فإن قبل هذا ، نذهب غدا ، وأعلم جيداً أنه سيقبل ، لأنه رجل طيب وهو تركى وهو يحب الاتراك ، وهو رجل مزاح وظريف وهو يمقت التكبر والغرور .

الخلاصة : رحل (آغا مشهدى حسن كرمانى)، وفى الصباح عاد وقد مر أربع ساعات من اليوم ، وقال رأيت تلك الواسطة وعملت اللازم ، فلنذهب بسم الله ومضينا فى طريقنا ، وبعد أن قطعنا مسافة طويلة وصلنا إلى جسر مظلم ، وهناك تذكرت لماذا لم أحضر يوسف عمى معى ، وتوكلنا على الله حتى بلغنا آخر الجسر ، وطرق صديقى الباب ففتحوا لنا ، فرأيت شيخاً يناهز السبعين عاماً ، وعلى رأسه قلنسوة من اللباد وقد توشح بوشاح حولها ، ذا لحية حمراء ووجه أسمر ، وكانت هيئته تنبئ عن هم وحزن ، ولم يبق له سن من أسنانه ، وكانت عيناه نصف

الميتتين تحدقان فى البيت ، وكانت ملابسة قذرة ومتسخة بشكل لا يرى ، ولم يكن من اليسير تمييز لون جزء من ملابسه ، وسأل مشهدى حسن هل جاء حاجي الخان ؟ قال نعم ، تفضلا فإنه ينتظركما ، وعندما وضعنا أقدامنا على الدرج المؤدى إلى الحجرة، نفرت من رائح العرق الكريهة ، وضقت ذرعاً ، وكأن صالة البيت لم تر مكنسة مند عهد نوح [١] ، فالبيت كالمزبلة ، وعندما وصلنا حافة الحجرة ، رفع الشيخ الستارة لكى نرى أفضل ، ورأيت حاجى ملا محمد على المشهور ، يجلس فى صدر الحجرة فى شموخ ورزانة تامين .

فدهش كل منا عند رؤيته للآخر ،وتعرفنا على بعضنا ، فنسيت السلام من شدة دهشتى أيها الملا الصديق، أين انت وأين أنت هنا قد أصبحت خاناً [٢] ، وكان هو أيضاً مذهولاً ،ولكنه فهم بسرعة البديهة ونادى فى صوت عال ، أحسنت يا إبراهيم بيك أحسنت ، تفضل ، تفضل ، فنهض وتصافحنا وتعانقنا ، لكننى كنت أحدثه بالتركيه ،وكان هو يحدثنى بالفارسية ، فانا أذكره بالماضى وهو يحدثنى عن الحاضر ، وفى النهاية ، وضع يده علىّ لحيته وأشار قائلاً : إن هلاكى فى هذه الكلمات فامسك

(١) واضح أن الكاتب متمكن فى استخدامه الأسلوب الساخر التهكمى ، والذى تميز به كتابه بمجلداته الثلاثة وعلى الأخص المجلد الأول .

(٢) أورد باقر مؤمنى فى تحشيته على هذا الكتاب هذه العبارة بالفارسية (ياروملا ، توكجا اينجاكجا ، لوده خان رشدى) .

- باقر مؤمنى : سياحتنامه إبراهيم بيك ص ٥٠ .

عليهـا ولا تضيعنى ، ففهـمت أن له حكاية مع مشـهدى حسن ، ولا يريد أن يقلل من شأنه عنده ، فغيرت الحديث إلى شئ آخر ، لا أقول اسمح لى " برأسك المبارك ومقامك العالى " فرفعت من شأنه فرأيـت أن الملا قد هدأ واستراح إلـى حد ما ، وبدأ يستـعيد مكـانته ثانـية ، وأخذ فـى السؤال عـن الأحوال قائلاً : مـا هى الأخبار فى مصر؟ وكيف يتعامل خديوى مصر مع السفراء [1] فبلا شك أنك رأيت السـفير فى إسلامبول فماذا يعـمل الحاكم "كراف شرمه فتوف " فى تفليس ، فهو صـديق حميم لى وخليل افندى السفير العـثمانى هناك رجل طيب جداً وأصـيل ، وما هى أحوال تجارة الإيرانيين فى تلك المدن ؟ وكنت أجـيب على كل اسئلته فى منتهـى الاحترام ، نعم يا سـيادة الحاجى الخان . . برأس جـنابك المبـارك وما إلى ذلـك ، وتحدثنـا على هـذا النحـو نصف سـاعة واستـأذنت ، وفى منـتهى الأدب عظـمت تواضـعاً له وسرنـا فى طريقنا ، ونادى على من خارج الحـجرة الثانية ، وهمس فى أذنى بصوت خفـيض قائلاً تعال هـنا الليلة المـقبلة ،وسوف يكـون لنا حديث سرى وودى أيضاً عن آلامنا وهمومنا واحتياجاتنا وسنتناول العشـاء سوياً قلت لـك ما تريد ، وهـل اصطحب يوسـف عمى

(١) واضح أن ملا محمد على يريد من سؤال إبراهيم بيك عن خديوى مصر وباقى السفراء يريد أن يحتفظ بالمكانة التى يحظى بها فى طهران ، فلا تهتز هذه المكانة فيفضح أمره لدى مشهدى حسن وغيره من الإيرانيين فى طهران .

معى أيضاً ، قال يستحســن أن تحضره معك وفى هذه المرة ودعته وقفلت عائداً .

ووصلنا السوق فقلت لمشهــدى حسن فلتأت غداً ، فعسى أن تكون فى غــير جهد وعناء ، فــنذهب إلى الحمام الــفلانى ، ولم أقل إنــنى وعــدت الحاجــى الخان كى نــعود فــى اليــوم التــالى ، ووصلنا المنزل وأنا أترقب المقبل فمتى يحين وقت المساء ، فنذهب سوياً إلى منــزل الحاجى الخان ، لنرى من أين صــار خاناً (حاجى ملا محــمد على الصــعلوك هذا) ؟ وكــيف أصبح واسطــة حتى يرجع الــناس إليه ، وأصبح مــن الضرورى أن نعرف القــراء بشئ قليل من سيرة حاجى ملا محمد هذا .

وأدون أسباب مــعرفتى به ، حتــى يعلم القراء مــن هو ذلك الشخص الذى انحنيت له تقديراً وتعظيماً عند دخولى وكذلك عند خروجى ، فأذن لى وانصرفت ، ذات يوم كنت قد جلست اساعد والدى المرحوم فى "مــصر" فوجدت برقيه كانــت قد وصلت من ميناء الإسكندرية باسم والدى ، فحواها :

"أريد أن أزوركم فإن كنتم فى مصر وليس هناك مانع فلتردوا على البرقية "

إمضاء

جعفر تبريزى

فقال والدى المرحوم إن هذا الشخص من أصدقائى المحترمين فلعله يحج ، فاكتب خطاباً حتى يأتى فأنا فى انتظاره ، وكتبت وذهبت أثناء الغروب إلى محطة السكة الحديد لاستقباله ، وعندما وصلت عربة السكة الحديد كان هناك أربعة ضيوف ، وكان (ملا محمد على) نفسه أحدهم ، وكان رفقاوءه الثلاثة قد تحملوا كل نفقته لأنهم وجدوا فيه أنيساً يمكن أن يروح عنهم ، ولعلهم كانوا رأوه فى "إسلامبول "

وهذا الرجل حاضر البديهة ، كثير المزاح ، وهو خفيف الظل وعلى خلق كريم ، فكان يحكى الحكايات والنوادر ، والتى كانت مثار تعجب المستمعين ودهشتهم . ومن بين هذه النوادر أنه قص ذات يوم سيرته والتى كانت تنقل المستمع من حيرة إلى أخرى فكان يحكى "إنه ذات يوم أعطانى لأحد تجار أذربيجان ستين ثوباً من الحرير لكى ابيعها فى "تفليس"[1] فحملت البضاعة إلى تفليس ، وبعد أسبوعين من دخولى المدينة جاءنى خطاب من المالك يقول فيه "أريد نقوداً " ، وعند وصول الخطاب أرسل حواله بريدية بمائة إيمبريال والتى كنت قد أخذتها ، فسألت أين يبيعون الحوالات ، فأخبرونى أن فلاناً ممن يبيعون الحوالات ، فذهبت إليه ، قلت يا حاجى ، أريد حوالة بمائة إيمبريال ، فكتبها وأعطانى أياها دون تردد ، ولما أنه فى ذلك الوقت كان للناس فى تفليس طريقة معينة للتعامل مع بعضهم ، إذا كانوا يقرضون

(١) إحدى المدن الروسية .

الحوالـة لمدة أسبوع ، ولمـا وصلنـى خطاب آخـر من المالك بـعد أسبوع آخر يقول أرسل مائة إيمـبريال ، ذهبت إلى تاجر الحوالات وأرسلت حوالة بمائة أيمبريال والتى كنت قد أخذتها .

ولم تمر عدة أيـام على هذه الحادثة حتى رأيـت فجأة أن غلام الحاجى قد جاء للمطالبة بحق الحوالة ، قلت ليس معى نقود ، إذ ينبغى علىّ أن ابيع أقمشة الحرير ، فغضب صاحب الدين قائلاً : ما هـذا الحديث الـذى لا جدوى منـه ، وبعد مـشادة طويـلة ، وجدال بـيننـا ، اضطرنـى الدائن إلـى أن يسـحب ملـكيتـى من الأقمشة الحريريـة ، وبعد فترة من الوقت استُدعـيت فى "تبريز" فذهبت فقال المالك بعد سؤالى : أعطنى كل ما أحضرته معك من مال ، قلت ليـس معى مال ، وتحدثت عن حادثـة الحوالة ورهن الدائن للحرير ، وأسرع صاحب الشكوى إلى الحاكم لكى يعرض موضوعى عليه ، وصدر حكم من قبل الحاكم من أجل حضورى وتحديد الحكم ، وعقد المجلس عدة مرات ، وطلبوا منى الدفتر ، قلت أين الدفتر يا والدى ؟[1]

فقد اشتريت ورقتى حوالة وأرسلتهما هنا ، وكان معى صورة منهما ، فأخذهما الدائن ، وكـان قد كتب ذلك أيضاً فى جزء من

(١) هنا يطـالب أعضاء المجلس "مـلا محمد على" بـدفتر التجارة ، فـى حين أن المالك الحقيقى لهذه التجارة لم يمهل "ملا محمد عـلى" لكى يعد دفتراً أو سجلاً لهذه التجارة إذا كان كل أسبوع يطالبه بحاجته إلى المال ولهذا رد ملا محمد على متعجباً حينما سئل عن دفتر التجارة.

الورقة ، ولا أعلم ماذا حدث فى هذا النزاع ، وعلى الفور كتب السادة المصلحون الكرام والذين هم ممثلوا المجلس حكماً وأصدروه فحواه : إن ملا محمد على قد أقر بقوله : "إننى ضيعت دفتر تجارتى ، وحملوا صورة من هذا الحكم إلى حاكم المدينة ، ولم يكن الحاكم نفسه موجوداً فى تبريز ،فأصدر الابن الحكم بدلاً من أبيه ، وهو شاب صغير كنائب للحكومة ، وحملونى إلى حضرته ، وحينما ذهبت أعرض حجتى انحنيت تعظيماً للحاكم الشاب بالقرب من نافذة القصر ، فقال : يقولون يا هذا انك ضيعت دفتراً ، قلت نفسى فداوءك لم أضيع الدفتر الفلانى . فلم يهتم بحديثى ، وقال : احملوه وانظروا فى أمره، فأمسكوا بى وكان الساعى يعرف أخى ، فقال للسعاة إنه لم يرتكب جرماً كبيراً ، فضعوه فى حجرة ، وحملونى حتى باب غرفة السجن ، فرأيت السجّان يحضر السلاسل والأغلال ، فقال الساعى : لا تشقوا عليه ، فقد أمر ساعى الحاكم أن تضعوه فى غرفته ، فليس هناك جرم عظيم ، فرأى السجان ليس ثمة فائدة كبيرة له من ورائى ، فلم يسقنى من شدة غيظه ، وكان أخى من وقت لآخر يحضر الطعام فطلبت منه الماء ، ومكثت حبيساً هناك على هذا النحو مدة أربعة أيام ، وكنت قد جلست فى اليوم الخامس بجوار النافذة ، فرأيت تاجراً من التجار الذين أعرفهم عند الأمير الحاكم ، فلما رآنى ،قال : ماذا تفعل هنا أيها الملا

الصديق [1] ؟ قلت إنهم جاءوا بىْ إلـى هنا ولا أدرى ما هو ذنبى وجرمـى ؟ فذهب "الـتاجـر" وظننـت أن هذا الشـخص صـديق للحاكم، وليـس بعيداً أن يلتمس لى العفـو عنده ، ورأيت أنه مر بالقرب من النافذة ولم يقل شيئاً .

لكن اتضح بعد ذلك أنه قال للأمـير إن عندك شخصاً سجيناً كثير المـزاح فلا تغفل عن محادثـته حتى تحظى بمزاحه وفـكاهته ، ولم يمر قليل من الوقت على عـودة ذلك الشخص "التاجر" حتى رأيت أن الخادم قد أتى وقال : إنهم يريـدونك ، فذهبت معه عند الحاكم فقال : تقدم ، فذهبت ووقفت بعد أن انحنيت تعظيماً .

فقال الأمير سمعت يا والدى أنك تحسن الحديث ، قلت ماذا أقول ؟ قال أى شئ ، قلت : ثانيـة ماذا أقول ؟ فيئس واضطرب وقال ضائـقاً "قل أمس" فقلـت أيها الأمير لـقد خطر ببالـى مثلُ الآن ، وحينما تسمح لى ، سأقوله ، قال سمحت لك فتحدث ، قلت ذات مرة كانوا يتـحدثون حديث النميمة على أمـير حر بسيط مثلك قائلين إن خادمك فلانا طفل لاه فطلب الأمير ذلك الخادم وقال يقولون يا بـنى إنك طفل تلهو فأجاب "ومـاذا أقول" فيصر الأمير ضائقاً ، ويـقول ينبغى أن تقول الصدق فـيقول الخادم أيها الأمير أى شئ أصدق فيه ، فلو قلـت إننى طفل الهو وأنت شاب

(٢) أورد باقر مؤمنى هذه العبارة بالفارسية هكذا (يار وملا اينجا چكار ميكنى) .
- باقر مؤمنى : سياحتنامة إبراهيم بيك ، ص ٥٣ .

نقى مستقيم فبلاشك حينئذ ستطردنى من الخدمة ، ولو قلت أننى لست طفلاً لاهيا أيضاً ، فربما قد تؤذينى ، وبدهى الآن أن تقول أنت ماذا أفعل(وأنا) المجنى عليه ، وكيف أجيب ، فإن صلاحى ليس فى هذا الأمر، وكنت قد أسعدت الأمير ، وبدأ فى الضحك فى صوت عال ، وقال اجلس فجلست ، وبدأت فى أحاديث كثيرة وطويلة عن أوروبا وأمريكا والوضع السياسى للدول والاختراعات الحديثة للغرب وضخامة مدن لندن وباريس ، وكان حديثى فى المجلس كله كذباً ، وبشكل مبالغ فيه ، فأخذ الجالسون يرمقوننى بنظراتهم مندهشين فى حيرة من أمرى .

ومرت أربعة أيام وحالنا على هذا النحو ، وذات يوم قلت للأمير هل من الممكن أن تسمح لى أن أحضر أخى بدلاً منى فى السجن ، وأذهب أنا لأقوم بإصلاح هذا الأمر ، فرضى فأحضرت أخى وتركته هناك ، وسعيت فى كل مكان وطرقت كل باب ، حتى غيرت جوهر الموضوع إلى حد ما ، وخلصت نفسى وأخى وبعد أسبوع تمنيت أن أذهب إلى "تفليس" ثانية ، فبعت من البيت بعض القطع النحاسية من أجل نفقة الطريق كى أذهب إليها.

وأخذت تذكرة الطريق ، ووقت العصر رأيت غلام حاكم القرية قد أتى ويقول : السيد يريدك ، فذهبنا سوياً وألقيت السلام فرد التحية فى طلاقة وجه وبشاشة ، وقال : تفضل

يا ملا محمد على ، وأذن لى بالجلوس ، وقال سمعت اليوم أنهم سجنوك! والقوا بك فى محلة أخرى ليبُت فى أمرك ، ولم يقدروك حق قدرك ، فلماذا لم تخبرنى حتى أقتص لك منهم ، ليرحم الله والدك الذى كان دعامة هذه المحلة ، وقلما تجد إنساناً بهذه الدرجة من الطيبة ، وله أياد بيضاء على ، لا ، لا ، كيف يمكننى أن أرضى بأن يتعدى عليك الآخرون ؟ كان ينبغى على أن أقوم بهذا الأمر منذ البداية ، فعقبت بارك الله فيك ، فلتكن مساعدتك فى شئ آخر فقد انتهى هذا الموضوع ، قال لا ، لا ، لا يمكن أن يلقى القبض على رجل نجيب مثلك فى محلتى ، إذ اساءوا اليك وسجنوك ، ينبغى أن أعاقبهم شر عقاب . ولا يمكننى أن اتغاضى عن مثل هذا العمل المشين ، قلت يا حضرة الحاكم إنه أمر وانتهى وليزد الله فى عمرك ، شئ آخر . . . . انتهى ، وأنا أيضاً أخذت التذكرة وغدا سأذهب إلى "تفليس" ولم أنه حديثى بعد ، حتى جلس الحاكم وهو يشتاط غيظاً ، وقال كيف . . . . كيف ستذهب إلى تفليس وتتغاضى عن "ابن المحروق "

"ابن القحبة"(1) ؟ فإنك الآن كرهت المدينة كلها ،، والآن جاء دورنا لكى تدعو علينا وتظن بنا إننا "نواطير بستان" (2) ولعل بن المحروق قد ذهب به الظن إنه لا قيمة لى ، إننى أسئ لأبيك

(1) أوردها الكاتب : مادر قبحة .

(2) المقصود من (نواطير بستان) بمعنى : لا قيمة لنا فى المدينة.

حينما تتغاضى أنت ويقال إنهم أساءوا معاملة شريفنا والقوا به في سجن الحاكم .

وقد علمت أمي المسكينة فباعت الجزء المتبقى من أثاث المنزل بنصف الثمن ورشت الحاكم فخلصتني منه ، وفي صباح ذلك اليوم ، ودعت "تبريز" الوداع الأبدى ، ويممت وجهي شطر "تفليس" إذ إنني حتى الآن لم أر تبريز ، وكان لدى الملا الكثير من نوع هذه الحكايات والقصص ، وكان يحكى منها في المجالس مما جعل الناس في دهشة من تلك النوادر والحكايات ، وكان يقضى أوقاته متنقلاً من مجلس لآخر على هذا النحو ، وكان غيرمكلف بنفقه الأكل والشراب ، حتى إنهم كانوا يتحدثون على مائدة الطعام حول كثير من البلاءات والأحاديث المازحة به ، وكان يتحمل ولم يبد ضيقه أبداً بل كان يشع الدفء في المجلس ، وعلى هذا النحو كان يقضى الليل والنهار، وينبغي أن نتحدث عن خصائص هذا الشخص في عدة كلمات أولها : أن رأسه قرعاء ، وثانيها :إن عينيه صغيرتان غير لامعتين .

إذا إنه لا يرى أمامه أكثر من عشرة أذرع ، وثالثها : أن أسنانه عريضة وقبيحة بحيث أنها تبرز عن فمه ، أما شفتاه فهما مكتظتان، وبطنه كبير منتفخ ، وهو قصير القامة ، والأسوأ من كل هذا أن بلسانه لكنة ، وهذه أوصافه الخلقية ، أما أوصافه الخاصة فهو دائماً شارد الذهن،ضعيف الاعتقاد ،مهضوم فيحقوقه ،

جحود مُنكر لـلجميل ، وهذا النوع من الرجـال يندرج تحت اسم المتطفـلين ، والذين هم فى الغـالب لا يتصفون بـحسن الأخلاق والصفات الإنسانية المحبوبة .

الخلاصة : أن هذا الرجل والذى عرضنـا لصفاته وأوصافه أصبح الآن الحـاجى خان ، ومرجع النـاس ، ولما لم يكن عـندنا عمل اليـوم ، فمن هنا ارتعد قـلبى فمتى يحـين الوقت المحدد ، حتى نتحدث عن الماضى مع هذا الـشخص ، حتى يعلم من أين بلغ مرتبة الخـان ، وفى مقابل أى شئ واية خدمة قدمـها للدولة والشعب كى يصل إلى هذه المكانة السامقة .

الخلاصة : أننا قضيـنا الليل فى هذا النـمط من الأفكار ، ووقت الحسر قلت ليوسف عمى الـيوم سنذهب لزيارة الأمير عبد العظيـم ، وسنكون الليلة ضـيفين فى مكان ما ،قـال أين ؟ قلت بيت أحد الخوانين الذى أنت تعرفه ولـكن لن أخبرك باسمه حتى تراه بنفـسك وتتعرف عليه وكـلما سألنى لم أقل لـه ، وسرنا من المنـزل حتـى موقف الـسكـة الحديـد ، وكان طول هـذه السـكة الحديدية يقل عن سـبعة أميال ، وقد قامت شركه بلجـيكية بإنشاء السكك الحديديـة فى كل مدن إيران [1] ، وعلى الرغـم من أنها غير مـنتظمـة إلا أن محطتهـا العامرة أفضـل ألف مرة من امـتطاء

(١) هنا اشـارة من الكاتب إلى احـتكار الشركـات الاجنبية لمـشروعات السكك الحـديدية ، واستفادة هذه الشركات من هذه المشروعات الانشائية على حساب الشعب الإيرانى.

الحمير والدواب ، وفى ساعة واحد وصلنا إلى غرضنا وقد حظينا بزيارة ذلك المقام المـقدس ،وبعد أداء الصلاة شغلنا بـالتفرج على تلك البقعة الـطاهرة ، وعلاوة على الروحانية المعنـوية فقد كانت الأبنية فخمة وعظيمة من الخارج فى أشكالها الهندسية ، وتناسقها وجمـالها ، وقـد سعدت بـنظافـة أول مسجـد فى إيران أشـاهده وأزوره ، وجلسنا قدراً من الوقت وقضينا وقتنا فى الأدعية وتلاوة القرآن الكريم، وخرجنا وقت الغداء وأخذنا من محال البقالة قدراً من الزبدة والعسل لنأكله ، وعدنا وقت العصر إلى المدينة بواسطة القطار ، وفى وسط المدينة شـاهدنا الأسواق والمنازل ، ولـم تكن الأسواق وتقاطع الطرق رديئة بل أن المنازل عامرة وجيدة ، ولكن ليس هنا أثر فى أى مكان لشركة من الشركات الكبرى ، أو بنك، أو سجل أو دفتـر للتجارة ، مما هو أساس وجـود السكان ورواج التجارة فى المدن الكبرى .

وكأن المـدينـة تخـلو مـن التـجارة ، وقـد شوهـدت بعـض المصارف،وليس ببـعيد أن هناك فى المدينة بعـض الأغنياء ، ولكن الشئ الموجود بوفرة وقد رأيناه بأعيـننا هو النقود (السمراء) والتى كانت فى أكياس ، ولـم تظهر النـقود الذهبية قط ، من كل أرجاء المدينة ، فإما أنها لـم تكن مـوجودة وإما أنها كانت فى صناديق أو تحت الأرض .

ولـم يكـن هناك اهتمام عـام نحو إصلاح شئون الـبلاد ، بل كان فرد كبيراً أو صـغيراً ، غنياً أو فقيراً ، عالمـاً أو جاهلاً ، يهتم

فقط بمصلحته ومنفعته الشخصية ، ولم يكن لأحد اهتمام آخر ، ولا يتحدث أحد عن المصالح المشتركة للوطن والمواطنين ، وكأن هذا الوطن ليس منهم ، وكأنهم مع بعضهم ليسوا مواطنين ، ولكن الشيء الذى كان سبب سعادتى وسرورى هو رؤية الرجال العسكريين فى الأزقة وأسواق طهران ،حتى أننا لم نكن نرى أحداً هنا فى إيران قد خلع لباسه العسكرى ،وكان الجنود ممن يمتطون صهوات الجياد والقائمون على سلاح المدفعية حتى رجال البريد كان لهم لباس عسكرى خاص بهم ، خاصة قواد القوزاق[1] ورجال هذه الفرق ، والذين يشبهون تماماً فرق الروس فى زيهم ، إلا أنهم كان يطلق عليهم اسم الفوج .

الخلاصة : اننى قلت ليوسف عمى بعد العصر ، ينبغى أن نذهب إلى الموعد المحدد ، فذهبنا سوياً حتى وصلنا بالقرب من باب "الحاجى خان" وكان قد دخل "الحاجى خان" وراءنا ، فقال تفضلا ، فألقيت السلام ثانية ، فقال لماذا السلام مرتان ؟ قلت مرة (السلام) قضاء لسلام أمس،حيث إننا فوجئنا برؤيتكم ، فنسيت السلام ، فضحك وذهبنا متجهين إلى أعلى ، ولكن يوسف عمى كان يفكر مثلما كنت بالأمس ، مختلياً بنفسه ، وأخيراً همس فى أذنى : اليس هذا الشخص "ملا محمد على" الذى كان فى وقت ما ضيفنا فى "مصر" قلت أجل هو بعينه

(١) أول حاكم انشأ فرق القوازق هذه ، هو ناصر الدين شاه ، وقد اهتم بتدريب هذه الفرق محمد على شاه من بعده وذلك للمحافظة على عرشه من أى خطر فى البلاد ، أنظر:
مؤسسة الأبحاث العربية : إيران ، ص ٣٣ ، ٣٤

ولكن الدهليز تـغير وسمع هو بنفسه فضحـك كثيراً وسأل يوسف عمي عن أحواله ، وقال : هو . . هو يوسف أغا كما كان .

الخلاصة : جلسنا ، وجاءوا لنا بـالشاى ، فشربناه ، وقال "الحاجى خـان" حسن . . . . . . حسن . . . . حـسن الآن تحدث لنـرى من أين جئـتم ؟ وإلى أيـن ستذهـبون . وأين أنتـم وأين "طهران" ؟ قلت ينبغى أن أحكى أحوالى تفصيلاً ، ولكن تحدث لنا أنت أولا : ما هذه الدنيا ؟ ومـن أين لك بالخان ؟ قال سيرتى طويلة [1] .

لكنـنى سأوجزها ، بـعد العودة مـن مكة المكرمـة ، دخلت "تفليس" وكـنت أعيش دون أدنى مبالاة مدة عامـين أو أكثر على نفس النـحو الذى رأيتنى عليـه ولكن بشكل أو بآخـر ، جمعت مائتين مـن المنات أو يزيد ، هى رأسمـال التوكل ، ولكنـنى كنت أفكر ، فى إننى لو جئت إلى "طـهران" بأى وسيلة فإن أمرى قد يتحسن، ولأننى كنت قد تيقـنت من وضع كبراء إيران الذين كنت قد رأيتهم حينا من الوقت ، وأنهـم سيميلون إلى حديثى إلى حد كبير ، ذلك الحديث العابث وبينما كنت فى هذا الفكر حين ابتسم إلىَّ الحظ إذ سمعـت أن إحدى وصيفات الحرم الملكـى قد ذهبت للعـلاج فى الغرب وعـادت إلى إيران ، فحـصلت علـى واسطة

(١) هنا يشيـر المراغى إلى ظاهرة عامة كانـت فى إيران آلا وهى بيع الألقاب ومـنحها لمن لا يستحقها دون أن يقدم صاحب اللقب خدمة أو عـملا جليلاً لبلاده ، فالخان ملا محمد على هو نموذج لهذه الظاهرة .

وأدخلت نفسى ضمن خدم معيتها ، وكنت قد اجتذبت قلوب أتباعها إلى بدخولى مدينة "رشت" وعلى هذا النحو عاملتهم أيضاً من رشت حتى طهران ، وكنت أظهر نفسى فى أنظار الناس، كأحد محترمى أتباعها ، وأثناء الطريق ، كان يفتتن بصحبتى كل من كان يأتى لاستقبال موكب تلك المخدرة من ملازمتى لها ، وكان كل شخص يدعونى إليه وكنت أنا بدورى أسير وأنا فى غاية الأبهة والاستغناء، وكل من كنت أقبل دعوته كنت أثنى عليه ، حتى وصلنا إلى "طهران" وفى أقل فترة زمنية وصلت إلى المجالس العليا وانتشر الحديث فى كل مكان "وراجت بضاعتى" ورأيت أن ما يثير إعجابهم بى عدم معرفتى للفارسية والتى كنت انطقها نطقاً غير صحيح ، وكنت أسير عامداً ممازحتهم ، وكان لهذا طعم آخر .

وفى نهاية الأمر ، وصلت إلى مجلس الصدر الأعظم ، فشغف شغفاً لا حدود له بحديثى ، وشرفنى غد ذلك اليوم بقطعه عليها علامة (الأسد والشمس) مع لقب الخان وفى تلك الأثناء قال مشيراً إلى بإزرار كان نيشاناً فى ياقه قيادته ، وقال هذا أول نيشان منى لك وطلب خادم الصدر الأعظم نوالاً ، لأن النيشان والفرمان أودعا عنده كما كانت العادة جارية فأوردت له مثلا بدل النوال ، فرأى الند قوياً ، فعاد مباشرة ، ولم يمر وقت طويل حتى أخذت هذين النيشانين مع حصولى على درجة "مقدم" ومائة تومان كراتب شهرى، وأشار ثانية بأصبعه إلى الشارتين،

وقال مع إننى لا آخذ راتباً فانا نفسى لا أهتم كثيراً ، لأننى أصبحت مرجع أمل الناس بالمال وأنا موفق فى مسألة التوسط ، إذ يومياً يعود على من موضوع الوساطة خمسة تومانات وأحياناً أكثر .

والعام الماضى ، أمر الصدر الأعظم بعزل حاكم "سمنان فقال : أتريد أن أعطيك حكومة ذلك المكان : قلت : لاحسر الله لك ظلاً ، فليس هناك من مانع ، وأتيت منزل أم قاسم خادمتكم وبشرتها قائلاً : أن الصدر الأعظم كلفنى بحكومة "سمنان" قالت وما رأيك؟ قلت أى حكومة في مدينة لابد أن أذهب إليها ، فقالت أم قاسم : انت تركى الأصل وتنقصك الدراية ، وأنا لا أرضى ، وهذه المرأة أصلها أصفهانى وهى ذكية حقاً فقلت راداً عليها : إن ما يقال من أن طائفة النساء ضفائرهن كبيرة وعقولهن صغيرة . . قول صحيح لأن من يحظى بحكومة تلك المدينة يدفع ستة آلاف تومان "كرشوة" ولا ينال منها شيئاً فتعطى لنا بلا مقابل فترفضين ؟

قالت ينبغى عند بداية كل أمر أن ننظر إلى نهايته إذ أن يكون الشخص مفكراً فى مآله وخاتمته فيعيد النظر ، وهذه الحكومة لا تنفعك لعدة أسباب :

أولاً : أنت تركى الأصل ، وأهل سمنان [١] متعصبون للغة

(١) سمنان : أحد الأقاليم الإيرانية ، يحد سمنان من الشمال سلسلة جبال البرز ، ومن الجنوب صحراء (كوير) ، ومن الشرق دامغان .

- دهخدا : لغت نامة ، شمرة (حرف) س : ٥ ، ص ٦٣ .

الفارسية، لهذا سيعارضون بشدة حكمك ، وستطل المشاكل بروؤسها ، وسيتمردن فى نهاية الأمر ليخلعونك عن الحكم .

ثانياً : بينى وبين الله إن طبيعتك تخلو من أى استعداد أو لياقه للحكم فانظر لوسامتك فى المرآة ،

ثالثاً : إن مناخ تلك المنطقة غير مناسب لك ، وأنت عليل ، والأطفال أيضاً ضعاف .

رابعاً : وإذا لم يتحقق أحد المحاذير فمن الممكن أن يدفع شخص آخر سبعة أو ثمانية آلاف تومان كرشوة ، أو كأجرة للمدينة فيأخذ الحكم منك وأنت لم تمكث أكثر من ستة أو سبعة أشهر ، فقل لى ماذا تفعل إذ ذاك؟ ومن أين ستأتى بكل هذه النفقات فى الذهاب والإياب ، فلا تأخذ بكلمات الصدر الأعظم أو غيره ، والآن ، فنحن صنعنا بيتاً هادئاً ، وكل يوم يعود عليك بعض التومانات بلا جهد أو عناء ، فعش هانئاً مستريحاً وشق طريقك ، وشيئاً فشيئاً يمكن أن يزيد رزقك فى المستقبل ، فأين حكومة سمنان وأين أنت ؟

وفى الحقيقة رأيت أن المرأة أحكم منى ، وهى خبيرة بمثل هذه الأمور وأوضاع المدينة ، فأثنيت عليها بينى وبين نفسى ، فقلت لا بأس فى بعض ملاحظاتك ، فهذا المكان سيئ لى وللأطفال ،إذ لا يتوافق مناخها مع طبيعتنا ومن ثم سأترك الأمر، وبعد يومين أو أكثر من وقوع الحادثة ذهبت إلى خدمة الصدر الأعظم.

فقال (الصدر الأعظم) : ماذا رأيت فى سفرك لسمنان يا حاجى خان؟ ينبغى أن تستعد للرحيل فعقبت روحى فداؤك إنه لمعلوم أن عبدك مريض وعليل فى بلاط جلالتكم المفخم ، وأخشى أن أذهب هناك فأمرض وأموت ، فى حين أن هؤلاء الأطفال الصغار - أطفاله - ولا أحد يعولهم ، ولن يجدوا الرعاية الكافية فى الغربة فى ذلك الإقليم ، بينما لو ظلوا هنا سيجدون الرعاية التامة كما يجدونها هنا فى ظل بلاطكم السامق، فأقض العمر فى هناء ولسوف يكون هذا سبب مزيد من الدعاء لكم ،قال الصدر الأعظم : لا توجد خدمة مناسبة لك هنا والتى يمكنك أن تقوم بها ، وأنت لست شاباً أو وسيماً ولا تجيد حسن الخظ ، أو القراءة أو الكتابة ، وليست عندك دراية بالشعر والشعراء ، ولست حكيماً أو طبيباً ، فقل لى أنت فى أى عمل اعينك ؟

فعقبت نفسى فداؤك لقد أقمت كثيراً فى الممالك الأجنبية وتعلمت "اللغة الكردية " فى تفليس ، وأنا على دراية إلى حد ما باللغة الروسية ، فلو كانت هناك خدمة أو عمل فى وزارة الخارجية ، فيمكننى أن أقوم بها ، فهذا شئ أنسب ، قال الصدر الأعظم ، إذن ينبغى أن تصبر فهناك شخص لا أرغب فى وجوده، وكنت من فترة أريد أن أنحيه عن العمل ، ولكنه على علاقة بشخصية كبيرة ذات شأن،فبلاشك سوف تسنح الفرصة،

فكن على اهـبة الاستعـداد لأرى ولأفكر فى الأمـر ، والآن إنما منتظر والحمد لله ، كما أنى لى زوجة وولد وبنت ، وإنى لراض تماماً عـلى زوجتى ، فـهى ربة بيـت ، ولا أفكر فى بـيت آخر ، وهذا مجمل حياتى .

والآن جاء دورك ، فتحدث ، قلت ألـيس لديك من الألقاب لقب ما ؟ فـفى إيران لكل خان لقـب خاص ذو شأن ، قال لا ، لقد أعطـانى جناب "مشير الـدولة " قائمة بالألقـاب ومد يده فى الجعبة التى بجواره ، وأخرج قطـعة ورق وأظهرها قائلاً : ها هى صورة منـها عندى ، وقال لقـد ارسلها لى حتـى اختار لقباً مـنها ولكننى لم أرد ، فقلت لماذا ؟

قال فـكرت فربمـا ذهبت "لـتبريـز "لغرض مـن الأغراض ، وأنت لا تعـرف أوباش تبريز جـيداً ، فأنا أعـرف أنهم يحرمـونها (الألقاب) ، وهـم يعـلمون منذ البداية إننى مـجرد سخرة ، ولذا سيشـتموننـى ويعيرونـنى بشتـائم "الحمار" والـبغل "والكـلب" والقط" فيفتضح أمرى .

قلت : أهناك خطر من لقب الخان ؟

قال : لا ، أصبـح لقب الخان مثـل الأسماء العامـة ولا يعد من الألقاب الخاصة .

بل أصبـح يتلقب بـه البقالون والفـلاحون وصناع الغـرابيل

والمطربون ، علاوة على الكثرة العامة ،فالآن هذا اللقب مثل سائر الكلمات والتى تبدأ بحرف الخاء مثل (خرما ، خيار ، خانه، خان ، خلعت) فلم يعد له احترام أو امتياز ، وبعد ذلك رفع يده وأعطانى قائمة الألقاب فاخذتها فرأيت "معركة" فعلى الرغم من إننى ضقت بكتابتها ، فهى أذيه لقراء هذه السياحة ، ولكن ماذا أفعل ؟ فلا يمكننى أن أخرج عن وصية المرحوم أبى ،فقد أوصانى قائلاً : اكتب كل ما تراه ، والآن أكتب مضطراً قائمة هذه الألقاب ، عز الدولة ، شهاب الدولة ، نصر الدولة ، مؤتمن السلطنة ، معز الدولة ، مستشار الدولة ، أمين السلطان ، شجاع الدولة ، صنيع الدولة ، طبيب الدولة ، حكيم الدولة ، كاتب السلطنة ، شعاع الدولة ، عزيز الدولة ، مشاور الدولة أو السلطنة ، افتخار الدولة ، ظفر السلطنة ، مظفر الدول ، ظفر الدولة ، حشمة الدولة ، شريف الدولة ، ظهير الدولة ، حسام السلطنة ، معين الدولة ، معظم الدولة ، مكرم الدولة ، نائب السلطنة ، نصرة الدولة ، حسام الدولة ، سهام الدولة ، كاتب السلطنة ، يمين الدولة ، يسار الدولة ، آصف الدولة ، غاية الدولة ، أرفع الدولة ، اعتضاد السلطنة ، إقبال السلطنة ، أوالدولة ، سحنه الدولة ، مجير السلطنة ، وكيل الدولة ، أمين الدولة ، شحنة السلطان ، جلال الدولة ، جمال الدولة ، مجد

الدولة ، نجم الدولة ، كوكب الدولـة ، مشكوة الدولة ، مصباح الدولة ، سراج الملـك ، مؤيد الدولة ، شجاع السلـطنة ، ضياء الدولـة ، مهنـدس الدولة ، معـمار الدولـة ، ضرغام الـدولة ، حاجب الدولة ، حارس الدولة ، ناظـم الدولة ، منطق الدولة ، نقيب الدولة ، خطيب الدولة ، أديـب الدولة ، شعاع السلطنة ، افتخار السلطنة ، ركن الدولة ، ممتحن الدولة ، معتمد الدولة ، بهاء الدولة ، احتشام الدولة ،سيف الدولة ، رمح الدولة ، زكى الدولة ، رضى الـدولة ،صارم الدولة ، صمصـام الدولة ، قوام الدولة ، علاء السلطنة ، وقر السلطنة ، شرف الملك ،عز الملك، افتخـار الملك ، اعتـماد الملك ، انتـصار الملك ، اعـزاز الملك ، مبشر السلطنة ، مدبر المـلك ، معز الملك ، صدر الدولة ، عضد الملك ، عـضد السلطنـة ، صديق الدولة ، خازن الـدولة ، قادر الدولة ، مـقتدر السلطـنة ، اعتصام الـسلطنة ، وكيـل الدولة ، خازن الدولة ، مقتدر السلطنة ، اعتصام السلطنة ، وزير الدولة، نير الدولة ، شجاع الملك ، ذكاء الملك ، بيان الملك .

بناء الملك ، معين الملك ، احتشام المـلك مستنصر السلطنة ، أرفع الـسلطنـة ، عدل المـلـك ، معين الـدولة ، معين الـولاية ، نصرة المـلك ، إقبال المـلك ، إقبال الـسلطنـة ، حكيم المـلك ، طبيـب الملك ، فيلسـوف الملك، مســيح الملك ، سهـام الملك،

سهام الملك ، قوام الملك ، خازن الملك ، علاء الملك ، كاتب الملك ، بهاء الملك ، ضياء الملك ، نظام الملك ، عضد الملك ، ظهير الملك ، سيف الملك ، شمشير الملك ، معتمد الملك ، ناظم الملك ، سراج الملك ،وكيل الملك ، نجم الملك ، حشمة الملك ، مشير الملك ، مشكوة الملك ، أديب الملك ، أديب الممالك ، أمين الملك ، مهندس الممالك ، محقق الملك ، سعد الملك ، صنيع الملك ، شهاب الملك ، سحاب الملك ، يمين الملك ، لسان الملك ، صدق الملك ،صديق الملك ، ناصر الملك،ناصح الملك ، عميد الملك ، عماد الملك ، عماد السلطنة ، ساعد الملك ، ساعد الدولة ، ساعد السلطنة ، ساعد الوزارة ، محقق الدولة ، محقق السلطان ، أمين البلاط ، أمين الشورى ، أمين الخلوة ، أمين الحضرة ، أمين الحضور ، أمين الديوان ، أمين الجيش ، أمين الحرم ، أمين الخاقان ، أمين همايون ، أمير نظام ، مشير نظام ، وزير نظام ، شجاع نظام ، مشرف نظام ، قائد الجيش ، بدايع الرسام ، وقائع الرسام ، أمين الوزارة ، نائب الوزارة ، معين الوزارة ، اعتضاد الوزارة ، اعتماد الوزارة ، معتمد الوزارة ، (فقلت) لن تنتهي القائمة يا والدى ، فقال لك ما تريد صدر العلماء ، اعتماد العلماء ،افتخار العلماء ، ودعك أيضاً من هذه الألقاب فغير لازمة لنا ،ملك التجار ، وكيل التجار ، أمين التجار، وينبغي أن نترك هذه الأسماء أيضاً ، فلسنا من طبقة التجار ، صدر الذاكرين،فخر الذاكريه،سيف الذاكرين ، وهؤلاء

أيضاً من قراء التعزية [1] والذين ليس لهم صلة بعوالمنا .

ودعك من هذه الألقاب العديدة ، وقلت يا حاجى خان ، لقد وضعوا علامات بالألوان الحمراء والزرقاء فوق بعض هذه الألقاب فلم هذا ؟ قال : حسن إنك قوى الملاحظة ، فتلك الألقاب التى أخذت علامة اللون الأحمر ، تخص أمراء الجيش ، والتى لاتعطى لأقل من أمير الخمسة ، أو تمنح لعميد ولا يمكن لأمثالنا أن يحصل على تلك الالقاب إلا فى مقابل رشوة كبيرة ، وتلك التى أخذت علامة يمكننى أن اختار لقباً منها لنفسى، ولكن للسبب السابق لم أرد لقباً منها ، هذه سيرتى تحدثت عنها كاملة فتحدث أنت عن حياتك تفصيلاً حتى نرى ماذا حدث لك حين

(١) يبدأ الإيرانيون مراسم التعزية فى مقتل الحسين مع شهر المحرم وتستمر حتى نهاية صفر فتتشح البلاد باثواب الحداد وتعطل الملاهى ، إلا أن اشد أيام التعزية وأرهبها هى العشرة الأولى من المحرم ، فتقام المجالس للعزاء فى كل مكان ، ويتجمع النسوة والرجال ويقوم فى هذه المجالس متكلم بليغ حسن الأداء ، يقص مأساة الحسين وينشد المراثى فى صوت حزين ولحن منغم فيغلب الناس البكاء ، وتجرى دموعهم حسبة عند الله ، وقد يبكى المتكلم أيضاً فيزيد تأثيره فيهم ، ويسمى هذا الرجل (روضة خوان) أو (روضة خون) فإذا كان اليوم العاشر وهو أرهب أيام الحداد ، خرجت هذه الجموع فى فرق منظمة أشبه ما تكون بفرق الجنود فى الاستعراض ، فتسير فى الشوارع ، بعضهم يضرب الصدور ، فيسمون (سينه زنان) وبعضهم يضرب الظهور العارية بالسلاسل ، ويسمون (زنجير زنان) والبعض يشج الرؤس بنوع من المدى يسمى (قمة) بفتح القاف وكسر الميم ، ويقال لهم (قمة زنان) .

ويتقدم هذه الفرق جماعات ينشدون عبارات محزنة بنغمات رتيبة ، على وقفاتها تضرب الصدور والظهور ويردد مقاطعها القوم بعدهم ، فهم يقومون بدور النادبات فى مآتمنا الشعبية ويسمون (نوحه خوان) أى النائحون ، والمشهد الرهيب يملأ النفس اسى، والقلب شجى والجو ضجة وعويلا ، ويحس مشاهده اهتزاز الأرض تحت أقدام الالاف المشتركة فى هذه المواكب الصاخبة ، أنظر :

- أمين عبد المجيد بدوى : القصة فى الأدب الفارسى ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٣٧٧ . .

اخترت السفر من مصر حتى هنا ، وفى الحقيقة إننا اليوم لم نتناول طعام الغذاء كعادتنا ، فنحن جوعى ويستحسن أن يحضروا العشاء ، وبعد ذلك سأعرض لسيرتى فأحضروا العشاء وهو "كفته" جيدة ، فتناولنا الطعام ، فطلب الخمر فأقسمت أننى لم أشربها ولن أشربها ، وحينئذ بدأت فى الحديث وقلت أن سيرتى ليست بالطويلة جداً ، إذ جئت من مصر عازماً زيارة المشهد المقدس ، وبعد أن شرفنا بزيارة تلك العتبة الطاهرة ، شاهدنا كل مكان ، حتى وصلنا هنا ، وفكرت فى أن أذهب لأذربيجان من هنا ، إذ يجذبنى كل مكان فيها ،ورغبت أن اتخذ مسكناً لأذهب لممتلكاتى فى (مصر) لأبيعها وأغادرها فأقيم فى أى بقعة فى وطنى العزيز ، والذى هو عندى أعز ألف مرة من (مصر) ، ولكن لسوء الحظ لم أر مكاناً مناسباً لى حتى الآن ، والآن أفكر فى الحصول على واسطة ، حتى أصل إلى خدمة نفر من الوزراء الكبار ، فلدى بعض المقترحات والعروض الشفهية ، والتى سأعرضها ، فلو تحقق هذا الأمر عن طريقك فحينئذ أستطيع أن أقول لك : يا حاجى خان ، وإلا ستكون ذلك الصعلوك ملا محمد على الذى كان ، قال لو تريد توسطاً لأى شئ ، أو ستقدم التماساً لمنصب كبير ، يمكننى أن أوصلهما لك ، لكن لا يمكننى مساعدتك فى بلوغ مجلس الوزراء ، ومحادثتهم ، أى لا يمكننى أن أفعل هذا بهذه السرعة ، فلو بقيت مدة خمسة أو ستة أشهر هنا فذلك ممكن .

وينبغى أن تنتظر الفرصة فترة من الوقت ، قلت لا يمكننى أن أبقى فى هذه المدينة ،فترات طـويلة، إذ ينبغى أن أذهب ، ولكن بعد صمت قليل قال : مَـنْ مِنْ الوزراء تريد أن تراه ؟ قلت وزير الداخلـية ، وزير الخارجيـة ، وزير الحربية ، قـال : الآن فكرت فيما ستنتج عنه هذه الحيلـة ، فأخرج ثلاث ورقات كتبها ووضعها فى غلاف وكتب فوق كل واحدة من الـورقات الثلاث شيئاً ما ، فقـال هذه بـاسم مـيرزا كاظـم بيـك ، فهو مـعلـم أطفـال وزير الخارجـية، وهو نفـسه عربـى الأصل ، ويحـب العرب كثـيراً ، فحينمـا يرى أنك عربى سيسعـد كثيراً ، وسيقبل طـلبك راضياً ، وسيقوم بأنـهاء مهمتك (والأخرى) باسـم رضا خان ، وهو خادم وزير الداخلية ، وعـليك أن تعطيها له (والثالثـة) باسم أسد بيك ساعى وزير الحربـية ،وعليك أن ترسلها له ، وإن لـم يقبل رضا خان وأسد بيك ورفضـا ، فأرشهما ببعض التومـانات خفيه ، أما ميرزا كاظم فهو لا يقبل الرشوة مطلقاً .

ويعـرف : مشهدى حـسن كرمانـى" هذه الوزارت ، فاتـخذه دليلاً لك غـدا حتى تحقق هدفـك ، فسعدت كثيـراً ، وقلت لك الشكر[1] يا حاجى خان ، لك الشكر وبعد هذا قال الحاجى خان: لا تقلق من شئ فإذا أردت شارة أو شخصاً (واسطه) فيمكننى أن أساعدك ، قلت : لا . . لست فى حـاجة إلى نيشان أو شئ آخر

(١) أوردها الكاتب هكذا : مرسى : (Merci)

من هذا القبيل ، قال إن كنت لست فى حاجة له فلماذا لا تأخذه من أجل أصدقائك ؟ فإذا أردت اثنين أو ثلاثة من الفرمانات والنياشين من درجات مختلفة ، فيمكننى أن أحصل لك عليها بدون تحديد الاسم ، وأعط أنت من تريد فى الخارج ، قلت يا عزيزى وإن قلبى قد دمى من هذه الأوضاع ، فلا تجعلنى دلالا لبيع الشارات ، فإن الله يذل من يستهين بنياشين الدولة إلى هذا الحد، وأن من هو سئ الطبع وخسيس هو من يمكن أن يرضى بهذا العار على نفسه ، فماذا يعنى بيع النياشين ، فإن كل من يبيع عرضه وشرفه لهو أفضل من هذا ، لأن هذا يتعلق بذاته وشخصه، وذلك يتعلق بعامة الناس ، وينبغى أن ننظر إلى نياشين الدولة نظرة تقديس وإجلال ، وينبغى أن لا نفرط فيها ولو بارواحنا ، ولتحقيق ذلك فلنضع أرواحنا على أكفنا ، ونحن نعلم أن عزته وشرفه أسمى من كل شئ ، فأى شئ سيعلى من شأن دولتنا وشرف شعبنا فى الخارج ؟

قال ما هذه الأفكار يا بنى ؟ ألا تعلم أن حاجى محمد باقر الملقب "بكركَ يراق" قد سافر عدة مرات إلى روسيا والنمسا وحمل معه أربعين نيشاناً من درجات مختلفة من الفرمانات المختومة بالخاتم الأبيض ، وأنا رأيته فى البلاد الروسية بنفسى ، وكان يبيع الواحد من هذه النياشين والفرمانات من مبلغ ستمائة من المنات حتى الألف من المنات ، وقد تقاضى هذه المبالغ قلت

لعل ملك المملكة [1] لا يعلم بهذا ؟ قال أى شئ يعلمه ذلك المسكين (الملك) فهو مشغول بنفسه لا يعلم رأسه من قدميه ، ويبيع هذه النياشين أيضاً وزير الخارجية والصدر الأعظم ، وهنا لم أستطع أن أمسك بزمام نفسى ، فأخذت أتشنج باكياً وخطر ببالى أن أشدو ببيتين لأحد الغيورين على شعبهم من أجل الوطن، ولما أنهما مناسبان لهذا الحال ، فإنى اثبتهما هنا .

أيها الوطن إنى أرى الجنة العليا ليست فى لونك ورائحتك

وليس هوى خاطرى سوى الطواف فى حـك

فاللهم اجعل من لا يسعى لزيادة

شرف الوطن حزيناً ومتألماً فى أيامه[2]

أجل اللهم اضرب الذلة على من لا يعملون بكل طاقاتهم فى سبيل المحافظة على شئون الدولة والشعب ، والذين أضاعوا شأن وطننا وشعبنا العظيم . ثم نظرت فى الساعة ، فرأيت أن نصف الليل قد انقضى ، فقلت اسمحوا لنا لنذهب ، فليس ببعيد أن يلقى رجال البوليس القبض علينا فى الطريق ، قال إن غلامى سيرافقكما أثناء الطريق إذ يعرفهم جميعاً (رجال البوليس) ونادى قائلاً : يا غلام على احضر الفانوس ، وغلام على هذا ، هو

(١) ملك إيران فى هذا الوقت : ناصر الدين شاه (١٨٤٨ - ١٨٩٦) .

(٢) وطن بهشت بربينم برنك وبوى تونيست — هواى خاطر من جز طواف كوى تونيست

الهى انكه در أيام بى كله باداً — سرى كه دربى تزيد آبروى تونيست

ذلك الطبّاخ المسن القذر الذى سبق ذكره ، ورأيت أنه أضاء الفانوس ، وقد تمنطق بسلاح "القمه"[1] كأنه استعاد شبابه ، فرافقنا حتى باب الخان فطرقنا الباب وفتح ، وانعمت على غلام على باثنين من القرانات ،وقال ليمد الله فى عمر الخان ، قلت لست خاناً يا والدى العزيز ، قال : واحسرتاه "ايكون الخبز بهذا الرخص يا مدينة طهران"[2] فحتى الآن لم تصبح خاناً فمتى إذن ستكون ؟ فضحكت ورحل ، ووصلنا إلى المنزل وخلدنا للنوم.

وفى الصباح استيقظت وبعد أداء الصلاة واحتساء الشاى سيطرت علىَّ أفكارمشوشة ، فيالها من ليلة ، لقد رأيت فيها بعض الأحلام المفزعة ، وكانت الساعة وقتئذ تجاوزت الرابعة ، ورأيت مشهدى حسن قادماً من بعد ، فأراد أن يصعد لنا فقلت لا تأت سنذهب معك إلى أى مكان ، وإرتديت العباءة وسرنا ، وقلت ينبغى أن تدلنا على بيت وزير الداخلية ، ومن هناك سنذهب أيضاً إلى منزلى وزير الخارجية والحربية ، فقال مشهدى حسن أساعَدَك حاجى خان ؟ قلت : نعم ، ثم ذهبنا سوياً إلى منزل وزير الداخلية ، ولو وصفت تلك العمارة فإن الحديث يطول وسألنا عن رضا خان فدلونا ، فذهب إليه والقيت عليه

(١) قمة : بفتح القاف وكسر الميم : وهو نوع من المدى يستخدمه الإيرانيون أحياناً فى شج رؤسهم أثناء مراسم التعزية فى شهر المحرم ، ويقال لهم "قمه زنان"

(٢) المقصود بعبارة (واحسرتاه يا مدينة طهران أيكون الخبز بهذا الرخص) ، أى كيف يا مدينة طهران لم يصبح هذا حتى الآن خاناً وهو أهل لهذا اللقب.

السلام ، وقدمت له ورقة حاجى خان ، فقرأها وردها على قائلاً ، لم تعدلها قيمة ، ولا يمكن تحقيقها ، فقد ولى زمانها ، فأعطيته جنيهاً إنجليزياً ، فرمقنى بنظرة ، وقال اصبر قليلاً وجاء بعد خمس دقائق وقال : تفضل ادخل الحجرة ، وانحنيت مؤدياً مراسم التعظيم ، فرأيت جناب الوزير وقد جلس جلسة العظماء مرتدياً لاثه رديئة ، فتوقفت أنا بدورى فقال : ما الموضوع ؟ قلت نفسى فداؤك ، لدى موضوع ، فقال تحدث ، قلت موضوعى طويل وأنا أيضاً غريب عن هذه الديار ، ولا يبعد عن كرم حضرتكم أن تأذن لى بالجلوس .

فحينما أجلس أعرض موضوعى على تراب قدميك المباركتين، وبعد أن فكر قليلاً ، قال حسن ، اجلس وتحدث ، وبعد الدعاء والمدح جلست وقلت إننى جئت من مكان بعيد وأنا غريب عن هذه المدينة ، ومذهبى هو الشيعة ، ومن أصل إيرانى وأول اقتراح لدى على وزارتكم المفخمة والمظفرة ،هو أن تصغوا لمقترحاتى حتى النهاية ،وبعد ذلك تحدثوا عما ترونه صواباً كان أم خطأ ، قال تحدث : قلت سمعت "عن هذا" فى الخارج ولكننى الآن أراه بعينى ، فمملكه إيران خربة إذا ما قورنت بسائر الممالك الأخرى فى أنحاء العالم ، وجلالتكم يتقلد المنصب الرفيع لوزارة الداخلية ، فينبغى عليك أن تكون على علم بكل مهام وزارة الداخلية وشئونها ،ووفقاً لما يقتضيه ذلك المقام العالى ينبغى عليك

أن تقضى أوقاتك لـيل نهار ، فى تعمير البـلاد والأخذ بالأسباب التى من شأنها أن ترفع مـن شأن الدولة وراحة المواطنين ، والآن أخبرنى لنرى فى أى مدينة من مدن هذه المملكة المترامية الأطراف أنشـأت مستـشفى ؟ أو دارا لـلمعوقـين أو ملجـأ للأيتـام ؟ وهل أنشأت مـعهداً حرفـياً من أجل تأهـيل أطفال المـلاجئ ؟ وفى أى قصبـة من قصبـات البلاد قمـت برصف الطـرق من أجل تيـسير وسائل النقل لـلمواطنين ؟ وهل بحثت عن أفضـل الوسائل لرقى الزراعة والـفلاحة وتسهيـلهما واللتـين تعدان عصب حيـاة الدولة والشعب ؟ وماذا قدمت أو أعطيت من تسهيلات بصدد رقى تجارة البلاد والتى لا تغفل عنها الـدول الكبرى دقيقة فى هذا الشأن إلا وبذلـته ، ولعلـها أنفـقت ملايين الأمـوال بغيـة ترويجهـا ، وقد ضحت بـالدماء من أجل تحـقيق هذا الـهدف عند اقتـضاء الأمر ؟ فماذا صدر عـنكم من خطوات جـدية ، وهل تعلمـون بما يُصدر للخـارج سنوياً من مـنتجات إيـران ، أو ما يعود علـى إيران من دخول أمـوال التجـارة ؟ ، عجبـاً ألم يخـطر بذهـنكم المـبارك ، فتـكون قد تدبـرت الأمر فيـما يصدر لـلخارج مـن كم المنتـجات والمحاصيل المحـلية فيكون الصـادر أكثر من وارد المملـكة ، حتى يزيد دخل المواطن عما ينفقه ، فتغنـى الرعية بتلك الوسيلة وتعمر خزانة الدولة ؟

فلماذا يحتاج الإيرانيون إلى الخارج حتى فى أبسط متطلبات الحياة؟

فهل اختص الله الشمع الكافورى بصنعته الكاملة ، أم أنه من عمل البشر ؟ وهل يسقط السكر من السماء؟

عجباً الا تملك أرض إيران الاستعداد لزراعة البنجر وقصب السكر ؟ [1] .

وكان شحوم ثيران إيران ودوابها ، لا يمكن استخلاصها مثل شحوم مواشى الشعوب الأجنبية [2] ، وياللعجب لعل قطن إيران هذا كله والذى يصدر للخارج بمئات الآلاف لا يكفى أهلها ملبساً؟ أتعلم يا جناب الوزير كم عدد سكان إيران؟ وكم عدد المولودين والذين هم عصب بقاء قوميتنا ودوامها؟ وهل بحثت حتى الآن فى أسباب هجرة كل هذا العدد من المواطنين الذين يتفرقون بين ممالك الروس وتركيا والهند ؟ وهل تدبرت الأمر لمنع تلك الهجرة؟ ولماذا لم تخط خطوات من أجل رفع الحاجة والمعاناة عن كاهل الشعب ، أو على الأقل أن تؤسس بعض المصانع الصغيرة فى بعض المدن المناسبة لذلك ؟ ستقول إن إنشاء المصنع ليس من اختصاص الوزير ومهامه وهذا مسلم به ، لكن تسهيل هذا الأمر

(١) حدث أكثر من مرة أن ارتفعت اسعار السكر فى إيران فى عصر ناصر الدين شاه رابع الحكام القاجاريين وذلك لسببين ، السبب الأول الاحتكار ، والثانى قلة الانتاج.

(٢) استفهام تهكمى وساخر على تخلف البلاد فى مجال الصناعات المختلفة .

وتشجيع الشعب ومراعاة حقوق الرعية هو عمل الوزير الكفء العاقل والعادل ، وبالله فإن ما عرضت له تفصيلاً لهو كله من مهام وزير الداخلية فى البلاد الخارجية ، وينبغى عليه أن يقوم بهذه الأعمال الإصلاحية فى كل مكان ، ويجعل إدارتها فى يد الرعية ، وحينما لا يفعل ذلك تقع عليه التبعة والمسئولية .

ولماذا لم تسأل عن أسباب بؤس الشعب وهجرته ؟ إذ كل عام يترك آلاف المواطنين الإيرانيين دورهم وديارهم ، نازحين إلى تركيا وروسيا والهند ويعيشون فى ذلة وشقاء عند الصديق والغريب فى الدول الأجنبية غرباء؟ ألم يحن بعد ذلك الزمان والذى لا يبيع فيك وزراء إيران الرعية للحكام والحكام يبيعونها للخدم ، والخدم للأمراء وللعَسسِ ، وأولئك للعمد ، وهؤلاء لكبار السعاة ونوابهم؟ وفى أى مدينة يشاهد أن رئاسة المدينة يمكن أن تؤجر وتباع ؟ وحينئذ ينبغى التعامل مع أراذل الناس وأخسهم من الظلمة ، إذن يجب الإنصاف ، إذ تسمى هذه الوظيفة الرفيعة بدائرة البوليس فى البلاد المتمدينة ، وهل يجوز أن يكون رجل البوليس غير كفء وجاهل وعلاوة على ذلك يتهم أبناء التجار المحترمين بالأفعال المشينة والأساليب الملتوية ، فيبيعون شرفهم وفخارهم من أجل خمسة تومانات ويأخدون باسم الجريمة والتى لفقوها أربعين أو خمسين تومانا من شاب نجيب وحيى ، وذلك بسبب خجله من والده وأخيه بدون أدنى ذنب أو جرم.

هل لا تعلم بالـوضع المؤسف لهذه الجمارك والتى لـيست لها تعريفة محددة ، إذ تعد موضع شـماته الصديق والعدو ، إذ أنهم يأخـذون على شئ واحـد من المنتـجات المحليـة أو الأجنبيـة من شخص اثنين من التومانات ومن آخر تومانًا واحداً ، ومن شخص ثالـث لعـل والده جنـدى أو أخاه مدفـعى يـأخذون منـه خمـسة تومانات ، ولا يحتاج إصلاح مثـل هذا الأمر إلى مال أو مخلوق من السماء؟

إلى مـتى سيـظل حل الأمـور وعقدهـا ، فى أيدى الحـكام الظلمة ، خاصة فى شأن تعاملهم مع الرعـــية وأخذ الضرائب ؟ ألا يوجد ما يشبه كـتاباً للوائح ودستوراً للعمل ، وحـتام تهملون فى ودائع الله النفيسة والتى هى الرعـية ، لقد تركتموهم للحكام الأدنياء بهوى أنفسكم ، فلا مناص مـن أن يصيبكم شئ من تبعية المطالـب الرازلة لهؤلاء الأدنـياء ؟ وهل ليس فـى وسع دولة ذات ثلاثة آلاف سـنة (إيران) أن تقيم إدارة صـحية فى كل مدينـة من مدنها الكبرى ؟

وتعيِّن عدة أطباء فى تلك المناطق ، وبذلك تخلص أهل المدن من "الأجـل المعـلق" والذى هـو ناتج عـن جهل وعـدم معـرفة المتطبـين "؟ ولماذا لا يكون هناك مستشفـى من أجل علاج مرض الجزام والبرص والذى يـسهل علاجه فى بدايته ، حـتى لا تصيب (العدوى) أى مسافر عند دخوله أى مدينـة ضحية لهؤلاء التعساء،

إذ أن أذى هذا المرض اللعين يصيب شفاه الناس ورؤسهم فتعوج أعينهم وأفواههم ؟ وكذلك ينبغى منع التسول لدى الإيرانيين وغير الإيرانيين إذ إنهم يمدون إيديهم هائمين على وجوههم كالحيوانات فى الصحراء وقد طردوا عن الدار والديار وهو منبوذون فى أنظار أهليهم وأسرهم ؟

والله إن من يحب بلاده ويغار عليها ليفضل الموت على أن يرى أولئك البؤساء ، وقد رأيتهم بنفسى ذات مرة ، ولا يزال قلبى يرتعد وأنتم ترون يومياً كل هذا ، ولم يجرح كبرياءك شئ ، فلعل هؤلاء ليسوا أبناء وطنك وأخوتك فى الدين ؟ وترون غيركم يعانون كل المعاناة من أجل حماية روح من أرواح مواطنيهم وأتباعهم ، فكم من الأموال ينفقونها فى سبيل ذلك . وإصلاح هذه الأمور والتى فى أنظار الأجانب وصمة عار للدولة والشعب،وموضع لوم المحلى والأجنبى ، لا يحتاج إلى كثير من الأموال مما يجعل الدولة والشعب عاجزين عن تنفيذها ، وبالله فإن إصلاح هذه المفاسد والتى هى سبب الاستهانة بشئون الدولة فى أنظار الأجانب ، لهو من السهل الميسور فلماذا إذن يؤخذ من الرعية المسكينة هذا الكم من الرشاوى وأموال الجرائم المدبرة .

إذ إنه على هذا النحو وخلال عشرين سنة ، يصبح أولاد رجل فقيه وأقاربه والذى عين فى وظيفة (ملا) وبواسطة نفر من الدولة حيث يتقاضى مرتب ستين توماناً سنوياً يصبح هو وأولاده

وأقاربه من الأغنيـاء الأثرياء فتبلغ ثرواتهم حـينئذ مئات الآلاف ، فى حين أنـه لايهتم بإصلاح أبـسط مساوئ البلاد ، بـل أنه رجع ليأخذ من الإعانة العامة ، وهكذا أحجم عن العمل المقدس ، وما يهمـنا فى هذا المـضمار هو فقـط حسن النيـة والتدبيـر والصدق والقناعة ، وحينما يعرف الشعب ويفهم أنه من الدولة وأن الدولة من الـشعـب، وهما عـنصران مـتلازمـان وغير مـفتـرقين ، ولا يختلفان إلا فى اللفظ ، لكنهما فى المعنى واحد ، فإن كل الأمور المستـعصية ستـجد الطريق لحـلها ، وعند اتحـاد هذين العنـصرين الـهـامـــين ، لا يمكن أن تقف أى مشكلة أمام الـوطن ، فتتقدم الدولـة كلهـا بفضـل الاتحاد ، وتنـهار عنـد النفـاق ، فبالـعدل والمساواة ، يمكننـا أن نقهر كل العراقيل والصـعوبات ، وقد دمى قلبـى أثناء السفـر والذى رأيت فيـه جزءاً قليلاً مـن مدن إيران ، فكل موضع من المملكة مضـطرب ، الشعب مضطرب ، والتجارة مضطربة ، والفكر مضطرب والعقـائد مضطربة " المدينة مضطربة والأمير مضطرب "[1] بالله ما هذا الإضطراب ؟

وأنى لا تعجب أى فائدة لكـل هذا العدد من الوزراء مع كل هذا الاضـطراب؟ فهذا هـو موضوعى والـذى أسألك عنـه وعن أسباب كل هذا الاضطراب .

(١) كرر الكاتب كلمة "پريشان" وهى تعنى مـضطرباً عشر مرات فى خمسة سطور ، مما يوضح مدى تأثر الكاتب بهذه المساوئ.

وبماذا ستجيب لو سألك رسولاً الله قائلاً : يا وزراء إيران ويا رؤساء الشعب أين شريعتى ؟ وأين عتاد جهادكم ؟ وأين مجاهدوكم ، وأين إيمانكم الذى قرنت حب الوطن به ؟ وبأى عذر من الأعذار ستتعذر؟ وحينما سيسألك صديق أو عدو قائلاً هل منعك شئ بأن تحكم بدون نزاع خارجى فى استقلال وراحة تامين خلال حكم الخمسين عاما أو يزيد ؟

ألم تستطع أن ترى خمسة وعشرين شخصاً من بين خمسة وعشرين كروراً [1]؟ من سكان إيران حتى يمكنهم أن يتعهدوا بإدارة جمارك المملكة بشكل لائق حتى لا تحتاج أن تستأجر من البلاد الأجنبية أفراداً بمبالغ باهظة لكى يعملوا فى جماركم ؟ وبماذا ستجيب لو سألك أجنبى أى شئ منعك بأن ترفع الناتج إلى مليون تومان فى مدة الستين عاماً فى خلال الضرائب فى هذه المملكة المترامية الأطراف ؟

بحيث تصبح هذه الأموال الزائدة ضمن ما ينفق فى الدفاع عن الوطن ، فبأى جواب مفحم سترد عليه ؟ ، فى حين تضاعفت أموال سائر الممالك الأجنبية القاصية منها والدانية عدة مرات خلال مدة الستين عاماً ، وقد زاد أيضاً نفس القدر من العمران فى تلك البلاد وكذلك عدد سكانها .

(١) الكرور : خمسمائة ألف .

ولو سألكم يا صاحب الشرف كيف تصرفت فجعلت الدخل القومى منحصراً فقط فى أخذ الرشاوى والهدايا وثمن الجريمة وغفلتم عن عوامل زيادة الدخل وترويج التجارة والتوسيع فى رقعة زراعة البلاد فبماذا ستجيبون عن هذه الأسئلة بما يرفع روءسكم المطأطئة ؟ هل كنتم تخافون من العمل فى حقول أدغال المملكة والتنقيب على المعادن الدفينة ؟ وهل وجدتم فى شأن تيسير وسائل النقل أن ما يعود عليكم ، أقل فائدة من سلب الرعية ونهبها ؟ وهل لا تعلمون أن الرعية هى بمثابة أساس الدولة ، ومن ثم ينبغى تركها وشأنها بدلاً من سلبها ونهبها، فالرعية بمثابة جسم الدولة فى الذود عنها ، واليوم فإن اضطراب الرعية يوماً آخر فيه ذلكم واضطرابكم وهوانكم .

قال الوزير: كلام هراء وانتهى ، كلامك كله عبث وتلاعب. وأنا لست على استعداد للاستماع إلى ترهاتك ، فمن هذا الحقير الأحمق " ابن المحروق " الذى علمك هذه الأحاديث الفضولية ؟ فلعلى رسول آخر الزمان فأقول واأمتاه ؟ فكل شخص لديه الكثير من الآلام والهموم ، (فالأحمق) أخذ يثرثر لمدة ساعتين وأنا مصغ لما سيقول ، رجل حقير مجنون ، قف

واذهب لحالك ، يا لك من أحمق قم وأغرب عن وجهى ، فلا مناص من إننى نهضت وخرجت ، وعدت من الدرب الذى جئت منه ، ورأيت "حسن مشهدى" فى حديقة صغيرة يقف تحت شجرة، قد اخذه النعاس بسبب الوحدة ، فقلت إنهض يا أخى لنذهب ، فالوقت الآن ليس وقت النوم فقال هل أنهيت مهمتك عند الوزير؟ فضحكت [1] وترددت فى الطريق محدثاً نفسى هل أذهب لوزيرى الداخلية والحربية أم لا ؟

وقلت لنفسى ينبغى أن يكون الإنسان ذا عزم فبالرغم من أن هذين لن يكون منهما علاج لآلام الوطن ،لكن مقابلتهما أفضل ، فعلى الأقل أعزِّى بقولى لهما قلبى الحزين إلى حد ما .

وقلت لمشهدى حسن لنذهب لوزارة الخارجية ، قال : ليس هناك مانع ، ووصلت إلى بوابة وزير الخارجية ،فرأيت عدداً من السعاة والخدم وجندياً روسياً من القوزان كانوا يقفون أمام البوابة ، فسألنا السعاة عن ميرزا كاظم بيك ، فدلونا عليه .

(١) يرى فريدون آدميت أن رؤية الكاتب للوزير الأعظم "أمين السلطان" ليست حقيقية ، لكن وصفه لحكومة أمين السلطان وصف حقيقى وصادق ، انظر :

- فريدون آدميت : ايدئولوزى هضت مشروطيت إيران ، جـ ١ ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

ونظر الى رجل ذو سيماء حسن ، فـألقيت السلام ، وأعطيته ورقة حاجى خـان فقرأها وسألنى بـتلطف بالغ "تـعرف عربى"[1] قلت نـعم ، وأشار بالـلغة العـربية إلى مـكان وقال : تفـضل ، فجلسـنا، فطلبت شـاياً فجئ به وارتشـفناه وبعد ذلك نـهض هو نفسـه وخرج ، وعاد علـى الفور وقال اصبـر قليلاً ، أن الـنائب الأول للسفارة الروسية عند الوزيـر وقد اختليا ، وقد أدركت بعد قليل من التأمل أن السفارة الروسـية قد استاءت من إعطاء الإنجليز أحد الامـتيـازات وأن الخلوة بـصدد هـذا الموضوع ، فـأما أنـهم يتحدثون عنه وأما أنهم يريدون مـثل ذلك الامتياز لأنفسهم ، وقد اتضح بـعد ذلك مصـادفة أنه كان "نـفس الموضوع" وبـعد ذلك بساعـة ، ذهب ميرزا كاظـم بيك ثانيـة ، وعند عودته جـاء ومعه خادم من خدم الـوزير ، وأوصى بى قائلاً : أنه سـوف يصل إلى خدمة الـوزير،ومر الخادم بكثـير من الغرف ، ووقف فـى موضع ورفع الستارة ، ودخلت الغرفة فـرأيت الوزير يروح ويجئ فأقرأته السـلام وعظمتـه،فقال ما هـو الموضوع ؟ وكنـت قد قلت نـفس الديباجة التى كنت قد أعددتها عند مقابلتى لوزير الداخلية وطلبت الإذن بالجلوس،وسأل أنت من مصر؟ فقلت:نعم ، وفهمت أن كاظم

(١) هكذا أورد الكاتب اللفظتين "تعرف عربى" ولـم يترجمها إلى الفارسية ، وقد اتضح أن المراغى كان يجيـد اللغة العربية وقد تمثـلها فى مجلداته الثلاثـة ، بل أنه كان يحيط علماً بـالثقافة العربية وقد أورد الكثير من الألفاظ العربية والأحاديث النبوية.

بيك قد عرّفه بى، وقـال أنت تابع لرعـية أى دولة ؟ قلت الـرعية الإيرانية[1] قال لقد سمعت إن كل الأغنياء من رعية إيران فى مصر قد تخلوا عن جنسيتهم ، وانتموا إلى دول أخرى فرددت قائلاً : غير العبد ، فتبسم وجلس ، وأمرنى أيضاً بالجلوس ، وهنا طلبت منه أن يسمع حديثى إلى النهاية ، فقال ليس هناك إجبار أو ضغط شريـطة أن يكون حـديثك مجـدياً وذا معنـى ، فقلت أن كـل ما سأقوله كله من باب تعصبى لـبلدى ولست أقصد شيئاً آخر ، قال تحدث لأرى .

قلت لـو يسألك يا جـناب الوزير شـخص غريب ومتـعصب لبلاده (إيران) عـن أسباب الفضائح الـتى يقترفها سـفراوءكم فى المدن الأجنبية هل تعلمون أم لا ؟

وإلام ستظل تذاكر الدولة والتى ترمز إلى الشعب الإيرانى فى أنظار الاجانب بلا معنى ولا اعتـبار مثل ورق الدواء الملفوف لدى العطارين ؟ وإلام تباع حوالة شرفنـا القومى هذه مثل ورق اللعب فى المحال المتعددة ؟ ، فهذه الحوالات ذات أسعار متفاوتة ، فمثلاً فى طهران بخمسة قرانات وفى تبريز بتومان واحد .

وعـلى شـاطئ الأرس بـتـومان ونـصـف التـومان ، وفـى

(١) ظل زين العابدين متجنساً بالجنسية الروسيـة فترة من الوقت ، ثم استعاد جنسيته الإيرانية بعد ذلك

"القوقـاز" بأربعة منـات ونصف المن ، وفـى الأراضى العثمـانية بخمسة وسبعين قرشاً ، وعلاوة عـلى ذلك فإن موظفيكم فى كل مكان يبـيعون هذه التذاكر لـكل لص ومنحرف مـن الأجانب ممن يدفع أكثر من القروش ، ويقترفون أشكال الفضائح والسرقات فى الأراضى العـثمانية والـروسية حتى فـى الغرب [1] باسم الـرعية الإيرانيـة ، فهم يفـضحوننـا بين الشعـوب ، وفى بعض المـناطق والتـى يتولون حـكوماتهـا يتضح بـعد التحـقيق أن ذلك الـلص والنشال أما من الأرمن أو كَرجى من الـقوقاز أو من قطاع الطريق والمُغيرين العثـمانيين والذين باع سفراؤنا لهم تـلك التذاكر ، فهل سيبقى شـأن عظيم لذلك السفـير أو اعتبار من أجل تلـك التذكرة والتى تحمل العلامة والرمز لدولتنا وشعبنا ؟

وهل يجوز أن يرتكب بعض سفـرائكم المعروفين والمشهورين هذه الفـضائح الفظـيعة فى مقـابل بعض الـليرات التافـهة ، فلا يخجلون من مـقامهم الرفيع ؟ وإلام تستمر هذه الـرشوة المشئومة من قبل موظفيـكم فتحول دون المعاقبة والمسئوليـة ؟ ياللعجب ألم يحـن الوقت بـعد ، حـتى تحولـوا دون وقوع هذه الـفضـائح ،

(١) ذكر المراغى فى الجزء الثالث من كتابه سياحتنامه ، أنه ذهب إلى الغرب خاصة فرنسا.
- سياحتنامه إبراهيم بيك ، جـ ٣ ، ص ٢٢٦.

فيتخلص الشعب والدولة من وطأة هذه الفضائح والأفعال المخزية؟ وإلام يفعل سفراء الدول الأجنبية ما يشاءون بسبب هذه الفوضى فى البلاد ، وعلى النقيض فإن سفراءكم يتملقون أولئك الولاة والحكام وكأنهم فى درجة أدنى منهم فى ممالك الروم والروس؟[1] وسيتحمل سفراوءكم - كستارة يخفون وراءها أعمالهم السيئة - سيتحملون هذه الكثرة المفرطة من مظالم وتجاوزات السفراء الأجانب مع قوة الدولة الإيرانية ، وأنتم لا تعلمون أن هذا مفهوم خاطئ لأنه يوجد فى العالم دول ضعيفة جداً ، وحينما يكون الوضع والحال على هذا النحو ، فإن الأقوياء سيسيطرون على الضعفاء فتنقلب موازين العالم ، نعم فكل دولة ليس لها قانون معين ومدون ثابت ، فإنهم يفعلون فيها كل شئ ، ولا يكون هناك مانع أو رادع لذلك ، والآن لما أن الجنرال" السفير الإنجليزى " أو الروسى أو الفرنسى لهم أفضال على حكومة البلغار ، والتى هى حكومة جديدة ، وعددها ليس أكثر من ثلاثة ملايين ، فإنهم (هؤلاء السفراء) يتدخلون فى شئونها ، أو كأن يقول سفير من أولئك السفراء لأحد أفراد الرعية البلغار : قم من هنا واجلس هناك ، فإنه سيطيع الأوامر على الفور ، وحتى الآن فإنهم فعلوا الكثير برعية هذه الدولة السابقة الذكر ، وربما أن سفراء الدول الأجنبية هؤلاء ، يفعلون فى إيران أكثر من هذا ، فاحتذوا هم أنفسهم حذو سفراء إيران وقناصلها .

(١) المعروف أثناء حكم خديوى مصر (اسماعيل باشا) وهو المعاصر لناصر الدين شاه أن سفير إيران فى مصر (ميرزا ملكم خان). قد أخذ من خديوى مصر مبلغ عشرة آلاف تومان كانعام لهذا استدعاه ناصر الدين شاه ثانية إلى إيران ، انظر : آرين پور ، أرصبا نيما ، جـ ١ ص ٣١٨.

في حين أن أولـئك يحافـظون على حقـوق الرعية (الـسفراء الأجانب) ، فإن هؤلاء (سفراء إيران) أنفسهم يغيرون على الرعية على الملأ ، فماذا يمكن أن نتوقع مـن الموظفين الأجانب ؟ فحينما لا يكون عـندنا قانون أو عـدالة ، فبأى لـسان يمكن أن نحـدثهم أنقول لهم عاملونا بالعـدل والقانون؟ وإني لألجأ إلى الله من هذا الوضـع المشـين الذى يـبعث عـلى الـهم والحـزن نظـراً لأحوال الكادحين الإيرانيين الذين تصل أناتهم وآلامهم إلى عنان السماء ، إذ إنهم يـهربون من الجور والـظلم فى الداخـل ليواجهوا مـظالم أقسى فى الخارج ، وفـى كل مكان وقرية تصلهـا فى ممالك الروم والروس ، سترى جمعـاً من العاطلين المتسكعـين باسم السعاة ، وقد التفوا حول رجل أطلق عليه القنصل ، وأخذوا يغيرون على هؤلاء المسـاكين (الرعيـة) والمتشرديـن عن ديارهم عـاملين فيـهم السلب والنهب ، بالاتفاق مع ذلك القنصل والذين ليس لهم اسم فى سجلات الدولة ولا رسم.

أولاً : لماذا يستـولى السفراء سنويـاً على خمسة منـات كثمن للتذكرة مـن كل واحد من هؤلاء المساكين ويجـعلون هذا الأموال وقفا على جيوبهم ؟

وحينمـا تـقول إننا نـعـطيهم إيـاها فى مقـابل خدمات فبالله إنـك مخـدوع ، وأى خـداع؟ حينـما تؤخذ هـذه الأموال من الـرعية ، وحينـما تأخذها أيـضـاً الدولة وتعطـيها لهؤلاء السفهاء الأخساء ، فإن خزانة الدولة ستنتفع بهـذه الأموال

الزائدة[1] وسوف تقل هذه الفضائح إلى حد ما ، فاليوم حينما يموت أى إيرانى من أى طبقة ، فى ممالك الروس والروم ، فإن السفارات والقنصليات تكون الوريث الأول لهذا الميت ، وحينما يكون الورثة والدائنون من ذوى السلطة ، فإن أولئك يمكنهم أن يستولوا على نصيبهم والإ فلا ، ويتكلف جواز السفر أربعين تومانا أو أكثر ، وهذا فى ذهاب شخص إيرانى وإيابه من أجل زيارة مكه المكرمة ، من أى طريق يسلكها حتى العودة ، وينبغى عليه أن يعطى تلك «البوابة» التى يمر بها ، ثمن التذكرة وإعتمادها ، وعلى الأقل يذهب إلى مكه سنويا أربعة آلاف إيرانى ، ويزيد ثمن تذاكر هؤلاء سنويا على مائة وستين ألف تومان ، ومع هذا المبلغ ، ففى كل المناطق الهامة والضرورية للأراضى الروسية والعثمانية فإن السفراء يحاسبون ويعاقبون ولهم نظم خاصة . إذ إنهم يتعرضون للتحذير والمعاقبة عند حدوث أى شكوى وفى ميناء جده والذى هو بوابه قبلتنا ومركز اهتمام عامة المسلمين لماذا لايكون العامل والموظف من النجباء والوقورين المتدينين ممن يعرفون الملك ومن أسرة معروفة صاحبة علم وفضل.

فكل عام يولون العمل هناك فى مزايدة بعض الأشخاص السفله الاخساء والجهلة فى مقابل الفى ليرة ، ويؤمنون

(١) يريد الكاتب هنا أن يقول أنه من الأفضل للحكومة الإيرانية أن تجبى هذه الأموال من الرعية فى شكل ضرائب أو ماشابه ذلك ، لكى تقدم للمواطنين الخدمات ولهؤلاء السفراء المرتبات ، أفضل بكثير من أن يستولى السفراء على أموال الرعية ، إذ فى الحالة الأولى يمكن للحكومة الإيرانية أن تستثمر هذه الأموال ، وتنتفع بها .

«ذلك الموظف» على أرواح الحجاج وأموالهم ، والذين تأتى رعايتهم والمحافظة على حقوقهم أمراً واجباً على عاتق الدولة ، وهو يأخذ نصف ليرة على كل تذكرة ، فى حين لاتأخذ الدولة، أكثر من تومان واحد بلا خجل أو ادنى خوف ، ونصف الليرة تلك ، تساوى تومانين ونصف التومان ، ولا يقنع بذلك بل ويشترك مع الجمال والحمال فى سلب الرعية ونهبها .

وفى مقابل تأجير الجمل والبغل من جده إلى مكه يدفع سائر المسلمين من الأراضى العثمانية ومصر والجزائر وهولندا والهند والقوقاز ثلاثين قرشا ، ويأخذون من الإيرانى مائتى قرش أى مايساوى القيمة ست مرات ، وكل عام تكتب الصحف هذه التفاصيل ، ويصل تزمر الحجاج وتظلمهم إلى عنان السماء[1] ولا من مجيب ولا يعاقب المذنبون السفهاء قط ، ومايأخذه القناصل من الحجاج الإيرانيين مايعادل ثلاثة أشهر فى جده وحدها ، وهذا كاف لما يحتاجه السفير ، فلو قلت إنك تعلم ولاتهتم بالأمر فواحسرتاه ، إنه لظلم وإجحاف ، ولو إنك لاتعلم فحينئذ يكون الحق معهم إذ أنهم يستغفلونك ، ولايعتبرونك جديراً بهذا المنصب الرفيع والسلام .

(١) نعلم أن حاجى زين العابدين قد أدى فريضة الحج فى مكه ، وهو هنا يروى أحوال الحجاج خاصة أحوال الحجاج الإيرانيين ، إذ إنه رأى هذه الأحداث رأى العين . انظر : سياحتنامه جـ ٣ ، ص : ١٦٠.

وتثاءب الوزير وجلس معتدلا ، وقال إن التنشئة العربية[1] لاتأتى بأفضل من هذا قط ، ياللعجب إنك رجل فضولى لاعقل لك ، إنك رجل حقير مجنون ، إنك سمعت عن القانون وتثرثر بلسان ملتو عن القانون ، إنك لم تعرفه «القانون» فلو هناك قانون واحد فى سائر الدول ، ولم ينفذ حكمه فى عام من الأعوام ، لتحتم على كل وزارة فى بلادنا والتى لها قانونها المنفصل ، أن تنفذ أحكام كل قانون فى نصف ساعة ، إنى سعدت بخدعتك ، إنك لم تتخل عن جنسيتك ، وإلا لتصرفت معك تصرفاً مغايراً أذهب إلى الجحيم ، اذهب ، ورأيت أنه لامجال لجلوسى ، فقمت وسرت فى طريقى ، وغرقت فى عرق خجلى ، وتقدم ميرزا كاظم بيك ، نحوى بوجه بشوش وسأل هل شكوت سفير مصر ؟ قلت كلا ، كان موضوعاً آخر ، حفظكم الله وخرجنا من هناك مع مشهدى حسن ، وقلت على الرغم من أنه ليس هناك متسع من الوقت لكن ينبغى أن أنجز هذا الأمر ، فذهبنا إلى مقر وزارة الحربية ، ووصلنا هناك ورأيت جنودا عند حافة الباب ، وقد ثبتوا بنادقهم على شكل هرم وجلس كل منهم فى ركن يدخنون الغليون ، فأردت أن ادخل ، فسألوا إلى أين ؟

قال مشهدى حسن له التماس ، ولا أعلم بماذا اشاروا . قال مشهد حسن : حسن ، حسن . . . . لقد فتح الباب ، وعاد هو على أثره ، ودخلنا وسألنا عن أسد بيك رئيس السعاه ، فاخبرونا

(١) المقصود من التنشئة العربية ، أى المصرية .

عن غرفته ، فرأيت شاباً وسيماً فى السابعة عشر من عمره ، وقد جلس جلسة العظماء ، وألقيت السلام وأعطيته ورقة حاجى خان فى أدب واحترام ، فقرأها وسأل من أين ؟ قلت إن عليها توقيعا يبين صاحبها ، قال توقيع «محمد على» ولكن لا أعرفه قلت حاجى خان . . . ، وألقى علَّى الورقة وقال اليوم لاتجدى بشئ ، وتجاهلنى ونظر إلى الناحية الأخرى ، فذهبت أحمل الورقة وبرويه وتأن وضعت فى يده (جنيها إنجليزيا) وقلت ياحضرة الساعى إنى غريب ومسافر ، وإنى آمل . . . وفى الحال لم أتم حديثى حتى رأى الجنيه الإنجليزى ، فقال لأحد الاشخاص قل لميرزا اغا الخادم إن يأتى هنا[1] ، ورأيت شابا أوسم منه وقد أقبل نحونا ،والذى وجنتاه مثل شمس لألاءة وبراقة،فسأل أسد بيك : هل الوزير بمفرده؟ قال: لا،إن عميدا من أهل كَروس هناك حيث يستبدل العملة ومعه ناظر القرية ، وقال لى اجلس قليلا ، واوصى ميرزا أغا قائلا : أخبرنى حينما يفرغ الوزير ، وبعد نصف ساعة أقبل ميرزا أغا ، وقال : لقد رحلا ، فذهب الساعى ايضا وعاد بعد قليل وأشار بقوله . . . تعال ، ونهضت ، فهمس فى أذنى : أن أعط هذا الخادم شيئا ، قلت : لك ماتريد ، وكان معى خمسة آلاف ، فأعطيته شيئا من النقود ، فرفع الستارة ، فرأيت أن ناظر القرية أخرج عشرة أكياس من المال وأعطاها

(١) ولننظر كيف أن أى لقاء أو مهمة لايمكن أن يتم بدون «الرشوة» ، أنظر :
- إبراهيم تيمورى : عصر بى خبرى ، جـ١ ، ص ١٠ .

لساعيين ، ورحل من الباب الآخر ، وكانت هناك نقود من الذهب حيث يزنـها الوزير فى ميـزان ويقسّـمها أقـساماً على حدة[1] ، وانحنيت تعظيمًا له ، ووقفت ويدى على صدرى ، وظللت على هذا الوضع أكثر من عشر دقائـق ، حتى وزن النقود ووضعها فى كيـسة باليه ، وبعـد ذلك رمقنى بنظرة قـائلا : ماذا تريد : قلت لدى اقتـراح ، قال : تحدث وشرحـت نفس الاحاديث التى كنت قد عـرضتها على وزيرى الداخليـة والخارجيـة عند بدء المقابلة ، فطلبت الأذن بالجلوس ، ونظر إلىّ من رأسى حتى أخمص قدمى متعجـبا ، وقال: ألا تستطيع أن تتحدث عن اقتـراحك واقفا أيها الفضولى؟ إنك لست مريضا ، فعقبت إنه حديث طويل ، قال : تحدث عـما لديـك ، ورأيت أنه لن يعطى الأذن بالجلوس ، وهو ايضاً فى قمة الغضب ، ولو أتحدث بكلمة واحدة فإنه سيطردني ، فعـقبت وقلت ، أقسم لك ياجنـاب الوزير إن بى المـاً ، فإذن لىّ ياملك الإسـلام وحـاميـه ، بأن أجلس على أى وضـع ، فقـال اجلس فجلست .

وقلت إننى سائح ومسلم وجعـفرى المذهب ، وقد جبُت كل الغرب ورأيت جنود كل الدول ، واعرف جيدا نظام وزراء الحربية لتلك الدول وأحـوالهم ، ومن المشـهد المقـدس حتى هنا حـيث المدينة العاصمة ، لم أر أثرا لجنود حراسة الثغور والذين يحافظون

(١) هنا يجيب المراغى على السؤال الذى طرحه قبل ذلك من اخـتفاء الأموال الذهبية ، وفى هذا المقام نرى الأموال الذهبية مكدسة حيث يختزنها الوزير الإيرانى .

على أمن البلاد ، ولم أر مدفعاً أو موقـعاً للمدفعية وكذلك لم أر المهمات والقلاع والحصون والأبـراج والأسوار ، ولم أشاهد شيئا منها ، باستثناء عدد من الجنود كنت قد رأيتهم في مدينة «مشهد» ، في زى الفـعـلة والكادحـين ليتنى لم أرهـم ، والآن أسـألك بإعتبـارك وزير الحربية لهذه الدولة العـريقة : إن وضع دولة إيران بين أمرين ، فلو أنك على صلح مع كل الدول المجاورة ، وتعتقد أن الحرب لن تنشب ، فبناء عليه ليس من الضرورى كل هؤلاء : «العميد ، وأمير الخمسـة ، وأمير التومان ، والقائد الأكرم، والقائد الأفخم ، والقائد الأعظم ، وكذلك مـقر وزارة الحربية » وكذلك لاحـاجة لإعـداد جـيش مكون من مائـتى ألف جندى ، ويكفى فوجان لحراسة القصر المبـارك ولتول حاكما واحدا على كل مدينة مع ثلاثين شـخصـا من السـعاه والخـدم ، بدون رواتب محـددة يحمون الأراضى العثمانية والعراق حتى تعتبـر الرعيه الإيرانية إن طاعة الملك أمر لازم ، أما الأمر الـثانى : إذا كان من المحتمل أن يعدو عدو على دولة إيران ، فـإنه لامناص من الحرب ، إذن أين جيشكم المدرب ؟ والذى وفقا للوقت الحالى ينبغى أن يكون على أهبة الاستعداد ، وأين مهـام الحرب والإمدادات ووسائل التصدى للعـدو من المدافع والبنادق ، وأين مـخازن الأسلـحة ومـهمـات الجنود ، وكم عدد الأفواج التى تحـرس الثغور والحدود من الجنود والتى هـى لديكم ؟ وفى أى المنـاطق الهـامـة يرابـطون ؟ وأين مستشفياتـكم العسكرية ، وأين أطباء الجيش وجراحوه ؟ وفى أى

مكان اختـرتم مكان الأدوية ، واللوازم الجراحيـة لهؤلاء الجنود ؟ وما هـى وسائل النقل التى ستنقلون بها شـهداء البـلاد والوطن والجرحى من مـيدان الحـرب ؟ وفى أى منطقة من البـلاد انشأتم الثكنات العسكرية لإيواء المجاهدين فى الدين المدافعين عن الوطن ؟ وأين أقـمتم القـلاع المتينة والحـصـون الحصـينة لتسـتخـدم وقت الضرورة ؟ وهل يمكن أن تدافعوا أمام العدو الذى طوق البلاد من الجـهات الأربع بهـؤلاء الجنود ذوى السـتين عـاماً والقـواد ذوى العشـرين عاماً ؟ ومـاذا قدم هؤلاء القـواد الصغار من الخـدمات للدولة والشعب فـصاروا أهلا للسيف ، وجديرين بعـمادة الجيش وعندما وصل الحديث إلى هذه النقطة .

رأيت أن لون وجه الوزير قد تغيـر ، ونادى بصوت مهيب : أسد ، أسد أسـد ،فجاء أسد بيك السـاعى وقال «الوزير» : هذا رجل فضولى«ابن محروق» وحديثه كله عبث ، فمن سمح «لابن الكلب» أن ياتى إلى هنـا ؟ قال : نفـسى فـداؤك ، فـقد كـتب حاجى خـان ورقة لىّ ذكر فيـها أنه على معرفـه بوالده ، اضربوا «ابن الكلب» هذا ، اضربوه ، اضربوه ، اخرجوه ، إنى لا أعرفه هو الآخر ، وانهـالت الضربات والصفعـات على رأسى ووجهى مثل قطرات المطر من السـماء ، ولما رأيت أن العبـاءة ليست على كتـفى ، والقلنسوة ليـست على رأسى ، وأخذ خـمسة أو سـتة أشخاص يشدوننى من يدى وقدمـى ، وأمسكوا بتلابيبى، وراحوا

يكَّيلون لى الـضربـات على ظهـرى ، من أول درج السلم حـتى القـوا بى على الأرض عند آخـر درجـه من درج السلم ، وهجم عدد من الأشخاص علىً أسـفل السلم وأمسكوا بى ليلقوا بى فى السجن ، قـلت : ياوالدى بالله ابتعـد ، إذ قال الوزير اخـرجوه ولاتحبسوه ، فردوا قائلين لايمـكن ، وجاءنى مشهدى حسن وقال باللغـة الإنجليزية ، ما الموضـوع يا أخى العزيز ، قلـت كل ماهو منتظر أن يقع فقد وقع ،لكنه لم يأمر بسجنى ، فتدبر الأمر حتى نرحل من هنا ، قال معك نقود ؟ قلت ليس معى أى شئ ، قال أخـرج الساعـة وكل ما أطلبـه منك ، وكـانت يدى ترتعش وأنا أخرج الساعة ، فلم أقدر أن أخرجها «الساعة هنا ساعة جيب» ، فمزق مشهـدى حسن جيبى وأخرج مابها ، وقدم السـاعة للسعاة الذين كانوا يـحملون القيـود ، فتـوقفوا عن تكتـيفى بالقـيود ، وشغلوا بتحديد قيمة الساعة وتقـسيمها فيما بينهم ، وخرجنا من وسطهم ، ورأيت حـيث كنت خـارج البـيت أن رأسى عـارية ، والعبـاءة ليست على كتـفى ، فقلت يا أخى افـترض أنه يمكن أن أذهب بدون العباءة لكننى لايمكن أن أسـير ورأسى عاريه ، ووعد مشهدى حسن فراشا آخـر بقران واحد ، فذهـب وأحضر القلنسوة واخذ القـران ، وسرعـان ماتغـير الجنود بأخريـن ، وكان أولئك يريـدون شـيـئـاً ، ولا أعــلم مـاذا فعل « مـشـهدى حـسن» ورجعنا أدراجنا مـتعبين بل ومعدمين ، فـالجسم منهك ، والعين

باكية فى حين أنه لم تكن بى قدرة على المشى ، وسرنا فى طريقنا إلى المنزل ، ورجوت «حسن مشهدى» أثناء الطريق أن لايخبر يوسف عمى بحكايتى ، ووصلنا المنزل ، وحينما رآنى يوسف عمى ، أسرع نحوى فى ذهول تام وقال ماذا حدث لك ياحضرة البيك ، تحدث لماذا شحب لونك كما أن جسمك يرتعش ، فقلت ليس عندى جواب ، وقلت احضر الفراش والوسادة فاحضرهما ، وسقطت بلا وعى وحينما عاد لى وعيى رأيت فى ضوء المصباح،وقد تحلق حولى عدد من الأفراد واختبر شخص ما «الطبيب» نبض يدى ، ووضع يده الأخرى على جبهتى ففهمت إنه الطبيب .

وسألنى الطبيب كيف حالك ؟ وبماذا تشعر ؟ قلت لاشئ ، ونظرت صوب يوسف عمى ، فقال لايأخذك الوهم ، فبالله ليس هناك خوف عليك قط ، ورأيت أن يوسف عمى يبكى ويقول أيها الحكيم العزيز ، إننى لا أستطيع أن أعود إلى «أمه» أى والدة إبراهيم بيك وحيدا ، وينبغى أن أحمله معى ، فقال الحكيم ثانية أقسمت بالله ليس هناك شئ قط ، إذ إنه يعانى من التفكير وبعض الاضطراب ، وهذا من جراء بعض المنغصات والتى حدثت فجأة ، ليست هناك خطورة وسوف ينتهى الألم ، وإن كان معتادا أن يشرب شيئا من « الكُنياك» أو مشروبا معتقا ، فأعطوه ليشرب حتى يستريح ،فقال يوسف عمى حتى الآن لم

يذق شيئا ، أما وإن كان لابد من إعطائه فلا مناص من ذلك فقلت لايجعل الله لىّ فيه نصيبا ، فلو مت لن أذقه ، وأنا لست مريضاً ، ولاتخف ياعمى العزيز وأعتدلت فى فراشى ، وقال الطبيب اشغل نفسك بشئ . وأحضروا به كل مايريده من كتب الشعر والمغنيين والمطربين ، حتى تتحسن حالته ، فقال يوسف عمى أنه مولع بكتاب «تاريخ نادر» فضحك الطبيب ، وحملها على أنها سذاجة من العم يوسف وقال الحكيم : خذ شيئا من النعناع ، وليحضروا الشاى ، وضعوا به قطرتين أو ثلاثة ، وأعطوه اياه ليرتشفه ، وكتب اسم زجاجتين كشراب آخر كى يحضروه من الصيدلية ، وأعطوه كل ساعتين نصف فنجان ليشربه ، وبإذن الله لن يتطلب الأمر حكيما آخر ، وحينما تحتاجون طبيبا ، فأخبرونى فسآتى ثانية ، وقال الحكيم : حفظكم الله وأعطى مشهدى حسن الحكيم خمسة قرانات ، ورحل هو بعد أن أخذ «رشتة» الأدوية وأحضرها ، وكنت أشير أثناء هذه الفترة لمشهدى حسن أن يخفى الموضوع عن يوسف عمى ، وفجأة تذكرت أن مشهدى حسن المسكين لم يتناول الغداء ايضاً ، واعتذرت له ، فقال : ليست هناك مشكلة ، أرجو لك الشفاء ، فسألنى يوسف عمى أين تناولت غداءك ؟ قلت أكلته فى مكان آخر ، ورأيت مشهدى حسن يضحك[1].

(١) واضح أن كلمة «تناولته» هنا فيها تورية ، فأولا هو لم يتناول الطعام ، وثانيا فإن الذى تناوله هو الضرب المبرح من سعاة الوزير ، فهذا ما أضحك صديق إبراهيم بيك «حسن مشهدى» .

الخلاصة : أننى لم أستطع أن أخرج من المنزل لمدة يومين أو أكثر من جراء تلك الحادثة ، وفى اليوم الرابع ، رأيت أن حاجى خان يزورنــى ، لكن فى هذه المرة كان غــلام على الطاهى يرتدى ثيابا جديدة ، ويضع فوق رأسه قلنسوة مزدانه بالريش ، ويتمنطق بسلاح القمة، وقد ارتدى عباءة من قماش اللباد أمام حاجى خان ، ولما رآنى شــاحب الوجــه، ويبــدو علىّ الهــزال قــال ، لا بأس عليك ، مــا الموضوع ؟ واليــوم حدثنى «مــشهدى حــسن» .ولم أسمح بأن يتم حــديثه ،إذ خفت أن يعلــم يوسف عمى ، وقلت أيها العم العزيز أشعل السمــاور ، فذهب ، وقال حاجى خان : من ذلك الشــخــص ، وأى بلاء عظيم ابتليت بــه ؟ قلت : لقــد انتهى ، ومماينبــغى أن يحدث فقد حدث ، قــال ماذا جنيت حتى يضربوك بهــذا الشكل ، فحدثته بالتــفصيل ، فتعــجب وقال هل جننت حتى تتــحدث مثل هذا الحــديث ، إن وزير الحربية يعتــبر نفسه فــى التكبر والغرور أعلى من «فرعــون» والطواغيت فى هذه المملكة ، ولايجب أن تتــحدث مثل هــذه الاحاديث ، أن هؤلاء لايعلمون شيئا عن أحــوال هذا العصر سوى الإغارة على المملكة وخيانة الدولة والشعب ، وأنا من لــقب «خان» الذى أطلقته على نفسى لخجل وحياء ، وأى فائدة فالجميع مثلى ، بل أسوأ منى ، وتفكيــرهم منحصــر فى شئ واحــد ومذهب واحــد ، وأفكارهم مــقــصورة عــلى نقطة واحــدة ولو أننى كنت أعــرف من البــداية تفكيرهم عند لقائك بهــؤلاء الاخساء ، ولم أسمح لك أن تذهب

لهم «الوزراء» ، وربما كـنت أدلك على شـخص عـظيم هو أهل للمروءة والإنسانية، ذو غيرة، ومحب للوطن ، مولع بحبه لشعبه .

وليس مكتـوبا فى صحـيفـة قلبة غـير اسم الوطن وحـبه ، وذلك الشخص مقدس لوطنه ، وهو يعانى من الألم الذى تعانى منه ، وأنا فى مقابل هذه المعـاناه والتى انتهت بك إلى ذروة حب الوطن ادلك على «كنز» ينسـيك كل المنغصـات التى تعانى مـنها الأن ، وأنا الآن سـوف أصل إلى خـدمة ذلـك الرجل العظيم ، لكى أعد الأمر ، فتـملأ كئوسك من معين كوثر غـيرته ، لتروى ظماك ، وسأل : كيف أحولك الآن ؟

قلت: لاخوف فكل هذا ذهب وانتهى ولايزال العشق الأول .

الخلاصة : كان قد أعد الشـاى ، فارتشفناه ، ودار الحديث بعض الوقت ، وراح حاجى خان يمزح مع العم يوسف ويلاطفه ، ثم ودعنا هو وذهب . وفى الغد فى وقت الظهر رأيت رجلا كان يسأل البـواب عن أسمى ومنزلى ، فدلوه ، وتقـدم نحونا وألقى السلام فى منتهى الأدب وقـال إنهم يريدونك ، ويرغبون أن تأتى هناك حيثما تـسنح لك الفرصة ، والدليل على ذلك ، أن حاجى خان قد وعـدك بشئ ، وفهمت الموضـوع على الفور ، وقلت له اجلس قليلا حتى آتى ، وذهبت إلى السوق عجالة .

وإشتريــت عباءة باربعة تومــانات ، وعدت للمنزل ، وقلت لنذهب .

الخلاصة : أننا سرنا وبــعد أن جزنا مــسافة قــصيــرة ، قال الرفيق هل ترغب أن نستقل «الــترمواى» ، قلت ليس هناك أفضل من الســائرين على أقــدامــهم ، حــتى وصلنا إلــى بوابة بيت فى عمارة كبيــرة والتى تدل ضخامتها على عظمة صــاحبها ، وجزنا البــاب ، فرأيت بســتانا إزدان بالزينة والجــمال وهو زاخــر بأنواع الورود المختلفــة ، ورأيت بعض الخدم والحشم كل منهم مــشغول بنفــسه ، ولايعــمل أحد مع الآخــر ، واعتلينا درجــات السلم ، ووصلنا إلى الدور الثــانى من العمــارة ، ومررنا بقاعــة كبــيرة ، وكان الخادم يقــف أمام الغرفة ، فرفــع الستارة ، فرأيت شــخصا يجلس على كــرسى ، ويبــدو علــى جبــينه الــطاهر آثار النجــابه والعظمــة ولعله ملاك فى زى إنســان ، وعندما رأيت وجــه ذلك «الوجود المحترم»[1] ، وشمائل الرجــوله والوسامة زالت عنى كل المنغصــات التى مررت بها ، والقــيت السلام من أعــماق قلبى ، وردَّ التحية علىّ بوجه طلق وبشوش ، وقال : بسم الله تفضل ، وجلست فوق الفراش فقال: إنك لم تأت قبل ذلك » أى أول مرة تدخل البــيت» ، وأشــار إلى الــكرسى الذى كــان بــجــواره ، وأجلسنى عليه بعد اصــرار تام ، وبعد السؤال عن الأحوال وأداء مراسم الزياة ، سأل: اســمك إبراهيم بيك ؟ فقلت : نعم ، قال

(١) يرى «فريدون ادميت» أن الوجود المحترم هذا : هو «أمين الدولة» وأن روءية المراغى لأمين الدولة أمر خيالى وليس حقيقيا . أنظر

- فريدون أدميت : ايدئولوزى نهضت مشروطيت إيران ، ص ٨٦ ، ٨٧

إن طقس مصر حار جدا ، فكيف كنت تعيش هناك طوال هذه الفترة ، وقد سمعت إنك تقطن هناك منذ سنوات طوال ، فقلت : كل الصعوبات تهون مع التعود عليها ، وقد تعودنا على طقس تلك المنطقة وكذلك مائها ، قال : نعم ، نعم ، كل شئ مرتبط بالتعود ، وقال سمعت بالأمس أن أحد الكبراء قد أساء لك ، وعاملك بلا احترام ، وفى الحقيقة فقد اسفت للغاية ، وقد تجرعت الحسرات فماذا يمكن أن نعمل ؟ فينبغى الحرق والبناء[1] إنه لظلم ، بل ظلم عظيم ، فليرعاكم الله ، وليقتص الله منهم ، والحقيقة اننى أردت أن أتحدث معك كى أتعرف على هدفك من خلال هذه الأحاديث ، فماذا تريد ولآى شئ أتيت إيران ؟ وفى أى شئ ترى مساوئ إيراننا ، من وجهة نظرك ؟ فلعلك أخطأت ، فقلت: لم يكن هدفى من وراء هذا السفر سوى زيارة أرض الوطن الطاهرة والطواف بها ، ولكن السبب الأول هو تعصب أسرتنا الشديد فى عشقنا للوطن وهو مضرب المثل فى جميع أنحاء «مصر» .

أجل إننا نعز أرض إيران عن أرواحنا ، لأن وطننا مقدس وهو محل نشأة أسلافنا ومدفن أجدادنا .

وقد سمعت فى مصر التى تبعد كثيرا عن هذه المملكة الطاهرة - كثيرا من الأحاديث المنغصة من عدم استقرار أمور البلاد وانحراف المواطنين ، وغفلة الكبراء وتجاوزهم وتعديهم على

(١) يقصد الكاتب بالحرق والبناء أى التخلص من المساوئ والمفاسد ، والبناء أى بناء كل شئ من أجل إصلاح البلاد .

الضعفـاء والمساكين ، فلم أصدق لشدة حبى للوطن ، فـصممت أن اذهب لكى أرى بعينـى فشجعنـى صبا الشـباب فلم أفكر في الأمر ، وأعـددت عدة السفـر ، ومن أول دخولى الحـدود حتى وصولى الى هذه المدينة العـاصمة ، رأيت أن كل مـامررت به ، والذى كان يدعيه المدعون حقيقة وواقع، وليس هناك شئ حسن ، فاصـررت على أن أبحث فى أسباب هـذه المفاسد والفـضائح مع وزراء المملكة ، فربما يكون هناك سبب معقـول ومقبول ، فرحت أبحث عن شتى وسائل السفر من أجل أن أقابلهم ، فلم أر جوابا علي اسئلتى الا اللكلمـات والصفعات ، ولم أسـمع الا الشتائم والفحش وكما سمـعت «لايسمع مسلم ولايرى كافر (واضح أن حاجى خان قد شرح للوجود المحترم بما رآه الكاتب) ، قال أولا أسألك عن القانون ، ماهو هدفك أو غرضك من القانون ؟ وماذا يجب أن نعمل، فقلت أن شرح القانون وبيانه يطول الحديث عنه ، ولكن اختصـاره هو التعرف على دور تلك الحقـوق ، قال تحدث لنرى كم هذه الحـقـوق ، وكـيف تكون ، ومـاهى ؟ قلت : إن تطبـيق القـانون الفـعلى والذى يريده الشـعب ، كل الأحـاديث تتلخص فى أربع فقرات :

الحق الأول : يتعلق بالوطن ذاته .

الحق الثانى : يتعلق بأبناء الوطن .

الحق الثالث : يتعلق بالشكل العام لأفراد الوطن .

الحق الرابع : يتعلق بأمور إدارة الوطن والبلاد .

وهذه الحقوق الأربعة هى بمثابة العناصر الأربعة لجسم الوطن ، حيث تمتزج كل فروعه وجزئياته معا ، ويسمون كلياته باسم الحقوق القومية ، ويطلقون على جزئياته وإعدادها اسم القانون ، وتشمل أحكامه حق كل شخص [١] .

الحقوق المتعلقة بالوطن ذاته :

وهى عبارة عن حرية الوطن واستقلاله ، وتهيئه أسباب استقرار الأمور وسعادة قاطنى تلك الأرض الطاهرة ، والتى نطلق عليها «إيران» ونعتبرها وطننا .

وينبغى أن لانسمح لأحد من الأجانب أن يطأ بقدمة أرضنا دون إذننا وموافقتنا حتى لايأتى الوقت الذى يستولى فيه على جزء منها فيضرب خيامه ويقيم قصوره فى أرجائها .

الحقوق المتعلقة بالمواطنين :

وهى عبارة عن المحافظة على حياة أبناء الوطن وكذا

(١)ذكر حسان كمشاد : فى كتابه «النشر الفارس المعاصر» إن المراغى كان ينتقد الأوضاع الفاسدة فى إيران فى حين أنه فشل فى تقديم «الدواء» الذى يمكن من خلاله أن يتم إصلاح هذه المساوئ ، وهذه مقولة مردودة وليست صحيحة بالمرة ، إذ ماذكره المراغى قبل ذلك عند استجوابه لوزراء الداخلية والخارجية والحربية فيه الدواء والإصلاح ، واللذان يحتاجان إلى الإجراء والتنفيذ ، وكذلك فحديث المراغى عن الحقوق بانواعها من ص٨١-٨٤ ، فيه الدواء ، ليس هذا فحسب ، بل أن الكتاب بمجلداته الثلاثة ، ماهو الا رسالة من أجل الإصلاح ، ومن ثم يصبح رأى كمشاد السابق الذكر مجانبا للحقيقة ، وبعيدا كل البعد عن الصواب .

H. Kamshad: The Modern Persian Prose Literature . P:20.

أعراضهم وأموالهم وعزتهم من تـعدى الأقوياء وظلمهم سواء من الشـعب أو من الأجانب ، وليس فى مـثل هذا العصـر أن يلقى خدم خان ما القبض على شاب شريف فى وضع النهار بحجه ما، فيلقون به فى السجن ويعتبرونه مجرما ، وهو ليس له جرم سوى أنه متوكل على الله وذو شـرف وشأن عال ، فيسيـئون إلى شرفه ويقللون من شـأنه ، أو كـانوا يلقـون القـبض على تاجـر يكون مشـغولا بتجـارته فى حانوته ، وذلك بواسطة ثلاثين شخـصا أو أكثر من السعاة والخدم ، الذين يلتفون حول أمرأة هى زوجة أحد الحكام ، حيث تحمل الجيـاد هذه المرأة والخدم ممسكين العصى من حولها حيث يصيحون: «غض الطرف، اغمض عينيك ، انهض . انزل ، اصعـد» ، أو كـان يخطـئ أحد أقـرباء شـخص مـا ، فحينئذ يلقون القبض عليه مع عشرة أشخاص من أقربائه ويزجون بهم جميعا إلى السجن ، وبعـد عدة أشهر من السجن ، يطلقون سراح الجميع من السجناء الذين تم القـاء القبض عليهم ، فيضطر أولئك ايضـاً إلى ترك الدار والديار ، ويفضلون آلام الغـربة على الإقامة فى الوطن ، ويصبحون محوا وعدما فى البلاد الأجنبية .

حقوق إدارة الوطن :

وإنه لمن الواضح أن أفراد الوطن عـبارة عن تشكلات ، سلطة تشريع القـانون ، وسلطة تنفيـذ القانون ، أى تنظيـمات لسـعادة الوطن والمواطنين، ويرأس الملك وحده هاتين السلطتين المنفصلتين ،

لأنهما بالوراثة والاستحقاق ملك الأسرة العظيمة ، والأن تعال لنرى حقوق الوطن ، أى المطالبة بتنظيمات سعادة البلاد ، والمحافظة على إدارتها ومحبه أبنائها ، أولى مسئوليات هذه السلطة ،بغرض إنها موجودة، فكيف استولت إنجلترا على نصف «أرض بلوجستان» [1] بلاد سبب وبدون أى عناء والتى تعتبر الركن الركين لقوة إيران وشوكتها ، وهراة التى تمثل الجزء الأعظم من بلادنا الأن هى فى إيدى الافغان ،«وسرخس» [2] والتى بالأمس ضحّى مائه الف مقاتل إيرانى بأرواحهم على أرضها هى بالاسم تابعة لإيران وبالفعل فى أيدى الغير .

ويمكن إدراك الحنين «لإيران» وذلك عند لقاء أى مواطن من المواطنين فى القوقاز ، والتى انفصلت عن الأراضى الإيرانية منذ زمن بعيد ، وكل عام يهاجر على الأقل خمسون ألف من أولئك المواطنين ، وذلك بسبب ظلم الحكام وأصحاب النفوذ إلى الممالك الأجنبية ولايهتم أحد باحوالهم إلى أين سيذهبون ؟ ولماذا يتركون الدار والديار ؟

(١) بلوجستان : تقع شرق إيران ، يحدها من الشمال سيستان ومن الجنوب بحر عمان ، ومن الشرق باكستان ، ومن الغرب (جيرفت) ، و(بندر عباس)

- بهحدا : لغت نامه ، جـ ١٠، شماره حرف (ب) ، ص ٢٧٢

(٢) سرخس : مدينة كبيرة تقع بالقرب من خراسان بين نيسابور ومرو

- الحموى : معجم البلدان ، جـ ، ص٧

الحقوق العامة للوطن :

وهى عبارة عن كليـة تلك السعادة الجزئية التى تجـمع حقوق كل فرد من أفراد الهيئة العامة وهى من بين نفس تنظيمات السعادة المذكورة ، وتهـيئة السعـادة للمواطنين جزء منهـا ، ولكن الأفراد ليسـوا قادرين على نيل تلك السعـادة منفردين ، بالرغم من أنهم يسـعون لتـحصيلـها ، وتتـحقق هذه الحـقوق من خـلال الهيـئة الاجتماعية ، التـى هى الخير العام وينبغى على أبناء الوطن ، أن يحـبوا تراب الوطن أكـثر مـن حبـهم لأولادهم ، وبقدر مـاهم مكلفون بحفظ المذهب والعقـيدة ، ينبغى أن يحافظوا على الوطن بنفس الدرجة ، حـتى يعمـلوا بالحـديث الـشريف «حب الوطن من الإيمان»[1] ، والآن نرى أنه مـن أجل دوام هذه السـعـادة والمحافظة على أوامر الشريعة والمظاهر القـومية والديانة الإسلامية والثروة والحـياة العـامة للبـلاد ، ينبغى أن يكون هنـاك جيش ، وكـذلك مايلزمـه من مـهمـات للجيـش ، من أسلحة كـالمدافع والبنادق والعدل والنظام ، ولـكن لسوء الحظ نرى أنه لايرى شئ فى وطننا العزيـز اليوم من وسائل صـد هجمات العـدو ، سوى التـأوهات الحزينة وغـوالى الدموع للغـيورين من الشـعب ، أى لأيرى أى شئ فى هذه المملكـة العريقـة ، المتـراميـة الأطراف ، فليس هناك مـدرسه من أجل تعليم الأطفـال ، وتنشئتـهم وليس

(١) المأثور: حب الأوطان من الإيمان ، وهذا ليس حديثا شريفاً كما ذكر الكاتب .

هناك وحدات صحية ، ولا قانون يقنن حدود حقوق المواطنين ، ولا أثر للعلوم والفنون المتداولة ، وأخذ «الوجود المحترم» يرتعد لشدة تأثره فتارة راح يضرب ركبته بيديه تأسفا وحسرة ، وتارة أخرى ، أخذ يتأوه من أعماق قلبه ، قلت ماذنبى وأى حظ تعس هذا، حتى الزم الفراش ثلاثة أيام ويضربونى ضربا مبرحا ، بسبب سؤالى عن أسباب هذا الوضع السيئ ، علاوة على سماعى السباب والشتائم البذيئة ، والتى لم أسمع عنها طيلة حياتى ، وهنا تعثرت الكلمات فى حلقى ، وبكيت فجأة ، بكيت بكاء حارا، وبكى معى «الوجود المحترم» بكاء أكثر حرقة ، وفى تلك الأثناء أخذ يربت على كتفى بيديه فى حنو تام ، ثم قبلنى على رأسى وبين عينى ، وأمسك بيدى وهو يبكى وقال : تعال معى ، ورأيت خلف الباب خادما وطفلا يناهز العاشرة أو الثانية عشرة من عمره وفى يده منديل ، وراح الاثنان يبكيان على حالتنا ، واتضح لى إنهما لايعلمان شيئا عن أصل الموضوع ، فرقا لحالتنا وأخذا فى البكاء .

الخلاصة : إننا مررنا بحجرتين ، ووقف «الوجود المحترم» لحظة عند الحجرة الثالثة،وأخرج المفتاح من جيبه ، وفتح الباب ، ورأيت غرفة المكتبة ،والتى رصت كتبها ، وأعدت إعدادا جيدا ، وقدم لى مقعدا ومكتبا وطلب منى الجلوس ، وأحضر ستة مجلدات لكتاب واحد ، ووضعها فوق المكتب ، وقال : لدى

الكثير من الكتب ولكن ليس عندى أفضل من هذه «المجلدات» ، لكى تقرأها ،فاشغل نفسك بـقراءتها ، واليوم ينبغى أن اذهب ، فاليـوم يوم سلام وتعارف ، وليـس ببعيـد أن أتأخر ، وكل شئ معد وجاهز من أجلك ، وعندما يحين وقت الغداء والشاى فلتأمر لكى يحضروهما لك ، ووضع علبـة السجائر أمامى ، وقال طالما أنت مقيم فى «طهران» ، فهنا أنت ضيفى ، فعقبت مبديا شكرى وودعنى ورحل .

وشغلت أنا بمشاهدة المكتبة ، ورأت فى إحدى جوانب المكتبة كتب قوانـين الدول ، وقد تراصت متجاورة ، والـذى رأيته كان «قـانون الدولة العـثمـانيـة» وكـتاب قـانون الروس ، والقـانون الإنجليزى والفرنسى ، ورأيت فى جانب آخـر الكتب المتعلقة بفقه الإسلام وأصـوله ، والتى هى أساس النجـاة ، وشغـفت شغـفاً شديداً مـن وضع هذه المكتبـة ، وبعد ذلك بدأت أقرأ مـجلدات الكتاب الستة والتى أعطانى إياها ، فرأيت مخطوطا وقد كُتب فى غاية الإبداع ، وفـهمت أنه مؤلف من مـؤلفات «الوجود المحـترم نفسه» ، وقـد جمع فى المجلد الأول قوانين انجلتـرا وفرنسا وكل المواد التى تختلف وتنافى الأحكام المطاعة لشريعة الإسلام الغراء ، وقد أورد به البراهين العقلية فى إثبات الأضرار الدنيوية والأخروية ، وقد كتب شـرحا مفصلا لكل نقطة على حـدة ، وبرهن عليها ، والتى أحكامها لاتـلائم المقام السامى للإنسانية ، وقـد أطلق عليه

«المجلد السالف الذكر» أسم (كتاب القانون الملعون) ، وقد كتب بخط واضح نفس الكلمات على «مجلد القـانون الملعون » وأشار بعلامة على عدة مواد باسم «المردود من كتاب القانون العثمانى ، وأشار بـعلامة علـى بعض المواد الأخرى ذاكـراً أنه جيـد جدا ، ولكنه اليـوم لايلائم وضع إيران وطبائع الإيرانيين ، وقـد صحح مابقى والذى لايتنافى مع أحكام شريعة الإسلام المقدسة ، والذى كله مطابق للاراء السديدة والعقول السليمة ، ولإثبات صحة ذلك وسقمة ، أورد من الكتب الفقهية للإسلام .

والأحاديث الشريفة وكلام الأئمة الأدلةَ والبراهينَ والمؤكدةَ ، وكتب شروحا والتى من قراءتها ينبعث الأمل فى النفوس. وتحيرت وتعجبت من غزارة فضل الوجود المحـترم وعلمه وإحاطته للعلوم فى المعقـولات والمنقولات ، وقدرته الفائقـة فى الأمور السياسـية والعلوم الحديثة المتداولة ، فقلت لنفسى يا إلهى : كيف وجد هذا الشـخص الغـيـور الوقت الكافى للاطلاع علـى كل هذه الكتب المحلية والأجنبية مع كـثرة أعماله اليوميـة ؟ وكيف استوعب كل كتاب من هذه الكتب بهذه الدرجة ؟ وهنا تجلت عظمة الإبداع فى نظرى ، وقد دهشـت لصنع الله ، الذى أبدع هذه القبـضة والتى هى من الماء والطين ، والتى اسـمهـا آدم ، فكيف خلق كل هذه القدرة والقوة المادية والمعنوية ، وقد زادت مـراتب توحيدى بسبب هذا المعنى .

وأخذت فى التسبيح والتقديس بلسان القلب ، وفى ذلك الوقت كنت مستغرقا فى هذا الحال حين دخل الخادم الغرفة ، فقال بسم الله : تفضل الغداء جاهز ، قلت : أخى العزيز إنى شبعان من لذة الاطلاع ، لا أستطيع أن أبدل هذا الغذاء الروحى بذلك الغذاء الجسمانى ، فاحضر لى هنا كوبا من الشاى مع قطعة خبز وجبن ولاشيء آخر، فقال إننى أمرت ومع ذلك سمعا وطاعة .

والآن سأنفذ ماتأمر به ، فاسترح ، وذهب وأحضر قطعة خبز مع شريحة جبن وكوبا من الشاى، وقد جاء إلى، ذلك الابن الصغير والذى بكى لحالتنا فى الصباح مع الخادم ، وألقى السلام بأدب جم ، وذهب الخادم وجلس الطفل وشغل بمشاهدة كتاب ذى صور ، ولما إرتشفت الشاى ، حينئذ سألنى فى خجل تام مما يبدو على الأطفال المهذبين قائلا : لماذا بكيت مع سيدى فأبكيتمونا ؟

قلت : هكذا اقتضى الأمر ، قال أنا لا أتوقع منك أن تبين لى سبب ذلك ، فعندما ذهبت حكيت لامى ، فقالت لى أن أسألك ، فقلت الأفضل أن تسأل سيدك . قال إن سيدى لن يجيبنى ، وقلما يأتى لنا ، وحينما يتواجد فى البيت ، فإنه يجلس داخل نفس الحجرة وينشغل بالقراءة والكتابة ، قلت إذن أقول لك أنا ، إن سيدك يملك قرية اسمها «إيران آباد» وظهر بها

مرض فكنا نبكى على أحوال ساكنى تلك القرية [١] وسألت : أتذهب للمدرسة ؟ قال نعم أذهب الى دار الفنون الناصرية .

قلت حاول إن شاء الله أن تصبح وزيرا ، قال : حينما يتوفر لدى العلم الكامل فبلاشك سوف أكون ، قلت حينما يتوفر لديك العلم سوف تصبح وزيرا [٢]، قال : لاقدر الله ،قلت لماذا ؟ قال إن سيدى دائما يلعن الوزراء الجهلة ، وفى الواقع كيف يتولى الجهلة الوزارة ؟ فحينما يرتدى ملاما عمامة وجبة ، ويعتلى المنبر ، فينبغى أن يسأله شخص ما عن مسألة ، فإن لم يستطع أن يجيب إجابة صحيحة ، فبلاشك إنه سيخجل أليس كذلك ؟ فحينما يُسأل الوزير الجاهل عن شئ ولايُجيب ، فمن الواضح أنه سيكون خجلا بين الناس فتعجبت من وعى هذا الطفل وذكائه ودعوت له ، فقلت : أحسنت ، أحسنت إنى سأدعو لك أن تصبح وزيرا ذا علم وفضل ، واحسرتاه إننى لن أرى ذلك الوقت ، وأن عمرى لن يطول ، ولكن إن شاء الله سيدرك أولادنا ذلك الزمان السعيد ، وسيستفيدون من وزارة عالم مثلك ، وقال كم عمرك ؟ قلت تسع وعشرون سنة ، قال لو صرت عالما ، وحصلت تحصيلا جيداً ، يمكننى أن أصبح وزيرا

(١) على الرغم من أن لطفل صغيرا ، الا أن الكاتب تمكن من تبسيط وايجاز الموضوع فى كلمات معدودة .

(٢) اورد الكاتب هذه الجملة : «حينما لايتوفر لديك العلم لن تصبح وزيراً» ، وهذا مالايقتضيه المعنى كما يدل على ذلك بقية الحديث .

فى سن الخمسين ، والآن أنا فى الثانية عشرة ، أى بعد ثمانية وثلاثين عاماً ، ورأيت أنه شُغل بالحساب على أصابعة ، وبعد قليل من التأمل رفع رأسه وقال حينئذ ستكون أنت فى السابعة والستين ، فلا تخف . . . . لاتخف فإن المرء قد يصل سنه إلى التسعين أو المائة ، والآن يناهز سيدى الستين من عمره ، وهو يكتب بلا نظارة ، قلت يا إلهى . . . احفظ هذا الطفل ، فإن أطفال إيران يتمتعون بذكاء خاص وفطرى ولكن ماالفائدة : فإن بيت الغفله [1] مصيره إلى الخراب ، وا أسفاه ، وا أسفاه ، ورأيت أن الوقت يمر سريعا ، ولاخبر عن «الوجود المحترم» ، كما أن الذهاب بدون استئذان صاحب البيت ، أمر مناف لرسوم الأدب ، فطلبت كوب شاى آخر ، فجئ لى به ، وارتشفته ، ثم نهضت ، وجددت الوضوء حتى أصلى واتضح لى من «ظاهر الأمر» ، إننى ينبغى أن امكث الليلة هنا ، وذهبت ثانية ، مباشرة للاطلاع ، وقد شغفت بقراءة تلك الكتب شغفا لاحد له ، وقد زال عنى حادثة وزير الحربية ، تلك الحادثة التافهة ، وضياع الساعة والعباءة وكل الشتائم النابية ، وكنت أقول لنفسى ، لو لم أر «ذلك الوجود المحترم» لكنت ذهبت من هذه المدينة بتلك الحالة الكئيبة ، ولحزنت حزنا مميتا .

(١) يقصد الكاتب هنا ببيت الغفلة مملكه إيران .

الخلاصة : أنه بقى ساعة من الوقت على الغروب ، فرأيت «الوجود المحترم» وقد دخل من الباب فى زى رسمى .

وقال «الوجود المحترم» اسمح لى بقدر من الوقت ، فالوقت متأخر حتى أؤدى الصلاة وسآتى ، وذهب وكان قد ارتفع صوت الآذان ، ودخل من الباب وغير لباسه، وارتدى لباسا باليا أبيض ، والقى السلام، فنهضت من مكانــى وقبلت يده، وقبلنى وجلس ، وقــال امكث اليوم فــقط ، وإن شاء الله ، لن يصــيبك ســوء ، فقلت هل يرى أحد ســوءا فى الجنه ؟ فضحك ، وقلت إننى من نشوة الخمر التى سقيتنى إياها ، نشوان بحيث لا أعلم (شيئا عن ذاتى فمــاذا يقول العــاشق بلا رمز) ، وليست لــدى القدرة على إدراك مــثل هذه النكات الرقــيــقة ،وكم أنــا مســرور حــتى أننى لاأخشى شيــئاً آخر، فأنا ولهــان وفى غير وعى ، فــقال إننى لم ادخل أحدا فى غــرفة المكتبــة هذه من قبل ، ولما رأيتك فى ذروة اليــأس والقنوط ، فهــمت إنك تظن أنه لا أحد يعلــم شيئــا عن وجــود القانون فى كل أنــحاء إيران ، لهــذا اردت أن أبين لك أن لدينا قانوناً ولكنهم حبــسوه ، (وأخفوا مفتاحــه) ، فعقبت هل «هذا القــانون» أفضل من جــميع المواد المخــتارة والمضرة لــقوانين الغرب والتى جمعتها واطلقت عليها اسم «قوانين اللعنه» ؟ ، قال ياعــزيزى : أن كل مالدى الغــرب من قوانين جــيدة ، اقــتبــسوا

جميعها من كتب الإسلام المقدسة وأكثرها من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة [1] .

ومن العلم الغزير لإمام المتقين أسد الله الغالب «على بن أبى طالب» كرم الله وجهه ، وكتب المسلمين الفقهية ، لأنه لم يكن هناك أحكام فى دين النصارى ، ولن يوجد ، وكل ماهو مضر بعالم المدنية والواقع ، ومناف لعوالم الإنسانية السامية وموجود فى قوانينهم هو صادر عنهم ، وفى بادئ الأمر لم يكونوا ليعرفوا عاقبة ماكتبوه ، والآن أعلم أنهم أنفسهم - أهل الغرب - قد أدركوا مساوئ هذه القوانين المتداولة، ولكن الزمام قد أفلت من أيديهم ، ولا يستطيعون التغيير ، ولانهم يخشون حدوث القيل والقال والفتنة والفساد ، والآن فقد تعود على ذلك الأمر العالم والجاهل ، وقد قُنن القانون العثمانى بحرص شديد ، على الرغم من أنهم اقتبسوه من الأجانب ، ولكنهم لايهملون أحكام الشريعة الغراء فى أى جانب منها ، وغالبا مايرجع المدعى والمدعى عليه إلى المحاكم الشرعية ، فقلت إنك لم تشرح هذه المواد ، قال إن شرحها يطول وقد كتبت نبذا بين الصفحات ، وأساس هذه المواد

(١) هذه المقولة تؤخذ على «المراغى» فليس كل مالدى الغرب من قوانين جيدة مقتبسة من كتب الإسلام أو القرآن والأحاديث النبوية ، وإن كنا لاننكر أن كثيرا من القوانين القيمة موجودة فى القرآن وكتب الإسلام والأحاديث النبوية الشريفة .

من بنات أفكار المرحوم ميرزا تقى أمير نظام[1] ، ولكنه لم يكتب شرحا بنفسه وقد قالها بشكل مختصر ورحل .

والآن فقد ثبت من الشرح الذى كتبته ، كم هو مفيد من أجل زيادة ثروة البلاد ، وقلت : إنك عانيت كثيرا وافنيت عمرك بجمعك هذه الكنوز الزاخر بالجواهر النفيسة ، وكم من فائدة يمكن أن تحقق من وراء هذه الحالة بما أخفى فى هذا الكنز عن الانظار من أجل سعادة إيران ونفع الإيرانيين ، وهكذا تأوهت بشدة من أعماق قلبى عند سماع هذه الاحاديث الزاخرة بالمعرفة بحيث إننى ارتعدت ، وبعد ذلك قال : إن لدى الكثير من الأعباء التى لايقوى عليها كاهل وقد انتظرت طويلا كى تسنح الفرصة فأعرض بعض هذه الموضوعات على الملك على إنفراد ، إذ ليس معى أنيس أو شريك يمكننى بمساعدته تحقيق هذه الأهداف النبيلة ، ورغب «همايون» فى جعلها موضع التنفيذ وكنت على وشك إجراء ذلك الحكم الصادر ، ولكن فى الوقت الذى كان فيه أربعة أفراد راضون ومسرورون بهذا الحكم ، كان هناك أربعون

(١) ميرزا تقى خان أمير نظام : قائد الجيش الأعلى فى عهد ناصر الدين شاه ، (١٨٤٨-١٨٩٦) ، وقد قام تقى خان هذا ببعض الجهود فى سبيل القضاء على المساوئ الإدارية المتعددة اقترنت أول الأمر بالنجاح ، وعادت عليه بعد ذلك بعداوة كثير من ذوى النفوذ كما جد من سلطة رجال الدين غير المستينرين والذين استغلوا الدين من أجل تحقيق أغراضهم الشخصية وتضليل طبقة سواد الشعب .

- محمد استعلامى : ادبيات دورة بيدارى ومعاصر . ص ٣٢٢ .

شخصا على النقيض غير راضين ،ويحاول هؤلاء الأربعون أن يمنعوا تنفيذ هذا الحكم بكل وسيلة ، من الخداع والتزوير ، فحاولوا تشويه الموضوع لكى يصرفوا الملك عنه ، ولايزال الحكم لم ينفذ معطلا ، وهو كالبخار الذى يتصاعد من الماء الساخن ، حيث يعلو فى الهواء دون أن يعود إلى مكانه ، والملك تارة فى مصيف ، وتارة أخرى فى رحلة صيد ، وغالبا مايدخل الملك المدينة ، ولكنه لايخرج من داره لمدة أسابيع ، وفى ذلك الوقت يقوم الوزراء الجهلة غير الغيورين والذين لاعلم لهم سوى النفاق والمداهنه ، يقومون بالاختلاء بالملك حيث يدبرون أمورهم ، قلت : ماذا يضير أولئك من الاصلاح ، قال هم يخافون عندئذ إن تولى الأمور للعلماء من الدولة ، ومن ثم يعزلون من مناصبهم وليست هناك فائدة من تقلدهم لمناصب الوزراة والحكومة سوى النفاق والكذب على بعضهم البعض والذى سموه شعرا ، فبعضهم من خلال هذه الاشعار المتواصلة يرفع الملك إلى السماء فى رحلة معراج ، وبعضهم يخرج (دارا) (والإسكندر) من قبريهما ، ويعطونهما البنادق ليقوما بحراسة بلاط السلطنة .

ويعد البعض منهم «الملك» فى عدل أنوشيروان ، وفى الزهد والتقوى ثانى أبى ذروسلمان الفارس ، وتعتبر فرقة أخرى دون خجل أو حياء أن قتل الملك للدب فى الادغال مثل ضربة أسد الله الغالب فى غزوة الخندق ، ومع أن الأمبراطور الألمانى يصطاد

كل عـام مـايفوق مـلك إيران بمائة مـرة من الحـيوانات الاليـفـة والوحشية والطيور ، ومع ذلك لم ينظم شاعر المانى واحد قصيدة فى مدح سهمه وقوسه[١] ، ومع إن ماسيقولونه ليس فيه شبهة .

وتبالغ مجـموعة أخرى فى كتـابة النثر ، فتجـعل من سفره للغرب - ملـك إيرن - كأنه غزو لابن فـيليب (الإسكندر) ، والذى أخضع العالم ، فيصف الكتاب لقاءه بملكة إنجلترا كوصف قصة بلقيس وسليمان «عليه السلام» ، فهم يخدعون المسكين بهذه الكلمات الجـوفاء فيـشغل بها ، ومن ناحـية أخرى يقـومون هم أنفسهم بسلب لرعية ونهبهـا وتخريب البلاد ، وبالله فإن مايخربه هؤلاء بارض إيران ، لهـو أسـوأ من تخـريب المغـول وغـزوهم لأرض إيران .

قلت بعد الإجهاز على هذه المملكة مـاهى عاقبة ذلك ؟ قال فى الحقيقة لايزال أملنا لم يتبدد كله ، فهناك وميض من الأمل ، ولما إن هذا أمر من الأمور الطبيعية . إذ إن شوق الإنسان ورغبته فى كل شئ تبدأ من الثلاثين حتى الخـمسين ، وبعد ذلك ، فإن هذه الرغبة والشوق يأخذان فى الضعف والضمور فتنهار كل قوى الملك والذى مر بـتلك المراحل والتجـارب ، إذ إن الأمل فى المستـقبل

(١) هنا يتحدث الكاتب عن شعراء إيران المنـافقين المداهنين ، والذين لاينظمون شعرا إلا فى المدح والإطراء .

وفى ولى عهـد الدولة[1] ولو أصبح بمشيئة الـله حاكما للبلاد ، فإن إيران سينبـعث فيها روح جديد ، لأن حضـرة ولى العهد ذو دين ويتمتع بعدة خصال حميدة والتى يمكن أن تعد من عوامل بقاء إيران .

أولا : عقيدته النقية وخـوفه من الله وإيمانه بالحشر والنشر ، ويعلم إن أمامه يوم حـساب ومحكمة كـبرى ، وبلاشك فإنه لن يرضى عن هذا الوضع ، فـيظلم الآخـرين ، فيكونوا سـببـا فى خسران دنياه وعقباه .

ثانيا : إنه ليس مسرفا أو مبذرا ، ولن يرضى مطلقا أن يضم فى حرمه مائة امرأة وجارية [2] ، وحينئذ سينأى الوزراء أيضا عن الإسراف والتبذير لأنه قيل «الناس على سلوك ملوكهم» .

ثالثا : هو ليس راضيا بالوضع الحالى للبلاد ، ولانه يعلم إن الرعـية ساخطـةوهذا كله باعث على مزيد من الأمل والـرجاء ، علاوة على هذا فإن حضرة ولى العهد يتخلق بحسن الخلق ، ولم يعـرف الكبر أو الغـرور طريقا إلـى طبيـعتـه ، ولايحب المظاهر الجوفاء ، وهو بسيط فى لبـسه ، ويحب أن يكون كل شئ بسيطا وهو على علم بوضع وزراء الدولة وأمراء الجـيش وأحوالهم وهو يزن تصرفات كثير من أولئك ويقدرها التقدير الجيد .

(١) ولى العهد هذا هو مظفر الدين شاه والذى حكم من (١٨٩٦-١٩٠٧م)

(٢) يشيـر الكاتب الى كيف كان المـلوك القاجاريون يعـيشون فى تبـذير وإسراف وترف بالإضافة إلى امتلاكهم لآلاف الخدم والحشم والجوارى ، وهو مالايليق بالملك العادل ؟

وهو على علم بكل أمورهم ، وهذه كلها من السمات والشروط المطلوبة لولاية العهد ، والتى لاتتوفر فى شخص حاكم السلطنة الحالى ولكن مما هو باعث على مزيد من الأسف فى هذا المقام ، هو حينما يتولى ولى العهد زمام الحل والعقد فى أمور الحكم فى البلاد فإنه لن يبقى شئ له من النظام الحاكم السابق والذى يمكن من خلاله إصلاح أوضاع المملكة. اللهم باستثناء قلة من الأفراد الجهله والمنافقين المداهنين والمرتشين سيئى الأخلاق ، والذين يطلق عليهم اسم وزراء الدولة ، ووجودهم هو السبب الأول فى هرج المملكة ومرجها ، وفى بادئ الأمر ، فإن المسكين «ولى العهد» سوف يفتقد أول الطريق «للإصلاح» وحينما لايضطرب هو نفسه من هذا الوضع المتردى ، فقد فعل خيرا كثيرا ، وعلى كل حال ، فإن الأمر هنا يتطلب وزيرا محنكا ، وذا عزم حتى يدير دفة السياسة الخارجية ، فلا تتاح الفرصة للدول المجاورة بأن تتدخل فى شئون البلاد الداخلية ، حتى يتمكن الملك الجديد من السيطرة على الأمور ، فيتولى أزمة المملكة .

قال : هذا وضع بلدنا الحالى ومستقبله والذى دار الحديث عنه إجمالا ، ولكن مع كل هذه الأحاديث الكثيرة ، فلو جئت مرة أخرى هنا ، سترى كل شئ مكتوبا على ورقة «القانون» فقلت ياصاحب السمو إن السبب الرئيسى لمختلف أنواع الخراب والغفلة وغيبة القانون هو السادة علماء الشعب ، فهم لايسمحون للدولة بإن تقوم بتنفيذ الإصلاحات فى مدنهم ، قال لا ، لا ،

إنهم يبهتون السادة العلماء ، ومن الجرم أن تصدق هذه الافتراءات على عالم من أولئك العلماء ، فأنت رأيت بنفسك إننى كتبت فى القانون أربعة وعشرين فصلا فى شأن وجوب احترام علماء الشعب ، وهذا المعنى لايقتصر على إيران ، فرعاية أحوال العلماء والزعماء الروحيين من لوازم الأمور السياسية فى كل بلد ، وفى كل مكان ، فإن احترام طبقة العلماء الجليلة هو مهمة من مهام أمور الحكم ، فمقام العلماء رفيع جدا ، لهذا فعلماء الشعب فى أى وقت لايقولون للملك ينبغى أن تتغاضى عن عزة الشعب وثروة البلاد وسعادة السكان . إلا علماء لايريدون أن يعمر وطنهم ويسعد شعبهم ، فكيف لايرضى علماء الشعب أن يتساوى كافة مخلوقات الله فى الحقوق ؟ فلعل العلماء لايعلمون أن القانون ليس سوى تنفيذ أحكام الشريعة ، والشريعة أصل القانون ، ومعنى الكلمتين عبارة عن تنفيذ العدالة بالتساوى .

ولو قال أحد كيف أرضى بأن أتساوى فى الحقوق مع خادمى ، وهذه المساواة ، تعنى التقليل من احترامى وشأنى ، أقول لمثل هذا الشخص إنه سيحشر فى زمرة الأشخاص الذين أخلوا ببيعتهم وحادوا عن أوامر الله وحدوده ، ولايرضى العلماء إن تسلم الرعية ضرائب الدولة وأموالها لهؤلاء ، أو يتولى أمرهم موظف خسيس وظالم ، فيأخذ منهم خمسين تومانا أو مائه باسم الرشوة أو الخدمة ، وفى بعض الاحيان يؤخذ هذا المبلغ بضرب العصا ، وكيف لايرضى العلماء بأن ياخذ كل وريث من الورثه حقه من

ميـراث أبيه وأمـه طبقـا لأحكام الله وشرع الرسـول ، ولايعرف السادة العلمـاء أن وظيفـة رئيس العسس ماهى الا المحـافظة على الأسـواق ورعايتـها ، من اللصـوص والمحـتالين ، وليس القـاء القبض على الناس وسـجنهم وتأثيمهم بهتـانا ، وتجريمهم ، وأى شخص لايرضى حـتى ولو افتـقد الإحسـاس بأن يطغى خادم أو سـائس لخان خـائن على بائع أو تاجـر ؟ وأى مـجنون يمكن أن يدعى أن الدولة فى مـقابل الأمـوال والضرائب التى تأخـذها من الرعية لاترعى أموالهم وأرواحـهم وأعراضهم ؟ وأى جاهل شقى يرضى بان يعـاقب الأخ بدلا من أخـيه والجـار بدلا من جاره ثم يحبس ويجرم ؟

وأن يلقى القبض على عمـرو بجريرة زيد ؟ وكل من يرضى بهـذا ليس مـسلمـا ولايعـد من أمـة الرسـول «ص» ، وإن الله ورسوله غـاضبان على هذا الشـخص ، بل إنه يستـحق القتل ، وكل عالم لايعرف هذه الأشياء أو عرفهـا وفهمها وينكرها ، فإن الجهل لأشرف له من العلم بدرجات ، وهو نفـسه لايعد إنسانا ، ولكن مـاهو منـاف لـرأى العلمـاء فـى القـانون هو مع وجـود القانون فى كل مدينة «لاينبغى» أن يقام خـمسون محكمة فى هذه المدينة ، حتى لايضـيع عمر المدعى والمدعى عليه فى خـضم تمييز الأحكام المتعددة المتناقضة الصادرة منها ، ونظرا لاتساع كل مدينة وقصبة ، فلتؤسس المحاكم فى عدة مناطق معينه ومحدودة ، وإن يتولى إدارتـها عالم يشـتهـر بأمانته وتدينه وزهـده وتقواه ، عن

الجـميع مـن قبل الشـقـات من الناس ، وكـذا أن يكون أعلم من الجـميع ، وإن يحـدد له مـعاش من الدولة أو وزارة الأوقـاف ، فيصبح المسـجد والمنبر والإمامه والخطبة قصـرا عليهم «العلماء» ، وبذا لايمكن أن أعـتلى المنبـر أنا نفـسى ، ومن أجل ذلك الأمـر ينبغى على العلماء بهذا الشكل أن تتميز مساجدنا وتكايانا بالجمال والرونق ،حتى يكونوا أكثر احتـراماً فى أنظار غيرهم ، وبلاشك ينبـغى أن نعلم أن المسـاجد بيـوت الله ، فـينبـغى احتـرام تلك الأماكن المقدسة والتى هى مكان العـبادة ، وكذلك المحافظة على قدسيتهـا ، وينبغى اختيار العديد من الخدم حـتى يحافظوا عليها دائمـا نظيفـة وطاهرة ، وينبـغى توفيـر نفـقاتهـا الضرورية قـبل استـحقاقهـا فإنه فرض عين وعين فـرض ، إذ بدون ذلك لايبقى مسلم أو إسـلام ، وإذا حدث تقصيـر من الملك والدولة تجاه هذه المساجـد فلن يبقى اسم أو رسم للإسلام ، لأن عـزتنا وأعراضنا متعلقة بهـذه المساجد ، وهذا الموضوع أحد الموضوعات السـياسية الهامـة للغاية ، إذ أن جـميع الدول حـققت أهدافهـا بنفس هذه الوسيلة والا لهلكت تماما ولكن إذا اسـتقرت السلطنه على هذا ، سيـمتلك العلماء حق التـدخل وإبداء الرأى وسيحـصل السادات أيضا على حقوقهم، ولماذا لاينبغى أن يكون لهم الحق فى ذلك ، فى حين أن رائدا أو عقيـدا يمكن أن يحمى خمسين شخـصا بقوة «العصـا» مدعيـا قرابته ، ويقـيهم من بلاء الظلم ، فـبلاشك أن

الشخص العالم يريد أيضا أن يجعل بيته عتبة وملجأ للعامة ، وسيعطى أولئك العلماء العامة حقوقهم بالعدل والقسطاس .

وكل عالم له الحق فى أن يخلص أقرباءه ومريديه من قبضة الحكام الظلمة ولو تطلب الأمر أن يكون التصدى لهؤلاء الظلمة فى حكم الجهاد ، فى حين لوكانت هناك عدالة ومساواة وثواب وعقاب ، فماذا سيقول الملا والسيد وغيرهم ؟ وماذا يمكن أن يفعلوا ؟

الخلاصة : إننى من أجلك أكثرت من الحديث ، ولكن قلبى مازال عامرا فأدع . . . فادع أن تنصلح وتتحسن إن شاء الله كل الأمور فى المستقبل ، ونادى أن أعدوا العشاء . وكم أنا سعيد ومسرور بحديث ذلك «الوجود المحترم» ، إذ أريد أن أرقص من فرحتى وسعادتى نشوة ، وجاء الخادم ، وقال : تفضلوا العشاء معد ، وكانت المائدة مزدانه كثيرا وحافلة بأنواع الأطعمة الشهية واللذيذة ، ولا ادرى هل كل ليلة هكذا ، أم إنها - المائدة - كانت من أجلى ، وجلست ولم يكن هناك أحد سوى ذلك الطفل الصغير ، فقلت اليوم تحدثت مع ابن السيد وسمعت أحاديث معقولة جدا ، فليحفظه الله ، فلو أن لشيوخنا الكبار عقولا وإدراكا بقدر مالهذا الطفل الصغير ، ما أصابنا مانحن فيه من هم وحزن ، وسأل « الوجود المحترم » لعله اتى عندك ؟ قلت نعم مع الخادم ، وأحضر الشاى ودار الحديث ، فقال « الوجود المحترم» ، حينما ترغب أن اتحدث معك قليلا فى شأن الحكم

والإدارة من باب الحكمة والنصيحة ، فعقبت إنى مشتاق اشتياق الروح ، قال ياعزيزى هذا شئ معلوم لدى كل إنسان وهو معنى حقيقى ، والدولة التى اسمها الملك والسلطنه هى عبارة عن مجتمع من الهيئة البشرية ، ويلتقى هذا المجتمع البشرى بقانون خاص ، وفى نقطة واحدة ، ويرى بعض الباحثين المفكرين العالمين والذين يقفون على دقائق الحكمة النظرية والعملية والذين هم على دراية برموز طبائع الأشياء ، يرون أن حالة تجمع بنى الإنسان هى فى الواقع مثل حالة تفردهم ، إذ حينما ينظر شخص بإمعان سيرى فى كثير من أمور الحياة ، أن وضع تجمع البشر وتفردهم ، حالتان متوافقتان ومتساويتان معا ، كما وردت الإشارة فى القرآن الكريم «وقد خلقكم أطوارا» بهذا المعنى[1].

ويقول الحكماء العلماء إن عمر البشر ينقسم إلى ثلاث فترات ، الفترة الأولى وهى عمر النمو ، والثانية وهى عمر التوقف عن النمو ، والثالثة وهى عمر الانحطاط ، وبالمثل فللدول والمجتمعات البشرية أيضا ثلاث فترات ، ولكن تختلف أحيانا إلى حد ماتلك الفترات أو الأطوار الثلاثة بسبب ضعف البنيه وقوة الهياكل البدنية ، إذ أنه يحدث انحطاط الشخص الضعيف البنيه قبل انحطاط وسقوط الرجل القوى ، وهذا المعنى يشاهد فى حياه

(١) نوح / ١٤ : أوردها الكاتب وخلقناكم اطوارا ، وهذا خطأ .

الدول والمجتمعات البشرية ، بهذا الشكل الذى يرى فى الأفراد ، أى أن هناك تفاوتا فى عـمر نمو الدول وتوقفها وانحـطاطها أيضا بسبب ضعف البنـية لهذه الدولة وقوة تركيـبها ، وذلك إن بعض الهيـئات الاجتـماعيـة القديمة قد انهـارت بسبب ضـعف البنية ، ووصلت أثناء مـرحلة النمو إلى مـرحلة التوقف ، وأثناء مـرحلة التوقف وصلت إلى الانحطاط «المرحلة الثالثة»، وانمحت وانقرضت قبل الوقت الطبيعى لاجلها ، وعلى النقيض ، فهنالك بعض آخر « من الدول» إمتد زمن نموها وتوقفها بسبب صـحة طبيعتها وقوة بدنها ، وتتضح هاتان النقطتان الجليتان لدى أى شخص بقليل من التـأمل فى تاريخ الأقدمين ، ولهـذه المراحل الثـلاثة ذات التفـرد والتجمع لبنى الانسـان ، علامات وأسباب خاصـة والتى يعلمها جيدا القائمـون بالامور والمشرفون على مصالـح الجماهير ، إذ أن أولئك ممثلو الـبنيـه الاجتـمـاعـيـة، وقـد أنيطت بهم المحـافظة والإشراف على قـوة البنية ، والذين يقومون على الفـور بالبحث عن العلاج ، ومحاولة القـضاء على المرض عند وقوع ضعف فى قوة المملكة وبنيتها الاجتمـاعية، لأنه عند حدوث تلك الحالة، فأقل إهمال منهم تحمّلهم مسئوليات جساما، وكما أن هناك قاعدة عامة عند علاج الأمراض الروحـية والجسمانيـة ، اذ ينبغى تجنب سوء العلاج والدقة فى أمـر المداوة والعلاج، لأنه من الواضح أن الدواء الذى يتعـاطاه الشيخ المسن لايمكن أعطاؤه لطفـل رضيع والعكس صحيح ، وينـبغـى أن تكـون المـعـالجة وفقا للطبيعة والإ لتحولت

الفائدة إلى ضـرر ، وكمـا هو معلوم أن البنية الإنـسانية الخـاصة تتشكل من عناصر أربعة ، وزمام السيطرة عليها عن طريق القوى والحواس التى تسيطر عليهـا النفس الناطقة ، وقد أنيط زمام إدارة الهيـئة الإجتـماعيـة ، بالوزراء ومديرى الامور والـذين هم بمثابة الحـواس والقـوى إلى السلطان أو الملك الـذى هو بمثـابة «النفس الناطقة» ، وأصبـح زمرة العلماء والوزراء والتجار والـرعايا بمثابة العناصر والأركان الأربعة للدولة ، وزمرة العـلماء بالنسبة للهيكل الإنسانى بمثابة «الخلط المحـمود» ، أى الدم الذى يصل إلى القلب والذى هو أساس الحياة الإنسانيـة ، لأن الروح «الحيوانية» للجسم هى جوهر لطيف ولايمكن أن تجـرى فى بدن الإنسان بالذات نظرا لهذه اللطافـة التامة ، ولا جـرم أن الدم الذى تعرف قـوة جريانه يحـمل «الروح» معـه ، وتنتقل مـن قنوات العروق المتناهيـة فى الصغر حيث تسـتقر فى أعماق البدن حتى يصل فـيضها «الروح» إلى كل الأعضـاء والجوارح ، حـيث يستمـد البدن من جـريانها الحيـاة ، وتـبـدو عليه النضـرة ، وعلماء الشريعـة والحقيـقة هم أيضـا للعلوم الشريفـة بمثابة الروح الحـيوانيـة فى الأبدان ، وهم يحـملون «هذه العلوم» وفـقـا لمبـدأ الفيـض بالذات أو بالواسطة ويوصلونهـا فـى لغـة تلائم العـوام الذين هم بمثـابـة بدن البنيـة الاجتـماعيـة ، وكمـا ينتفع البدن الإنسـانى من الروح الحيـوانية ويستـمد منها الحيـاة ، فأولئك أيضا يسـتمدون الحيـاة والقوة من

فيض العلوم التى يحصلون عليها من قبل زمرة العلماء ، وبسبب ذلك تطول فترة بقائهم ودوامهم ويعيشون فى عزة وفخار ، والجنود ايضا فى البدن بمثابة البلغم والتجار بمثابة (الصفراء) والرعية والدهاقنه بمثابة (السوداء) ، إذ أن طبيعتهم طينيه وهؤلاء الأخلاط الأربعة[1] ينتفعون من بعضهم بتعاملهم مع بعضهم البعض بشكل متساو ، ولما أن هذه الأركان الأربعة ، هى مدنية بالطبع فهى لهذا أساس صحة مزاجة ، وهم أنفسهم يستفيدون من أعمال بعضهم البعض ، لهذا تزيد مراتب الهيئة الاجتماعية كما تستقيم طبيعة الدولة على أليق حال ، ثم يجب أن يراعى دائما حد الاعتدال فى هذه العناصر الأربعة حتى لايحصل تفوق أو رجحان من حيث الكم والكيف لواحد على الآخر .

وحينما لاتكون هذه النكته موضع الاعتبار ، فإن المرض يتسلل إلى صحة البدن بسبب ذلك الاختلال ، ويظهر الفساد فى كيان الدولة ، وإذا ماتفوق عنصر من العناصر الأربعة خرجت

(١) الاخلاط الأربعة : هى الدم والبلغم والصفراء والسوداء وهى أجسام رطبة سيالة يستحيل اليها الغذاء ، ومفردها خلط (بكسر الخاء) والخلط الأصلى منها الدم ، وهو الغذاء الحقيقى الذى يقوم به البدن ، والثلاثة الأخر توابع له .
- بطرس البستانى : محيط المحيط : ص ٢٤٨ .

الروح العذبه[1] من جسدها، وكما قلنا إن الرعايا والدهاقنة يشكلون البنية الاجتماعية للشعب فى طبيعة المملكة وبمثابة «السوداء»[2] ، وكما ثبت فى علم الطب والتشريح ، أنه بعد هضم الطعام ، حينما لايدخل الغذاء إلى المعدة ، فإن المعدة لاتخلو قط من الطعام حيث يصب الطحال قدراً من السوداء فى المعدة ، حتى لاتصاب المعدة بالخلل ، ومثل خزانة الدولة مثل «المعدة» للمملكة ، فحينما تخلو من النقود فإن الرعية والفلاحين يجمعون من كل مكان بسعيهم وجهدهم النقد والعين وهما بمثابة غذاء المعدة ، ويصبونه فيها حتى لاتختل بنيه الدولة ، لهذا يجب على الدولة المحافظة على الرعية قبل أى شئ آخر ، ولهذا فإن كثيرا من السلاطين الكبار القدامى كانوا يهتمون بهذه النكتة الدقيقة ، والتى تمثل أساس دوام الملك وبقاء سلطة السلطنة ، وكانوا يسعون بأنفسهم لحماية الرعية ، وإسعادها وتحقيق رفاهيتها ، وكانوا أيضا يسعون لتعمير القرى بكل وسيلة ، ويختارون القرويين والمزارعين من كل مكان ، ليعيشوا فى ظل حمايتهم ورعايتهم ، حتى لايهجروا أماكنهم .

ويعملون بكل جهد واجتهاد من أجل زيادة الزراعة والحرث.

(١) أوردها الكاتب : (جان شيرين) .

(٢) قد تطلق السوداء على مرض الماليخاليا وهو فساد الفكر . أنظر
- البستانى : محيط المحيط . ص ٤٣٩

ويتضح أنه حينما تتغلب «السوداء» على البدن فى الملك .
فإن ذلك يكون سببا فى ظهور بعض الأمراض النفسية مثل الوسوسة والجنون والسهو والأوهام وغيرها والتى تضعف من تلك الروح وتفت فى عضد البدن ، وأحيانا مايحدث أن تتنازع هذه العناصر مع بعضها البعض ، وتتمرد على الحكام فى أداء واجبات الدولة ومسئولياتها ، ولما أن الأمراض السوداوية نفسها ليست مهلكة كثيرا ، لهذا لاينجم عن الرعية والدهاقتة أذى أو أضرار خطيرة تجاه المملكة ، وباختصار فإن ماء التدبير لايخمد ثائرة صياحهم وشكواهم ، وعلى كل حال ينبغى أن لاتزيد الرفاهية والراحة لدى أولئك عن درجة الاعتدال ، وكما قلنا أن طبقة التجار والمتكسبين هى بمثابة خلط الصفراء فى بدن المملكة ، وبسبب أن الصفراء تقوم بدور طرد القاذورات والشوائب من مملكة البدن إلى الخارج عن طريق المجارى والقنوات الطبيعية .
فإن وجودها سيكون سببا فى زيادة صحة البدن وقوته ولكن فى شكل الاعتدال . وإذا ماحدث إفراط فى طبيعة ذلك ، تسلل الخلل إلى مصالح الأعمال وسير المعاملات ، والإفراط فى المأكل والملبس والمظاهر المنزلية ، وزيادة نفقات الأفراد ، يؤدى إلى زيادة البخل والطمع واحتكار حقوق الآخرين ، وكذلك نشوء الفقر والسفه بين أفراد البنيه الاجتماعية ، وظهور الإفلاس العام بين مواطنى المملكة .

وذكرنا أن الجنود بمثابة البلغم فى تكوين بنيه المملكة ، فكما أن الأفراد والكثرة من البلغم، يكون سببا فى اختلال صحة البدن ، واعتدال ذلك يكون سببا فى بقاء ودوام « الروح الحيوية» ، وبالمثل فإن انتظام البنية الاجتماعية منوط أيضا بهذه الأركان الأربعة ، وعلى الرغم من أن تحقيق هذا بدرجة معينة ليس ممكنا لكى يحدث الاعتدال الحقيقى ، إلا أنه ينبغى العمل بالشكل الذى لايكون هناك تجاوز للحد المعين وهو حالة الاعتدال ، أى لا إفراط ولاتفريط ، بحيث لايخرج الأمر عن الطبيعة والحد المعقول ، فتختل صحة البدن . وبعد أن يتخطى الإنسان عمر التوقف ، لاجرم فى أن يتفوق حينئذ البلغم على طبيعة البدن بسبب الهرم الطبيعى ، ويكون ذلك باعثا على أحداث الرطوبة والبرودة فى الصحة ومن ثم يسيطر عليها البلغم . وفى كل مرة يحدث اضطراب ، يحل هذا الاضطراب محل الوضع الطبيعى ، وفى ذلك الوقت فإن سائر الأخلاط تميل بطبعها إلى الثورة على ذلك «البدن» ، وقد ثبت هذا بالتجربة ، ويزيد عدد جنود كل دولة فى عمر التوقف ، وبالقدر الذى يحدد عدد أولئك ، يزيد أيضا سائر صفوف البنية الاجتماعية ، وحينما يحرمون بالفعل من الدخول فى طبقة الجنود ، فلا مناص من أنهم «العناصر الأخرى»

يحـــاولون أن يقلدوا الجنـود فى زيهم ومظهـــرهم ولبـاســـهم وتحركاتهم ، ومن هنا فـعلى كل ، يزيد عدد الجنود فى كل دولة بعد عـمر التوقف ، وحـينئذ فإن الانسـان لا مناص من أن يقبل ويرضى بتفـوق البلغم على الجسـد ، أى إن «الإنسان» لايمكنه أن يحول دون تفوقه بحكم الطبيعة، ويناسب الدولة، إذن والتى هى بمثابة الروح الحيوية لبدن البنيه الاجتماعية أن ترضى بتفوق الجنود الذين هم بمنزلة البلغم من الهيئة الاجتـماعية ، بشرط عدم وقوع ضررهم على سـائر العناصر ، لأنه فى تلك الحالة يفـشل السعى فى منع غلبتـهم مهمـا عظم (السعى) فـإن الطبيعـة لن تخضع لتنفـيذ ذلك الــهدف . ولما إننا شـبـهنا الأخلاط الأربعـة بأربع طبـقات من البنيـة الاجتـماعيـة . وقلـنـا إن النفس الناطـــقة بمـــثـابة السـلطان والقـــوة العاقلـة بمثابة الوزير ، والقـوة المدركة بمنزلة المفـتى ، والمعـدة كالخزانة ، والقـوة الذائقة كـالصراف ، والقـوة «الماسكة» كـصاحب الخـزانة ، والقـوة الهـاضمـة بمثـابة المحاسب والمستوفى ، وباقى القوى أيضا مثل سائر القائمين بأمور المملكة ، لهذا فـإن مايدخل من الضـرائب فى الخزانة والتى هى بمثابة معـدة المملكة ، هو كالمواد الغذائية التى تصرفت فـيه القوة «الماسكة» وهى توزع المواد الغذائية بقدر معين على سائر القوى ،

وحينئذ تقـوم كل القوى بصرف حصـتها ، وتستفـيد كل عناصر البنية الاجـتماعـية والتى تسعى وتعـمل ، من حصص أولئك ، ويشكل هذا المعنى اعـتدال التقـسيم والتوزيع . وحـينما لايكون هناك عدل فـى التقسـيم ، يحدث ضـعف لعنصر وقـوة لآخر ، فيكون هذا سـبب ظهور النزاع والفـساد . وتختل بنـية المملكة ، وفى النهاية تتسع دائرة الفساد ويصيب بنية الدولة الضعف والفتور ، وعلى الرغم من أن الـدولة يمـكن أن تستـمر حـتى نهـاية عمـر التـوقف ،إلا إنه بعد ذلك ، يصـيب القـوة الهاضـمة الضـعف والأمراض ، وشيئا فشيئا تعجز تماما «عن أداء وظيفتها» ، وتصبح عاطلة أى فى بطالة ، وحينئذ تزول كل عـزة وافتخار لتلك البنية الاجتـماعـية ، وتنهـار الدولة من أساسـها وكل من يتسـبب فى حـدوث مثل هذه الحـالة الكئـيبـة ، يكون يوم القـيـامة ملعـونا ومذموما فى نظر العالـم ، وسيذكر التاريخ أيضا اسمه فى صفحة أسماء الخونه والأشرار .

الخلاصة : إنه اتضح من خلال هـذه التفاصـيل أن للإنسان فى حالة التفرد ثلاث مراحل فى حياته والتى أولها مرحلة النمو ، وثانيـها مرحـلة التوقف وثالثـها مـرحلة الانحطاط ، وكل مملكة ودولة أيضـا هى مثل البنيـة الاجتـماعـية البـشرية ، ولهـا نفس المراحل الثلاث بلا زيادة أو نقـصان ، ولكن مقتـضيات كل طور من هذه الأطوار الثلاثة يختلـف عن مقتضيات الأخـرى ، وكما يحتاج الإنسان فى عمر النمو لتربية الأب وتنشئة الأم ، تحتاج كل

دولة بالمثل فى بداية الإعداد والتنظيم إلى التعصب[1] وتعاون الرجـال المفكرين من ذوى الهمم ، وبعـد ذلك فإن كل فـرد من أفراد البنـية الاجتـماعـية ، ينبغـى عليه أن يقوم بـأداء عمل من الأعـمال ، يسـاعـده فى ذلـك رجـال مفكرون بعـيـدو النظر . وتحـصل الدولة بفـضل قوانـين العدل والإنصـاف على الأمـوال والضرائب لتضعها فى الخزانة ، وتنفق هذه الاموال عند الضرورة فى سبيل بقاء ودوام الرفاهيـة والراحة ، ومن خلال هذه الوسيلة يحافظون على استقرار الحالة العـامة . وكما أن كل فرد من أفراد البشر فى حالة النمو ، يكون فى رقى يوما فيوما ، فأيضا فإن كل دولة فى بدء ظهورها وفى أواسط حياتها تكون هى أيضاً فى رقى يومى ، وتتـقـدم «الدولة» مـن حـيث المال والأهداف والاتسـاع والعظم حتى تصل إلى مرحلة التوقف وحينما يكون تخطيطها فى ذلك الوقت يتـفق مع أحكام العدل والإنصـاف ويكون الاعـتدال طريقها ، فـحينئذ تمتد مرحـلة توقفها وتعيش فى عـزة وفخار ، وقيل : إن خير الأمـور أوسطها . وفى مرحلة الانحطاط أيضا ، كما أن الهرم والضـعف يصيبان الإنسان ويجعـلانه عاجز ، وكل يوم تكون حواسـه وقواه فى هبـوط وتدهور ، فأيضا فـإن الحالة الاجتمـاعية تنحو هذا المنحى ، وأثناء مرحـلة الانحطاط يتسرب الضـعف يومـيـا إلى أركـان الدولة ، أى تقل الحـرارة والرطوبة

(١) يقصد الكاتب بكلمة التعصب هنا التكتل .

الغريزيتان اللتان هما منشأ القوى والحواس ، وفى نهاية الأمر تضعف القوة الهاضمة ، ويصيب المعدة فساد ، ويختلف وزراء المملكة والذين هم بمثابة الحرارة والرطوبة الغريزيتين للبدن مع أركان السلطنة وخدمها ، فتظهر فى كم الأمور وكيفها اختلافات عن سوء تدابيرهم ، واختلاف آرائهم ، كما يظهر أيضا الضعف والاختلال فى طبائع الصنوف الأربعة للملك والتى شبهناها بالاخلاط الأربعة لبنية البدن حيث تزيد العلة وتشتد ، وكما أن بياض شعر اللحية ، وتجعدات جلد الجبهة من علامات الهرم والشيخوخة لأفراد البشر ، فأيضا فإن ظهور بلاء الزينة والمظاهر «التافهة الجوفاء» فى البنية الاجتماعية ، علامة من علامات الهرم والشيخوخة ، لأن أركان البنية تميل إلى الراحة والرفاهية بعد مرحلة التوقف ، ويحاول كل فرد منافسة الآخر فى الإكثار من المظاهر والالقاب ، وبذا يترك الأفراد افتخارهم العتيق ، وشيئا فشيئا ، تنتقل هذه الحالة لسائر الأصناف ، ويتنافس أواسط الناس أيضا فى المسكن والملبس مع الوزراء . . . لا بل مع الملوك ، وشيئا فشيئا تزيد نفقات البنية الاجتماعية العامة ، ويقلد رجال الحرب العسكريون «هذه العادة وهذا العرف» ، وبذا يفضلون الراحة والتقاعس فى الظل على عناء السفر ، ويغفلون عن مكافحة العدو والمحافظة على الوطن والبلاد ، إذن فوفق الآية الكريمة : (لكل أجل كتاب)[1] يصدر فى حقها من محكمة

(١) الرعد / ٣٨

القضـاء كل ماكـتب عليهـا من فناء ،ويصدق فـيها مـفـاد الآية الشريفة «يمحو اللـه مايشاء ويثبت»[1] فيحدث فى أجلها المعلق ، مـاكتـب فى حقـهـا من زوال . وبهـذا الشكل يتـضح أن وقت انحطاط بعض البنيات الاجتماعية من الممكن أن يكون قبل الوقت الطبيعى ، وكما أنه حينما يتـجرع شخص ما السم أو يلقى بنفسه فى اليم،فبلاشك إنه سيموت قبل حلول الأجل الموعود ، وبالمثل فالدولة أيضـا التى تهمل فى تنفـيذ قوانين العـدل والقسطـاس ، فإنها تسير فى طريق الظلم والجور ، وهى على كل تسعى مسرعة نحو زوالها ، والتعجيل بانقراضها واضمحلالها، ولامجال للشك إن أساس تلك الحكومة سينهار ويقع قبل حلول وقت الانحطاط.

وحينمـا تتعلق المشيئـة الإلهيه بذلك فـإن سن الشخص يصل إلى آخر مـرحلة فى درجة الانحطاط ، وتـصونه بذلك حتـى يحافظ على مقـومات رعاية صحـته ، أو تدله على طبيب حـاذق حيث يقوم بمعالجته ، فلا يتـسلل الاختلال إلى صحة بدنه . وبالمثل لو تعلق القدر والمشيئة الإلهيه بذلك فإن الدولةتبقى وتدوم حتى آخر مرحلة وهى مرحلة الانحطاط «الإفول» ، ويدل القدر حاكم تلك الدولة على طـريق الرشـد والسـداد ، ويمـده (القـدر) ، بوزراء مستنيرين ووكلاء أمناء طاهرين ، والذين وهم بمثابة الأطباء المهرة حتى تصل الدولة الى نهاية مرحلة الانحطاط .

(١) الرعد / ٣٩

الخلاصة : إن بقاء كل دولة متعلق بحسن السياسة ، وتلك السياسة قسمان : قسم عقلى ،وآخر شرعى ، والقسم العقلى عبارة عن الحكمة العلمية ويسمونها (سياسة الملوك) ، والسياسة الشرعية عبارة عن اتباع الأحكام الإلهيه والانصياع إلى أوامر السنة النبوية ، وكما أن السياسة الشرعية تغنى عن السياسة العقلية ، لهذا يجب على الملوك المسلمين أن يضعوا دستورا للعمل فى حسم الأمور المتعلقة بحقوق عباد الله ، وينبغى أن يقتدى بذلك كل وزير ذى تدبير حتى تظهر الإرشادات الإلهيه ، وبذلك يفلحون فى الدنيا والآخره ، لهذا فكل وزير أو أمير يبتعد عن هذا الصراط المستقيم ويتبع هوى نفسه ويغوى،إنما يسعى إلى هلاك نفسه ودمارها وكما قيل «الملك يبقى مع الكفر ولايبقى مع الظلم»[1] . وبعد ذلك قلت إن الشكر لك إن حضرة جنابك العالى،عارف بكل الرموز السياسية وواقف على حكمة الحكومة، وبهذا الشكل لماذا لم تقدم هذه النكات الدقيقة إلى مجلس شورى الدولة ؟ ولماذا لاتحث وزراء الدولة وممثليها على ضرورة الإصلاحات ، وتنظيم مرافق الدولة حتى تتقدم البلاد بتعاونهم وعملهم الموحد ، فتخلص المواطنين والوطن من هذا الهلاك ؟ قال لقد عانيت كثيرا بشأن هذا ، وكثيرا ماناديت وطالبت دون جدوى ، ومن ذا الذى يصغى لمثل هذه النداءات ، ويسمع كلمات هذه المقولة ؟ ولابد من توفر شيئين لقبول مثل هذه

(١) واضح هنا أن الكاتب يشبه المجتمع الإيرانى بالكائن الحى من حيث مراحل النمو : الطفولة ، والشباب، والشيخوخة .

النصائح والتى فى قبولها أساس السيادة والسمو ، أما الشئ الأول : فهو العلم والثانى : فهو العدل ، . . . . واحسرتاه فللاسف نحن محرمون منهما ، إذ يوجد على الأقل فى بلاط السلطنه أكثر من مائتى شخص ، وهم من أصحاب الألقاب الكبيرة ، والذين كل واحد منهم يحاول انتزاع «رئاسة الوزارة» ويحصون الأيام عدا انتظار للفرصة ويعلمون أنهم لايمكنهم الوصول إلى هذا الغرض إلا بالمال والرشاوى ، وهم يحاصرون الرعية من كل ناحية ناهبين سالبين ، وبكل وسيلة تصل لها أيديهم ، يستولون على كثير من الأموال ، ويبذلون هذه الأموال عند الحاجة «حاجة أنفسهم» ، حتى يصلوا إلى أغراضهم بهذه الوسيلة وكل أفكارهم منحصرة فى أن يسحقوا بعضهم البعض بأى طريقة وحتى الآن لانعلم أن واحدا من وزراء إيران فكَّر فى طريقة صائبة فى مجال زيادة دخل البلاد ، فيدوِّن كتيبا فى هذا المضمار ، وذلك لأن كثيرا من وزراء بلادنا لايملكون ناصية التفوق والامتياز فى مراتب العلم والفضل ، علم حقوق الدول والشعوب والمعاهدات الدولية أكثر من معرفتهم بسائس لهم أو ساق أو خادم . ومجال امتيازهم أو معرفتهم فى الاشعار العربية[1] وذلك إن أجدادهم قد تركوا لهم ذلك المنصب وراثة ، أى أنهم كانوا خائنين للدولة والشعب أبا عن جد ، وربما يظنون

(١) ليس معنى أن يعرف عليةُ إيران الشعر العربى ، باعتباره أساس الشعر الفارسى أنهم خانوا بلادهم بهذا ، وهذا تعصب واضح من المؤلف .

إن العشــرين كرورا من أهل إيران ، عبيــد عندهم ولا يعدون من المخلوقات .

الخلاصة : حينما يسأل شــخص ما أحداً من هؤلاء الوزراء الذين لادين لهم قائلا: أيهــا السادة الوزراء حينما يســافر فرد من أفراد الشــعب إلى مكان ما فعند العودة لاشك إنه ســيحضر مـعه هــدية ، أى شئ يســتفاد منــه فى حين أنتم سافـرتم إلى الغرب ثلاث مرات، وأنفقتم المبالغ الباهظة من المملكة فى ذلك السفر ، فــأية هـــدية أحــضرتموها معكم للوطن والمواطنين ، فى مـقابل عـنــاء ذلك السفر والنفقات الباهظة ؟[1] ، فهؤلاء لايستطيعون أن يقولوا شيئا .

الخلاصة : أقـول (إن هذه الهـدية التى أحضـرها الســادة الوزراء معهم) هى المســاوئ والمفاسد . وأذكر ذات يوم ، ذهب وفـد من الشعب اليــابانى لزيارة «المانيــا»[2] وهناك ذهب «الوفـد اليابانى» لمشاهدة مصـنع المدافع ، وبــدون أن يكــون معهم قلم أو ورقــة إذ أن الألمان يسيــئـون الظن بهم ، دونّوا كل صـغيـرة وكبيــرة من هذه الصناعة فى مخيــلاتهم بقلم رجل مفكر ، وعند العودة إلى بلادهـم المحظوظة صمـمـوا مثل تلك الآلة بحذافيرها ، وصنعوا الكثـير من تلك المدافع وهى لاتخـتلف عن مدافع الألمان

(١) يشير الكاتب هنا إلى سفر ناصر الدين شاه وبعض الوزراء إلى المغرب .

(٢) كان الكاتب مبـهور إلى حد كبيـر بتقدم الشعب اليابانى بـالذات وهذا مايتضح من خلال المجلدات الثلاثة لكتاب سياحتنامه إبراهيم بيك .

قط ، وربما قرأت هذا الموضوع ذات يوم فى صحفكم اليومية فماذا أقول أكثر من هذا عن مراتب الفضل والعلم والغيرة وحب الوطن وتقديس الملك وحب الشعب والديانة والأمانة ، لهؤلاء الوزراء السيئى التفكير الوضعاء والذين وصلت أنت إلى خدمتهم . وأنا من الخوف من وشاية أولئك لم أظهر كلٍ ماكتبته إلا لك ولعدد آخر من أصدقائى الذين أثق بهم وجربتهم . وما أعلمه جيدا أن هذه الأفكار فى عصرنا الحالى من الممكن أن تتسبب فى قتل صاحبها أو عزله وكفى . فعقبت قائلا : أيها السيد ، هل يمكن أن يكون هناك حظ أفضل من هذا فى العالم بحيث يقوم المرء بعمل فى مجال حب الوطن مما يخلد اسمه من بعده فكما أعلم أنا أن كل طفل فى الثامنة عشرة وكل عجوز فى الثمانين سواء الصديق أو العدو ، كل هؤلاء يذكرون حتى وقت متأخر اسم الأمير بسمارك[1] وزير المانيا الأعظم بكل احترام وأكبار ، وعلى الرغم من أنه لم يبق شئ ذكرى للأمير الأتابك تقى خان المرحوم ، وذلك لسوء حظ الوطن . إذ لم يسمح بذلك الخونة فى البلاد وأصحاب الأفكار السيئة ، ولكن مع كل هذا لم أر أحدا من الإيرانيين حتى الآن سوى مؤرخ واحد لادين له منافق والذى يذكر الاسم السابق لذلك الرجل العظيم بدون أدنى احترام وهو لايترحم على روحة الطاهره فى حين يمدح جميع الناس سمو أفكاره تتأتى لهم ، اذ يستولون على مناصب منافسيهم ،

(١) بسمارك: سياسى المانى وأول مستشار أو رئيس وزراة لالمانيا (١٨٧١-١٨٩٠)

والشئ الذى لايفكرون فيه قط هو حب الوطن والغـيرة القومية .
وبناء على هذا وكما سبق قولنا يتـضح إنه حينما يقوم هناك قانون لايستطيع هؤلاء أن يحققوا أغراضهم بطريقة سهلة، وسيحرم كل واحد «من الأشخاص السابق ذكرهم من الثلاثين ألف تومان التى يتقاضاها سنويا كرشـاوى ، وبهذا الشكل ينبغى عليهم أن يتخلوا عن مخـتلف أنواع الزينة الفاخـرة والتى يمتلكونها اليـوم وكذلك مايمتلكه كل واحد منهم من أسطبلات الخيول والأعداد الغفيرة من الخدم والحشم . فـهذا هو القانون الذى لايريدون أن يسـمعوا له حتى لايضطروا الى تنفيذه «لأنه يسلبهم المزايا السابقة» ومن جراء أضرار هذه الأموال المؤسفة ، فـإن إيران أصبحت خرابا ودمارا ، بعـد أن كانـت روضة الدنيـا ، وغـدا سكانهـا كمـا نراه اليـوم يتعرضـون لاقسى درجات الذلة والبؤس بعـد أن كانوا فى الأزمنة السالفة أعـز أقوام الدنيا ، ولا أحد فى استطاعـته أن يسألهم عن أسبـاب كل هذا الخراب والدمار فى المملكة واضطراب الرعـية ، وتعلم إن الدولة الإيطالية مساحتها أقل بكثير من أرض إيران وقد كانت دخـول تلك المملكة كلهـا خمـسة مليون تومـان فى أوائل القرن التاسع عشر ، ولكن اليـوم زادت إلى خمسين مليون تومان ويزيد سكانها أيضـا بهذا المعدل وسـائر الدول على هذا المنوال ، وحينما أقـول أن إيرادات مطبعة صحيـفة «التايمس»[1] والتى تطبع

(١) التايمز : جريدة إنجليزية يومية صباحـية تصدر بمدينة (لندن) منذ عام ١٧٨٥م أسسها (جون وولتر) باسم : (السجل العالمى اليومى) ثم أطلق عليها اسم التايمز أى (أحوال) . وقد لعبت التايمز دوراً مهمـاً فى تاريخ الصحافة خاصة فيما يتعلق بالتـاريخ البريطانى . وقد اشترى هذه الصحيفة (اللورد طومسون) عام ١٩٦٦م . انظر :
أحمد عطية الله : القوموس السياسى . ص٢٥٩ ، ٢٦٠ .

فى لندن ، أكثر من دخل سنة فى إيران ، فبلاشك إن وزراءنا الجهلة لن يقبلوا والسبب فى ذلك أن هذا المعنى أوضح من الشمس ، وهو إنه لايزال وزراء مملكتنا وربما الصدر الأعظم أيضا لايعلمون طريقة نشر العملة الورقية ، أو إنشاء بنك ، أو مجلس النواب «البرلمان» ؟

الغيورة على الوطن ، وعلاوة على هذا ، فقد سمعت هناك أنهم يقولون «المحتسب فى السوق» ، وكل مايفعله هؤلاء الظلمة الفراعنة والنماردة من ظلم بالضعفاء ، سوف يفعله الأقوياء إن لم يكن بهم أنفسهم ، فبأحفادهم وبأضعاف مضاعفة بكل وسيلة تيسرت لهم ، وصدق القائل « أولئك يحملون المظالم والآخرون يحملون الذهب» ، ولكن هؤلاء لايفكرون فى أولادهم من بعدهم ، ولايخشون من السؤال يوم الحساب ، (ولما جذب الكأس بلاوعى ورأسة تتمايل من أثر الخمر ترنم ثملا بهذة المقولة) .

ياسعدى ، ولى الأمس ، وغد ليس معلوما .

فانتهز فرصتك اليوم بيت هذا وذاك [١]

هذا البيت المتكرر والذى يذكرونه منذ زمن الطفولة ، وكثيرا مايتغنون به حتى انتهاء أعمارهم ، ونحن نسمع يوميا ونقرأ فى الصحف اليومية أن الوزير الفلانى قد استقال ، وهذه الاستقالة لها كثير من الأسباب ، فإما بسبب اعتلال صحته وبإذن الأطباء

(١) سعد يادى رفت وفردا همجنان معلوم ييست .
درميان أين وآن فرصت شمار امروزرا

ينبغي أن يعتزل فترة من العمل لكى يسعى فى علاج بدنه وراحته حتى يمكنه أن يمارس عـمله الوطنى بعد أن يشـفى ويصح ، وأما هناك سبب آخـر وهو الشيخـوخة والعـجز والذى بسببـه ربما بل يجب أن لايمارس إداء عمله ، ولكن السـبب الرئيسى للاستـقالة والذى كثـيرا ما يـحدث هو مايتـعلق بحب الوطن . فقـد تجول بخاطر الوزير فكرة فى شـأن مصالح الوطن أو بخصـوص السلام والحرب فيقدم مذكرة لتنفيذ تلك الفكرة لمجلس الشعب «البرلمان» ، وعندمـا لايستـصـوبون فكـرته ويـرفض البـرلمان مذكرتـه ، فإن الوزير يقدم اسـتقالتـه صونا لمكانتـه وحفظا لشرفـه ، يقدم هذه الاستقالة إلى الوزارة التى يـعمل بها حتى يكون غير مسـئول عما سـيحـدث فى المسـتقـبل ، واأسفـاه فـإن وزراءنا يديرون مـهـام الـوزارة مائة عام ويـعرّضون المملكة لكثيـر من المخاطر ، فلاهم يخجلون مـن سؤ إداراتهم ، ولا هم يستـقيلون من أعـمالهم ، والسبب الرئيـسى فى بقاء هذا الوضع المؤسف هو الجـهل ، حتى الآن فإننـى كلما نـاديت بأنه قـبل كل شئ لابد لنا من مـدرسة ولابد لنا من العلم ، وأن وضـعنا لن يتحـسن إلاّ بهمـة الرجال الفضلاء العلماء، والذين هم على دراية بالعلوم والفنون المتداولة ، ولكن ندائى لايصـغـى إليـه أحد ، ألا يـرى هـؤلاء العـمـى أن السبـب الرئيسى فى عـزة أهل الغرب وافتـخارهم منشـؤة العلم والمعرفـة لديهم ، وأن سبب ذلة الـشرق وهوانهم هو أيضـا عدم العلم والجهل ؟؟ ، وألا يلاحـظ هؤلاء الحمقى أن سـبب الهرج

والمرج فى إيران ، وعـدم ثبات الحـكم فى أسرة واحـدة فى هذا القرن الأخـير والذى ينتقل مـن حاكم لآخر كل يوم كـخاتم فى أصابع اليد ، سـببة الجهل وغيـاب القانون ، والأسباب الرئيـسية التى هى وراء أنواع الخـراب هو الظلم القائم أيضـا على الجهل ، ولإثبـات هذه المقولة ليس فى أيديـنا من دليل نأتى به أوضح من سلطنه نـادر والتى لم يبق لهـا وجـود بسـبب الجـهل فى تلك الفتوحات والرعـونة المصاحبة لها ، فهـان أمرها فلم يبق لها اسم أو رسم .

وكم عـانت هذه الرقـعـة من أرض إيران من جـرّاء الجـهل والذى لم تره قـبل نادر ولا بعـده فكانت«إيران» مـوطؤة بسنابك خيول الحوادث وفتن العـصر . وحينما نبحث عن أسبابها جـميعا سنرى إنها بسبب الجهل وعدم المعرفة . وينبغى حقا أن نبكى على حال هذه المملكة التعسة ، وقد كتبت كتابا يقع فى ثمانمائة صفحة فى إثبـات هذه المساوئ الخطيـرة اى الجهل وعـدم المعرفـة ، ولو وفـقنى الله لطبـعه ونشـره سـأرسل لك مجـلدا ، وبعد قـراءته ستعرف ماهو العمل ؟

الخـلاصـة : تناولنا العشاء ، وفُـضت المأدبة ، وتحدث قليلا عن حيـاته ، وسأل بعض الأسـئلة عن أمر التـجارة فى «مـصر» وغيرها ، فأجبـته بما عرفته ، وكانت الساعة قـد وصلت الخامسة فاسـتأذنت فى العودة ، فـأمر أن يحضـروا لى العربة . إلا إننى رفـضـت ذلـك رفـضا تامـا وأصررت عـلى موقـفى ، ومن ثم أضاءوا الفانوس وكلف خادمين بأن يوصلانا إلى المنزل ، ونهضت

لكى أقبل يده ثانيـة فمنعنى وعقبت قـائلا : إن كل أذى أصابنى بسبب البـحث عن أسبـاب مساوئ الوطـن قد زال عنى ، وذلك بفضل إدراك شرف لقاء جنابكم العـالى . وما أصابنى من تجريح السنة بعض الأفراد السفهـاء قد ذهب عنى بفضل بلسم أحاديثكم التى تبعث علّى العزاء والسلوى ، فأنا عاجز عن شكر هذه النعمة غيـر المتوقـعة ، وآمل بـإذن الله بعد هذا كـمـا قلتم إن تتحـسن الأمور فقـال : لاتحزن إن الله كريم ، وإن شاء الله سـيأتى بكل خير ، وادع أن تطول حياة الابن عن الأب (ويموت أولاد كل فرد بعد أبيهم) ، وإنى لأدعو هـذا الدعاء للجميع[1] وليس من أجل فرد بعـينه ، ففهـمت إلى أين الإشـارة ؟ وعقبت بقـولى إن شاء الله ، ثم ودعتـه وخرجت ، فقال إذا لـم تذهب بهـذه السرعة ، فتعال هنا ثانية، قلت إنى أفكر فى أن أذهب بأسرع وسيلة ممكنة ، فـأردت أن أسيـر فى طريقى ، فقـال : حسن . . تذكـرت لدى «رسالة حلم» ، فـاصبر حتى أعطيك إياها لتـقراها . وجلست ، فقال : «الوجود المحـترم» إنى أعرف شخصا مثلك أسيـر تعصبه القومى وحبه لوطنه ، وهو يأتى عندى أحيانا وذات يوم جاء أيضا إلى البـيـت ، وأبرز لى نفس هـذه الورقة الـتى أعطيك إياها ، وقال : هذه الليلة رأيت حلمـا ، وبعد أن استيقظت كـتبت مالم أنسـه من الحلم ، فـهذا هو إقـرأه وفسـره ، ولما قـرأته ، اتضح

(١) يقصـد الكاتب بعبارة «إن تطول حـياة الابن عن الأب» الابن هو مظفـر الدين شاه والأب هو ناصر الدين شـاه ، أما عبـارة «أن يموت أولاد كل فرد بعد أبيـهم» فهى عبارة غـير محددة وإن كانت فى الغالب تدل على أبناء الحكام والوزراء الظلمة .

تفسيره ، فقلت ليست هناك مشكلة فى تفسير هذا الحلم ، فهو فى غاية الوضوح ، فذلك الذى أتى ويسقى الماء وينثر ماء الورد هو ولى العهد ، فخذه واقرأه ، فهذه صورة من الحلم الذى يواسيك فأخذت الورقة التى كان قد كتبها[1] . والليلة الماضية وقبل النوم كنت أحدث نفسى كما لو كنت فى «حرب» وتذكرت الوضع المؤسف للمملكة «فكنت أقول لنفسى» ماذا دهاك أيها الرجل المؤنب لنفسه ، إن قلة من أراذل المملكة ظلمة ، والعديد من الملايين مظلومون ، وأولئك لايتفقون ولايتوحدون فى رفع الظلم عن أنفسهم مع كل هذه الكثرة والأعداد الغفيرة من السكان ، ماذا حدث لك حتى تجعل نفسها مضطربا وتصبح حلاوة الدنيا مريرة فى نظرك بسبب تلك المنغصات والمظالم التى تراها كل يوم نلحق بإولئك «المظلومين» فتقضى عمرك فى هم وحزن ليل نهار بين الأمل والحسرة من أجل رؤية تقدم الوطن ورقيه ، وسعادة الملك والشعب واستقرار الأمور فى المملكة ، وراحة الرعية وبسط بساط العدل . إنك تفنى عمرك فى حزن وكدر ، ماذا دهاك ، يالك من رجل مجنون . وقد سهّد نومى الإغراق فى التفكير . ورأيت فى النوم شيخا ذا لحية بيضاء مبعثر الشعر مضطرب الحال ذا قامة معتدلة وأعضاء متناسقة ، وكان يرتدى الثياب الفاخرة ، واخذ يسير فى شارع «الناصرية» ، وقد أمسك بيدة شاب[2] ، وأخذ يحدثه وهو يسيطر عليه الخوف والفزع الشديدان ، وكان كل

(١) اصل هذا الحلم أثر من آثار ميرزا ملكم خان وهو المسمى (نوم ويقظه)
أنظر : باقر مؤمنى : تحقيق فى سياحتنامه إبراهيم بيك ، ص١٠٥

(٢) الشيخ : هو إيران .

لحظة يلتفت حوله ، وفجأة تفجرت ضجة عظيمة من أحد الجوانب ، والتف حول الشيخ مجموعة من السوقة[1] الأخساء والأشرار ، وأخذ كل واحد منهم يسلب شيئا منه ، وأخذ بعضهم فى ضربه على جسمه فأصيب ببعض الجروح فى وجهه ورأسه ، وأخذ البعض الآخر يمزق ثيابة التى سترت يديه وقدميه، وراحت جماعة ثالثة تسلبة مجوهراته حتى سلبوه كل شئ ، وجعلوه عاريا من كل شئ ، وألقوا به جانبا وهو بين الموت والحياة ، فراح المسكين يصيح فى صوت حزين تشوبه نبرات الضعف والعجز قائلا: أيها الأبناء لاخلف لكم . . . يامن تنكرون الجميل ماذنبى حتى تعاملونى بهذه الذلة على أرضى ؟ وما جزائى حتى تعاقبونى شر هذا العقاب ؟ ومن شدة الضربات التى لحقت به سقط على الأرض ينتحب بكاء ، وخاطب عدد من الأشخاص الدانى منهم والقاصى ذلك الشاب فى صوت عال ، قائلين له: لعلك لست مسلما ، خذ بيد هذا المسكين المغمى عليه ، ورش الماء على وجهه ، وأبعد الأعداء عنه ، فهو شيخ مسكين وفى ذات الوقت سقط مغشيا عليه ، وكان الشاب يتوسل فى كل لحظة إلى شخص يطلب منه العون والمساعدة فماذا يفعل ؟ «فالغريق يتشبث بكل قشة»، ولكنه لم ير مساعدة أوعونا من أحد ، فكان الشاب تارة يضمد له جروحه «جروح الشيخ» فى الوقت الذى ينزف فيه جروح الآخر ، وتارة أخرى راح يرفو له ثيابه ، ولما أوشك على الإنتهاء من الرفو، أخذ شخص آخر يشد

(١) السوقة الذين هاجموا الشيخ «إيران» هم بعض المواطنين الإيرانيين .

القميص من على جسده ، ومن دهشتى لهذه الحالة ، أوشكْت روحى أن تصعد من بدنى ، فأخذت أقول لنفسى ياإلهى ماذا أفعل ؟ ومَنْ هذا الشيخ ؟ وماذنبه حتى يعاملوه بكل هذه القسوة والظلم، فلا أحد يحميه أو يساعده ، وسألت شخصا ما اسم هذا الشيخ المظلوم ؟ قال ألا تعرفه قلت كلا ، قال إن اسمه «إيران خان» ، وأولئك المغيرون جميعهم أبناؤه . وهم ينقصهم الشرف والفخار والعزة ، وذلك بسبب عدم طاعتهم «للأب» والائتمار بأوامره وافتقاد التنشئة السليمة والأن فإنهم بدّدوا كل الثروات إدراج الريح والتى جمعها الاب ، وإنتهى أمرهم إلى السرقة وقطع الطريق[1] وكما ترى أنهم عرضوا أباهم لهذه الأيام السوداء ، وجعلوه يائسا من حياته ، وبينما كنا نتحدث هذا الحديث ، إذ هبّ غبار فجأة من إحدى النواحى وظهر فارس من بُعد ، وكان خلفة عدد من رماة السهام الذين كانوا يتعقبون الشيخ «إيران خان السالف الذكر» مسرعين .

قلت سبحان الله ماذا يريد كل هؤلاء الرجال الأقوياء الإشداء ، من ذلك الرجل الضعيف ؟ فإن جاءوا بغية السلب والنهب ، فإنه لم يعد يملك شيئا ، وإن أرادوا قتله ، فالموت شرف له ، ولو أنهم جاءوا من أجل تكفينه ودفنه ، فلا حاجة لهم بهذا السنان وذلك السيف، ولم إذن أدوات الضرب والطعن ؟

(١) هنا يشبه الكاتب إيران بالاب ، ويرى أن معظم الإيرانيين الذين أفتقدوا التربية والتنشئة السليمتين ، ماهم الا كابناء وقد ضلوا الطريق لسوء التربية .

وفى تلك الأثناء وصلنى أحد الفرسان فسألته قائلا : استخلفك بشبابك لماذا جئتم هنا ، ومن أنتم قال ذلك الشاب الفارسى ذو الشمائل الطيبة : إن قائدنا اسمه «مظفر الدولة» وقد جاء بنا إلى هنا من أجل نشر العدل ومساعدة «إيران خان» ، ولم ينته الحديث بعد حتى رأيت «مظفر الدولة» يقْبل على «إيران خان» ، ونزل مسرعا من على جواده ورفع رأس «إيران خان» من على الأرض ، ووضعها على ركبتيه ، وصب بعض الشراب فى حلقه ، ونثر ماء الورد على وجهه ، وشن الرجال الذين كانوا فى معيتة حملة على المتمردين الطغاة كما عيّن الشاب عددا من خاصته والذين يعتمد عليهم لعلاج ذلك الشيخ ، وأمر عددا آخر بغسل وجهه ورأسه ، وتجديد ثيابه ، وظهرت علىّ مظاهر السرور والبهجة عند مشاهدتى مساعدة «مظفر الدولة» ورحمته هذه بذلك الشيخ الضعيف ، وتقدمت لكى أرى جروح ذلك الشيخ ، فرأيت إنها خطيرة ، فبعض الجروح كانت متورمة حيث تسلل الفساد والأذى إلى الدم وعظام البدن لدرجة أن تلك الجروح لن يجدى معها معالجة طبيب إلا إذا كان هذا الطبيب «المعالج» هو لقمان الحكيم أو تلميذ عيسى بن مريم «ع» ، ومن شدة الخوف من تلك الحالة كنت أرتعد فزعا ، فاستيقظت من شدة الرعشة ، وفى أثناء ذلك ، سمعت صوت المؤذن ، إذ كان المؤذن يقول «أشهد أن لا إله إلا الله » ، ولما استيقظت وجدت إنه آذان الصبح ، فنهضت وتوضأت وصليت ركعتين لله . وبعد ذلك صليت صلاة

الحـــاجـة ، خـــاصـــة وإننى تمنيت من الله صـــحـــة «إيران خـان»وعـزته«انتـهى» ، وبعـد إن قـــرأت هذا الحلم الذى ورد بالرسالـة ، قلت إن تفسيـر هذا الحلم واضح وضوح الـشمس ، وسألت عن ذلك الشاب الذى قالوا له : لعلك لست مـسلما ، ومن هو الذى أخذ بيد هذا الشيخ الضعيف المظلوم وساعده ؟ قال إن ذلك الشاب هو نـفسه من رأى الحلم ، وينبـغى عليك وعلى الآخـرين من أمثـالك ، أن لايخـاف من قـهر وغـضب وزيرى الداخليـة والخـارجيـة ، ولايخـشى من ضرب وزيـر الحربيـة ، ولايفكر فى طعن وتوبيخ الآخريـن ، وينبغى عليك أن تنادى فى كل مكان وتصيح بأعلى صـوتك قائلا : إن رب العالمين قـد أمر حضـرة فخر الكائنات وأفـضل الموجودات عليـه وعلى آله أكمل التحيـات بحمل الرسالة حتى يجتث جـذور الظلم من على وجه البسـيطه ، ويرسى أساس العدل والقـسطاس ، فتحـمل الرسول «ص» بأمر الله تلك الشـدائد والتى لم يقو علي تحملهـا أحد منذ بدء الخليقـة حتى إنتهـائها ، وأرسى ذلك الأسـاس المقدس الذى اسمه العدل بالصبر حيناً وبقوة السيف والتضحية بالنفس حيناً آخر ، والآن ماذا حـدث ، إن الامه المرحـومة . الخـاضعـة لتلك العله الغائية للموجودات . أصبحت محوا وعدما من جرّاء هذه المظالم التى لايمكن تحـملها ، فـهم يتركون الـدار والديار ويقيـمون فى أراضى الأجانب مشردين ، ومـا أكثر المواطنين الذين تشردوا عن ديارهم فى الليلة التالـية لزفافهم ، وذلك لـظلم الحكام الطغاة ،

فشابت زوجة الخمسة عشر ربيعا أملا فى انتظار عودة زوجها ، وفى النهاية إن هذه ليست إيران والتى كانت روضة الدنيا ، وكان صخرها جنه الخلد ، فلماذا تبدو اليوم وكأنها أرض الشوك ، أليست هذه الأرض الطاهرة على مر الأيام هى مهد المدينة فى العالم ؟ فماذا حدث الآن حتى يوصف سكانها بعدم التربية والذين كانوا «فيما مضى» معلمى التربية للآخرين؟ وحينما أشتهر الإيرانيون بالفضل والعلم السامى كان يعيش أهل الغرب «كالشياطين» والحيوانات ، والآن فإن الحكام العدول يحتذون حزو نظام البيشداوية العادل[1] ولايزال صوت عدل انوشيروان يسمعه العالم باسره ، والغرض من سرد هذه الحكايات القديمة هو مواساتكم ، ولاتحزن لما حدث لك من عدم احترام ذلك الوزير الجاهل ، وينبغى عليك أن تكون راسخ القدمين فى شأن هذه الموضوعات، وينبغى إيضا أن تتغلب الإرادة القوية على الشدائد ، أو تترك السير فى هذا الطريق .

«أما ان نحقق أهدافنا كاملة

أو نموت فى طريق الهمم»

وأنا نفسى أعلم جيدا أن كثيرا من الإيرانيين ، والذين فى الممالك الاجنبية مثل (بومباى ، أو كلكتا ، أو مصر أو سائر

(١) واضح تعصب الكاتب الشديد لإيران والإيرانيين مما دفعه إلى المبالغة ولا نعلم ماذا يقصد الكاتب« بالشياطين» وهل رأى هو نفسه كيف تعيش الشياطين ليقول كان يعيش أهل الغرب كالشياطين.

اما البيشداوية نسبة إلى بيشداد ، والبيشداوية أسم طبقة حكمت فى إيران .

الأقاليم العثمانية والروسية) ،قد جمعوا ثروات هائلة ، ولكن نظرا لخوفهم من سلب ونهب سفرائهم وقناصلهم وموظفيهم ، فقد اضطروا إلى أن يتركوا الجنسية «الإيرانية» لكى يحافظوا على أموالهم ومكانتهم التى تبوأوها هناك ، وكل متعصب «تعس» لم يفعل هذا ، فقد خسر كل شىء ، ولا لوم على أولئك الذين تخلوا عن جنسيتهم ، وإذا ما سأل شخص عادل ، فإن للمجرم ألف عذر عن الجرم ، إلا أن يبقى هؤلاء فى الجنسية الإيرانية ، إذ أن الدولة أو المملكة لم تستفد شيئا ، ولم يكونوا سببا فى تعمير الوطن «فى حالة بقائهم تابعين للجنسية الإيرانية» ، وإن كل تلميذ فى المدرسة ليقرأ ويعلم من خلال أحاديث السابقين ، إن السلطنه لاتدوم الا بجيش ، وإن الجيش لايجمع الا بالمال ، والمال لايجمع الا بالأمن والأمان ورفاهية الرعية ، وراحة الرعية لاتتحقق إلاً بتنفيذ قوانين العدل والمساواة ، وأسفاه فإن وضع سلطتنا ومملكتنا على هذا النقيض تماما ، وعاقبة ذلك المرارة والأسف الشديدان .

فليقصر الله فى أعمارنا حتى لانرى تلك الأيام السوداء .

الخلاصة : إننى وصلت إلى المنزل مع خدم «ذلك الوجود المحترم» ثم خلدت للنوم ، وصباح ذلك اليوم ، جاء «مشهدى حسن» وكان يحمل ورقة ، فسألته ماتلك ؟ قال إنها «صحيفة

إيران » الأسبوعية ، والتى تُطبع أيام الأربعاء وتنشر يوم السبت ، فأخذتها متعجبا وقرأتها « وتحت عنوان» «أخبار محلية» قرأت مايلى ، بعد الحديث المفصل عن تشريف موكب همايون للصيد ودعوة الملك لعقد مجلس بلاط الدولة ثلاث مرات أسبوعيا فى العمارة المباركة «خورشيد»برئاسة»فلان» ، الحمد لله فإن جميع مهام بلاط الدولة والأمور الداخلية للمملكة على مايرام ، ويرد بالصحيفة السالفة الذكر ضمن أخبار الأقاليم مايلى : إن «كاشان»[1] والحمد لله يهتم بها الحاكم فلان ، فالرعية ميسورة الحال مستريحة ، والسكان مشغولون بالدعاء ببقاء عمر همايون ودولته ، فالعلف والشعير وفيران ، وباقى السلع الأخرى رخيصة أيضا ، ويستوى فى ذلك أصفهان أو كرمان[2] أو شيراز ، وقس على هذا سائر المدن . ويرد بالصحيفة ضمن الاخبار الخارجية شئ عن جغرافيا جزيرة «كوبا» وما إلى ذلك ،فلا الكاتب نفسه يفهم مثل هذه الموضوعات ، ولا أحد من الإيرانيين يفهمها ، فضقت ذرعا من رؤية تلك الأخبار ، والقيت بالصحيفة

(١) كاشان : مدينة تقع فى منطقة ماوراء النهر .
- الحموى : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٣٣٦ .
(٢) كرمان : ناحية كبيرة وهى ذات مدن وقرى عديدة ، وتقع غرب مكران وشرق أرض فارس وجنوب خراسان .
- المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٣٦٤

جانبا وقلت إن الشعب الإيرانى فى جميع المدن الإيرانية ليشكو من ظلم الحكام وأن شكاواهم لتصل عنان السماء ، فهل شاهدَ هذا الظالم عدل أولئك (الحكام) ليكتب عنه أليس هناك مسلم من المسلمين يسأل كاتب هذه الصحيفة الذى لادين له (لماذا) لا يظهر فى كل ايران خمسون شخصاً يتحدثون عن جغرافيا وطنهم ، ويوضحون حدود المدن الإيرانية وثغورها .

فماذا يمكن أن يستفيد القارئ من قراءة جغرافيا « كوبا » ، فبدلاً من هذه الموضوعات التى لا طائل من ورائها ، كان ينبغى عليه أن يكتب مقالات ذات فائدة ، فيحث الرعية على طاعة الملك ، والملك على الرفق بالرعية ، ويفرد فصولاً يتحدث فيها عن مزايا العدل ، ومفاسد الظلم ، فيذم أعمال الظلمة ، ويثنى على أفعال الأخيار ، ويوضح هذا المعنى : أنه لا رعية بلا سلطان ولا سلطان بلا رعيه ، وهذان العنصران مقرونان ببعضهما البعض ، فهما اثنان فى اللفظ والنطق ، لكنهما فى المعنى شئ واحد ، وينبغى أن تعتبر الرعية أن الملك هو الأب الحانى ، ويعتبر الملك أن الرعية ماهى إلا أولاده الأعزاء حتى يفلح الاثنان ، ورأى «مشهدى حسن » أن مزاجى قد تعكر صفوه ، فقال : انهض حتى نتجول فى المدينة ، قلت إلى أين ؟ قال إلى أى مكان تحب ، فقلت لعمى يوسف انهض حتى نذهب ، فخرجنا من المنزل ، وقابلنا شخصين فى السوق ، وكان أحدهما معمما ، أما الآخر فكان يناهز الأربعين من عمره ، وكان هذان الشخصان

يعرفان «مشهدى حسن» فدار الحديث بين الثلاثة عن أحوالهم ، ثم سألا : أين تذهبون ؟

فقال : مشهدى حسن إننا نتجول ، وإن لم يكن لديكم عمل فلنذهب سوياً ، قالا : لا مانع ، وعرَّف مشهدى حسن بالاثنين فقال : هذا السيد اسمه آقامير حبيب الله ، أما الآخر وكان يرتدى معطفاً ، فهو من أهل « قراباغ » وكان يقول أنه قد أقام فترة فى إسلامبول وموسكو .

الخلاصة : لقد جبنا كل مكان حتى بلغنا أحد ميادين التدريب العسكرى ، ورأينا أن الميدان كبير للغاية ، وقد رُش بالماء وكان نظيفاً وجميلاً للغاية ، وكان هناك عدد من الجنود يقومون بالتدريب ، فتفرجنا عليهم قدرا من الوقت ، وكان مدرب هؤلاء الجنوب شاباً وهو يناهز الخامسة والثلاثين ، وهو من أهل المجر ، وقد أسفت أشد الأسف ، لأن ذلك الشاب كان يدرب قوادا ذوى مناصب كبيرة من الإيرانيين ، وهم يناهزون السنة الخمسين من أعمارهم ، فتركنا ذلك المكان ، وكان خارج الميدان حوض كبير للغاية ، وكان كله صفاء وجمالاً .

ومشينا حوله ، وصعدنا حتى تمثال صاحب الجلالة « الملك » وهو يبرز صورة الملك وهو يمتطى صهوه الجواد ، وهذا التمثال من الحديد ، وهو متقن الصنعة كما لو كان الملك نفسه بالفعل يمتطى صهوه الجواد ، ولففنا حوله بعض الوقت ، وبعد ذلك

جلسنا وجهاً لوجه من التمثال ، وشغلنا بتدخين السجائر ، فقال ذلك الرجل القراباغى : إن هذا التمثال يختلف كثيرا عن وضع التماثيل ، ولا يوجد له نظير فى أى مكان «من حيث عدم الملاءمة فى وضعه »،فقال «سيد» ، أى شىء لا يوجد ؟ . . . فى كل مكان من الغرب أمثال هذا كثير ، وكنت قد رأيت كثيراً مثله فى روسيا ، فقال القراباغى معقباً : لا يوجد مثل هذا التمثال فى أى مكان قط ، فقط اختلط عليكم الامر ، فأقسم « سيد » وقال : إننى رأيت كثيرا مثله فى البلاد الأجنبية ، فقال القراباغى : ليس مثل هذا ، فغضب سيد ، وقال القراباغى : جناب آغا [1] إنك حقيقة رأيت ، وأنا أيضاً رأيت ، ولكن كل تمثال - من التماثيل التى رأيناها . . كان أصحابها قد قدموا خدمات جليلة لبلادهم وشعوبهم ، وفى مقابل تلك الخدمات ، نالوا هذا الشرف بعد رحيلهم ، فمثلاً أحدهم فتح قلعة حصينة فى إحدى غزواته أو استولى على قلعة ذات منعة من عدو قوى أو حقق السعادة والرفاهية لمواطنيه .

أو كان مقننا لقانون أو قدم خدماته لعامة شعبه أو رفع الظلم والبؤس عن مواطنيه أو وفَّر المقومات الرئيسية للتعمير فى بلاده ، فتجمع الدولة أو الشعب المال عن رغبة من باب الاعتراف بالحق والفضل وتقيم له مثل هذا التمثال كتذكار له ، بحيث يكون

(١) آقا أو آغا : كلمة إذا وردت قبل الاسم دلت على الاحترام ، وإذا جاءت بعد الاسم دلت على التصغير .

تمثال مـثل هذا الشخص العظيم دائما منظور نظر جـميع الناس ، وذلك فى مـقـابل تلك المآثر الطيـبـة لمثل هذا الملك أو القـائد أو العالم أو الأديب بعد رحيله ، وليس أن يشترى شخص وهو بقيد الحياة تمثالاً له ، ويضـعه على ممر المارة ، ويقول للناس : اعلموا إننى رجل عظيم ، وافترضوا الآن لو أحدثكم عن نفسى قائلاً : إننى مـثل هذا ومثل ذاك ، فـبـالطبع أنكم سـتحكمـون علىَّ فى غيابى بأننى رجل تافه لأننى أُمـجِّد نفسى ، وقد ذم الله والرسول والسادة أئمـة الهدى والحكماء والأدباء والشـعراء والفضـلاء مدح النفس ، وأيضـا فإن أمـثـال هذه التمـاثيل مـذمومـة فى شريعـة الإسـلام الغراء ، وقـد مر ألف وثـلاثمائه من تاريخ الاسـلام . وكان قد ظهر خلفاء عظام ومع ذلك لم يضع واحد منهم مثل هذا التمثال لنفسه .

فى حين أن كثيراً منهم قدم خدمات جليله للإسلام والإنسانية وبناء على هذا فـإن السلطان محـمد الفاتح ، ينبـغى أن يوُضع له عشرة تماثيل من الذهب والفضة كتذكار له ، إذ أن كثيرا من خلفاء الإسلام وسـلاطينه العظام قـد جدّوا وكـافحـوا خاصة فى فـتح «إسلامـبول» ، ولكن لـم يوفق فاتح واحـد فى فتـحها ، حـتى ضُربت بعد ذلك السكة باسم السلطان مـحمد الفاتح . إذ أن هذا السلطان ذو عـزم وهمة كمـا ورد فى كتب التـاريخ ، فقـد أبحر بالسفن من اليابسة ، وجاذف بنفسه كثيرا من أجل تحقيق غرضه ، بحيث يتعـذر وصف هذا الفتح مع كل التقدمـات الحديثة والعلوم

المتـداولـة اليـوم . ولكن نظرا لـقـوة إرادة هذا السلطان الـعظيم وحـسن طالعـــه ، فـقـد وفق فى هذا الفـتـح الظافـر ، ولما أن الرسـوص «ص» قد نهى عن الصـور والتـماثيل ، فـمن هنا بقى المسجـد الجامع العظيم كـتذكار للسلطـان محمـد الفاتح ، والذى ستذكـر السنون الطوال اسم هذا السلطان بالخير ، لهـذا لم يترك أو لم يضع مسلم تذكارا له يخلد آثاره الطيـبه وذلك بتنصيب مثل هذا الهيكـل الحـديـدى فى ممر المسلمين ، فهـذا عيب كبير وذنب جسـيم ، فهذا ليس إلا مدحـاً للنفس وغرورا ، وهاتان الصفـتان مـذمومـتان ، قلت ياوالدى دعـك من هذا ، فمـاذا تركت لنا ، ولنسترح قليلاً ثم نواصل السير ، وسألنى القراباغى الديك قلم ؟ قلت : نعم ، قال أعطنى إياه ، فقطع ورقة من كتاب كان يحمله معه ، وأخذ فى الكتابة ، ولما كنت أعلم ، ما يكتبه ، أخذت منه القلم ، وقلت دعك من هذا الأمـر ، وتعـال لنمض فـيمـا نحن بصدده ، فقال « سيد » ، على كل حال لقد رأى شاه ايران كثيراً من أمثال هذا التمثال فى الغـرب ، ولو يعرف أن هذا التمثال غير مناسب ، مـا وضـعــه تذكـارا له فقـال القـراباغى ، لقـد وضع الغربيون أنفـسهم « تذكارا » لكم ، سيـبقى لسنوات طوال ، قال «سيـد » : أى تذكـار ؟ قـال القـراباغى فى آخـر رحله لجـلالة السلطـان لبلاد الغرب ، كتـبت صحف باريس علنا : " إن فرنسا

لا يمكنهـا أن تغطى النفقـات الباهظة ، لهـذا الضيف العـزيز لأننا نعلم أن وزراء دولة إيران ، حيـنما يزورون بلاد الغـرب ، فإنهم يقومون بالسياحة ويختلفون إلى أماكن اللهو [1] .

ونحن لا يمكننا أن ننفـق ببذخ وإسـراف على هؤلاء من أجل اللـهو والعـبث ، ذلك أن " مسيـو كارنو " رئيس الجمهورية فى ذلك الوقت ، كان عليـه أن يدفع من ماله الخـاص ، تسعين ألف فرنك ، فكتب تاريخا باسم ايران ، تركه تذكارا فى العالـم ورحل ، وستبقى تلك الفضيحة " ذكرى " لأحفادنا حتى يوم القيامة ، أما بالنسبة لإيران فإنها لم تستـفد من بذخ هذه الأسفار العديدة سوى الخسارة المادية وتشويه سـمعتها ، إذ ينبغى أن تكون السيـاحة كما فعل بطرس الاكبر [2] ، إذ أنه فى ظل السيـاحة بلغ عدد الشعب

(١) هنا يتحدث الكـاتب عن رحلات ناصر الدين شاه ، ويبين كيـف يقضى الشاه ووزراؤه أوقات هذه الرحـلات . فناصر الدين لم يقم بهـذه الرحلات من أجل غرض نـبيل أو جليل ، وإنما زين له وزراؤه السياحة فى البلاد الأجنبية وذلك لكى يُمتعوا أنفسهم بهذه الرحلات سواء فى ذلك مصاحبتهم للشاه ، أو فى بقـائهم فى إيران ، فهم أى الوزراء لم يصاحبوا الشاه فى رحلاته من أجل مشاهدة وسائل التقدم والرقى ، أو من أجـل التعرف على تقدم هذه الدول فى التجارة والزراعة والصناعة أو من أجل رؤية مصنع من مصـانع تلك الدول وإنما صاحبوه من أجل إنفاق أموال الشـعب الإيرانى فى هذه البلدان على أشياء تافـهه كاللهـو والعبث وشراء السلع الأجنبـية الكاسدة ، ولم يكن ناصر الدين شاه ليختلف عن وزرائه بل كان يـشاركهم عبثهم ولهوهم ، أما الوزراء الذين بقوا ولم يصاحبـوا الشاه ، فقد أخذوا يعتدون على الرعـية مرتكبين شتى المظالم ، وقد أخذت الرعـية تئن من كثرة مظالمهم ، فـالسلع فى ارتفاع وفى احتكار ، والطبقـة الإقطاعية تعمل عملها فى البلاد فكان على الشعب أن يثور لهذه الأوضاع السيئة وهذا ما حدث فى الثورة الدستورية التى شارك فيها العلماء والمفكرون وطبقة الشعب الدنيا ، وكان ذلك عام ١٩٠٦ م .

(٢) بطرس الأكبر : قيصر روسيا (١٦٨٢ - ١٧٢٥)

الروسى الآن مائة وثمانية عشر مـليونا ، بعد أن كان عدد الشعب ثمانية عشر مليوناً فقط ، وهناك كثير من الملوك أولي العزم الذين لم يقومـوا بمثل هذه السيـاحات ، ولكن بفـضل اليقظة والمعـرفة بالشئ ، أحبوا شـعوبهم ، وعلى سبيل المثال إمـبراطور اليابان ، علـى الـرغـم مــن إنه لم يبرح خطوة بـعيـداً عن بلاده ، إلا أنه فى فـترة وجـيـزة اسـتطاع أن يطـور بـلاده ودولتـه ، مما أدهش الناظرين " وذات يوم خرج فـجأة من وراء الستار فى كـامل زينته والقى على جيـرانه السلام قائـلاً : كيف أحوالكم أيهـا الرفاق " وبمعنى أصح أنه خرج للساحـة السياسية فجـأة ، وعرض خدماته على الدول المجاورة وسألهم عن احتياجاتهم موثِّقاً عرى العلاقات مـعهم ، فـدُهشت جـمـيع الدول من هذا التـقدم والـرقى غيـر المتوقعين ، والآن فهو ينافس جـميع الدول الكبرى ، وهو يتدخل فى جمـيع الأمور السـياسـية للدول ، واليـوم فإن جمـيع الدول الكبرى تحسب له ألف حساب ، وهـنا غيرت الحديث قائلاً : من الأفضل أن نذهب لمشاهدة المسـجد الجامع للمرحوم ميـرزا محمد حسين خـان مشيـر الدولة ، فهـو من الأبنية الفـخمة الحـديثة ، فذهبنا لهذا المسـجد " ومشير الدولة هو السفـير الأسبق لإيران " والذى وصل إلى القـيـادة وصدارة الدولـة " ، وقد أسس أحـد المساجـد العظيمة فى " إسـلامبول " ، وأقام مـدرسة كبـيرة إلى جواره ، فليتغمده الله برحمـته ، وسمعت أنه اشترى ثلاث قطع من الأرض فى قرية كـبيرة وجـعل ماتدره هذه الأرض وقـفاً على

هذا المسجد والمدرسة العليا ، وللإشراف عليهما وكذلك المحافظة عليهما أيضاً ، كتب ميثاقاً فى غاية الإحكام بينه وبين أحد الأشخاص والذى كان يثق فيه ، ولكن وا أسفاه فإن عمر ذلك الرجل العظيم لم يطل لكى يُتم أعماله الجليلة ويحقق أهدافه .

والشئ الذى أسفت له أشد الأسف هو ما سمعته اليوم . إنه لم يبق أثر لذلك الميثاق ولاخبر عن تلك الموقوفات ، وبسبب غيبه القانون فإن أساس ذلك المعبد المقدس لا يزال لم ينته بعد ، وقد تفرجنا بعض الوقف على أركانه الأربعة ، وقلت للرفاق عقب ذلك أن اجلسوا ، وليقرأ كل منا سورة من القرآن الكريم ، ويهديها لروح مؤسس هذا المسجد ،وفى الحقيقة أنه رجل جليل وعظيم ، ومن بين أعماله تلك السفارة والتى أسسها فى اسلامبول " باسم الدولة الإيرانية " ،والتى تمثل فى الحقيقة معلما من معالم سموق الدولة الإيرانية وشعبها فى تلك العاصمة الكبيرة ، ولو أن ذلك المرحوم لم يؤسس ذلك البناء الضخم ، لظل سفراء « إيران » حتى الأن يعيشون عالة على الكتف فى « إسلامبول » ، واحسرتاه فإن أجله لم يطل حتى يستفيد شعب إيران ودولة « إيران » من وجود ذلك الشخص الغيور العالم ، وهذه علامة من علامات خيبة أمل الشعب الإيرانى ، وقلت بعد ذلك "لسيد" جناب آغا : إننى أعرف شخصين من الإيرانيين فى "إسلامبول " اللذين لم تمح السنون الطوال ذكرهما من أذهان الإيرانيين فالإيرانيون يذكرون الأول دوما بالرحمة ، فى

حين يذكرون الآخر دوماً باللعنه ، ولم أسمع قط أن إيرانـيا مقيما في "إسلامبول" لم يتـرحـم على المرحوم ميرزا حسين خان مشير الدولة عند ذكـر اسـمـه ، وبالمثـل لم أر أى شـخص لم يعلن "سيرز انجف عليخان " عند ذكر اسمه أيضاً ، فهكذا مات الاثنان ولم يبق لهما إلا السمعة الطيبة أوالسيئة فاعتبروا يا أولى الأبصار "[1]

وسأل " سـيد " : إنى أعرف المرحـوم ميرزا حـسين خان مشـير الدولة ولكن من هو " نجف عليـخان " فلا أعـرفه ؟ ، قلت أنه كان جنرالاً قنصـلاً فى زمن سفارة « الشـيخ محسن خـان » وقد ذهب بعد ذلك للعمل فى مـصر وبغداد ، وكان أشقى مـعاصريه ولازالت بدعه نها أثرها فى إسلامبول وسائر المدن العثمانية ، ولا تزال تلك الوصمة لم يتخلص منها الشعب الإيرانى من جراء تلك البدع والمظالم والتى تعجز الألسنة عن وصفها وبيانها .

" كيف أصف ذلك الكافر . . . . إن اللسـان ليعجز عن وصفة " لعنه الله عليه وعلى كل حال فـقد قرآنا إحدى السور ، وكذلك سـورة الفاتحة ترحـماً على روح ذلك المرحـوم ، ثم عدنا من ذلك المكان ، فـقال مشـهدى حـسن : أين نذهب ؟ قلت : سُق القافلة إلى " مدرسة دار الفنون " ، قـال : سمعاً وطاعة ، فلو جعلتمونى جمالا ، لن اعترض ، فقلت : فأصير أنا جملا ، لكن لا أدرى هل جناب الأغـا يقبل أم لا ؟ ، ومزحنا وضـحكنا قدراً من الوقت ، ولما وصلنا بوابة المدرسة ، كـان الفرّاش جالساً

(١) الحشر / ٢ .

أمـامـهـا ، فـقلت : ياعـزيزى إننا أغـراب ، وقـد دخلنا المدينة سائحين ، فهل من الممكن أن نتفرج على المدرسة ؟ فقال الفراش أنه ممكن ولكن اليوم الجمعة ، ولا يوجد بها أحد ، وفى الحقيقة اننا كنا غـافلين أن اليوم يـوم الجمـعة ، فـقلت هل يمكن أن نرى وضع المدرسـة ؟ فـإذن لنا الفـراش واصطحـبناه مـعنا داخل دار الفنون [1] ، ورأينا كل شىء على عـادته ، فـخرجـنا مسـرورين للغـاية ، وكانـت قد تراصت تخت سـوداء حـول جدار المدرسـة حيـث تستـخدم فى امتـحانات الـطلاب " فى الحسـاب والإملاء والإنشـاء " ، فذهبت وقـبلت إحـداهن ومررت وجـهى ورأسى عليهـمـا ، فقـال " سيـد " ماهذه الحالة تقـبيل تختـه . . . ماذا يعنى ؟!

فقلت أيها السـيد إن هذه المقاعد والتخت لهى مـباركة . . آه لو فى كل مـدينة من مدن إيران آلاف من التـخت هذه ، إن هذه أساس فخرى وفخركم ، فقـال " سيد " ياللعجب ، أى فخر لى ولك يمكن أن يتأتى من تقبيل تخته صماء ؟ قلت ياجناب الآغا أنا لست معك فى هذا الرأى .

الخلاصة: إننا عدنا من هناك ووصلنا المنزل منهكين للغاية ،

(١) انشئت هذه المدرسـة فى عهد ناصـر الدين شاه ، وكانـت تقبل حوالى ٢٥٠ طالبـاً كل عام معظمهم من إبناء الطبقة العليا ، وكان يُدرس بهذه المدرسة أو المعـهد اللغات الأجنبية والعلوم السياسية والعلوم العسكرية والطب والطب البيطرى ، كما أرسل أكـثر من أربعين طالباً من خريجى هذه المدرسة لأوروبا لأكمال دراساتهم .

– مؤسسة الأبحاث العربية : إيران ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

وتناولنا العشاء فى الحال وخلدنا للنوم ، وقد مكثنا صباح هذا اليوم حتى وقت الغداء فى المنزل ولم يأت « مشهدى حسن » بعد ، فنمنا قليلاً بعد تناول الغداء ، وعندما رأيت عمى يوسف جاء يوقظنى قلت ما الخبر ؟ قال : إن حاجى محمد حسين أمين الضرب " قد أرسل خادمه ، فهو يريدك ، قلت : قل له إننى لست موجودا ، قال : إن هذا لا يصح ، لأنه فى أول الامر ، سأل عنك فقلت إنك موجود ، فنهضت مضطراً ، ولكننى كنت أكره الذهاب إليه فعندما رأيته أول مره لم أشعر نحوه بأى قبول ، فهو شخص متطفل ، وقد حج مرتين ، كما أقام عندنا ضيفاً خلال الحجتين ، وقد عانى والدى منه كثيرا ، ومع ذلك لم يكتب لى خطابا يطمئن فيه على بعد وفاة أبى ، وعلاوة على ذلك فهو رجل طماع ومنافق ، فياله من مسكين من يقع فى قبضته ، ولو افترضنا أن فيروزه ثمنها عشرة تومانات ، فإنه يحاول أن يبيعها لذلك المسكين (الضحية) بخمسين تومانا ، وبالعكس فإنه لو رأى خاتماً من الألماس فى يد شخص من الأشخاص ، وكان هذا الخاتم يساوى مائة تومان ، فإنه يحاول بشتى الطرق أن ينتزعه من يد صاحبه بعشرة تومانات ، وكل شيء عنده بثمنه ولا اعتبار لأى شيء أخر [1] ، واتضح أنه أدرك ملاحظاتى نحوه .

(١) العبارة الفارسية : " ابداً بخاطر خدا سلام باحدى نهد "

الخلاصة : إننى رأيت إنه لامناص من الذهاب فخرجت من الغرفة ، ورأيت أن شيخاً معمما قد وقف وقال : إن جناب الحاجى أمين الضرب يريدكم ، فذهبت بصحبته داخل غرفة حاجى أمين الضرب ، فألقيت السلام : فرد الحاجى وعليكم السلام . ، آغا ميرزا إبراهيم بيك ، بسم الله ، بسم الله ، ذلك الرجل المدقق ، كم يوما لك هنا ، ولماذا لم تأت عندى ؟ إذ بالأمس أخبرنى الحاجى خان عن أحوالكم ، وحزنت حزناً شديداً لوفاة المرحوم الحاجى أبيكم ، رحمة الله عليه ، والحمد لله على سلامتك وسلامة من معك ، من أين جئت ؟ قلت من المشهد المقدس قال أرأيت حاجى مَلَك ؟ لا ، لا ، قال لماذا ؟ قلت لم أعرفه ، ولم أر أحدا يدلنى عليه ، قال ماذا اشتريت من " مشهد " ؟ قلت : لاشىء قال : حسن . . عندى بعض من فُرش سلطان آباد) والبضائع جيدة جداً ، وهى من إنتاج مصر وإسلامبول ، فأحملها معك وسأبيعها لك رخيصة ، فالبضائع كثيرة وجيدة ، فأحملها معك ، قلت : لن أشترى أى شىء قال : وإن لم يكن معك نقود فأرسلها لى بعد ذلك ، قلت : كلا لن أشترى أى شيء ، قال : لدى فيروزة قيمتها عشرة منات (إنتاج مصر) .

الخلاصة : خذ هذه البضاعة ، قلت معقباً لن آخذ أى شئ ، قال إذن لماذا جئت ، قلت جئت من أجل السياحة ، قال : حسن . . ماذا رأيت فى " طهران " ؟ قلت لا يوجد شىء فى طهران يمكن أن يراه المرء ، قال : أى شىء لا يوجد ؟ قلت : بما أنه يوجد رجل ثرى مثلك فى هذه المدينة ، كان ينبغى

عليك وعلى أمثالك أن تؤسسوا الشركات والبنوك القومية من أجل ترويج تجارة بلادكم وكذلك بغية زيادة السلع والمنتجات ، وكان ينبغى أن تقام سكة حديدية من هنا حتى " تبريز " ، فهى بالنسبة لك يمكن أن تستفيد منها كثيرا كما أنها وسيلة من وسائل تعمير البلاد ، وهى بالنسبة للمواطنين باعث على زيادة الروابط التجارية والراحة ، وعلاوة على هذا ، ففى هذه المدينة الكبيرة " العاصمة " كثير من الأغنياء والكبراء والذين لم يتعاونوا ليؤسسوا مستشفى لعلاج الأطفال الأيتام ، فيكون هذا فى الدنيا باعثا على السمو والافتخار ، وفى الآخرة وسيلة من وسائل الرحمة قال : ماشاء الله يا إبراهيم بيك ؟

انك تعدِّد عددا من هذه المشروعات الكبرى ، فأين تلك الأموال ؟ فكل هذه المشروعات تتطلب الأموال الضخمة ، فقلت ما هذا التواضع أيها العم الحاجى ؟ إن أموال " إيران " تتدفق عليك لمدة عشرين عاماً ، وقد سمعت منك فى " مصر " إنك تبيع الجوهرة الواحدة للديوان ورجال البلاط بخمسمائة تومان والتى ثمنها الأصلى مائه تومان ، وعلاوة على ذلك فانظر فى أسواق كل المدن الإيرانية وفى أى مكان ، فإنك تصب النقود السوداء فى أجولة وأكياس ويقول الناس إنك جمعت فى " إيران " خمسا وعشرين كروراً من هذه العملة السوداء ، وأن رأسمال هذه الأموال الأساسى هو ثلاثمائة الف تومان فى الغالب ، فانظر الفرق من أين وإلى أين ؟

ورأيت أن الجالسين فى كل ناحية قـد ضاقوا ذرعاً بحديثى ، فأمـرونى بأن التزم الصـمت ، واتضح أيضاً أن الحـاجى السالف الذكر سيغضب من الحـديث فنهض وهو يشتاط غيظاً وقال : انت رجـل فـضـولى وثرثار ، ونهض ذاهبـاً يجـدد الوضـوء ليـؤدى الصـلاة ، وبتلـك الحجـة خـرج وتخلص من سـماع أحـاديثى المريرة ،وظللت جـالساً ، وكـان جمـيع الجـالسين يتحـدثون مع الحاجى مـتعجـبين من عدم مـبالاتى ، ونظر كل الجـالسين نحوى نظرة رجل واحد ، وسألنى أحـدهم أين تقيم أيها المواطن ؟ قلت فى جـهنم ، ونهـضت واتضح أن سـبب مـجـيـئى هو أن جناب الحاجى ، أراد أن يبيع لى شيئـاً من الفُرش والفيروز ، سواء كان معى مـال أو لم يكن ، وبذلك ابتعد عنه ، وبهـذه الطريقة يؤدى لى حق السلام والطعام السابقين ؟

الخلاصة : أننا قضـينا ثلاثة أيام أخـرى فى " طهران " ، وفى اليوم الرابع عشر من الشهر أرسلت " مشهدى حسن " لكى يسـتأجـر لنا عربة ذات أربع خـيول من مـقرها حـتى توصلنا إلى "قزوين" ، وذهبت أنا بدورى لكى أودع الحاجى الخان ، وحينما بلغته ، رأيت " غلام على " ، فقلت له : قل للحاجى الخان إن الشـخص الفـلانى قـد وصل ، فأتى الخان ، وقال : بسم الله ، تفضل ، قلـت : أتيت لكى أودعك ، قال ماذا تـقول ؟ قلت : نعم ينبغى أن أذهـب ، قال متى . . وأين ؟ قلت اليـوم سأذهب إلى " قزوين " ، ومن هناك إلـى " أذربيجان ، قـال لم العجلة

يابنى ؟ قلت : ماقضيته كاف ، فقد مر الوقت كئيباً ، فعزائى فى هذه المنطقة هو لقائى بذلك " الوجود المحترم " ، وهذا كاف ، وأنى لاشكرك أنك دللتنى على ذلك الشخص العظيم ، فهو فى الحقيقة رجل عظيم ، وأننى أحبه إلى درجة العبودية ، وفى كل وقت يمر على لن أنسى أن أدعو له ، فقال : رأيت أمين الضرب ، قلت أراك الله خبره ، فمتى أسمع خبره ، ويرى التراب الأسود نهايته .

إنه كثيرا ما كان يرجع إلى فى شتى الأمور ، وقد عانيت منه معاناة شديدة ، وذات يوم - فى مقابل هذا - أعطانى فيروزة ، وقد أثنى عليها كثيرا وحينما خرجت ، وعرضتها على الجميع ثمنوها بقران واحد ، وأنا بدورى أعطيتها لغلام على، وقلت : هل هى موجودة معك ياغلام على ، قال : نعم هى فى جيبى ، وبعد ذلك ودعته ، وأصر إصرارا على أن يوصلنى فرفضت ، وأنعمت على غلام على بتومانين ، وفى النهاية ودعته ، وعدت إلى المنزل ، وقدم " مشهدى حسن " وقال : إن العربة معدة منذ ساعتين ، وأتى الحارس ، فرأيت حسابه ، وأعطيته خمسة تومانات ونصف التومان ، فشكرنى كثيرا ، وحزمنا أمتعتنا وأعطيناها كلها للحمال ، وقلت ينبغى أن نشترى شيئاً نأكله ، فقال " مشهدى حسن " ، إذن فليذهب العم يوسف مع الحمال ، ولنذهب من هذا الزقاق والذى هو قريب من " مقر تأجير الجياد " ، فباعة الفاكهة فى هذا الطريق كثيرون ، وذهب

يوسف عمى مع الحمـال ، ونحن أيضاً خرجنا من المنزل ووصلنا إلى زقاق ضيق للغـاية ، ورأيت امرأة بلا ملاءة ، تخرج مـسرعة من باب ، وتـدخل من باب آخـر فى هذا الزقـاق ، وســألت مشهدى حـسن : هل هذا حمام ؟ قال : لا ، بل بيت ، قلت : لماذا إذن هذه المرأة عارية ، قال : لا إنها لـيست عارية فهى ترتدى ثيـاباً وملابس داخلـية قلت : لا ياوالدى إنى رأيـت بنفسى أنهـا ترتدى ثياباً لكنها عارية من الملابس الداخلية ، قال : إن نساء هذه المدينة يرتدين ملابس داخلية قصيرة للغاية ، وسراويلهن الداخلية مثل سراويل الرجال ولكنهن لا يرتدينها أحيانا فى المنزل ، ولما أن الزقاق كان خالـيا من المارة ، ظنت تلك المرأة ، أنه لا أحد يمر به فذهبت كهـذا شبه عارية إلى بيت جارتهـا ، ومن سوء حظها أنـنا رأيـناها ، قلت : يا إلهـى إلى هذه الدرجة عـدم الحيـاء ، أنه لا يوجـد لباس ممـاثل كـهذا بـين المسلـمـين ، ولـو أن تحـريـم آيـة الحجاب كهذا « التحـريم » ، لصرت أنا كافرا ، حتى ولو أن هذه الطائفـة ذات دين ، فـتعـجـبت كـثيـرا وقلت : لعل أزواجـهن لايرونهن ، فـضحك قائلاً : أى شـىء لا يرونه ، ولباس جـميع هذه المنطقة كنساء العلماء والوزراء والسادات والأغنياء والفقراء فى إيران على هذا الـنمط ، قلت أصـدقنى القــول : هل زوجـتك تـرتــدى أيضـا مـثل هذا النوع من اللبـاس ؟ قال ليس لى شـأن بغيرى ، وعقبت قائلاً : إن جـميع النساء يرتدين مثل هذا اللباس كمـا رأيت ، الخلاصـة : وصلنا مقـر تأجيـر الجيـاد ، ولـم يكن وصــل عــمــى أو الحمال فذهبت بنفســى وأستأجرت عربة حتى " قزوين " بأربعة عشر تومان ونصف التومان .

ورأيت رجـلاً فى زى تاجر إيرانى كـان واقفـاً هناك ، ولعله كان ينتظر شيئاً ما ، فتقدم نحوى وألقى السلام ، وقال إننى أيضا سأذهب إلى " قـزوين " ومنذ الصباح وأنا أنتظر حـتى الآن املاً فى ظهور رفيق الطريق وحـتى الآن لم يأت أحد ، فإن وافقت أن أرافقك ، أعطيتك أربعة تومانات ونصف التومان ،فيستقل ثلاثتنا العـربـة مـعـاً ، ولاحظت أنه لا ضـرر لنا من مـصـاحـبـة ذلك الشخـص ، ولما كنت لا أعرفـه نظرت نحو " مـشهـدى حسن " فأشـار بأنه لاغبار فى ذلك ، فـقبلت عرضــه ، فشكرنى ، وفى تلك الأثناء وصل عمى يوسف ، فـحزمنا أمتعتنا وحـاجياتنا وراء العربـة ، وأكلنا أكلاً خـفيفـاً ، وجلسنا متـجاورين فى الـعربة ، وأنعمـت على " مشـهدى حسن " بايمـيريالين ، واعـتذرت له ، فـشكرنى ودعا لى ، وتـبادلنا كلمـات الوداع . . . حـفظكم الله . . . حفظكم الله .

ومشـهـدى حـسن هذا رجل طيب للغـاية وقد عـانى بسبـبنا كثيراً ، وعلى كل ، فقد سرنا ، وهنا خطر ببالى إن أجمل سياحة " طهران" .

هذا إجمال ذلك التفصيل

إن ملك ايران حينما يريد أن يذهب فى رحلة صـيد فعليه أن ينظر فى تقويم إيران ليـختار أنسب ساعـة فى اليوم لذلك ، وفى

نفس هذا اليـوم يفكر جـمـيع الوزراء والأمـراء ورجـال البـلاط والموظفين فى الحـصول على لـقب جديد ، ومن خـلال المناصب والوظائف التى يشـغلونهـا ، فـإنهم يحـاولون أن يحـصلوا على مناصب أعلى مهمـا كانت الوسيلة غير مـشروعة - فى ذلك - ، وبالمـثل فـإنهم يـعزلـون نظراءهم ، سـبـيلهم فى ذلك الافـتـراء والبهتـان ، حتى أن الحارس يأمل فى حكم " مديـنة " ، وأمثاله كثيرون ، أما طبقة التجار ، فهم بالمثل لا يفكرون فى رقى التجارة واتساع نطاقها ، فهم يـحذون حذو أجدادهم ، وفى " طهران " كلها ، لم تؤسس أية شـركة من أجل زيادة السلع والمنتـجات فى المدينة ، ومع وجود العديد من اصحاب رؤوس الأموال الكافية ، إلا أنهم لا يأمنون لبـعضـهم ، فهم يتـبعـون الحيطة والحـذر مع بعضـهم البعض فى معامـلاتهم التجارية ، والجـميع يفكرون فى سحـق الآخرين وإذائهم مـثل دولتى انجلترا وروسـيا ، فـإنهمـا يتربصان لبعضهما ، وكل يراقب الآخر .

كما أن التـجار والباعة يثرثرون فى مـجال التكسب والربح ، فاليـوم سبعون شـاهيا أو قرانا ، وغـدا ثمانون شاهيا ، والفـقراء يفكرون على غرارهم ، فـاليوم « مَنُ واحد » أو قـرانان ، وغدا ثلاثة قرانات ، وسـفراء الدولتين العظمـيين المتجـاورتين هم أيضاً بالمثل ، يفكرون فى تحـقيق أهدافـهم السياسـية ، ولا أحـد يهتم بمصالح البـلاد ، ولا أحد يشـعر نحوها بـأى حب سواء فى ذلك الحب الباطنى أو الظاهرى ، والجميع أفكارهم محدودة ، وإيمانهم ضعيف .

« إنهم أموات ولكنهم أحياء » ، إنهم أحياء ولكنهم أموات »

الخلاصة : دخلت عربتنا « قزوين » وسألت رفيقى ما اسمك ؟ فأجاب حاجى غلام رضا « ، وسألنى هو أيضاً عن اسمى ، فأجبته : إبراهيم . قلت من أين ؟ قال إنى قزوينى ، فسعدت لأن رفيقنا « قزوينى » ويعرف ذلك الطريق ، فأخذ يصف هذا الطريق من « طهران » حتى « قزوين » فالطريق فى كل مكان مستو ومسطح ، والمنازل جميلة ومزينة ، وفى الحقيقة يمكن القول أن هذا الطريق هو أفضل الطرق فى إيران أى لا يوجد غيره مثله ، وراح حاجى غلام رضا ، يعرفنا بالقرى والمحطات ، واحدة تلو الأخرى ، وكنا نستبدل الخيول فى كل منزل ننزل به ، فلم نتعطل ، ونزلنا ليلة فى وسط الطريق فكانت كل وسائل الراحة مهيئة للمسافرين ، وعند وصولنا ، أحضروا السماور وارتشفنا الشاى ، وكالعادة تجاذبنا أطراف الحديث مع الخدم ، وبعد صلاة الصبح ربطنا [1] الخيول استعدادا للسير وركبناها وسرنا ، وسألت حاجى غلام رضا ، فى أى منزل تراه مناسباً يمكن أن ننزل به ، قال : يوجد فندق فى أول المدينة «قزوين» ، وهو مناسب ومريح لكم ، فلو تنزلان به ، ستجدان سبل الراحة ووصلنا الفندق ، ورأيته بالفعل مناسبا ، فهو ذو غرف متعددة ، واستأجرنا الليلة بقرانين وهو رخيص للغاية ، وبه كل مانحتاجه

(١) المقصود بعبارة « ربطنا الخيول » ، إنها تُربط فى العربات عند السير وتفصل عنها عند الراحة والتوقف .

من أثاث المنزل من أسـرَّة ومناضد ومقـاعد وغـير ذلك ، وودعنا رفيـقنا ورحل ، وأحضـر عامل الفندق السـماور ، وقـال : ماذا تريدان « لحـما مـشـويا وأرزا ؟ قلت هل عندكم مطبخ وطعـام ؟ فأجاب بقـوله : كل شيء موجود ، قلت : فليكن طعـامنا كباب مع مرق الدجـاج ، قال : لك مـاتريد ، وارتشفنا الشـاى وأقمنا الصلاة ، وبعد ذلك أحـضروا العشاء ، وهو كـالعادة تشكيلة من الأرز والمرق واللبن الحامض والجبن والخضـار ، فأكلنها بنهم نظرا لنظافـة الطعـام وجـودته ، وفى ذلك اليـوم ، أقبل غـلام رضـا لروءيتنا وتحدثنا معه قـدرا من الوقت ، ولما غادر الفندق وعدنا أنه سيأتى الليلة المقبلة ، فرحل ، وخرجنا نحن بدورنا من المنزل .

وسـألنا عن الطريق المؤدى إلى السـوق ، فـقـيل لنا أن هذا الشـارع يؤدى إلى « عـالـى قابـو » وهناك السـوق فى الناحـيـة اليسرى ، وذهبنا مـتجولين حتى السوق ، فهـذه مدينة « قزوين » التى كانت يوما ما عاصمة ، ولكنها اليـوم فقدت رونقها وجمالها فهى قـذرة للغاية وخـربة ، وهى إذا ماقـورنت بمدن أوروبا ، لا تصل إلى مـستوى الـقرية [1] ، لأن مـدن أوروبا إذا ماشـاهدتهـا تلمس فى أبوابها وجـدرانها حساً وحيـاة ، ومن كثرة تردد الناس وانشغـالهم بالأعمال التـجاريةَ - فى أوروبا - ، يدرك المرء لأول وهله ازدهار التجـارة فى تلك المناطق ، ولا يشاهد عـاطل واحد

(١) ذكرت فى غيـر هذا الموضع أن الكاتب قد زار أوروبا ، أنظر : - سياحـتنامة إبراهيم بيك ، جـ ٣ ص ٢٢٦ .

فى أى مدينـة ، فالجمـيع مشغـولون بأعمـالهم وهم يفكرون فى زيادة الثروة القومـية وتعمير البلاد ، وبالعكس فـحينما تنظر لمدن إيران ، لا تشاهد إلا الكسالى العـاطلين ، والذين جلسوا فى كل ناحية على هيـئة جماعات ، فـجميع المدن خربة وهى كـالقبور ، ولو نظر شخص ذو بصيرة ، فإنه يمكن أن يسمع من أبواب المدينة وجـدرانهـا مـن يقـول لـه فى صوت عـال : (إنى وحيدة وإنهـم « الإيرانيين » لم يقـوموا بـعمل قط يكون فـيـه تعمـيرى ، لقـد تجرعت مرارة الحسرات ، فماذا يمكن أن أفعل ؟) [1] .

الخلاصة : قلت لعـمى يوسف لنذهب إلى المـطعم لنتناول فـيه غـداءنا وسألنـا عن مطعم ، فدلونا عـلى مطعم به كبـاب ، فذهبنا إليـه ، ونظرا للقذارة الشديدة بالمطعم لم نسـتطع بحال من الأحـوال أن نأكل شيـئاً ، فـعدنا أدراجنا ، ورأيت عـمى يوسف يقـول : إن أطبـاء الغـرب أحـرقهم الـله بناره ، يكذبون عندمـا يقولون إن الميكروبات تنتج عن القذارة ، فلو كان هذا صحيحا ، لماذا إذن لم يمرض هؤلاء بسـبب هذه القـذارات كلها ؟ ، فـقلت لنذهب إلى مسجد فصلينا وعدنا للمنزل لكى نتناول طعام الغداء ، وكنا قد ذهبنا إلى مـسجد الشـاه ، وهو فى الحقيـقة مسجـد عال جدا ، لكن أى فـائدة من ذلك ؟ فهـو يبدو من الخارج عظيـماً ، لكن داخله سئ للغـاية ، فالحـصر قطع مـتناثرة فى كل ركن من المسجد ،وقطع الحجارة ملقاه ايضاً فى أركان المسجد ، وكان هناك

(١) واضح هنا أن الكاتب يشبه الأبواب والجدران بالإنسان الذى يتحدث معه .

شخصان مضطجعان بشكل مخز ، كما جلس عدد من الأشخاص يأكلون الرومان فى زاوية المسجد ،وفى زاوية أخرى جلس آخرون يأكلون البطيخ ، وكانوا يلقون بالقشر والبذر فى المسجد على نحو لا ملجأ فيه إلا لله وحده ، وليس هناك مسلم غيور يمكنه أن يمنع نفسه من البكاء إذا ماشاهد تلك الأوضاع المؤسفة ، قلت لنفسى : يا إلهى أهذا هو معبد المسلمين ؟ ، فلماذا لم يراع هؤلاء الذين لا حمية عندهم حرمته ؟ ، فهذا بيتك « بيت الله »، والذى ينبغى أن ينتشر شرف الإسلام منه ، وكنت قد شاهدت مساجد وجوامع فى « مصر » و« إسلامبول » ، وكانت جميعها مفروشة بالفرش النفيسة الجميلة . وتفوح من الروائح الزكية داخل المساجد والتى تملأ الأرجاء بأريجها الآسر ، وتجد فى كل مسجد العدد من المؤذنين والعاملين ، وأثناء الصلوات الخمس يرتفع صوت الأذان المحمدى من جميع المساجد ، فكيف يمكن أن نسمى مساجدنا إذا ما قورنت بتلك المساجد ؟ ولا أدرى أى بلاء أصاب هذا الشعب التعس ؟ فالجميع هنا صم عمى ، وإذا ما افترضنا أن أفراد الشعب ، عوام وجهلة ، فهل يجهل العلماء والحكماء والسادات والكبراء هذا الوضع أيضاً ؟ أم لا يعرفون معنى مسجد ؟ ففى مثل هذه المساجد ، تقل صلاة الجماعة ، وفى كل ركن من المسجد ، تجد عددا من المصلين ، وقد افترشوا مناديلهم ، ويصلون فرادى بدلاً من الصلاة جماعة ، كما أن أرضية المسجد متربة وذات غبار ، وصلينا على هذا الوضع ، وخرجنا بعد إتمام صلاتنا ، ورأينا على بعد خطوات من المسجد

ضجيجاً وبعض الأصوات المرتفعة ، فارهفت السمع لتلك الأصوات ، فسمعت صوت الطلاب الخارجين من المدرسة ، فدخلنا المدرسة ، وهى ذات بناء ضخم وعظيم ، ويقال إن أحد الملوك الصفويين ، قد أقامها ، ورأيت المعلم يتوضأ على مصطبة إحدى الحجرات ، وانبعث صوت طفلين من إحدى الحجرات ، فقلت لنفسى كيف أن هذا المعلم يرى مسلمين يتشاجران ويتناحران ولا يلتفت قط مشغولا بالوضوء ، فتعجبت من سلوكه ، ونظرت فرأيت تلميذين وقد جلسا متقابلين فى الحجرة ، وفى يد كل واحد منهما كتاب ، وكل منهما يتشاجر مع الآخر ويجادله ، فالأول يرفع الكتاب بعنف حينا وكأنه سيهوى به على رأس الآخر ويجادله ، ويكرر الثانى نفس الطريقة .

الخلاصة: إن صوت « لم ولا نسلم » [1] وقد وصل عنان السماء ، وكان معركة غريبة ، ومع ذلك فالمعلم يتوضأ ، ولما أتم وضوءه ، وجفف ماء الوضوء ، سألت لماذا يتشاجران هذان التلميذان ؟ فأجاب إنها ليست مشاجرة ، قلت لعلك لا تراهما ؟ قال إنهما يتناقشان ولا يتشاجران ، قلت فى أى شيء يتناقشان ؟ قال : مناقشة علمية ، قلت : لماذا لا يتحدثان مع بعضهما أحاديث الود الهادئة ؟ قال : ألا يتعلمان العلم إلا بالضحك واللطف ، قلت لا يعنينى أن يضحكا معا ، ولكن أن يتسألا بالطريقة التى أحدثك بها ، فرمقنى بنظرة غامضة من رأسى حتى

(١) يبدو أن المناقشة كانت فى شئ باللغة العربية .

أخمص قدمى ، وقال : أنت تركى ؟ قلت نعم أذربيجانى ، قال : هذا شئ لا تفهمه ، أغرب عن وجهى . . . . أغرب ، فهذا المكان ليس مكانا للفرجة فاضطررت أن أذهب .

ولما كان التعليم على هذا النحو فى كل فصل ، قلت لعمى يوسف فلنذهب ، فكلما أنظر فى هذه المدينة يزيد همى وحزنى ، إذ إننى لم أعرف معلما فى حياتى يتبع طريقة الصياح والصراخ بغية تعليم العلم ، ولم ابتعد عن المدرسة عدة خطوات حتى دوى فجأة صوت : « ابتعد » من الناحية الأخرى ، وكان صوت الفراشين والسعاة ، يقول : غض الطرف . . . عد . . . . تقدم . . . تأخر وهو صوت يصم الآذان ، ورأيت من الجانبين طابورين يقبلان ، ونفس الأوضاع التى كنا شاهدناها فى « شاهرود » ، نشاهدها اليوم ، وكانت هناك عربة تتحرك بين صفوف السعاة ، ورأيت الناس قد أداروا وجوههم نحو الحائط وقد عرفت هذه المراسم والتشريفات فى (شاهرود) ، لكننا لم نكن قد رأينا الالتفات نحو الجدرن ، الخلاصة : أننا قلدنا الناس ، فأدرنا وجهينا نحو الجدران ، وكنا قد وقفنا بجانب العربة ، ولما إنهم أشاروا على عمى يوسف فى « شاهرود » بأن يركع فى مثل هذه الحالة أى ينحنى تعظيماً ، فقد انحنى المسكين ووجهه للحائط ، واتضح أن ظهره كان مواجها لامرأة ، فظن السعاة والفراشون أن فى هذا استهزاء بها ، خاصة أن ظهره كان معكوسا للمرأة ، وهو قريب منها ، أما أنا فقد وقفت ووجهى

نحو الحائط ، ولم تمر دقيقة واحدة ، حتى رأيت من يقول : اضرب . . . . اضرب ، وتوالت الضربات والصفعات والعصى فوق رأس عمى يوسف والتى يمكن أن تودى بحياة الإنسان ، فبكى المسكين قائلا : أيها الأبناء لماذا تضربوننى ؟ ، وأى ذنب جنيته ؟ فتقدمت وقلت إن عمى آخر من تفعلون به هذا ، ولماذا تضربون هذا المسكين الغريب ؟ قالوا أن ابن المحروق هذا أساء أدبه مع الأميرة الهانم . . . بن المحروق . . . بن . . . . ، ومرت العربة ، وتخلف السعاة لكى يحملوا عمى يوسف معهم ، فقلت لنفسى يا إلهى ماذا أصنع ؟ فاستعطفتهم بقولى : ياقوم والله إن هذا رجل غريب ولا يعرف أوضاع هذه المدينة ، فظن أن ما فعله تعظيم « للهانم » ، ورأيت أن هذه الحيلة لم تجد ، وخطر ببالى أن فى مثل هذه الحالة ، بناء على العادات القبيحة فى هذه المدن ، لا يحل هذه المشاكل إلا المال ، فأخرجت خمسة قرانات كترضية لهم وحل للمشكلة، وعندما رأى السعاة النقود ، «النقود فقط » انصاعوا لكلامى ، وأصبحوا كشمع لين هين فى يدى ، واختطفوا ذلك المبلغ من يدى ، ورحلوا عنا ، وتخلصنا منهم ، لكن عمى يوسف كان لا يزال يبكى بينما كان يسيطر علىً الخجل ، والمسكين لا يعلم أننى عانيت أكثر منه فى مدينة «طهران» ، وفى الحال أخذت أهدى من روعه وأروح عنه ، وذهبنا للمنزل ، وبدلا من أن نتناول الطعام ، طعام الغداء ، أخذنا ندخن السجائر دونما توقف ملتهمين الدخان وقلت لنفسى ،

لـو أننـى لـم اعِـد حـاجـى غـلام رضا الليلة المقـبلة ، لخرجت من فورى من هذه المـدينة ، الخلاصة : أننا لم نـخرج من المنزل لمدة اربع وعشرين ساعة ، وفى اليوم التالى وعند الغروب ، أقبل خادم الحاجى وسأل عامل الفندق قائلاً : أين إبراهيم بيك ؟ فدله على مكانى ، وجاء وألقى السلام وقـال : تفضل إن الحاجى فى أنتـظاركم ، ورأيت أن يـوسف عــمـى لا يرغب فى الـذهاب ، فقلت: لا يصح هذا ، فنحن وعـدنا ، وينبغى أن نذهب ، وفى الصباح سنغادر هذه المدينة إن شـاء الله ، فنهضنا وذهبنا مع خادم الحـاجى، واسـتقـبلنا « حـاجى غـلام رضـا » عند باب المنزل ، وأدخلنا إحدى الحـجرات بحـفاوة واحتـرام زائدين ، ورأيت فى نفس الحجرة اثنى عشر ضيفاً آخر ، فالقينا السلام وجلسنا ، وبعد التعارف تجاذبنا أطراف الحديث ، فـقال : أحد الضيوف اليوم فى الحقـيقة كان قلبى يقطر دمـاً على ما رأيته من حـالة « بن حاجى نوروز على » ، فقـد رأيته وقد أحضـر بغلاً محـملاً بالعلف لكى يبيعه عارى الرأس ، حافى القـدمين ، واتضح أن قصتهم تنحصر فى هذا . . . ، فـقـال شـخص آخـر لنا مـاذنب هؤلاء ؟ وقـال شـــخص ثالـث : بل لهم ذنب ، فـكل هذه الذنوب تـرجع إلى الإمام المعلم « ملا أحمـد » ، الذى بدد أموالهم ، وقال شخص رابع : ياعزيزى هذه كلها أمور يعلمها الله ، وقـد اختفت أسبابها علينا ، فـربما جـمع « حـاجى نوروز علـى » كل هذه الثـروات والأمـوال ظـلمـاً ، ومــن ثم ذهبـت أدراج الرياح خلال ثلاث

أو أربع سنوات ، وسأل شخص آخر غريب « عن المدينة » مثلنا : مَنْ هو حاجى نوروز على ؟ وماذا حدث له ؟ فأخبروه أن حاجى نوروز على هذا تاجر كبير من أهل « كَروس » ، وكان له ثلاث نساء وثمانية أولاد وثلاث فتيات ، وقد توفى « على نيروز » تاركا وراءه ستين ألف تومان نقدا ، وأملاكا أخرى لأولاده كميراث ، فسيطر كل عالم من علماء المدينة على فرد أو اثنين من هؤلاء الورثة المساكين ، وتنازع الورثة فيما بينهم ، وكان « الإمام جمعة » - والذى كان ابنه صهرا لحاجى نوروز على - هو الوصى من بعده ، فاستمال الجميع نحوه ، ووصلت هذه القصة إلى المحاكم والمرافعات ، وصدر بصددها حكمان من قاضيين واستولى كل قاض من هذين على نصيب لا بأس به ، من تركة ذلك التاجر السالف الذكر ، والتى هى تركة الورثة جميعا ، فتنازع الورثة فيما بينهم مرة ثانية ، وكان نتيجة هذا التنازع ، أن سُجن واحد من الورثة مرة ، وسُجن فى مرة أخرى اثنان منهم ، وبلغ الأمر بالورثة أنهم راحوا يبددون تلك الثرة هباء وفقاً لأهوائهم وأخذ اثنان منهم يلعبان الميسر والقمار دون تفكير فى الأمر ، يقامران على ما بقى فى إيديهما .

والأن فهم لا يملكون شيئاً « من الثروة » حيث هربوا إلى «حاجى ترخان » ، أما اللاهون هنا فهم جوعى ، واليوم يمر على وفاته أربعة أعوام ، ولم يبق ستون دينارا من تلك الثروة ذات الستين الف تومان ، وتحسر الجالسون كثيرا ، وجاءوا بالشاى

والنرجيلة ، واحتدم الحديث ، وخاطب أحد الحاضرين ضيفاً من الضيوف والذى كـان يتصدر المجلس ، وقال فى صـوت مرتفع : ياجنـاب شمـس الشعـراء ، هل كتبت شيئاً جـديدا من الشعر ، قـال : نعـم ، بالأمس كـتبت شـيـئا للنائب صـاحب السمـو بن الأمير ، وفى الغد الجـمعة ، سأقرأ الشعـر فى حضرته ، وحرك يده مخرجاً ورقة من جيـبه وأخذ فى قراءتها ، وفى نهاية كل بيت شعرى ، يقول المستـمعون : بارك الله فيك . . . أحسنت . . . . أحسنت ، وقال أحد الجالسين : بارك الله فى ملكتكم الشعرية ، أحسنت . . أحسنت . . . أحسنت ، فكم هو جيد ما نظمتموه ، ثم نظر إلى قائلاً ، مارأيك أيها المواطن ؟

قلت إنى لا أفـهم فى هذه الأشـيـاء ، فقـال : أى شىء لا تفهمـه ، فالكلام كله «روح» قلت لا توجد أية روح ، فقـد عفا الزمن على هذا النمط القـديم من الشعر ، ولم تتـرك مقتضـيات عصـرنا روحاً فى مـثل هذه الترهات ، وفى أى مكان من الـعالم لاتساوى هذه الشـعار الكاذبة دينارا واحـداً ، إلا فى هذا البلد ، فنتج عنها البطالة وقلة الحيـاء والجهل والغفلة ودناءة النفس والتى تمدح فى الظالم ظلمه على أنه مـثال للعدل ، والجاهل بالفـضيلة والبخـيل بالسخاء ، فـيُعجب بنفـسه ، بسبب مـثل هذه الاكاذيب التافهة ، وهذا العصر ليس ذلك العـصر الذى يُخدع فيه عالم بمثل هذه الأشعـار الكاذبة الجوفـاء ، فالشـعر لا يعنى مـدح الأفراد ، ومـثل ذلك الخطاط الذى يجيـد تجـويف « حـرف الكاف ودائرة

النون » ، فمثل هذه الأعمال لا تدخل فى عداد الفضائل الإنسانية ، فاكتب الموضوع بصدق حتى ولو أنحرف تجويف « حرف الكاف » ، فكل المنصفين سيقولون إنه صحيح ، فاليوم فإن سوق الضفائر والشعر الغزلى فى كساد ، فلا وقت للتغزل بالشعر ، « فقوس الحاجب مكسور ، وعينا الغزال متحررتان من خوفهما » ، إذ ينبغى بدلاً من الحديث عن الخال والشفه ، ينبغى أن نتحدث عن الفحم ، ولا تهيم فى وصف القامة الشبيهة ، بشجرة السرو والشمشاد ، بل ينبغى أن ننظم الشعر فى طول أشجار الجوز والكاج فى أدغال مازندران ، وفى قائمة الأشعار ، ننظم شعراً يدور حول معادن الفضة والحديد ، وانظم ماشئت من الشعر حول نسج السجاد المحلى ، فاليوم عند الاستماع نسمع صوت قطارات السكة الحديد ، وليس نغم أو شدو عندليب الروض ، واترك الخمر التى تذهب بالعقل ، إلى ذلك الساقى عديم الحياء ، واعملى على رقى تجارة البلاد ورواجها ، فحكاية الشمعة والفراشة ، حكاية عفا عليها الزمن .

وانظم شعرا عن تأسيس مصنع للشمع الكافورى واترك الشعر الذى يدور حول الحديث الحلو عن الشفاه للشعراء المرضى ، وانظم شعرا عن البنجر الذى يُستخرج منه السكر .

الخلاصة : إن مثل هذه الافكار ، أفكار فاسدة ومخلة بالأخلاق فدعها جانباً ، وانظم شعرا عن حب الوطن وثروته ،

وكذا مقومات تعمير البلاد ، فلا فائدة لمثل هذا الشعر الذى نظمته سواء فى الدنيا أو الآخرة ، ووطنكم غارق فى الخراب بسبب مظالم هؤلاء الحكام السفهاء ، فانظم شعرا آخر يمكن أن يصور تعميرها ، فهذا الحاكم الظالم الذى تحدثت عنه ، واعتبرته كيوسف الصديق (ع) فى الصدق ، وفى جلالة الشأن أسمى من النبى سليمان (ع) ، هو حاكم ظالم وسفيه ، واليوم تقرن ذلك الغادر بالنبى يوسف ، ونقسم برأس هذا (اليوسف) الحالى (الحاكم الظالم) ، إنه ارتكب مالا يحصى من الجرائم ، فهو لم يتغاض قط عن أذية الناس والتنكيل بهم ، مستخدما فى ذلك العصى والضربات والصفعات ، ولم يرأف بحال أحد من الأشخاص ، ولم يتحر الحقيقة فى عقوبة فرد من الأفراد ، وإذا قتل شخصاً من الأشخاص ، لا يجرؤ أن يستفسر أحد عن السبب ، وعلى الرغم من أن الله سبحانه قد خلق العين من أجل رؤية الإحسان ، نرى ثلة من الأشخاص السفهاء تضرب الناس بعصيها ، مزهقين أرواحهم قائلين : اغمض عينيك . . غض البصر ، أو أدر وجهك للحائط ، فأى شئ يعنى هذا ؟ فهل هذا نابع من دين الإسلام ؟ فإذا كنت شاعرا ، وتريد أن تتحدث عن حكمة الشعر ، فانظم شعرا عما يدور فى عصرنا ، فانظم شعرا حول مدينة « سمرقند » [1] ، حتى يعلم الناس ما يدور

(١) سمرقند : مدينة كبيرة ، تقع فى منطقة ماوراء النهر ، فى الإقليم الخامس دهخدا - لغت نامه : شماره (حرف) ش ، ٥ ، ص ٦٢٥ .

بأرض إيران مطلعا مواطنيك على حقوقهم الإنسانية ، فلا يصبرون أكثر من هذا أمام ظلم هذه الطائفة الظالمة ، وقد أجمعت سائر الأمم ؛ على أن « إيران » أول شعب متحضر على ظهر البسيطة « في ماضيها » ، وقد عاش الإيرانيون أكثر من سائر الشعوب في عزة وجاه وفخر ، فماذا حدث الآن ؟ إنهم الآن أجهل الأقوام والشعوب ، وينظر الآخرون من هذه الشعوب إلى الايرانيين نظرة ازدراء ، وأنا نفس إيراني . . . . ، وقد جئت منذ خمسة شهور من أجل زيارة هذه المملكة التعسة ، وتفقد حالها ، كما أن قلبي يقطر دماً نظرا لهذه المساوئ التي أراها كل يوم في كل ناحية ، وفي كل إدارة من إدارات مدن البلاد ، وقد كرهت النوم ، واللهو البرئ والسرور ، ولكنني أراكم تغفلون عن هذه العوالم ، واحسرتاه أن الدم قد تجمد في عروقكم ، فغفلتم عما يحس به الناس .

ومن شدة تأثري ، تحشرجت الكلمات في حلقي وسرعان ما اختنقت ، واضطررت أن أسكت ، فنظر إلَّي جميع الحاضرين مندهشين .

وبعد قليل من الوقت تجمعوا مع بعضهم البعض ، وهم لا يعلمون شيئاً عن مثل هذه العوالم ، وراحوا يصدقون « شمس الشعراء » ثانية ، وقال واحد من بينهم : ماضرورة الفحم المعدني أو الحجري ؟ ونحن جميعاً نستخدم الحطب ولدينا أيضاً الفحم ؟

ونحن جميعاً نعلم مزايا هذه الأفكار الجليلة لشمس الشعراء ، وإن كنت لم تفهم فلا لوم علينا ، ورأيت أننى فشلت فى التأثير على الحاضرين ، وهم يعتبرون خطئى جهلا ، فقلت لنفسى ينبغى اتباع طريقة اخرى مع هؤلاء ، قلت ياعزيزى إن الليل طويل ، والحديث أيضاً محتدم ، وأريد أن اضرب لكم مثلا واحداً ، فقال تفضل فليس هناك مانع ، قلت ذات يوم قرر عالم من علماء الأفغان درسا على الطلاب فى إحدى مدارس «هراة» ، بالصدفة ألقى « مهدى بيك »[1] ، والذى تعرفونه جيداً درساً فى ذلك المجلس ، وجاء دون أدنى اكتراث وجلس بالقرب من المدرس ، فارتاب المدرس ونفر من مظهره الذى يوحى وكأنه متسول ، كما نفر من اللباس القروى الذى إرتداه ، ولكن بعد أنهى المدرس درسه سأل « مهدى بيك » قائلا : هل فهمت الدرس الذى ألقيته ؟ فضحك مهدى بيك ضحكة يشوبها الامتعاض وقال : لماذا أفهم وما هو الدرس ؟ فأجاب المدرس : الدرس الثانى ،فقال : مهدى بيك أى درس ثان ، وفى أى شئ كان الدرس ؟ فأجاب المدرس : درس الإيهام والكناية " ، وفى الحقيقة إن الدرس كان عن ذلك الموضوع ، فقال مهدى بيك : ماذا يعنى الإيهام . . . فعرفه لنرى ، فأجاب المدرس : الإيهام الثانى ؟ فقال مهدى بيك : هذا دليل على إنك لم تفهم معنى

(١) أحد شعراء بلاط ناصر الدين شاه ، وقد كان الشاه يرسله إلى حكام الأقاليم وذلك كى يطلع على أحوالهم ، وقد ولد هذا الشاعر عام ١٢٢٤ هـ.ق - باقر مومنى : سياحتنامة ابراهيم بيك ، ص ١٢٤ . .

الإيهام ، فلو كنت تعرفه ، تحـدث عنه ، وقال مهدى بيك : إن معنى الإيهـام علـى سـبيـل المثـال : إنه لدى غلام اسمـه مبارك وأنت لديك غلام اسمه مبارك ايضاً ، فتشاجر المباركان معا .

وضـرب « غـلامى مـبـارك » ، غـلامك مـبـارك ، فلطخ رأس غـلامـك مـبـارك بالطين ، فى ذلك الوقت كانت حـالة المدرس فى غنى عن التعريف .

والآن أقول لكم إن خـيالى المبارك ، أساء إلى الخـيار المبارك لشـاعـركم « شـمس الشعـراء » وقـد عمَّ الظلم وطنكم بسـبب الجـهل ، وأنتم لم تحـاولوا أن تقـضوا على مـثل هذا الجـهل ، وعلمكُم وفضلكم ، هو عـبارة عن نظم بعض الكلمات الجـوفاء مع بعضكم البـعض ، ، وكذلك نظم الأكاذيب من الأشـعار فى مجلس يجمع السـفهاء من الناس ، كما أنكم تسـمون من يختلق هذه الأكـاذيب بملك الشعـر وشـمس الشعـراء وتجـعلونه يتصـدر مـجلسكم ، كـما أنكم تخـاطبـون ذلك الشـخص بكل احتـرام وإجلال ، فـتخدعـونه بذلك ، فيظن المسكين ، أنـه أعلم إنسان على وجه الأرض ، فى حين أنه يعجز عن الرد على تلمـيذ صغير فى شأن العلوم والفنون المتداولة .

والفـضل الذى يحذقـه هو نسج الأكاذيب وهراء الحـديث ، والآن أعرف أن صـاحب المنزل يخجل من « شمس الشـعراء » ،

ويبدو أن شـخصين من الحاضـرين ، صارا فى صفى ، أمـا سائر الجالسين فـتمنوا لو يقطعوننى ارباً ارباً) ، وقـال أحدهم : دعك ياوالدى من هؤلاء فهم ترك سذج وسفهاء ، وقال آخر قيل (أكرم الضيف ولو كان كافرا) ، وجـاءوا بالعشاء فتناولناه ، وبعد تناول القهوة والنرجيلة ، أنفـض المجلس ، وأضاء خادم صاحب المنزل الفـانوس واأوصلنا حتى المنـزل الذى ننزل به ، وعلى الرغم من أننى كنت أفكر فى أن أبقى ثلاثة أيام أخـرى فى « قزوين »[1] ، إلا إننى كرهت الإقامة هناك نظراً لحـادثة عمى يوسف ، كما أننى كنت قد وعدت " يوسف عمى " ، فـذهبت فى الصباح ، ورأينا السـائس ، وحزمنا أمـتـعتنا ، وكـان اسم ذلك المكارى السـائس «إبراهيم» ، وهو من أهل « زنجان »[2] ، واشترينا ما نحتاجه ، وتحركنـا من المنزل عصـراً بعد أن جمـعنا أمتـعتنا ، ونزلـنا خارج المدينة التى كانت قد حطت بها القـافلة ، وتوجهنا فى الصباح من هناك إلى المدينة « أردبيل » .

(١) قزوين : مدينة مشهورة ، تقع على بعد سبـعة وعشرين فرسخا من الرى ، واثنى عشر فرسخاً من (ابهر) ، وهى فى الاقليم الرابع .
- الحموى : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٨٨ .
(٢) زنجان : بلدة كبيرة ومشهورة تقع بالقرب من أبهر وقزوين .
- المرجع السابق : جـ ٢ ، ص ٩٤٨ . . .

مجمل السيحة فى قزوين

إن أبواب المدينة وجدرانها تمطر هما وحزنا ، وأهلها لا يعلمون شيئاً عن الحياة الإنسانية ، وتسيطر عليهم الاوهام والخرافات ، وهم غافلون تماما عن أوضاع عصرهم ، ويجهلون كل شئ عن عوالم الحضارة ، ويقل اهتمامهم بأوضاع المدارس والمساجد فى المدينة ، وهم لا يستفيدون من الدنيا ولن يستفيدوا من الآخرة ، ولا يهتم أحد بزيادة الثروة القومية للبلاد ، وليس عندهم أدنى ولاء لبلادهم ، ودماؤهم متجمدة فى عروقهم .

« أحياء ولكنهم أموات . . . . أموات ولكنهم أحياء »

الخلاصة : توجهنا نحو « أردبيل » وكان ذلك وقت السحر حيث تحركنا مع القافلة ، وكان الغرض الأساسى من السفر لأردبيل ، هو زيارة المقام المقدس ، للسيد الجليل الشيخ « صفى الدين إسحق الأردبيلى »(١) ، والذى مذهبه الحق المذهب الإثنى عشر الشيعى ، والذى ساد العالم « فلتكن روحى فداء روحه الطاهرة » .

(١) تنسب الأسرة المعوية إلى الشيخ صفى الدين إسحق الأردبيلى (٦٥٠ - ٧٣٥ = ١٢٥٢ - ١٣٣٤ م) وهو صوفى زاهد ، عاش هو ومريدوه فى مدينة أردبيل (آذربيجان - إيران) . .
- الحموى : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٨٨ .
- بطروشفسكى : تاريخ ايران : ترجمة كريم كشاورز . ص ٤٧٠ .

وفى أثناء الطريق ، لم نشاهد شيأ يستحق الذكر ، وتتناثر على جانبى الطريق القرى الكبيرة والصغيرة على السواء ، ولا يمكن أن تتوقع شيئاً من هؤلاء القرويين ، ويمكن القول إن جميع المواطنين سذج ومتدينون وهم مقيمون للصلاة ، مكرمون للضيف.

والجهل عندهم سعادة كبرى ، ومن حسناتهم المستحبة ، التدين ، وإكرام الضيف والصدق فى القول ، فهم تعلموا الصدق والأمانة بالفطرة ، وعفة رجالهم ونسائهم فى غنى عن التعريف ، وأنه لواضح أن نساء مدينة « طهران » إن لم يكن نساء كل مدن إيران ، سوف يحسدون يوم البعث هؤلاء النساء القرويات على المكانة الرفيعة التى سيتبوأنها فى الجنة ، وهن فى الغالب ذوات وجوة طلقة بشوشة ، وقلوبهن نقية صافية ، وعلاوة على أزواجهن فإنهن يعتبرن الرجال الآخرين إخوة لهن ، ولا يرِد على مخيلاتهن إلا كل فكرة نقية طاهرة واقسم بالله إننى لا أرى زوجه واحدة يمكن أن تخون زوجها من بين عشرة آلاف زوجة ، ويتضح من سياحتى وحدها أن أس البلاء والأذى كامن فى نساء المدينة السافرات ، وماعدا ذلك فكل قرى « إيران » تختلف عن البلاد الأجنبية « فى السفور » .

وفى اليوم السادس وصلنا مدينة « أردبيل » ، ونزلنا بمنزل حاجى محمد ، فقال يوسف عمى : ألا تذهب ثانية للحمام ؟ قلت : عمى العزيز ، لست على ما يرام ، وبدنى غير نظيف ،

وأفكر أن أطلب من الحارس ، ليأخذنى إلى بيته لكى يحضر لى ماء ساخنا استحم به ، فاذهب أنت ، أما أنا فسأنام قليلاً حتى استريح من عناء الطريق ، وذهب هو ونمت أنا بدورى ، وبعد ساعة من الوقت استيقظت ، وكلمت الحارس فى الموضوع السابق، فقال : في هذا المكان يتغير ماء الحمامات كل شهر ، وأخى يستأجر حماما ، وغداً سيتغير ماؤه ، ولم يدخله أحد بعد، فسأذهب بك له ، فسعدت ودعوت له ، وفى الصباح كنا قد قررنا أن يصطحبنا أحد الحمالين بعد الاستحمام ، وذهبنا لزيارة السيد الجليل الشيخ صفى الدين ، ودخلنا خاشعين ، خاضعين ذلك المقام الطاهر ، وتقدم بنا الخادم حتى رأس ضريح حضرة الشيخ ، وقرأنا كتاب الزيارة وسورة الفاتحة ، وبعد ذلك ذهبنا حيث مقام المرحوم الشاه إسماعيل [1] ، وقرأنا أيضاً الفاتحة على روح ذلك الملك النجيب ذى الهمة العالية ، والذى يفخر به تاريخنا المذهبى والقومى ، وعندما قارنت بين أوضاع ذلك الزمان الغابر ، وأوضاعنا فى الوقت الحاضر ، أخذت فى البكاء ، وقلت يامن نفسى فداء لتربتك الطاهرة ، لقد كنت مؤسس هذه الدولة ومحافظا على مذهبها المقدس طيلة أعوامك الثلاثة عشر ، فلتكن نفسى فداء غيرتك ، فاستيقظ الآن من تربتك لترى إلى أى درجة من الذلة والهوان وصل حال المذهب والدولة العظيمة على يد غير الكفاء من الحكام .

(١) الشاه اسماعيل هو مؤسس الأسرة الصفوية فى إيران (١٥٠١ - ١٥١٤ م) وهو كذلك مؤسس مذهب الشيعة فى إيران ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت إيران مقر الشيعة بين المسلمين .
- بطروشفسكى : تاريخ إيران : ترجمة كشاورز . ص ٤٧١ .

ولم يبق من علماء المذهب الاثنى عشر سوى الاسم ، والكل يجرى وراء جمع الثروات وبلوغ مناصب السياسية والرئاسة ، ولا أحد يعمل على نشر الشريعة المحمدية ، وشغلهم الشاغل منحصر فى البحث عن المناصب ، والتدخل فى أمور الحكومة وشئونها ، سواء كانوا فى ذلك على حق أو على باطل ، ولا أحد يفكر فى زيادة الاهتمام والعناية بالمذهب الطاهر الذى أحييته ، وكل همهم أن ينتزع كل شخص من بينهم قطعا من أراضى القرى لكى تدر عليه ربحاً بأى وسيلة أتيحت له ، ومن هنا يهاجمون بعضهم البعض نظرا للفراغ الذى يعيشون فيه ، وكذلك فإنهم يصدرون الأحكام المتناقضة بسبب تنازع المدعى والمدعى عليه ، وبذا يخربون بيتى الخصمين « المدعى والمدعى عليه » بدلاً من القيام بالصلح بينهما ، وهم يصدرون بدلاً من الأحكام الثابتة والمنبثقة عن الشريعة الغراء ، أحكاماً مغرضة بغية التكسب والمنفعة الشخصية ، وبدلاً من إصلاح أحوال المسلمين يعملون على إفسادها ، عاملين بهذا « إذا فسد العالِم فسد العالَم » .

الخلاصة : وبعد هذه الأفكار التى تحرق الكبد ، وصلنا ضريح الشاه « طهماسب[1] الأول » ، وبعد قراءة الفاتحة وطلب الرحمة والمغفرة لذلك الملك الورع ، تجولنا فى القسم الخاص

(١) طهماسب الأول : جلس على عرش إيران من (٩٣١ - ٩٨٤ = ١٥٢٤ - ١٥٧٦ م) هو الحاكم الثانى لفارس من الأسرة الصفوية ، وهو الابن الاكبر للشاة إسماعيل الأول .

بالآثار الصينية، والذى هو قليل من كثير مما ترك فى كل ناحية من هذه المنطقة ، وفى حقيقة الأمر ، فقد كان هناك كثير من الأثار ، وكان فى ذلك القسم خاصة ، كثير من الأوانى الصينية النفيسة والمرصوصة فى كل ناحية ، والتى لا تمل العين رؤيتها ، ولكن هناك مكان كبير خال من الأوانى ، قيل إنها سلبت أثناء الغزو الروسى ، وفى الحقيقة أن هذه الواقعة التاريخية مرت بخاطرى ، فحزنت لتذكر هذه الحادثة ، ولما أن ذكر هذه الحادثة مثير جداً للألم والحزن فقد صرفت النظر عن نقلها وشرحها ، فهذه المقبرة يجاورها مسجد كبير للغاية ، وواضح أن مؤسسة قد أنفق أموالاً باهظة عليه مما يدل على علو همة ذلك المؤسس ، ولعلهم ربما لم يهتموا بالمحافظة على تلك المقبرة وذلك المسجد ، فهما يحتاجان للترميم ، ويقال أن للمقبرة والمسجد أموالا موقوفة من أجل الإنفاق عليهما ، ولكن لا أحد يعرف من ذلك الخسيس الذى لم يخش الله فيهما ، فسلبها وأكلها ، وهذه الأموال الموقوفه أصبحت فى إيران اسما لا يستفاد بها ، ثم طلبنا أن يفتحوا باب الخزانة فى تلك المقبرة ففعلوا .

فرأينا لوحة بالخط المبارك لحضرة امير المؤمنين أسد الله الغالب « على بن أبى طالب » كرم وجهه ، وهى بالخط الكوفى، وقد كُتب فى نهاية اللوحة « كتبه على بن أبى طالب » ، ورأينا لوحة أخرى بالخط المبارك لحضرة الإمام حسن ، وقد كتب أسفل اللوحة أيضاً ، « كتبه حسن بن على » ، فقبلنا الاثنتين ووضعنا

إنسان العين عليهما ، فزاد القلب والعين قوة وضياء لرؤية
جوهرى الكونين هذين ، وسعدنا سعادة غامرة ، والحمد لله
الذى هيأ لنا مثل هذه السعادة والتى وجدنا فيها السلوى العزاء ،
مما يريح القلب الخائف كثيرا ، وبعد الانتهاء من الزيارة أنعمنا
على الخدم وسرنا إلى المنزل ، وفى الصباح ، ذهبنا لكى نتفرج
على « قلعة نارين » وهذه القلعة الحصينة للغاية ، ومهما تحدثت
عنها لن أوفيها حقها ، وكان هناك شيخ يقوم على حراسة بوابة
القلعة ، لعله كان جندياً أو حارساً ، وكان يتكئ على حائط وفى
يده سيف ، وللقلعة هذه خندقان متعرجان ، وقد أقيم فوق
سطح كل خندق جسر لمرور الناس ، فعبرنا نحن هذه الجسور ،
والقلعة فسيحة جداً ، وقصر الحاكم مستقر داخل القلعة ، وكان
لهذه القلعة مسجد عال وحمام ، كما رأيت عشرة مدافع ،يرجع
تاريخها إلى عصور مختلفة ، والتى تذكر من يراها بالعصور
القديمة والتى لم تعد صناعتها تجد الرواج الذى كان لها من قبل ،
ويمكن القول إن قيمتها ، قلَّت عن قيمة الفلزات والمعادن
المصنوعة منها ، ورأيت بجوار دار المدفعية بعض الحجرات
الخالية ، ولعلها معسكر ، ولكن لم أر جنديا واحد هناك ،
فأردت أن ألقى عليها نظرة من الداخل ، فدخلت بإحداهن ،
لأرى أن رائحة العفن تدور برأسى ، ورأيت أن جميع الغرف ،
مشبعة بالعفن ولا تختلف عن بعضها البعض ، فأخذت المنديل
ووضعته على أنفى ، ومن هناك صعدنا فوق برج، وأدرت وجهى

نحو مـدينة « قم » ، وصحت قائلاً : أين أنت ياشاه عـباس . .
أيهـا الأمـيـر الغـيـور ؟ وأين انت ياعـباس مـيـرزا . . . (نائب
السلطنه) ؟ . . . اسـتيقـظا من القبـور المظلمة ، وشاهـدا كيف
حافظ أتبـاعكما وأخـلافكما ، الأشرار على ودائعكـما ؟ فأنتـما
أقمتها هذه القـلاع الحصينة والحصون المنيعة متـجشمين كل معاناة
من أجل الحـفاظ على الوطن والدفـاع عنه بصد الـعدو ، والآن
فهـؤلاء - الأتبـاع - جلسوا فـوق أبراج الوطن العاليـة من أجل
تخريب البـلاد والإغارة على المواطنين وقتلهم ، وكـذلك لإصدار
الأحكام الظالمـة ، فـجـعلوا الأمـاكن أو المواقع الـسـفلى - من
الأبراج - والتى كـانت ملجـأ لمجـاهدى الإسلام ، جـعلوا منهـا
مرمى الفضلات والقاذورات ، فأين أنت أيها الأمير الشجاع . . .
وأين أنت أيها الملك الغيور عـلى دينك ؟ ويامن أنت فخر الأسرة
الصـفـوية (الشـاه عبـاس الصـفوى) وياعـبـاس ميـرزا (نائب
السلطنة) . . . . . لِمَ عجلت بالرحيل ؟

وأيها الموت « الخسيس » لم اختطفته منا بهذه السرعة ؟ وماذا
كان سيحـدث ، لو استمر ملكُك مدة ثلاثين عامـا أو أكثر ؟ حتى
تصلح مساوئ الآخرين والتى حدثت بسـبب جهلهم ، فتبعث فى
إيران الحيـاة من جديد ، أيها السيـد الغيور المعـترف بحق ايران ،
إنك لم تُنس . . ولن تنُسى ، فلقد قضيت كل عمرك لتحقيق هذا
الهدف « تعـمير إيران » ، ولكن أحدا بعـدك ، لم يقتف أثرك ،
لتـحقـيق أهدافك النبـيلة ، وقـد توارت معك فى القـبـر الغيـرة

والحَميْـة وحب الوطن ، وقـد تحطمت إيران بعـد وفـاتك كمـا تحطمـت قلـوب الإيرانيين ، فشقى كل منا ، وقـد ضمد خادمك (ميرزا تقى خان)[1] جروح إيران بعـدك ، فكبل خائنو الوطن يديه ، وجعلوه يثوب إلى رشـده بالاغتسال فى حمـام « كاشان » فخـرست الألسنة ، فلم تعد تتـحدث عن تقدم إيران ، فـلا أحد يعيـر مفـاسد إيران اهتـمـاما ، فـتـضاعـفت خـيبـة أمل ايران والإيرانيين ، فليتغمدكم الله برحمته ، وفى تلك الأثناء أخذ قلبى فى الخفـاق ، ووصلنا المنزل ، وفى الصـباح جـاء الحارس وقت الظهيـرة ، وقال : لماذا لم تذهب أيها السـيد ؟ قلت : إلى أين ؟ قال اليوم ستقام مصارعة للثيران ، وذلك فى ميدان قلعة نارين ، إذ فى هذه المصارعـة يتجمع جمـيع أهل المدينة فى ذلك المكان ، قلت ليس هنـاك مـانع من الذهاب ياعم يوسف فلـنذهب هناك ، فذهبنا إلى الميدان ، فرأيت بالفعل ازدحاما عجيباً ، وقد تجمع فى ذلك المكان أهل المديـنة من كل حـدب وصوب ، إنـها مـعـركـة عجـيبـة ، فتعـجبت : أليس وراء كل هؤلاء النـاس أى عمل من الأعـمـال ؟ وبعـد ذلك اتضح أن الثـورين المتـصـارعين ، يملك أحدهما كـبير خدم ضريح الشيخ صـفى والثور الثانى يملكه نائب الصـدر الأعظم ، ويعد الرجـلان من علماء « أردبيل » ، وكـان نصف أهل المدينة من مريدى كـبير الخدم ، والنصـف الآخر كان أتباعا لنائـب الصدر ، وأقبل أنصار الطرفين من أجل التـشجيع ،

(١) سبق التعريف بجهود ميرزا تقى خان فى ايران .

وكانوا جميعا مدججين بأنواع الأسلحة المختلفة ، كسلاح القَمه والطبنجات بالإضافة إلى العصى والشوم ، وكان الاشتباك بين الثورين مقدرا ومعروفا ، وعلى كل حال فقد ألقوا بالثورين للنزال والنطاح معا ، وفى بداية الأمر ، نظر الثوران إلى بعضهما قدرا من الوقت ، ولعلهما تحدثا معا بلسان الصمت ، وبعد ذلك اشتبك الثوران . . . القرن فى القرن والرأس بالرأس ، وكانت أصوات النظارة تقول : هلم . . . اضرب . . . . هلم . . . . . اضرب ، وسقط الاثنان على الأرض نظرا لقوة الاحتكاك بالقرون ، وأخذ الثوران يتدحرجان وكل منهما صدره نحو صدر الآخر ، وفى أثناء ذلك سمعت ضجة كبيرة كانت صادرة من المتفرجين ، وإلتف أنصار « نائب الصدر » حول ذلك الحيوان الصامت ، وقيل أحد الأنصار عينى ذلك الثور ، وأخذ أخر يربت على قدميه .

وأحضروا من جانب آخر ، عددا من الشالات الفاخرة ، وحزَّموا بها ظهر ذلك الحيوان ، كما حزموا أيضاً عنقه ، وأخذوا يطوفون به فى الميدان مصفقين ، راقصين يغمرهم الفرح والسرور ، وكنت أنا نفسى مندهشا وفى منتهى الحيرة والذهول بسبب ذلك الوضع ، وضقت ذرعا بتلك الضجة ، وتأوهت من أعماق قلبى وقلت : يا إلهى . . . . . ماذا حدث ؟ إننى أشاهد ضجة مثيرة ومخيفة وسط الجماهير الغفيرة من الناس ، وكأنَّ قائداً إيرانيا ، قد عاد إلى إيران منتصراً فاتحاً ، بعد أن دافع عن

بلاده ، فأتيت لا ألوى على شئ ، إذ أن ذلك القائد قد هزم عدوه اللدود ، وكان يتقدم هذا القائد على سبيل المثال لا الحقيقة، عدد من المدافع والمعدات الحربية وبعض الغنائم الحربية أيضاً ، وراح الأهلون فى مقابل هذه الخدمة الجليلة للوطن ، راحوا ينثرون الورود على رأس ذلك القائد الظافر من الأبواب والجدران ، ثم استبدلوا تلك الضجة المخيفة بنغمات عذبة ، يتغنون بها لشجاعة جنود الوطن المغاوير ، وتلك الشالات التى زينوا بها ، هذا الحيوان « الثور » ، جعلوا منها سجاداً وفُرشا لكى يطأه ذلك القائد المغوار ، ومن ناحية أخرى ارتفعت أصوات علماء الشعب مهللين مكبرين ، شكراً وحمداً لله ، على ذلك «الفتح» « العظيم » ،(هنا الكاتب يبكى . . . . . . والقراء المحترمون أحرار سواء يبكون أو يضحكون) وفى اليوم الثانى خرجتُ من المدينة للنزهة ، وكما هو معلوم ، أن مدينة «أردبيل» هذه من المدن القديمة فى العالم ، وهى ذات واد جميل مترامى الأطراف ، ولكنه يخلو من أيه حديقة أو بستان ، وجوها لا يساعد على التنشئة السليمة ، ولا تخلو تجارة هذه المدينة من الأهيمة ، نظرا لأن ميناء (استارا) قريب من بحر الخزر والحدود الروسية ، ويصل أذربيجان كثير من السلع والمنتجات والمصنوعات الروسية عبر هذه المدينة « أردبيل » ، لهذا فبالمدينة منازل قوافل عظيمة وجيدة [1] ، ولكنها تخلو من التجار الكبار

(١) منازل القوافل : اشبه بالاستراحات التى يستريح فيها المسافرون فى الوقت الحاضر .

والشركات الكبـرى التى يمكن أن تستفيد منها المدينة وتـكون سببا فى رواج التجارة .

وفى اليـوم الرابع رأيت الناس يهـرولون يمنة ويسـرة من كل مكان ، وارتفـعت أصـواتهـم من كل حـدب وصـوب قـائلين : ياوالدى الجهاد ؛ قلت لنفسى ماهذه اللعبة الجديدة ؟ . . والجهاد مع من ؟ ونهضت لكى أرى ما هذه الجلبـة ، فأمسك بى يوسف عمى من جلبـابى ، وقال : لن اتركك تذهب ، حتى لا يصـيبك اذى أو مكروه فى خـضم هذه الجلـبة ، قـلت : ياوالدى « العم يوسف » لِمَ تمسـك بى ؟ . . . دعنى ، وخلصت طرف جـلبـابى من قبضـته وخرجت مسرعـاً وبعد وضوح الأمر ، قـيل إن السيد الأمير صالح أو الشيخ صالح والذى حمل سيفه وأعدْ كفنا لنفسه قد أمر بالجهاد .

وتجمع حوله مـايربو على ألفى مواطن من أهل المدينة ، ولا أدرى ماذا فـعل أحد مـوظفى الحكومة بهذا الـرجل ، مما أغضب الشـيخ ، ولهذا نادى بالجـهاد ، وبناء على هذا صـدر أمر بالـقاء القبض عليه حتى يحمل إلى بيته ، وكان قد ضُرب ضرباً مبرحاً ، حتى أغـمى عليه ، فقـال جمع أنه مات . . وقـال آخرون إنه لم يمت ، ولكن سيموت ، فقلت لنفسى سبحان الله ماهذه القيامة ؟ ألا توجد حكومـة فى هذه المدينة ، أليس لها حـاكم ؟ وماذا بدر

من المُلا ، حتى يسوقه موظف الحكومة بعصاه ؟ دون أن تحرك الحكومة ساكنا ؟ ولا أعلم أن المصائب سوف تطل برؤسها فى هذه السَفَرات .

الخلاصة : إنه حكى لى بعد هذه الضوضاء ، أن هذا السيد جاء من البلاط الملكى منذ ثلاثة أعوام أو يزيد ، وطاف بجميع منازل علماء المملكة ، وهو نفسه لا يأكل شيئا خارج منزله مع أحد سوى الخبز الشعيرى والخل ، ولكنه يتناول أنواعاً شتى من النعم فى الحرملك ، ويقدم ماء الليمون الشيرازى ، بدلا من الماء والخل أجل :

« عندما يذهبون إلى الخلوة . . . . فإنهم يفعلون مايريدون » وبعد عشر سنين ، فلاشك أن جناب السيد « الملا » ، سوف يمتلك أجود الأرض فى قرية عظيمة ، كما فعل الآخرون - من الملات - أول الامر ، والآن جناب السيد « ميرزا على أكبر ، هو أيضاً عالم من علماء هذه المدينة ، وهو نفسه يجوب كل القرى من أجل أخذ الزكاة ، وفى هذا الإقليم هناك على الأقل ، عشرة أشخاص من هؤلاء الملات الكبار ، وكل ملا من هؤلاء ذو نفوذ ، ومريدوه كثيرون ، ويملك كل ملا من أولئك الملات ايضا ما يقرب من عشر رؤوس من البغال والجياد الجيدة .

الخلاصة : بعد ثمانية أيام من الإقامة فى هذه المدينة

استأجـرت من السائس ثلاث جياد بغيـة الذهاب إلى « مراغة » ، وكان ثمن أجرة الحصان ثمانية عشر قرانا ، فأعطينا السائس خمسة عشـر قرانا كـعربون ، حـتى يأتى فى الصبـاح ليحـملنا ، وطلع الصـبح ولم يأت بعد ، ومـر وقت الظهـر أيضا ولم يأت بعـد ، وحينئـذ أرسلت رجلا فى طلبه ، وعلُم أن السـواس قد هربوا ، فسألت لم هربوا ؟ فقالوا أن اليوم فـيه حظر على الجياد ، فحاكم المدينة سـوف يسير ، قلت كـيف . . . كيف ؟ ومـاذا يعنى حظر الجيـاد اليوم ؟ قال : نعم - إنه حظر على الجـياد - وإن لم تكن هناك مشقة عليك ، فأخرج أنت بنفسك لترى ماذلك الحظر الذى يفرضـونه على الجياد ، ولم أفهم الموضـوع أيضاً ، قلت ياوالدى . . . الحاكم يـسير مـا شأنى فى ذلك ؟ ألست جـديرا بالذهاب ؟ فقد استأجرت حصانا . . . ودفعت النقود .

عـن ضـمـــانتك ، إذ قلت أنت : إن الســـائس رجل طيب وأمين ، فـقال : نـعم إن السائس رجـل طيب وأمين ، ولكن لم يعلم أحـد من الناس أن اليوم سـيكون يوم الحظر على الجـياد ، فاذهب وشاهد بعينيك ، كل منزل وكل ما يتعلق بتجارة « تبريز » « وهمـدان و« قـزوين» ، وسائر الأمـاكن سـتـرى أنها مـغلقـة وجمـيعها خـاوية على عروشهـا ، فهكذا إذا قَدمت قـافلة تجارية مـدينـة أردبيـل فـإن السـواس يفـرغون مـا مـعهم مـن البضـائع التجارية ، ويهربون خوفا على جيـادهم ، فقلت حتام يستمر هذا الـوضـع ؟ قال : غيـر معلوم أيستمـر عشرة أيام أم خمسـة عشر

يوما ، فطالما الحاكم لم يذهب ، يظل الوضع على ما هو عليه ، ورأيت أنه لا جدوى من دفع أذى هؤلاء الظلمة إلا بذكر الحوقلة ففعلت ، والأسوأ من كل هذا أن الأشياء التى حزمناها ، قد فتحناها ثانية وذهبت إلى السوق فرأيت معركة عجيبة ، فمن ناحية رأيت عددا من أتباع رئيس العسس ، ومن ناحية أخرى رأيت خمسة أو ستة أفراد من السعاة وأخذوا يعدون من مكان لآخر ، وكانوا يسوقون أمامهم دون استثناء كل ما يقابلهم فى أى مكان من إبل وبغال وجياد بعد أن يكونوا قد استولوا عليها من أصحابها ، فكان لا مناص من أن يتعقبهم مالكوها مجبرين ، وأظلمت الدنيا أمامى لرؤيتى هذا الوضع ، وعدت إلى منزلى ورأسى فى دوار شديد ، وكنت فى حالة يشوبها الاضطراب والمرارة ، فقال يوسف عمى « متهكما » إنه لن يظهر حضرة صاحب الأمر ، عجل الله فرجه ، كتب علماء الدين شروحاً وعلامات كثيرة ، وقد قرأناها ، ولكن لم يتضمنها أخذ جمل أو بغل أو جواد ، وهذا مالم نعلمه، وهو فى الحقيقة أمر عجيب للغاية ؟ فالسعاة يستولون على أموال الناس فى سوق الإسلام جبرا وقسرا ، ولا أحد يسمع لشكوى مظلوم من أولئك المظلومين . . . إنه لأمر غريب للغاية .

الخلاصة : إننى من شدة العناء والنَصبَ شددت العباءة ونمت فى أحد الأركان وسرعان ما سمعت صوتا ينبعث من ضجه ،

فنهضت فرأيت ساعيين يقفان على باب المنزل ، فقال أحدهما : أيها المواطن هل استأجرت بالأمس ثلاث جياد ؟ قلت : نعم ، قال وأين الجياد ؟ قلت لم يأت السائس بعد ، ونحن بدورنا تعطلنا ، قال : ينبغي عليك أن تلتزم ، فلو أتى لاتذهب ، فرأيت أنه يتحدث حديثاً لامعنى له ، فقلت : وماذا يعنى الالتزام ؟ فقددفعنا خمسة عشر قرانا ، ولم يكن بيننا عقد يحفظ نقودنا ، فأشتد الجدال بيننا ، فقالا : ينبغي أن نحملك معنا إلى خدمة كبيرة السعادة ، ولاحظت إننى لو ثبت على موقفى ، فأنهما سوف يحملاننى جبراً ممسكين بجيب قميصى ، فقلت بسم الله لنذهب ، وحملت العباءة ، وتقدمنا نحو « قلعة نارين » حيث مقر الحاكم .

ورأيت يوسف عمى مقبلا نحوى ، وكلما أصررت أن يعود إلى المنزل ، كان يرفض وقال إننى لا إستطيع أن أصبر حتى تعود ، وعندما وصلنا هناك ، قدمونا فى بادئ الأمر إلى شخص لعله كان نائباً ، وهمس أحد السعاة بشىء فى أذنه وعاد ، ثم قدمنا النائب بدوره إلى شخص آخر ألا وهو رئيس السعاة والخدم ، وهمس ذلك النائب بحديث فى أذنه ، وكنت مضطرباً فجال بخاطرى أنه ليس ببعيد أن يسجننا هؤلاء الأخساء هنا لمدة عام ، فماذا حينئذ نفعل ؟ أو ربما حكم الحاكم بمعاقبتنا ، فمن يساعدنا ويحمينا حينئذ أيضاً ؟ وكل من رأى حلما مزعجاً ، أو استولى عليه « كابوس » يمكنه أن يعلم كم كنت مضطرباً .

الخلاصة : إن كبيـر السعاة رفع هامته بعـد فترة من الوقت بطريقة خـاصة ، وقال وهو يضـيق ذرعا : أيها الرجل الحقـير ، ماذا صنعت بـالجياد ؟ قلت أى جـواد ، قال : تلك الجـياد التى استـأجرتهـا بالامس ، فرفـعت صوتى وقلت أنت نفـسك لا تعى ماتقول ، فأى شىء يمكن أن أفهمه من سؤالك ؟ وأطلت فى مثل هذا الحديث ، فنهض كبـير السعاة وقال غاضبـاً ، أقبل ، فدخلنا دهليزا كـبيرا ، واجـتزنا الدهليز حين قـاعة كبيـرة ، ورأيت أمام نافذة القاعـة عددا من الأفراد ، وقد وقفـوا واضعين أيديهم على صدورهم ، فهم صامتـون وكأنهم أجساد بلا أرواح ، وقد جلس الحاكم فوق أحد المقاعد ، وجلس بـعيدا عنه عدد من الأشخاص المعممين ، وجـرَّنا كـبير السعاة إلى الحاكـم ، فانحنينا له معظمين وظللنا واقفين ، فـقال كبيـر السعاة والخدم : إن هذين اسـتأجرا جوادا ولكنهـما ينكران ، فقـال الحاكم : أين الجيـاد ؟ قلت أيها الحـاكم لا نعلم « وأضـفت بعض الكلمـات الاخـرى » ، فقـال يوسف عمى : أيها الحاكم : عـلاوة على ذلك ، فنحن مسافران ونتبع الرعـية الأجنبيـة ، ولو أصابنا مكروه من جـرائكم ، فأنى سأذهب الأن إلى مقر المبرقة فى « طهران » لكى أخبر ممثلنا الوزير الإنجليزى عن هـذه الأوضاع ، وفكر الحاكم قليـلاً من الوقت ، وبدا عليـه الاضطراب ، ولما لم يتـفـوه بكلمـة واحدة ، قـال : انصرفوا . . انصرفوا [1] ، وتجرأت وقلت : أيها الحاكم سواء كنا

(١) هنا يوضح الكاتب كيف يخشى الإيرانى الحاكم الأجنبى ، أما الإيرانيون فلا أدنى احترام لهم فى وطنهم .

نتبع الرعية الأجنبية أم نتبع الرعية المحلية ، فهذا لا يغير فى الأمر شيئاً ، ونحمد الله أننا مسلمان ، ولكن أقول لكم إنه فى الماضى كان ملك إيران حينما يريد أن يسير جيشاً إلى مملكه أخرى ، كان ينشر دعوته المذهبية بين الناس وكان يتخذ من المذهب ذريعة للحكم ، ولكن اليوم كل دولة تريد أن تعتدى على أرض الدولة المجاورة .

فإنها تعتدى على تجارتها وحريتها واللتين هما أساس الرفاهية والراحة بالنسبة للرعية وهما أيضاً أساس تعمير المملكة ، وينفق فى مجال ترويج التجارة الأموال الطائلة ، بل وتسفك الدماء أيضاً ، والشئ العجيب إنكم توصدون أبواب التجارة فى وجوه الشعب ، وبدلاً من إنشاء الطرق الحديدية وصنع العربات ، فإنكم تحولون دون تقدم وسائل النقل فى هذه المملكة ، وتقصرونها على الحصان والبغل ، مما يكلفكم الكثير من العناء ، وتفرضون الحظر على الجياد باسم « السخرة » وتؤذون عباد الله ولاتخافون من الله ، فقال الحاكم أيضاً فى صوت جهورى : مسموح لكم . . وأغربا عن وجهى ، وأعاد كبير السعاة الإشارة الينا إيذانا بعودتنا ،فرجعنا إلى النائب ، فقال : إنكما أحضرتما لنا الرزق الوفير ، وقال لنا لا عليكما . . . اذهبا ، وأقتربنا من بوابة القلعة ، فرأيت ساعيين يعدوان نحونا ليقولا: نريد أجرنا فقلت ماذا . . . ماذا ؟ فقال البقشيش فقلت أيهما الملعونان: أى شئ

فعلتاه لنا لتأخذا عليه بقشيشاً [(١)] ؟ فقال أحدهما لقد خدمناكما ، فهل يجوز أن نعود خاليين الوفاض ، فمن اين ننفق إذن [(٢)] ، فقلت وماشأني بكما . . . . أغربا عن وجهي يا أتباع فرعون وشداد ، وليجتث الله جذوركم وأمثالكم من على ظهر البسيطة ، أتريدان أن أعود ثانية أمام ذلك « النمرود » ، وأن أسأل ماذا يطلب منا أبناء الشياطين أولئك ؟ فقال الخادم الثاني : عد بنا يا « مشهدی رضا » فهذان الرجلان يتبعان الرعية الأجنبية ، والأجانب كلهم ملاعين ومجانين .

الخلاصة :إننا تخلصنا من براثن أولئك الذئاب ، وفي أثناء الطريق قلت ليوسف عمي : لماذا كذبت نحن لسنا من الرعايا الأجانب ؟ فربما طلب منا تذاكرنا ، فماذا كنا نفعل حينئذ ؟ قال : كان الكذب في مصلحتنا ، وأين لهوءلاء بالفطنة ، حتى ترد التذاكر على خواطرهم ؟ وقد حاك هؤلاء أكياساً لجمع الأموال من الإنعامات والرشاوى وهذا لاينبغي فعله ، وحينما يتحدث أغلب حكام إيران مع الرعية ، فإنهم يضعون أيديهم على شعر

(١) هنا يعرض الكاتب إلى موضوع « الأنعام » والذى يعتبره بعض الإيرانيين حقاً من حقوقهم ، فمن المعلوم أن كل من يتعامل مع الخدم والسعاة لابد وأن ينعم عليهم بشيء ، ولو افترضنا أن إيرانياً قد ذهب إلى مقابلة أحد الأمراء ، فلابد أن ينعم هذا الايرانى على خدم الأمير ببعض التومانات حتى عند إنصرافه حتى ولو خرج هذا الإيرانى خاسراً بعد المقابلة - أنظر:

- مغامرات حاجى بابا أصفهانى : طبعة فيلوت الثانية ، ص ١٣١ ، كلكتا ١٩٢٤ م .

(٢) العبارة الفارسية : يابستان مادر را! خواهيم مكيد ، خرج داريم ؟ أى هل سنرضع ثدى الأم لننفق .

شواربهم ، وينشغلون ببرمها ، وهم يتحدثون فى لهجة خاصة بهم ، بها حدة وسرعة ، وعند حديثهم لا يكملون الكلمات التى ينطقونها ، فمثلا يقولون : لا ، لا ، لا ، لا ، خ ، خ ، حسن جداً (خلو خو) [1] أى حسن جداً .

الخلاصة : إتينا المنزل وتعطلنا أيضا مدة ثلاثة عشر يوما ، وخلال هذه المدة التى اقمنا فيها فى « أردبيل » كنت فى أشد التعب والنصب كما كنت فى أشد الاضطراب ، ولا يعلم أحد سواى ، بهذا الظلم والتجاوز الذى لا يطاق فى هذه المدينة ، وليس هناك أحد يمكن أن يعجب لهذا الوضع ، وكأن تحمل أعباء هذا الظلم والتعدى ، صار من مقتضيات جِبلَّتهم . وهم غافلون عن الحقوق الإنسانية كلها ، وكان هذا سببَ حزنى وألمى ، ومع وجود هذه المظالم كلها ، تكتب صحف « طهران » كل يوم فى صدر صفحات أخبار الأقاليم ، أن الرعية فى منتهى الرفاهية والراحة ، وكان هذا العهد عهد أنوشيروان العادل ، فسحقا لهؤلاء الحكام غير النجباء .

واتضح الغرض بعد ذلك ، إذ أن الحاكم كان يحتاج وحده عشرين رأسا من الجياد والبغال ، وكان هذا سببا فى كل هذا الهرج والمرج والاستيلاء على الدواب ، وما صاحب ذلك من تعطيل التجارة ، وخسارة الناس ، كما استولى سعاة الحكومة

(١) أى خيلى خوب

على أكثر مائتى تومان من المكاريين الفقراء ، ولم يتفوه تاجر واحد من تجار المدينة بكلمة واحدة ليقول ماهذا الظلم ؟ وكان الله سبحانه قد خلقهم معاذ الله لتحمل كل هذا الظلم والجور ، وعلى كل حال فقد أقبل السائس فى اليوم الرابع عشر والذى كان قد اختفى فى أحد الأماكن ، وحزمنا أمتعتنا « للمرة الثانية » وسرنا ، وأثناء الطريق قال يوسف عمى : ألا تتذكر تلك الحكاية التى كان يحكيها « أحمد أفندى التبريزى » فى مصر ؟ قلت : أيه حكاية ؟ قال : حكى أحمد أفندى أنه ذات يوم مرض « قائد » أمير الخمسة ، فأرسل الخادم ليلاً إلى أحد الأطباء المشهورين ، لكى يأتى ليعالج الخان ، فنهض الطبيب ليلاً من الفراش الدافئ ليذهب إلى الخان المريض ، وبعد فحص المريض ، وإعداد الدواء ، خرج الطبيب ليعود إلى بيته ، فأمسك خادم جناب الخان بتلابيب الطبيب ليقول له : أعطنى الإنعام « البقشيش » ، فقال له الطبيب ، ياعزيزى : إننى نهضت من بيتى فى الليل الحالك حتى أتيت هنا ، وعالجت سيدك ، ولم يعطنى شيئاً مقابل مجيئى هنا ، فكيف أعطيك شيئاً ؟ فقال الساعى : لا تهذ . . ألم أقدم لك خدمة ؟ . . . فينبغى عليك أن تعطينى الإنعام ، فاضطر الطبيب إلى أن يعود إلى سيده الخان ، وقال الطبيب : أيها الخان إن الساعى يريد منى انعاما ، وأنا نفسى لم أخذ شيئا منكم ، فقال الخان (ياحكيم باشا هؤلاء سعاة ملاعين ، فاذهب لحالك . . وأعطه شيئا وأرضه) ؟ ، فحينئذ أنت شتمت « أحمد

أفندى » المسكين واعتبرته غير غيور ، والآن اتضح أن ذلك الرجل كان صادق الحديث ، واليوم رأيت بعينيك أنهم أرادوا منك بقشيشاً بنفس الطريقة .

فقلت اسكت .... اصمت بالله عليك فإن هذا الالام كافية .

مجمل السياحة فى مدينة اردبيل

فى هذه المدينةالأهلون مشغولون بالحديث عن الملات ، ففى كل مكان وبيت هناك حديث عن المجتهد فلان وشيخ الإسلام كذا أوالإمام ، والبعض مشغول بمصارعة الثيران ، فكان يقول أحد الاشخاص إن سبب هزيمة ثور السيد ، هو أنه أثناء النطح كانت الشمس تشرق نحوه ، وما إلى ذلك من الأحاديث التافهة ، وهم غافلون تماما عن الدنيا والآخرة ، وكذلك عن زيادة الثروة القومية ، وعن علم الاقتصاد وحب الوطن .

« أموات ولكنهم أحياء .... أحياء ولكنهم أموات » [1]

(١) جعل الكاتب هذه المقولة خاتمة لكل مدينة تجول بها ، وتفقد أحوالها . .

واستـقل ثلاثـتنا العـربة - وأنا والعم يـوسف والسـائس - واتجهنـا نحو مديـنة (مراغة) ، وكـان الطقس قـارس البرودة ، ووقـت الغـروب وصـلنا قرية (نر) حـيث تقع فى هذه الناحية « كتل ساين » ، وشيئاً فـشيئاً سقط الثلج ، وأتينا إلى منزل أحد القـرويين ، وطلبنا منزلا ، فدلونـا على مصطبـة أسطبل المنزل ، فقلـت : إن العيش يصـعب هنا مع الحيـوانات ، فأعطونا غـرفة وسنعطيكم مـا تريدونه من أجـر ، فـقال : ليس لديـنا غيـر هذا المكان ، فـاضطررنا إلى النزول هناك ، وعلى السـائس بعض الماء فى إناء واعد شايا ، فأرتشفناه ، وطهـا دجاجة أيضا فتناولناها فى العشـاء ، وظل الثلج يسقط حـتى الصباح ، وارتفـع الجليد على الأرض عن نصف الذراع ، ولما لـم أكن أرى الجليـد فى مـصـر وهذه أول مرة أرى فيها الثلج فى « إيران » ، تعجبت كثيراً ، إذا كـانت الطرق موصـدة ، فـمكثنا ذلك اليـوم ، واتضح ليلة ذلك اليوم أن التـجار لم يعثـروا على الممر الذى يمرون عـبره ، وذلك لكثرة الثلج والجليد عند قمة (كتل) ، فـالقوا بالبضائع التجارية ، وقـفـلوا راجـعين ، وتخلف رجـلان واللذان كـان يسـيـران مع القوافل ، تخلفا مع عشر رؤوس من الدواب أو يزيد تحت الجليد فهلك الجميع .

الخلاصة : معلوم إننا عـشنا والحيوانات ، أمـلا فى تحسن الطقس ، وذلك لمدة أربعـة عشـر يومـاً فى ذلك الإسطبل ، وأن

لسانى ليعجـز عن وصف مدى ضيقى فى تلك المدة . وبقليل من الملاحظة ، سيدرك المطلعون المحترمون كم نحن عانينا ؟

لأن الشخص الذى لم ير قط الثلج ولم يشعر ببرودة الجو ، وفـى سـفـره يجلس دائمـاً فى الدرجـة الأولى فى البـواخـر والقطارات ، ومنزله دومـا بأفضل الفنادق فى المـدن المتحـضرة ، معلوم أنه سيضيق ذرعا بالإقامـة الاضطرارية مدة أربعة عشر يوما فى مثل هذا المكان « الإسطبل » ، وحينمـا تقام سكة حديدية بين « أردبيل » و« مراغـة » ، فإن هذه المسـافة لن تستـغرق أكـثر من ست سـاعات على أقـصى حد ، . . . . . وأسـفاه فـإن هذا لم يحدث ولن يحدث؟ [1] .

الخلاصة : بعد أربعـة عشر يومـاً من العيش مع الدواب ، وصلت قافلة من تلك الناحـية ، وأخبرونا أن الطريق مفـتوحة ، ويمكن المرور عـبر « كـتل » وعلى الفـور ركبـنا العربة وسـرنا ، ووصلنا (كتل) مترجلين ، ويصـعب وصف المعاناة التى عانيناها عند اجتـيازنا للمـرتفعات والمنخـفضات ، وقـد تعود الإيرانيـيون المساكن على مـشاق هذا السفـر « مضطرين » ، وإذا ماقـدر لفرد من الدول الأجنبيـة أن يمر بتلك الطرق ، فإنه سـوف يشفق على الإيرانيين ، ويعـجب لغـفلة الدولة وحكام المملكـة ، وكمـا هو معلوم فـإنه اليوم تقـام السكك الحديدية ، وقـد استـفاد من هذه

(١) واضح أن الكاتب متشائم لانه يحكم على المستقبل هذا الحكم .

النعم زنوج الحبشة والسودان ، كما استفاد منها أيضاً سكان أفريقيا البدائيون ، إلا الايرانيون التعساء وحدهم ، فقد حرموا من تلك النعم مما لاتستطيع الدولة والشعب القدرة على ذلك ؟ ولماذا لا يعتمد الإيرانييون على سائر الشركات غير المغرضة [١] ، حتى يخلصوا عباد الله من ويلات تجشم كل هذه الطرق الوعرة ، ويحفظوا أرواح المواطنين الإيرانيين كل عام ، حتى لا يترددوا فى مهالك هذه الأسفار ، وبالله يمكن القول أن أى شعب من الشعوب النامية فى أى منطقة من العالم ، لم يتعرض لمثل هذه الذلة التى يتعرض لها الإيرانيون ، وعلى سبيل المثال يقال : بالأمس تخلف عدد من قمة الجبل الفلانى ، أو صحراء الوادى الفلانى ، وهلك عشرة أشخاص ، وعشرون رأسا من الدواب من احدى القوافل ، بسبب الجليد ، ألا يظن المسئولون أن كل شخص من هؤلاء الأشخاص العشرة يعول خمسة أو ستة أشخاص ؟ ومن لا يحترق قلبه شفقةً على حال أولئك

(١) وقعت ايران فريسة التنافس الاستعمارى بين روسيا وانجلترا ، وقد أثر هذا التنافس إلى حد كبير على سياسة إيران وتجارتها ، ذلك إن الملوك القاجاريين وعلى رأسهم ناصر الدين شاه ، قد منحوا كثيرا من الامتيازات إلى هاتين الدولتين ، إذ أن هاتين الدولتين كان يمثلهما بعض الشركات والأشخاص ، فمن الأشخاص والشركات المغرضة التى حاولت أن تحصل على امتيازات تضر بل تستعمر الدولة الإيرانية نذكر : امتياز البارون جوليوس دو روتير عام ١٨٧٢ م ذلك الامتياز الذى يحتكر ايران لمدة سبعين عاما ، فى مجال السكك الحديدية وخطوط التلغراف ، أنظر :

- Commerce Establishment : Iran Philosophy behind the Revolua-tion, P. 31-32, (London, 1971) .

الأشـخاص ، فـهـو فى الذنب شريك أولـئك المسئـولين ، إذ أن نفوق الدواب ، سبب فى قلة ثروة البلاد ، والآن ينبغى أن نقول إن سقوط هذا الجليد وإغلاق الطرق لم يكونا فى موسمها ، لأن الشتاء لم يحن بعد ، لهـذا فقد كانت مدة الأربعة عشر يومـا سبباً فى تأخرنا ، فالملجأ لله وحده أثناء السفر شتاء .

الخلاصة : أننا وصلنا قمـة (كتل ساين) بعد أن تجـشمنا الكثير من المشاق خلال ست ساعات ، سرنا خمس ساعات أخرى تارة كنا متـرجلين ، وتارة أخرى راكبـين ، ودخلنا أحد المنازل ، وكـان هذا المنزل من توابع قـصبـه « سـراب »، وتضم القـصبـه المذكـورة قرى منتـجة كـبيـرة ، ولكن ماء هذا المنزل وهواءه كـانا سيئين للغاية ، وواصلنا سيرنا بعد قليل من الراحة ، ووصلنا فى اليوم الثالث منزل (صـارى قيه) المشهـور ، وقال السائس : هنا مقـر إقامة موظفى جـمرك (مراغة) ، وينبـغى أن نقدم هنا الماء والشعـير للجيـاد ، ونريحها سـاعتين وبعد ذلك نواصل السـير ، ونزلنا بالـقـرب من حـافـة الماء الجـارى وجلسـنا ، ورأيت ثلاثة أشخاص وقد خرجوا من كوخ حقير يقبلون علينا ، وألقوا السلام وجلسوا ، واتضح أن هؤلاء مـوظفو الجمرك ، وسرعـان ما رأينا قـافلة مـن الجمـال ، وقـد وصلـت ذلـك المكـان آتيـة من ناحية (مراغـة) ، ونادى موظفو الجـمرك على الجمـُال ، وقالوا له : أين التصريـح ؟ ارنا إياه ، فاخرج الجمَّال قطعـة من الورق كانت تحت إبطه ، وكان عُرض هذه الورقة ثلاث أصـابع وطولها خمسة

أصابع ، فـأعطاها إلى أحد مـوظفى الجمرك ، وأمـعنت النظر ، فرأيت أن الرجل الذى هو موظف الجمرك لا يقرأ الورقة ، ولكنه ينظر إلى عدة أشكال علـى ظهر الورقة ، فتـعجبت لهـذا الأمر ، وبعد ذلك ورد على خـاطرى المضمون الذى يقال فى الأشـخاص الأميين ، أن فلانا يقرأ بياض الـورقة ولا يقرأ سوادها ،» فقلت أيها المواطن : أعطنـى تلك التذكرة لأرى مـا كُتب بها ، فـقال : هذه ليـست تذكـرة ، ولكنهـا تصـريح ، قلت لتكن مـا تكون ، فأعطانى إياها ، فأخذتها منه وقرأتها ، فكان مضمونها هو : « تم التصريح بحـمْل ما يعادل ثلاثة وأربعين حمْلاً من الفـواكه الجافة من أملاك الشخص الفلانى ، فالرجـاء تيسير هذا الأمر » ، وكان قد وضع على ظهر الورقة أيضاً ثلاث وأربعون علامة تحمل شكل الحلقة (٥٥٥)، وبعد ذلك اتضح أنه لا أحد من موظفى الجمرك الثلاثة هؤلاء ، يجيـد القراءة والكتابة [١] ، فكان هذا الأمر باعـثاً على حيرتى ، وأردت أن أتحدث فأقسم يوسف عمى أن أصمت ، إذ كان يخشى المسكين أن أتفوه بكلمـة نابية أثناء الحديث معهم ، فتكون سببا فى النزاع وعدم احترامهم إياى .

الخلاصة : أننى لـم أتحدث من أجل يوسف عـمى ، وسرنا فى طريقنا ، وأثنـاء الطريق سـألت السائـس : لماذا اختـار مـدير الجمرك هؤلاء الرجال الأميين للعمل فى الجمرك .

(١) فلننظر كيف أن الدولة الايرانية لا تهتم بمصلحة كمـصلحة الجمارك والتى تعتبر من أهم المرافق فى البلاد ، إذ أن من يعملون بها لا يجيدون القراءة والكتابة كما ذكر كاتبنا .

وكيف ترضى الدولة بهـذا الأمر السئ ، فقال : إن الجـمرك لا يأتى بدخل للدولة ، وقد اسـتأجره المدير « السـالف الذكر » ، وهو يعين كل من يريده موظفا ، وعلاوة على ذلك فكل المصالح الحكومية فى دولتنا مؤجرة كالجمارك ورئاسة العَسس فى المدن وما إلى ذلك ، وكثيرا ما يكون مـديرو هذه المصالح المؤجرة أميين ، ومن ثم فإنهم يستأجرون كـاتبا لكى يقوم بأعمالهم ، وكل من هو ذو جاه وسلطان ، فـإنه يفعل ما يشاء فى إلحـاق الأذى بالرعية ، ولا يسأل إلا عن أجر المرفق الذى يسـتأجره من الدولة ، فقلت : هل جننت ياوالدى ، فـهل تؤجر إدارة البوليس ؟ فـقال : قسـما بروحك الغاليـة غداً كل من دفع أكثـر من مائة تومان كأجـر فإنه سـوف يكون رئيس العسس فى « أردبـيل » بعد غـد ، ولكننى لا أعرف مـاذا تعنى وظيفة « مـدير البوليس » ، قلت حـسن جداً ، فمن أين يدفع أجر المرفق الذى أستأجره ؟ فقال : إنه يتقاض من كل دكان شـهريا قرانا واحدا تحت اسم أجـر « العسس » ، ولكنه لا يحـصل على ربح وفيـر بجمـعه هذه القـرانات الشهـرية ، إنما يحصل على الأموال من المتشاجرين المتناحرين ومن أبناء التجار ، فهـو كل ليلة يلقى القـبض على شخص أو شـخصـين ، بتهـمة معاشرة البغايا ومعاقرة الخمور ، ولدى رئيس العسس سجن خاص بـه أغـلال وسـلاسل ، وهـو غـالبـاً مـا يستـولـى علـى الأمـوال بإيذاء الرعية .

ولم يستطع يوسف عمى ضبط نفسه ، فقال : أيها العم العزيز هذا كاف ، ولنتحدث عن شئ آخر غير هذا الحديث ، وقال لى أيضاً ، ياحضرة البيك لا يمكننى أن اصبر على شئ ، أريد أن ابوح به لك ، فيانور العين ، ينبغى عليك أن لاتتحدث بهذا الحديث مع أمثال موظفى الجمرك أولئك ، وسط هذه الوديان والبيد ، فأخشى أن لا يحترمك أولئك الرجال السيئه أخلاقهم ، فحينئذ من يحمينا ويساعدنا ؟

الخلاصة : أن هذه المملكة يدير شئونها حكام عديدون ، فمنهم من يدير شئون السلطنه ، ومنهم من يدير شئون المدن ، ومنهم من يتولى إدارة الأقاليم ، فأية قيمة لاعتراضك على هذا النظام ؟ أو فى أى شى سيفيد نزاعك ؟ ، فقلت : إن الحق معك ياعم يوسف ، وأنا ايضا أعلم هذا ، ولكن ماذا أصنع فلا يمكننى أن أجلس ساكتا ، ولا أستطيع أن أغض الطرف عن كل هذه المساوئ والمفاسد ، فى حين أنك تريد أن تخرسنى . . . فماذا أفعل ؟ ، وبعد ثمانى ساعات من السير ، وصلنا حيث « تبة الله أكبر » ، ومن ذلك المكان تراءت لنا مدينة « مراغة » ، وانحدرنا من فوق التبة ، فرأينا مابين خمسة أو ستة أشخاص ، كانوا يجلسون على قارعة الطريق بغية التسول .

وكانت أعين هؤلاء المتسولين ، وأفواههم جميعاً بها أعوجاج ، كما أن أنوفهم وشفاههم مترهلة بشكل يثير الشفقة ،

ولا يستطيع المرء أن ينظر إلى وجوههم ، فأعطيتهم شيئاً من المال ومررنا ، وسألت السائس : من هؤلاء الأشخاص ؟ وماذا يفعلون هنا ؟ ، فقال : إنهم مصابون بمرض الجذام ، وقد طردوا من مساكنهم جميعاً ، حتى لا تنتقل العدوى للآخرين ، وأسكنوهم هنا ، وقد أشار إلى جانب التبة ، فرأيت قرية صغيرة ، وقال : إن كل من يقطن هذا المكان مصاب بمرض الجذام ، ومنهم الأفراد الأغنياء وذوو الأملاك ، وكل يوم يجلس مابين خمسة أو ستة أفراد من اولئك الفقراء فى هذا المكان ، حيث يطلبون الصدقة من المسافرين الذين يمرون من هنا ، واحترق قلبى حزنا عندما سمعت بهذا الموضوع ، وانهمرت دموعى متأثرا به ، وقال السائس : لعلك لم تر أمثال هؤلاء فى « أردبيل » ؟ قلت : كلا ، قال : هناك أمثال هؤلاء كثيرون ، وشعرت بمرارة شديدة ، وكان هذا أول الأحزان التى تصادفنا ، عند دخولنا مدينة « مراغة » .

الخلاصة : أننا غادرنا ذلك المكان ، ووصلنا بوابة المدينة على جناح السرعة ، وكانت هناك قلعة بالمدينة ، وقلت للسائس : اليوم لاجدوى لتلك البوابات والقلاع بالنسبة للمدينة ، وقال السائس : لقد كانت هذه المدينة ذات قلعة منذ فترة من الوقت ، وشيئاً فشيئاً تسرب الخراب والدمار إلى هذه القلعة ومن ثم فقد نعت بواباتها ، إذ تمرد الشيخ عبيد الله الكردى حيث سيطرت عليه فكرة الغزو ، وهاجم قصبة (ميان دو آب) بجموع

غـفيـرة من الأكراد ، وقـتل عددا كـثـيرا من قـاطنى ذلك المكان الضعفاء ، من الرجال والنساء دون رحـمة أو شفقة ، وبعد ذلك يمم وجهـه شطر هذه المدينة هو ومن معه من الرجـال الذين كانوا يشبـهون النمل والجراد فى كثـرتهم وعددهم ، وفى ذلك الوقت حُصنت هذه البوابة تحصينات لا بأس بها ، فقلت لعل تلك المدينة لم يكن بهـا مستـحفظ آنذاك ، قال : رحم الـله والدك ، ومتى كان لـهذه المدن مـستـحفظون ؟ ، إذ أخـذ سكان المدينة أنفسـهم يـحـولون دون تقـدم العـدو ، وقـد أمتـد دفـاع أهل المدينة لمدة شهرين فحـافظوا عليها ، وبعد ذلك بشهرين تولى « محمد حسين خان » ، قيادة المدينة ، فشتت جموع الاكراد .

الخلاصة : وصلنا المدينـة ونزلنا بمنزل يعـرف بـ (سـراى بزرك) أو القـصر الكبيـر ، ولما كنا فى حـاجة لشئ من السـجاد وبعـد اللوازم ، قلت للـبـواب : نحن أغـراب عن هذه الديار ، وليس معنا لوازم المنزل ، فـأستأجر لنا من السـوق شيئاً كـالسجاد وغير ذلك بأية قيمة لإقامتنا عدة أيام .

قال هنا الوضع يختلف ، إذ أنهم لا يؤجـرون هذه الأشياء ، وإنى سأحضـر لكما من بيتى كل ماهو لازم لكما ، وفى الحـقيقة فقـد أتى بكل ما يلزمنا ، وأعطيت السائس مـا يستحقـه من أجر الجياد ورحل ، ورأيت أن وقت الصـلاة قد حان ، إذ أن الشمس قد أوشكت على الغروب . فجـددت الوضوء على عجل وصليت وبعد ذلك ارتشفنا الشاى ، وتناولنا قليلاً من العشاء ونمنا .

ونظرا لعناء الطريق فقد استـرحنا مدة خمسة أيام ، إذ إننا كنا قد سرنا مـسافة طويلة ، استـغرقت منا عشرين يومـا ، واسترحنا تلك الليلة ونمنا ، وعندمـا استـيقظنا كـانت الشمس قـد أشرقت ونحن نيام فقلت ليوسف عمي اشعل " السماور " حتى يغلى الماء واشتـر لنا بعض الخبـز والجبن لكى نسد رمـقنا ببعض الـطعام ، وذهب عـمى يوسف ، وبعد فـترة أحـضـر الخبـز لكنه لم يأت بجبن ، وقال كل مـحال المدينة موصـدة ، باسـتـثناء المخـبز . ولا أعلم ماذا يوافق اليوم ؟[1] وناديت أحد حمالى المنزل وسألته لماذا المحال مغلقة ؟ قال إنها موصـدة لأن اليوم الجمعة ، فحمدت الله كثيراً ، لأن أهل هذه المدينة يحافظون على شريعة الإسلام ، فنعم الإسلام إسـلام أهل هذه المدينة ، وارتشـفنا الشاى مـع الخـبز بلا جنب ، وكـان لأحد مـواطنى هذه المدينة غـرفـة فى منزلنا ، ورأيته يفـتح غرفتـه ، ولكننى بعد قليل مـن الوقت رأيت ما بين شخصين أو ثلاثة ، وقد أقـبلوا عليه ، ونهض حينئذ وأغلق باب الحـجـرة لكى يذهبـوا سـويا ، وبعـد عـدة خطوات ، أخـذوا يتحدثـون فيما بينهم ، وتوقـفوا دفعة واحدة ، وألـقوا السلام ، وقال أحـدهم فى أدب جم : نريد أن نقـترح عليكم اقـتراحـا ، فليتكم تقبلون ، قلت فلتـأمر بما تريد . قال : واضح إنكم غرباء ولا تعلمون شـيئاً عن أحوال هذه المـدينة ، وفى أيام الجُمع تغلق

(١) هنا يتساءل العم يوسف : ماذا يوافق اليوم ، لأنه عندما كان فى " أردبيل " ، كان هنا حظر على الجياد ومن ثم تعطل هو وإبراهيم بيك مدة أربعة عشر يوما .

جميع محال هذه المدينة ، لهذا ليس هناك أحد فى المدينة ، ونحن لانريد أن تبقوا وحدكم فتشعرون بحالة الغربة هنا ، ونود أن تتكرموا وتضيفونا اليوم حتى نخرج من المدينة لنتفرج على ما بها ، ورأيت أن رغبتهم فى الضيافة خالصة وبلا رياء ، وقلت : لكم ما تريدون ، وإنى لاشكركم على حفاوتكم بالغريب ونهضنا نتحدث معا ، وخرجنا من بوابة المدينة ، ورأيت خارج البوابة هذه مجرى نهر كبير ، وكانت المياه تنحدر فى كل مكان من الارتفاع ، نحو الانخفاض من الأرض فى ثورة وهدير شديدين ، وكانت المياة ترتطم بصخور كبيرة كانت موجودة وسط مجرى النهر . وكان هدير المياه الذى يرتطم بالصخور ، يُسمع ليلا من نصف فرسخ يَبعد عن المدينة ، وسمعت على ضفتى النهر جلبة صاخبة ، فرأيت أهل المدينة وقد جلسوا جماعات من كل الأعمار متفرقين فى كل مكان .

وتجولت أكثر فرأيت أن هذه الجماعات أخذت تدخن النرجلية وترتشف الشاى ، ورأيت فى إحدى النواحى أوانى الأرز والحساء العامرة ، وألقى كثير من أفراد تلك الجماعات ملابسهم والتى بُطّن معظمها بالجوخ الخالص ، ألقوا بها على الأشجار ، وجلس هؤلاء الأفراد فى حرية وراحة كاملتين ، وفى ناحية ثانية رأيت المغنين والمطربين وفى ناحية ثالثة رأيت السباحة بالزوارق ، وفى ناحية رابعة رأيت أنواعا من اللعب واللهو ، فكل أهل المدينة مشغولون باللهو واللعب .

الخلاصة : أن هذا كان مشهـدا طيبا جداً وفى نفس الوقت غريبا[1] ، وكـانت كل جـماعـة نمر بهـا كـانت تدعوا أصـدقـاءنا لمشاركـتها بهـجتهـا ومرحهـا قائلة : بسم الله تفـضلوا " ، وكان أصدقاوءنا يكتفون بقولهم صحـبتكم السلامة ، وينصرفون ، وقد تم هذا التـعارف بين الطرفين فى مـعظم المناطق التى مررنا بـها ، ولعل هذا إحـدى عادات المـدينة ، وقد وصلنا حـافـة حـوض صغيـر ، بعد أن طفنا بكل المشاهد السالفة الذكـر وكان هناك عدد من الأفـراد يجلسـون بجـوار ذلك الحوض ، ولما رأونا نـهضـوا وألقوا السلام ، وتـعرفوا علينا بواسطة الأصدقـاء ، وتم التعارف الرسـمى بين الطـرفين وسـألونى : من أين أنـت ؟ فـقلت إننى إيرانى ، وأقـيم خارج البلاد ، فـقالوا : هنـاك كثيـر من المناطق الأخـرى الجمـيلة غـيـر تلك المنطقـة ، وأهل هذه المنطقـة أناس مـهذبون ومـخلصـون ، فقلت : أليس هنـاك أطباء كـثيـرون ، ليـعالجـوا على الفـور هذا النوع من الأمراض ، فـقال أحـدهم متـعجبـا . . . وكيف ؟ قـلـت : يوجـد فى هـذه المنطقة نوع من الأمـراض ، لاينتشـر فى بقـيـة أنحاء العـالـم ، فـقـال : لعـلنا نحن مـرضى ، فـقلت : نعم "هذا المـرض" نوع من الجنون ، ورأيت أننى عكرت على بعضـهم صـفوهـم ، فقلت أيها السـيد العـزيز كل ما ترونـه فى وتـسـمـعونـه منى خذوه

(١) الذى رآه الكاتب ليس شيئاً غريبا ، كمـا قال : بل أن مارآه ينتشر فى كل شواطئ العالم خاصة فى فصل الصيف .

بتوءدة وروية فأنا غريب عن هذه المدينة ، وأرجو منكم أن تجيبونى بصراحة ، فبالأمس دخلت مدينتكم ، فرأيت عند دخولى المدينة أن المصابين بمرض الجذام قد شكلوا قرية وتدركون أن أحوال أولئك المصابين تبعث على الشفقة ، وإنى لالجأ إلى الله من رؤية أولئك ، وواضح أن هؤلاء المصابين من أهل المدينة وأخوانكم فى الدين ، إذن ينبغى عليكم فى بادئ الأمر أن تقيموا المستشفيات وتأخذوا بأيديهم من أجل معالجتهم ، إذ أن علاج المرض فى أول نشأته شيء سهل ، فينبغى عليكم أن تؤسسوا المصحات من أجل معالجة إخوانكم ومواطنيكم فى ذلك المكان ، فلا يعيشون فى تلك الحالة المضطربة مثل وحوش الصحراء فى الكهوف والجبال ، فى حين إننى أظن أن الجماعات التى تلهو حول الماء الجارى الذى جعلوه مكانا للنزهة والمشاهدة لايقل عددها من الأحوال عن ثلاث آلاف جماعة ، وكل منها لاتنفق أقل من قران واحد في اليوم ، إذن مجموع ما تنفقه هذه الجماعات هو ثلاثمائة تومان .

وبذا تنفق تلك الجماعات ما بين خمسة أو ستة آلاف تومان خلال ستة أشهر (فصلى الربيع والخريف) ، حيث تكونون فى هذين الفصلين ، منغمسين إلى آذانكم فى اللهو والعبث ، فيذهب هذا المبلغ أدراج الرياح ، والشئ العجيب إنكم لاتبالون بهذا الإسراف والبذخ ، وتعدون ذلك لذة ومتعة ، إنه لخسران مبين ، ورفع أحدهم رأسه فقال : " أخى الضيف لاتعكر علينا

صفو مجلسنا " ، وأخذ الآخرون يعضون شفاههم بأسنانهم ضيقا وغضبا ، وأنا بدورى تمالكت نفسى وصمت عن الحديث بعد تلك المقولة ، وقلت : إنى أشكركم ، فمثل هذه الموضوعات لاينبغى طرحها في مثل هذا المجلس وغيرت حديثى ، وكانت الشمس قد أوشكت على الغروب ، فرأيت فجأة أغطية أوانى (الكباب) والأرز ، قد هلت من كل حدب وصوب ، وبلغ صوت مغارف الطعام على ضفتى النهر اليمنى واليسرى عنان السماء ، ولم يُسمع هدير ماء النهر من تلك الضجة ، وقد بلغ طول هذا المتنزة حوالى ميلين ، حيث كان يجلس أهل المدينة متجاورين ، وكشفت أطعمة الموائد من قبل الطرفين ، وجلست كل مجموعة على رأس مائدتها ، وشغلوا جميعها بتناول الطعام ، وبعد الإنتهاء من تناول الطعام إتجه كل فرد إلي ناحية ، وقد مكثوا على هذا الوضع حتى الغروب ، وشيئاً فشيئاً تفرقت صفوف المصطافين ، وعادوا إلي المدينة فى شكل جماعات ، وإتجهنا نحن بدورنا إلى منزلنا ، وبعد الوصول إلى المنزل ، بحثنا فى هذا الأمر ، فاتضح لنا أن أهل هذه المدينة قد تعودوا على هذه العادة منذ زمن بعيد ، لم يفكروا فى رواج تجارة مدينتهم ، نظرا لأن أفكارهم محدودة وعقولهم قاصرة ، فهم هكذا يقضون أعمارهم على هذا النحو من الغفلة ، وربما كان أهل المدينة جميعهم مشغولين منذ يوم الخميس بغية الإعداد لهذه النزهة فى يوم الجمعة ، وهذا كله إن دل على شئ فإنما يدل على الغفلة والبطالة ، وتمر أيضاً أيام السبت فى التحدث

عن خروجهم وتجـوالهم فى يوم الجمعة قائـلين : أن المجمـــوعة الفـــلانية " هكذا أتت ، وهكذا رحــلت " ، . . . . . " وكان أيضــاً هناك الشـخص الفلانى ، وكنا طـبخنا (كـبـاباً) الطبخـة الفلانيـة ، ولم يطبخ إلا أولئك وحدهم طبـخة الأرز الفـلانية ، وفى الصبـاح ذهبنا وقت الظهيرة إلى " مـسجد الجمـعة " والذى كان يقـع بالقرب من منزل القـافلة وهو قريب أيضــاً من منزلنا ، وذلك لكى نصلى هناك وهذا المســجد بناء ذو دور واحـد ، حتى أن دوره كله مـدرسة للتلامـيذ ، ويوجـد وسط الفناء ينبـوع ماء صاف ، وجددنا وضوءنا ودخلنا المسجد ورأيت أنهم قد خزّنوا فى أحد أركان المسجد العالى بطيـخا ، فبدت الدنيا سوداء أمام ناظرى لمشاهدتى هذا الوضع ، ونظرت إلى ناحية أخرى فرأيت شخصين جـالسين، ودنوت من أحداهـما ، فـسألتـه : إيهـا العم لمن هذا البطيخ ؟قال : لى ، وسألته لمن هذا المكان[1] ؟

قال : لعلك أيها المؤمن ألا ترى أن هذا المكان مـسجد وليس دكاناً ؟ ثم أين ذلك الدكـان الذى هو بهذه الضخامـة ؟ فقلت لمن المسجد ؟ ، فـقال : لايملك المسجد أحد من الـناس ، فهو بيـت الله ،فقلت كم من الأجر تدفع ؟ قال : لاشئ ، قلت هل يرضى الله أن تخـزّن البـطيخ دون أجـر فى هذا المكان الطـاهر المقـدس لتبيعه ؟ فقال : وأى شئ فى هذا ؟ قلت : أيها العم ألا تخشى الله ؟

(١) أن الكـــاتب يدرك أن مـا يسأله عنه هو مسـجد وليس دكانا ، و لكـنه يسأله من باب التهكم والسخرية .

فقد جعل الله هذا المكان مقرا لعبادته ، واحترامه أمر واجب على كل فـرد ، إذ ينبـغى عل كل مـسلم أن يدخل هذا المكان وفـقـاً لقواعـد معـينة ، وعند خروجـه منه عليه أن يلتـزم نفـس هذه القواعد ، فـى حين إنكم اليوم تجعلون منه مخـزنا للبطيخ ، ففى مثل هذا الـعمل هتك لحرمـة المسجـد والمذهب والشريعـة ، فهل رأيت مرة أو سمعت أن المسيحـيين يبيعون البطيخ فى كنـائسهم ؟ إلا تخجل من الله ورسـوله ؟ فقد جـعل الإسلام هذا المكان لكى يجتمع فـيه عامة المسلمين ليوحـدوا فيه الخالق سبـحانه وتعالى ، ولكى يقيـموا الصلوات ، ويتعـبدوا فيـه ، فيعظ علمـاء الإسلام الناس ويسدوا لـهم النصائح ، وليفـقهـوهم فى شئونهـم الدينية العـامة ، ويـطلبوا المغـفـرة من الله من أجل أمـوات المسلمين ، ويدعـوا الله لكى يزيد فـى قـوة الإسـلام ، وأن ينصـر خليـفـة المسلمين على أعداء الدين ، وأن يوفق المسلمين ويوحـد صفوفهم فى شـأن إعلاء كلمـة الله ، وأن يجنبـهم النفـاق والشقـاق فإمـا لايوجد عالم فى مدينتكم أو أن علماء هذه المدينة لايخشون الله ، فلماذا لايمنع هؤلاء الـعلماء هذه الأوضاع المؤسـفة ، والتى فيـها هتك لقدسـية الإسلام ، وخـلاف مذهبى بين المسلمين ، فبـماذا أذن سيـجيبون على الله يوم البـعث والحساب ؟ هل سيـقولون : يارب من أين لنا بالدواء لمثل هذه الأمراض المستـعصية ؟ ولا أعلم أننى فى يوم من الأيام شغلت بالتـفكير فى أمر جلل كمـا شغلت فى مـثل هذا اليـوم الأسـود ، إذ كنت أحس بألم جـديد فى كل

خطوة أخطوها ،فأى إسلام هذا الإسـلام . . . . " آه لو كان بعد اليوم غد " ؟؟

وتجهم الشيخ الجاهل من شـكواى ، وقال للاعتذار عن هذا الخطأ وإرضائى ، ايها السيد إن هذا الوضع لايدوم ، وخلال هذا العام ، وخـلال هـــذا الـعــام ســأترك البطيخ فـي خلال شهر أو شهرين .

الخلاصة : يتضح مما سمـعته أن بهذه المدينة أكـثر من مائة مسجد وتكية وهذه المساجد والتـكايـا مفـــتوحة فقـط فـــى شهر " المحرم " حيث أيام التـعزية فى حضرة سيد الشـهداء " كرّم الله وجهه " ، وتنظـف هذه المساجد والتكايا فى شهـر المحرم فقط ، وتقام بها ضروب التـعزية ، ويصاحب هذا فى كل مكان . إطعام الفقراء والمساكين .

وينبرى العلمـاء الأعلام ، وذاكرو مصـائب الإمام " كرم الله وجـهه " ، لنصح الناس بالمواعـظ الحسنة ، وذكـر النوائب التى لحقت بآل بيـت النبى (ص) وهذا أمر مألوف جـداً ومسـتحب ، لكنهم " الإيـرانيين " يغلقـون أبواب هذه المســاجـد والـتكايا فى الأشهر الأحد عشر المتبقـية ، وفى هذه الفترة يحط التراب والغبار على المساجد والتكايا مما يسئ إلى مظهرها ، وهذا فى الحقيقة أمر باعث على مزيد من الحـزن والأسى ، وقد يقول قـائل إن السبب فى هذا الوضع المؤسف هو علماء المدينة ، ويلقى آخر التبعة على

حاكم المدينة ، وتقول جماعة ثالثة إن هذا ناتج عن أخطاء الشعب ، ولا يمكن للعلماء والحكام أن يجبروا الناس على دخول المساجد ، وينبغي عليهم أنفسهم (أفراد الشعب) أن يحيوا الإسلام ويعتبروا أنفسهم أصحاب هذه المساجد ، وينبغي عليهم أن يتجمعوا في المساجد ليصلوا جماعة بدلا من الصلاة التي يصلونها في البيت فرادى ، وبذلك يحصلون على ثواب الجماعة ، والآن من الذي يلقى بتبعة ذلك عليهم ؟ أقول أنا بنفسي إن الثلاثة آثمون " العالم والحاكم والشعب " ، ولهذا فهم غافلون عن وظائفهم وواجباتهم ، وهم يغفلون أيضاً عن مزايا المحافظة على حقوق الوطن وحبه ، وكذا الحقوق الإنسانية ، فلا تحترم الطبقة الجليلة من العلماء بلادهم ، ولا يوقر الحكام الرعية ، ولا تطيع الرعية أوامر الحكومة ، ومن ثم لايمكن إصلاح هذا الوضع .

الخلاصة : لايوجد في هذه المدينة شيء من الأبنية والآثار الهامة ، يمكن ذكرها ، باستثناء بعض الأثار والتي تعود إلى عصر " هولاكو " وغير ذلك ،والتي عفا عليها الزمن نظرا لعدم الاهتمام بها ورعايتها ، فلم يتبق منها اليوم سوى مخزون الأرض . ويمكن القول عموما ، إن مدينة " مراغة " هي أول مدينة منتجه في آذربيجان ، وضواحي أذربيجان زاخرة بالحدائق والبساتين التي تمتد حتى الفرسخين من الجهات الأربع للمدينة .

والمحصول الرئيسى الذى تزرعـه مدينة " مراغة " أنواع شتى من العنب والفواكه الأخرى ، وهى تحصل على أموال كثيرة نظير ما تصـدره سنوياً من هذه المنتجـات ، وأساس التجـارة فى المدينة يقوم على المنـتجات السـالفة الذكر ، ولكن لـلأسف فإن السكان حتى الآن لم يـشرعوا فى زيادة البـساتين ، ولم يتـبعـوا الوسائل المتقدمة للنهوض بالمنتجات الـزراعية ، وهى على حالها منذ تركها أجـدادهم ، وهـم غـافلون تمامـاً عن اتبـاع العـلم فى الزراعـة والحراثة ، وأخـيرا تنبه عدد مـن الأرمن سكان المدينة ، وكذلك الروس إلي هذا الأمـر ، فى غـفلة من أهالى هذه المدينة ، وقـد أتوا إلى تلـك المدينة بقليل مـن رأس المال وفى أقل مـدة زمـنيـة أصبحوا يمتلكون الكرورات وذلك من الإتجار فى الفواكه ، وصار أصـحـاب الأمـلاك فى المديـنة ، أجـراء عـندهم (عند الأرمن والروس) .

والأسـوأ من كل هذا ، هو شـيوع مـرض مـستـعـصى بين المواطنين فى تلك المنطقة ، ألا وهو تعاطى الأفـيون ، وقد أبتلى كثير من الأفراد من كل طبقـة بذلك المرض المستعصى ، كما أرتد بعض الأفراد غـير الغـيورين عن الإسلام ، وذلك للـتخلص من فروض الصلاة والحج والزكاة لدين الإسلام الحنيف ،وأتبع أولئك المرتدون مذهب (البـابية)[1] بدلا من الإسـلام ، ذلك المذهب

(١) تعرضت لهذه الحركة بالتفصيل فى الخلفية الاجتماعية .

الذى هو الشـرك المحض ، وتقديس العـجل ، فخـسروا دنيـاهم وآخرتهم معتقـدين إن الإسلام هو السبب الرئيسى وراء كل أنواع الخراب كالبطالة وعدم المعرفة والجهل ، ولو لم يجد المرء إلا لقمة الخبز وقسطا من العلم ، فإنه لايمكن أن يسير وراء هذه الجـماعة (البابيـة) والتى هدفها تحـقيق أغراضـهم الشـخصيـة وتخريب العـالم ، وفى هذا المضـمار قلمـا يفعـل أولئك الحكام الأخسـاء الظلمـة والعلمـاء الذين يتظاهـرون بالعلم ، أي الذين لايعـملون بعلمهم ويفـعلون المنـكرات وقلما يفعلون الخـيـر . وكـما هو مـعلوم ، فقـد تصـور متـزعم هذه الطائفـة إحـياء مـذهـب مـلاحدة (آلموت)[1] ، وقد ساعده فى ذلك ظلم الحكام وغفلة المواطنين وجهلهم باتباعهم الخرافات والأساطير ، وفى بادئ الأمر أختار (الـباب) للدعوة لمذهبه العـوام من المواطنين ، وبعد ذلك عمل على التقتيل فى الناس ، فخـرب البيوت وراجت دعوته أكثر من ذى قبل ، وصاح دون خجل كثور السامرى[2] قائلاً :

(أنا ربكـم الأعلى)[3]. ولسوء حظه فقـد غفل عن الوطن وحبـه وكذا حقـوق المواطنين وذلك من أجل إرضاء أهواء نفـسه ومعاداته لبعض الظلمة ، وبث بذور التفرقة بين الناس ، ولحرصه

(١) آلموت : عبارة عـن قلعة جبلية وهى تعنى (ملجـأ العقبان) وتقع في نـاحية (روذبار) على مسافة ستين فرسخا إلى الشمال من قزوين ، وكان يتحصن بهذه القلعة فـرقة الحشـاشـين (القرن الحادى عشر الميلادى) أنظر : تاريخ الشعـوب الأسلامية : كارل برو كلمان : ترجمة : نبية أمين فارس ، ومنير البعلبكى : ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، الطبعة التاسعة ، بيرون ١٩٨١ م .

(٢) السامرى رجل من بنى اسرائيل معاصر لموسى (ع) .

(٣) النازعات / ٢٤ .

الشديد على طلب الرئاسة ظن أن فى تفـرقة مواطنى المدينة والتى هى موطنه ومـدفن أجداده ، ظن أن فى هذا قـد حقق أغـراضه القذرة ، وبدأ فى تحقيق سعـادته ، وذلك بحرق مواطنيه فى النار التى كان قد أشعلـها بنفسه ، ومع التفوق النسـبى الذى حققه فى بادئ الأمر ، إلا أنه كـان دائماً بسـبب هذا الأمر فى عـذاب وقد عـجز عـــن علاجـه ، فانـبرى لدعـوة الله مـن خلال الهـيكل المنحـوس ، والذى كان ينـفر الشـيطان من رؤيتـه ، وأطلق على نفسه " الجمـال المبارك " والأعجب من كل ذلك ، أنه سمع من رجال ثقات أنه كان يقـول لأتباعه وخاصته متـفاخرا إنـنى لعبت فى " إيران " دوراً تمثيليـاً وصنعت لعبة عجـيبة فإن خـسرت ولم تجد هذه اللعبة فـقد لعبتها وكسبـت الرهان ، وأحسنت تنفيذها ، وكان ناصر الدين شاه يقتل الإيرانيين بتهمة إتباع " البابية " .

وهكذا يتصور (ناصر الدين شاه) إنه قتل الباب والواقع إنه قتل الإيرانيين ، فهل سيـعود علينا شئ من وراء ذلك العـابـث (الباب) ؟ وبالله عليكم أن تنظروا إلى قسوة القلب ، فلعل هذا الحيوان (الباب) رجل أمـريكى أو أفريقى ، ولعله أيضاً مخلوق من نار وسائر الإيرانيين من طين ، إذ إنه يقتل مواطنيه ، ويتباهى بتلك الفعلة النكراء ، وحينما يمعن المرء النظر فى كتبه المذهبية فإنه يرى عددا من الألفاظ المبهمة العربية والفارسية على السواء مـثل " أمر أعظم " أى الأمر الأعظم ، و " قلم عز " وجمال قدم " أى جمال القدم ، و " هياكل مقـدسة " ، أى الهياكل المقدسة ،

والأغصـان والأفنان ، " وغصن أعظم " أى الغـصن الأعظم ، ولا يوجد في كتـبه المذهبية سوى هذه الكـلمات ، ولما عَلم أتباع الباب بفـساد أحكام مذهبـهم فقد اضـطروا إلي تغييـرها ، واليوم نرى أن مـذهب البـابيـة عـبارة عن خليط من مـذهب زراوشت والمسيحـية والمزدكية (نسبة إلى مـزدك) ومذاهب الملاحدة والتى اساسـها طلب الرئاسة والعلمـانية والاباحة ، وفـى إيطاليا نصب الإيطاليون تمثال " كولومـبس " مكتشف أمريكا ، والذى يكن له الجمـيع كل احترام فى كثـير من المدن ، وقد كُـتب تحته التمـثال المقدس ، وقد اعـتبره الإيطاليون رمزا لتـقديس الوطن ، ومن ثم فإنهم يمدحونـه ، وقد أطلق هذا السيد (الباب) عـلى نفسه هذا اللقب الرفيع أى رئيس البابية ، وذلك لتخريبه بلاده و سفك دماء مواطنيه ، وبعد ذلك انتبز مكاناً قصيا فى إحدى البلاد الأجنبية ، وراح يومياً يستولى على أموال مواطنيـه السذج مستخدما فى ذلك الحيل والمكر والخداع ، وذلك تحت اسم الصدقات والنذور ، فى حين راح يغدق على الموظفـين الأجانب المال الكثيـر ، فربما يمكنه بذلك ، أن يستـريح نفسيا ، (فانظر إلى الاخـتلاف من أين الى أين ؟) إذ يظن هذا الـشـخص (العـزيز) أن بتلفـيـقـه بعض الكلمات العـربية المسجـوعة والمقفاة ، إنـه أتى بكتاب من الكتب السماوية المنزلة وقد أُنزل عليه ، والمسكين غافل عن هذا :

" ليس كل من كتب بعض الكلمات المسجوعة والمقفاة "[1]

" قد أقام سلطنة ومذهباً للسرور والسعادة "

الخلاصة : أن هذا كله ، دليل على خيبة أمل إيران والإيرانيين ، وكنت كل يوم فى " مصر " أسمع أحاديث مفصلة عن أحوالهم ، فهذا المسكين لايستريح فى مكان مطمئن القلب ، فهو مثل عقرب ساعته ، وعندما يحدث تغيير فى الموظفين هناك ، أو كان يأتى حاكم جديد ، فإن هؤلاء (الموظفين الإيرانيين) لايستريحون لفترة من الوقت ، حتى يقدموا الهدايا والرشاوى ، وإذا ما تباطأوا قليلا ، فى تقديم الرشاوى والهدايا ، فإنه بشكل أو بآخر ، تحدد إسماء المتباطئين وتؤخذ الأموال منهم قسرا ، على الرغم من أنهم فى الظاهر يطلقون على "هذا الحاكم" اسم " شيخ العجم " ، ويعملون فى الباطن جيدا حقيقة هذا المذهب الذى يعتنقه لكنهم لايحاولون كشف حقيقة هذا المذهب ، طالما أنه يأتى بربح للموظفين ، وذكر هذه التفاصيل ، تخرج عن موضوع السياحة ، وليس لى شأن بدين الفرد ، ومذهبه فالله عالم وحدة بالضمائر .

(١) نه هركه طرف كُله كج نهاد وتُندنشست

كُلا هدارى وآيين سرورى داند

كُله مخففة من كلاه = قبعة أو قلنسوة .

كج نهادن : يعوج - تند = سريع .

" فان كفرت جميع الكائنات " . . . . " لن يحط الغبار على طرف كبريائه[1] ولكن " المرض " المستعصى لتقديس الوطن قد دفعنى إلى القول : لماذا ينشر خواص مواطنينا مثل هذه التفرقة بين أفراد الشعب بسبب طمع النفس ، والوصول إلى الرئاسة ، وهؤلاء الخواص قلة من الأفراد الجهلة والذين لايميزون الطيب من الخبيث ، وواضح أن سبب كل هذه الأوضاع السيئة ، هو غفلة الحكام وعلماء البلاد .

الخلاصة: أن قلبى قد سئم التجوال والطواف فى "مراغة" ، وقد جعلنى وصفها المضطرب أكثر اضطرابا ، وكما تحدثنا عن أحوال سكان المدينة ، إنهم قانعون من الدنيا بالقوت اليومى ، ولا يريدون أن يتقدموا خطوة واحدة نحو الأمام عن تلك النقطة التى وقفوا عندها ، وقد استقر كل من الخمول والبلاده فى نفوسهم فأنت ترى مواطنا قد هجر البيت بسبب الابتلاء بمرض الجذام ، وترى فى نفس الوقت أخا هذا المواطن راح يلهو على شاطئ النهر فى بهجه وسرور مع الآخرين .

كما ابتلى بعض المواطنين بمرض آخر مستعصٍ ، ألا وهو تعاطى الأفيون والذى هو أسوأ من مرض الجذام ، والجميع غافلون عن هذا الأمر وهو أن " حب الوطن من الإيمان " ، وأنزوت جماعة أخرى فى زاوية من الزاويا ، وأطلق أفراد هذه

(١) كَر جمله كاينات كافر كَردد
بر/دا من / كبرياش ننشيند كَرِد

الجماعة على أنفسهم اسم " العارفين " ، وذلك بتأويل الكلام ، وقد عبروا عن كلام أئمة الدين المبين والذى هو النصيحة العامة والإدارك العام ، عبروا عنه بتأويلات صوفية معقدة والتى هى أُس خراب كل شئ فى الحياة ، وانبروا يقولون : يا بنى إن المقصود بهذا الوطن الظاهر هذا ، وليس ذلك الوطن " مصر ؛ والعراق والشام " ، فذلك الوطن مدينة ليس لها اسم ، والغرض من الوطن غرض معنوى ألا وهو الآخرة ، وعلى هذا النحو فإنهم قد فهموا كل شئ خطأ ويتحدثون عن كل شئ حديثا خاطئا ، فلم يتحدث الرسول الكريم (ص) عن الدرع حول جسده الطاهر من أجل المحافظة على الوطن وحب الوطن الأخروى ، ولم يتمنطق جسده الطاهر بالسيف بغية حب الوطن الأخروى ، وفى يوم فتح مكة لم يخطب ذلك الخطاب المقدس والذى يعنى " حب الوطن من الإيمان " ليتحدث به عن حب الوطن الأخروى أيضاً ، وقسما بالله الواحد الأحد إنه كان يخطب بفضاء مكة الحقيقى ، بين أبوابها وجدرانها والتى هى الوطن الأصلى ومقسط رأس حضرة النبى (ﷺ) وإنه لدليل واضح أن تلك التربة (مكة) قد الهمته إلهاما ، والجدير بالذكر أن المسلمين الغيوريين الأطهار يتعلمون معنى حب الوطن من نبع الفيض الإلهى ، ويعلمون أن الوطن الذى هم مكلفون بحبه كالأرض المقدسة التى ترعرعوا بها ، وإنه لأمر واجب وفرض عين علينا أن نحافظ على نفس هذا الفضاء والباب والجدار الطينى ، إذ أن هذه الأرض سكن أبنائنا وهى شرفنا ومدفن أجدادنا ومحل نشأتنا وترعرعنا .

مجمل السياحة فى مراغة

وقد ذكر مجمــل من تفصيل الحديث عن وضع هذه المدينة ، وكما هو مـعلوم أن أوضاع المدن الإيرانية متشـابهة ، فليس هناك أثر فى أى مكان لرقى التجارة ، وليس هناك مصالح مشتركة ذات فائدة للدولة والشـعب ، ولا أحد يحب وطنه أو مواطنيـه ، كما أن ســكـان هذه المدينة أيضـــاً غـــافلون عن أى نوع مــن الرقى والتحـضر ، ســواء الوضــيع مـنـــهم أو الشريف ، الضـعيف منهم أو القوى .

"أموات ولكنهم أحياء . . . . أحياء ولكنهم أموات"

الخلاصة : أننـــا تحركنا وقـــت الـــظهر من هنـــاك نحو "بناب[1]" ، ووصلنا هناك عـصرا ، ونزلنا بإحـدى الحجـرات فى أحـد المنازل والذى خـصص للمســافـرين ، وبعـد أداء الصلاة وارتشاف الشاى ذهبنا من العم يوسف للتجول فى (قصبة بناب)، ولهذه القصــبة سوق ومفرق طرق ، ولكن لايوجد بهــا سرادقات من أجل إقامة التجار ، وخرجنا من السوق ، وعلى الرغم من أن هذه القصبة من أعمال "مراغة" لكنها مكان كبير وقصبه عظيمة ، وقد شُيــدت منازلها من الطوب اللبن ، ولم يشيــد بها جدار منزل واحـــد بغــيـــر الطوب اللبن ، ولا يرى أى بـناء من الأبنيـــة

(١)- بناب : اسم قصبة جنوب شرق أيران .
- دهخدا : لغت نامة ، جـ ١٠ ، شمارة حرف (ب) ، ص ٢٩٢ .

الخراسانية ، وعماد ثروة السكان ومعيشتهم هناك مثل مدينة " مراغة " ، أى من الإتجار فى فواكه البساتين ، وليس لديهم ماء جار ، إذ يسقون جميع البساتين من الآبار .

ومع ذلك فسكانها حرفيون وقانعون بالقليل ، وليسوا مسرفين أو مبذرين ويقال إنهم أمناء لأنه لايرى بينهم أى أثر للخسارة والإفلاس ، ومع هذا فأغلب المواطنين جهلة لايقرأون ولا يكتبون وأيضاً فهم ليسوا بالفاسدة أخلاقهم وهم ليسوا أشرارا ، كما أنهم يتميزون بخصال حميدة كالكرم والحفاوة بالغريب .

كما أننى سمعت أحاديث مفصلة خارج أيران عن الخصال الحميدة والتقوى وحب الوطن ، تلك الخصال المتوفرة فى شخص " السيد على القاضى " فى هذا المكان .

وقد رأيت أن جميع الناس هنا راضون عنه ، ويتفق جميع المواطنين هنا على ذكر اسم العالم الجليل بالخير ، ومما كان يحكى أنهم يذكرون فساد " الشيخ عبيد الله " وتمرده ، والذى سيحشره ربه مع " عبيد الله بن زياد " ولما لم يكن هذا الشخص عظيماً ، فإن الأكراد والأشرار الذين ناصروا هذا الشيخ الضال الشرير قد خربوا هذه القصبة أيضاً مثل (مياندواب) وجعلوا من السكان طعمة السيف والظلم ، والحمد لله إنه بعث هذا الرجل الغيور للناس للتصدى لتلك الشرذمة الشياطين والذين كانوا في كثرتهم كالجراد والنمل ، وسعى هو بنفسه برجولة حتى يحول دون

دخـول تلك المنطقـة من القصبـة ، فليحـشـره ربه مع "النبى" (ﷺ) وآل بيت النبى الأطهـار وسمعت أنه لقب بـلقب سيف العلماء مـن قبل الدولة فى مقـابل هذه الخدمـة ، وكان صاحـبه جـديرا بهـذا اللقب فى " إيـران " ، وبعـد ذلك تَعلَم أن أحـد العلماء فى آذربيجـان قد سلك مسلكا مغايرا لهذا العـالم الغيور ، وفتح أبواب المدينة الكبيرة علـى مصاريعها دون مقاومة مـستسلما للعدو ، فهذا فتح الباب للعدو ، وذاك أوصد الباب أمام العدو ، وسيـقُرَأ على مر الأيام موقف هذيـن الشخصين ، ولكن سيـذكر هذا بسوء وذاك بخير .

الخلاصة : أننا عـدنا إلى المنزل بعـد قليل من التجـوال ، وأثناء العبـور من الميدان رأيت حشـدا من الناس وقد تجمـعوا في مكان واحد ، وأخذوا يرددون فى صوت عال . . . (يا على) ، فقلت لنذهب يا عم يوسف لنرى ما هو الخـبر في تلك الناحية ، وتقدمنـا أكثر ، فـرأينا جمـعاً غفـيرا من السـوقة والقـرويين وقد جلسـوا فى هيـئـة حلقـة ، وكـان وسط هـذه الحلقـة اثنان من الدراويش وطفلان من أطفالهما ، وكانوا جمـيعاً مشغولين ببعض الأذكار والأوراد ، وقال أحد الدراويش: فليقل كل شخص منكم (يا على) ثلاث مرات أعلى من هذه الصيـحة " مولاى عـلى فى قبـرة المؤنس " وقد وضع يده على فـمه " وصـاح فى صوت عـال يا على " ، وصـاح كـل الحـاضـرين وراءه ، وكـان هؤلاء

الحاضرون يقتربون من المائتين وقد صاحوا جميعاً يقلدونه فى صيحة واحد " يا علي " ، ورأيت بعد ذلك أن الدرويش قد أخرج من تحت عباءته لفافتين وأخذ تارة يدمدم دمدمة الساحر ، وتارة ثانية راح يفتح اللفائف الأخرى ، وخرجت حيّات ذات ألوان مختلفة أبرزها اللونان الأحمر والأسود ، خرجت من إحدى اللفائف وأخذ يترنم بنغمات مختلفة .

وكان يقول : " دمدمت فأخرجى بحق الحيدر ممزق الصفوف ، أخرجى أيتها الحلوة . . . أيتها الحلوة . . . أيتها الحية العظيمة، وهكذا أخذ يردد هذه الكلمات كثيراً ، بلا توقف حتى كان يرغي ويزيد وفى تلك الأثناء قال للناس دفعة واحدة : لترفعوا أيديكم جميعاً ، وأطاعه الجميع فرفعوا أيديهم حتى أنا نفسى وعمى يوسف رفعنا أيدينا ، ثم قال بعد قراءة بعض الأدعية ،ضعوا أيديكم في جيوبكم ، ففعل الجميع وفعلنا نحن بدورنا أيضاً ، ودعا ببعض الأدعية وقال : ألقوا كل ما بأيديكم فى "ساحة المولى " ، فرأيت النقود السوداء من فئة نصف الشاهى والشاهى تتساقط كالمطر من الجهات الأربع فى الحلقة أو وسط ساحة المولى ، وأنا أيضاً ألقيت نصف قران ، ورأيت يوسف عمى يضحك ، ولكنه ألقى هو نفسه قطعة عمله صغيرة أى عباسيا واحدا ، وهكذا أخاف الرجل الدرويش ، هؤلاء العوام من الناس بشكل مثير ، وهكذا ظن العوام أنه إن لم يفعلوا ما

يأمرهم به الساحر ويلقوا النقود فإن دنياهم وأخراهم لن تستقيما ، وبعد جمع المال الوفير بهذه اللعبة وتلك الحيلة أخرج من جيوب الناس ما يقرب من مائة ورقة من الورق المطبوع ، والذى كان قد كتب عليه بعض الأشكال والأدعية وقال : هذ الاسم الأعظم ولا يمسه " ولد الزنا " ، وهذه ميزة من ميزات الاسم الأعظم ، وكل من يذهب هو بلا شك ابن حرام ، ولن أظهره لأحد منكم إلا لابن الحلال ، ولم يغادر المساكين العوام مكان العرض حتى لايقول عنهم الحاضرون إنهم أبناء حرام ، وقال صبى الدرويش أيها الدرويش هؤلاء جميعهم شيعة خُلصّ ، ومحبو آل الرسول ، والحمد لله أنه لايوجد بينهم ابن حرام أو منافق ، فأظهر للناس الاسم الأعظم ولا تحرمهم من فيضه ، فأحضر صحيفة ، ورأيت من بعد صورة ذى الفقار[1] وقال إن قيمة كل ورقة من هذه الأوراق يزيد ثمنها على مال العالم ، ولكننى سأبيع كل واحدة منها بألف تومان ، وقال رفيقه الدرويش: لا يا حاجى درويش هذا كثير وليس فى وسع جميع الأفراد القدرة على ذلك ، فينبغى أن تترفق بهم ، لهذا فقد انخفض ثمن كل ورقة من ألف تومان إلى خمسمائة ، ومن خمسمائة إلى مائة تومان ، ومن مائة تومان إلى تومان واحد ، وشيئاً فشيئاً استقر ثمن تلك " الهدية " على شاهين من النقود ، وباع كل هذه الأورق الملونة ، وكان يتعهد أن يكون لدى كل

(١) ذو الفقار هو اسم سيف على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

شخص هذا الدعـاء حتى يمكنه أن يسد ديونه آخـر العام ، ويكون نصيبه زيارة الرسول وسائر الأماكن المقدسة .

وعلاوة على هذا فـإذا ما رغب المرء فى حاجـة شرعية فـإنها ستلبى له ، وكل بيت يحفظ فيه هذا الدعاء ، فإن ملائكه الصباح والمساء سيزورونه ، وإذا لُف هذا الدعـاء فى كفن شخص ، فإنه سيُبعد عنه الملائكه الغلاظ الشداد .

الخلاصة : أن هذين الدرويشين الشيطانين قـد عطلا العوام المسـاكين ، مدة سـاعـتين أو ثلاث عن أرزاقهـم وأعمـالهم تحت حرارة الشـمس الحارقـة ، واستـوليا على كل مـا يريدانه منهم ، فأحـترق قـلبى أشد حـرقة لحـال أولئك الناس البسطاء السـذج ، وقلت لنفسى : سبحان الله إنه لعالم عجيب ، عجبا هل كل كبراء هذه المدينة عمى وصم ؟؟ أم لايعرفون مـعنى الحكومة ؟ فالغرض من تشكيل الحكومة ، ليس إلا هذا وهو أن نحمى هؤلاء المساكين العوام ، من شرور هؤلاء الغيلان الأشرار .

الخلاصة : أن أحزانى وآلامى القديمـة قد تجددت ، وقلت ليوسف عمى : هذا كاف وقد سـئمنا السياحة هنا ، ولنذهب إلي المنزل ، فذهبنا ، وبعد الصلاة وتناول العشاء ، نمنا واستيقظنا في الصباح ، وركبنا عازمين السياحة فى مدينة (أرومية) ، وتوجهنا نحو شاطئ بحـيرة أرومية ، وكانت بساتين العنب وسـائر الفواكه تنتشـر على جانبى الطريـق ، وهذه المحاصيل أسـاس الـزراعة

هناك ، وأثناء الطريق كانت تظهر القرى الكبيرة فى كل مكان ومن كل جانب .

وبينما كنا نسير شاهدنا حشدا متزاحما ، ولما اقتربنا ، رأينا أنهم جنود بالفعل ، وبعد أن تبينا الأمر ، أتضح أن فوج "مراغة" قد أتى من " تبريز " وقال السائس : من الأفضل يا سيدى أن نبتعد شيئاً لأن الجنود يريدون أن يشتروا كبريتا ودخانا ومن ثم فإنهم سيعطلوننا ، وإذا اقتربوا لاتسمح لهم أن يعوقوا الحصان ، قلت : حسن ، ورأيت أن هؤلاء الجنود يسيرون بلا نظام ، وقد وضعت كل مجموعة مكونة من عشرة أشخاص أو تزيد قليلاً ، وضعت بنادقها على بغل يحملها ، وقد ساروا فى بساتين الناس جماعة ، جماعة ، وأخذوا يحملون العنب جوالا ، جوالا ، وكومة ، كومة ، وأخذ أصحاب البساتين وخفراء المحاصيل ينظرون فى حيرة من أمرهم نحو أولئك (الجنود) ، ولم يسأل أحد من الأشخاص كيف هذا ولماذا ذلك ؟ نعم :

« لو أكل الملك تفاحة من بستان الرعية . . فإن غلمانه يجتثون تلك الشجرة من جذورها »

«أن السلطان الذى يظلم من أجل خمس بيضات . .

يشوى جنوده ألف دجاجه بسيخ» (١)

(١) أكَر زباغ رعيت مَلِك خورد سيبى . . . . . برآورند غلاما نش آن درخت أزبيخ
به پنج كه سلطان ستم روا دارد . . . زنند لشكريانش هزار مرغ بسيخ

وقال السائس : أرأيت أن هؤلاء جميعهم لصوص ، فكل من مالَ من أهالى هذه المنطقة إلى السرقة والخداع ذهب وانخرط فى الجنود ، أو جنود فعـية ، ولما كانوا لايلتزمون بنظام ، فإنهم فى كل وقت ، يزاولون السرقة والاختطاف ،ولا يكفون أيديهم كغيرهم ، عن السرقة مطلقاً ، وها هم يغيرون على أموال الناس على الملأ دون مبالاة فى غاية الطمأنينة .

الخلاصة : أننا مررنا من هنا سالمين ،ووصلنا شاطئ بحيرة أرومية مساء . وكانت السفينة معدة ، لكن لايمكن أن نسميها سفينة فهى قارب كبير يتحرك بواسطة المجدافين ولكن أطلق على هذا القارب اسم السفينة وهم يستخدمونه للحمل والنقل ، وحمولة هذه السفينة ، عبارة عن القمح والغنم ، وتُنقل هذه الحمولات من هذه الضفة إلى تلك ، ولعل هذه السفن قد مضى عليها أكثر من خمسين عاماً ، ولعل (ملَك قاسم ميرزا المرحوم) ، وإلى أرومية والذى كان من الأمراء العلماء المطلعين فى إيران هو الذى بنى هذه السفن وألقى بها فى الماء وسيلة لتيسير نقل البضائع ، وهى لاتزال على نمطها القديم منذ أن صنعت لأول مرة ، وتوجد وسط هذه البحيرة جزيرة والتى أسس بها المرحوم الأمير عمارة صغيرة ، ويسمون الجزيرة بالمصطلح التركى " آوا " وليس ببعيد أن تظهر فى تلك الجزيرة بعض المعادن لكى حقيقة حتى الآن لم يفكر أحد فى هذا الأمر ، ولم يتم أى شئ بشأن

البحث والتنقيب عن المعادن ، إذ أن حكومة " إيران " لاتهتم مطلقاً بمثل هذه الأمور ، والتى فيها حياة الدولة والشعب " ومن ذا الذى يقضى أوقاته العزيزة وينقب فى الأرض أملا فى العثور على المعادن ؟" ، لقد تركوا غابات مازندران ، والتى يقل مثيلها فى العالم فى مقابل ثمن بخس من المال[1] ، تركوها فى أيدى الشياطين الأجانب ، والذين يخربونها بمعول الظلم ، وليس هناك من ينادى من أجل استرداد ذلك الكنز والذى هو هبة من الله . فختام يصل الإيرانى إلي تلك المعادن والتى اختفت فى باطن الأرض ؟

ثم تحركت السفينة نحو الجزيرة ، ووصلنا الجزيرة وقت الغروب ، وأخرج القبطان حمولته والتي كانت كلها غنما ، ونمنا نحن بدورنا بعد أداء الصلاة وتناول العشاء ، واستيقظنا وقت السحر ، ووجدنا أنفسنا عند شاطئ البحر ، بالقرب من مدينة (أرومية) وخرجنا دون توقف ، وكانت المسافة من هنا حتى المدينة فرسخين ، واستأجرنا بغلين وتوجهنا نحو المدينة ، ووصلنا المدينة بعد أن قطعنا مسافة استغرقت منا ساعتين ، ونزلنا فى خان يسمى " كَلشن " أى الروض ، وفى ذلك اليوم لم نذهب إلى

(١) يشير الكاتب فى هذه الفقرة إلى الامتيازات ، خاصة أمتياز البارون روتير ويقوم هذا الامتياز على الاحتكار الشامل للبلاد من سكة حديدية إلى معادن وغير ذلك ، وكان هذا الامتياز عام ١٨٧٢ م .

أى مكان ، وبعد الغداء قال عمى يوسف إنى ذاهب إلى الحمام ، فقلت لنفسى أذهب فإنك تعـرف هذا الحمام ، فذهب وأخذت أنا بدورى أتجول فى فناء الخان .

ورأيت عند صـدر حـجرتى أناسـا ينظفـون خـضـرة وزبيبـا أصـفر ، لتـعبئـتهمـا فى سلال حيث يـرسلون بها إلى الأراضى الروسيـة ، ووقفت بعض الوقت أتفرج على ذلك ورأيت مـشادة قد وقـعت بين هؤلاء الكادحين الذين شُغلوا بملء السـلال ، وقد وصل الأمر إلى تبـادل الضربات والصفعـات ، فأصغيت جـيدا ، فرأيت أحـد الأشخـاص يقول : هؤلاء (النعمـتيون) جـميـعهم ليسوا غيورين ، فقـال شخص آخر ليس هناك أقل شرفا فى الدنيا من (الحيدريين) ، ولعلكم نسيتم أنكـم هربتم أمامنا كالثعالب فى المشاجرة الفـلانية ، وحينئذ تذكرت حينمـا كان يحكى لى المرحوم والدى أن هناك خلافا كبـيرا بين " الحيدرية والنعمتيـة " فى كثير من مـدن إيران الكبرى ، وبسـبب الانضمـام إلى هاتين الفرقـتين واللتين تفوقان مثيرى الفتن ، فإن الدماء تُسفك سنوياً ، وكثيراً ما يعتدى المنتـصرون على محال المنهزمين ودكـاكينهم ولا يكفون قط عن مهاجمتهم لخصومهم وسلب أموالهم ، فسألت صاحب مخزن الزبيب لماذا لاتُسكـت هؤلاء ؟ وما كل هـذه الخصـومـة التى بين هاتين الكلمتين أو هذين الاسـمين المجهولين ؟ أليس هؤلاء سكان مدينة واحدة وأخوان الآخـرين فى الدين والوطن / وأجـاب المسكين متـأوها تأوها ينبئ عن حزن وحسرة شديدين ، وقال : يا أخى

العزيز ليس واجبى نصيحة هؤلاءالجهلة ، فاسداء النصيحة لهؤلاء من واجب علماء المدينة وحكمائها ، واحسرتاه فمن السهل أن ينصح هؤلاء غير أهل النصح فيكونوا طرفا فى إذكاء نار هذه الفتنة ، لأن هؤلاء أنفسهم بعضهم يؤيد الحيدريين ويعاضدهم ، والبعض الآخر يساند النعمتيين ويريدون بمناصرتهم للفرقتين أن يجعلوا أنفسهم موضع اهتمام العامة من الجهلاء ، لاسيما أن قراء (التعزية) غير المنصفين يساعدون علي أثارة هذه الفتنة ،ويحثون هؤلاء الجهلاء على ذلك ، وهكذا زرعت بذور هذه الخصومة فى قلوب جهلاء الناس ، بحيث تظن الفرقتان أنهما تفلحان فى الدنيا والآخرة من خلال معاداتهما لبعضهما البعض ، وإنهما ستدخلان الجنة بعد الموت دونما حساب ، وبمعاداتهما لبعضهما فإنهما تملآن جيوب قراء التعزية الذين يقومون بالرثاء ، إذ يتسابقون فيما بينهم ، فى تزيين التكايا ، ضاربين الصدور بالسلاسل ، شاجين الروءوس وغير ذلك مما يخالف كله الشريعة تماما ، كالرياء خاصة والذى يحرمه أكثر الفقهاء العظام والعلماء الأعلام ، وترى أن مساجدنا جميعها خربة وغارقة فى التراب والغبار ، وهى دائماً فى حالة إغلاق تام ، وقد أغلق هؤلاء غير المنصفين والضالون المعابر فى وجه الناس ، وذلك فى الأحياء والأسواق والمنازل والشوارع ، والتى هى من حق الشعب وسائر الناس من حيث العبور والمرور .

ليقوموا بقراءة التعزية فى تلك الأماكن ، وبطريقة بلهاء يثبتون لبعضهم البعض أن الفضل الأعظم لحضرة سيد الشهداء (ر) ،

غافلين عن هـذا ، وهـــو أن حـضرة ســيد الشـــهداء لايرضى عن تمثيل مصائب آل البيت الأطـهار من الأسر والشهادة على هذا النحو ، فهذا ما يفعلونه بدعة كبرى فى الدين ، ولهذا لاينبغى أن تتـسرب البدع إلـى الدين النقى والذى جاء به جـده الأعظم أنهم أذلوا عظيماً بهذه البدعة فى الدين ، فأغلقوا شوارع المدينة ليقرأوا المراثى ، والتـى هـــى أيضاً من حق اليـهود والنصارى أن يمروا بها ، ويسمـون ذلك عبادة ولا يخجلون من سيد الشـهداء وجده الأعظم (ﷺ) الشفـيع يوم الحساب ، ليس هذا فـحسب ، بل ويبـسط قـراء التـعـزيه هؤلاء بســاط التـعـزية فى بعض الأمـاكن المخصـصة لربـط الدواب والمواشى ، وليت الأمر ينتـهى عند هذا الحد ، وتوجـد جماعـة أخرى هم (المتشـبهـون) يقولون : إننا نستعـيذ بالله عند ذكر اسم تلك الفرقة ، وهؤلاء ينسبـون أنفسهم إلى حضرة ســيد الشهداء أيضاً ، وجمعَ أفـراد كل فرقة من تلك الفرق السالفة الذكر جمعا من الأشرار حولهم ، وأطلقوا علي كل فرد منهم اســما شـريفا من اسمــاء آل البيت الأطهــار من الذكور والإناث ، ولا تعلم ماذا يفعلون فى مقابل "خمسة قروش" من حطام الدنيا ، وقــسما بالله فإن أى مـسلم غيور ليضـيق ذرعا من حيـاته عند رؤية أوضــاع أولئك الذين يتسـترون وراء سـتار أنواع شتى من الفسق والفجور ، والأعجب من كل هذا أن سكان هذه الأقـاليم المترامـيـة الأطراف يفضلون هؤلاء الـسفـهاء مع كل مـا يفـعلونه من بدع ، ولا ينظرون مطلقـاً إلى أمجـادهم أنفســهم ،

ونتيجة لذلك تتناقل أحوال أولئك الفسقة أنفسهم بعد شهر المحرم ولعدة أشهر أخرى ، تتناقل وتُحكى هذه المجالس وكأنها مجلس لأعيان المدينة وأشرافها وما خفى كان أعظم ، ونظرا لسيطرة هذه الأفكار السيئة فى هذه المنطقة ، كاد أن يجول بخاطرى حديث الكفر وأن يجرى على لسانى ، فأستغفرت الله لهذا ، وشغلت نفسى بشئ آخر ، وبلسان الإكبار والإجلال قلت : أيها الحسين ليكن جسدى وروحى قربانين فداءك ، ومع كل جلال قدرك ، فإن الكائنات هى فيض وجودك الطاهر[1] ، وبالنسبة لدوام الدين المبين فإنه لم يقدر لك أن ترى البدع وقد ظهرت فى شريعة خير المرسلين ، وقد حمَّلتم أنفسكم (الكلام موجه للحسين وآل البيت) والذريات الطاهرة صغيرها وكبيرها ، حملتموها كل تلك المصائب التى لاتطاق والتى لايقوى على حملها الجبال الشاهقة ، والآن افتح عين الحق المبيّن نحونا ، وانظرا اليوم فإنهم يطلقون على البدعة اسم العبادة ، وكم من الحيل التى يستخدمها سادة القوم لكي ينفذوا البدع السالفة الذكر ، وقد جعلوا من هدم أساس الشريعة وسيلة لتثبيت رئاستهم ، وبدلاً من أن ينصحوا عوام الأمة بأوامر جدك الأعظم بتحصيل العلم والمعرفة والوحدة ، فإنهم يحشونهم على الجهل والنفاق ويلقون بقلاع الظلم أحجار التفرقة بينهم ، فهم يناصرون جمعا باسم الحيدرى

(١) الكاتب يتحدث هنا عن انتشار البدع ، وفى نفس الوقت يأتى لنا ببدعة ويقول (أن الكائنات هى من فيض وجود الحسين) ، فمن هو الحسين هذا حتى تكون الكائنات من فيضه ؟

والنعمتى[١] ، ويعاضدون بعضا آخر باسم المتشرع والشيخى ، وهم مشغولون كل يوم بتقطيع أوصال وحدتهم بأيديهم وذلك باتباع مختلف الحيل والسبل ، ويعتبرون أن تفرقة الشعب فيها وحدتهم واتحادهم ، ونظرا لاهتمامهم بمصالحهم الشخصية تلك المصالح المشبوهة والقذرة ، فإنهم يعتبرون كل من يؤدى خدمة للوطن والبلاد ، يعتبرونه ظالماً ، ويحثون الناس على مقاطعته ، ويسمون كل شخص قصّر ثيابه قليلا متفرنجا ، فلا يردون عليه سلامه ، ويعتبرون المسلم فقط من يرتدى الخرقة والدلق " ولا يعرفون أن هناك إبليسا فى ثياب إنسان "

(١) يعد النزاع بين طائفتى " الحيدرية والنعمتيه " من الأمور المؤسفة فى تاريخ إيران وقد سقطت المدن الإيرانية فترة طويلة من الزمن ضحية هذا النزاع بين الطائفتين المذكورتين ، وقد أنقسم المواطنون فى كل مدينة إلي قسمين : فهذا حيدرى ، وذاك نعمتى ، كما كانت كل طائفة تعادى الطائفة الأخرى لأتفه وأوهن الأسباب . لهذا نرى كثيرا ما يهلك بعض الأشخاص عند تنازعهما .

ويمكن القول أن هذا النزاع كان موجودا منذ عهد الصفويين ، وشيئاً فشيئاً بدأ يخمد فى العديد من المدن الإيرانية ، إلى أن ظهر مرة ثانية فى العصر القاجارى " عصر ناصر الدين شاه خاصة) ، وقد أدى هذا إلى ظهور الفتن ، وانتشار الأحقاد بين المواطنين .

ومن المدن الإيرانية التى ظهر فيها هذا الصراع (قزوين) ، ويقول أحمد كسروى فى هذا الصدد : (لقد ذهبت فى عام ١٣٠٢ هـ إلي خورستان ، فرأيت هناك أن المدينة عبارة عن فريقين أحدهما نعمتى والآخر حيدرى ، وكل منهما يناصب الفريق الآخر العداء) ، ويذكر (كسروى) زعماء أو أئمة الطائفتين فيقول (إن ميزرا على أكبر أغا من كبار النعمتيه ، وحاجي ميرزا إبراهيم من كبار الحيدرية ، ولعل الحكومة الإيرانية قد فطنت مؤخرا للفتن التى كانا يسببانها هذان الرجلان فى المدن الإيرانية حتى إنها أخرجتهما من تبريز إلى أردبيل بغية القضاء على بعض الفتن فى مدينة (تبريز) أنظر :

– أحمد كسروى : تاريخ مشروطة إيران . ص ١٩٥ – ١٩٧ .

الخلاصة : أنهم نصبوا كمائنهم فى كل مكان لصيد هذه الفئة من العوام التعساء ، ووضعوا شراكهم بشكل لايخطر على عقل بشر ، فماذا أقول أكثر من هذا ، إنه من الأفضل أن أصمت .

قلت يا أخى تقدم واسمح لى أن أقبل شفتيك وفمك المبارك ، فأنت أول شخص محترم أراه فى إيران مهتماً بهذه النكات الدقيقة ، ومتألما لآلام الوطن وخلال سياحتى التي قضيتها ، كنت أنادى فى كل مكان على أذن صاغية تسمعنى فلم أر أحدا قد أدرك هذه المساوئ من بين جموع المواطنين ، ولم أسمع من أحد مثل هذه الكلمات الدقيقة وكأن لك نفس المسيح ، وفى الحقيقة أنك أحييتنى من جديد ، أطال الله عمرك ، وأخيرا أرى أن هذا الوضع من التعزية والرثاء ، قد بالغوا فى بدعة كل المبالغة ، فهل السادة العلماء الأعلام والذين يقطنون مدينة النجف الأشرف ، والذين أيضاً تنفذ أوامرهم ونواهيهم فى كل إيران ، لايرون هذا ولا يعلمون به ؟ وأن كانوا يرونه ويعلمون به فلماذا لايمنعون هذه البدع المخالفة للشريعة ، حيث تضرب الأجساد العارية بالسلاسل علانية حتى تسيل الدماء من مواضع الضرب ؟ ولماذا لاينهون مهما كانت الأسباب عن شج الرؤوس والتى فيها هلاك للنفوس ؟ ولا يمكن أن يدعى أحد ويقول أن الإمام راضٍ عن أساليب هذه التعزية ، وكيف نسمح لأنفسنا أن تُغلق مساجدنا بهذه القذارة ؟ فتارة يضرب الناس صدورهم وظهورهم بالسلاسل ويشجون رؤوسهم وذلك فى الشوارع وسائر الأماكن ، وتارة

أخرى يعتلى أحد الملات سواء كان جاهلا أو متعلما تختا خشبيا ، ويزين المجلس بالألحان المثيرة للطرب ، وذلك بمساعدة شخصين أو ثلاثة أشخاص من الشباب ذوى الشعور الطويلة ، ويسمون هذا المجلس مجلس تعزية ولا يخجلون من الله والرسول ، وأن كان ولابد من التعزية ، فينبغى أن يكون فى تعزية سيد الشهداء شعور بالغربة وتتم فى وقار تام .

وينبغى أن يلتزم الناس الصمت ويستشعرون الحزن ، مرهفين السمع لوقائع تلك المصيبة ، فلا يكذب ذاكر تلك الحادثة ، ولا يتحدث هراء ، وعليه أن يلتزم حدود الأدب ، على أن تقام هذه التعزية فى حدود نطاق أحكام شريعة الرسول (ﷺ) ، حتى يجزيهم الله أجورهم ، فيرض الأمام " كرم الله وجهه " عن تعزيتهم وطريقتهم فى الرثاء ، ومن ثم فإنهم يطفئون بدموع التعزية هذه ، نار معاصيهم ، ويعلمون يقينا أن دموعهم وبكاءهم ، هى أول وسيلة للنجاة من نار جهنم يوم الحساب[1] .

وقال ليس ببعيد إن السادة العلماء الأعلام ربما بل ويجب أن يكونوا لايعلمون بهذه الأوضاع المؤسفة ، ولكننى أعلم هذا ، فلو أن أحدا عرض لمثل هذه الأوضاع فإن الأنصار والأتباع سينبرون للدفاع عن بدعتهم ، وبذلك لن يسمحوا بأن ينصلح الأمر ، خاصة قراء التعزية الذين سيحاولون جاهدين أن يدبروا حيلة لمثل هذا الأمر، فتتسبب هذه الطائفة فى إدخال العالم جهنم،

(١) أن دموع الرثاء فى تعزية الحسين سيد الشهداء لن تنجى من نار جهنم ابدا.

فى مقـابل ما يعـود عليهـا من ربح تافه قـدره عشرة تـومانات ، ويغتطبون لهذا حتى ولو كان مصيرهم هم أنفسهم نار جهنم .

فقلت لماذا لاتتدخـل الحكومة ؟ قال رحم الله والدك * ، إن الحكومة لايهـمها إلا يُشـغل الشعب بنفـسه ، وتتضـرع الحكومة بالدعـاء أن يبقى هـذا الوضع على ما هو علـيه ، إذ أن سـياسـة الحكومة نفـسها تقـتضى هذا الوضع ، أى أن تكون الرعيـة دائماً فى تنازع وتناحـر ، حـتى تصـرفـهم عن التـفكيـر فى أنفـسـهم وأحـوالهم ، وتدرك الحكومة جـيـداً من خلال أوضـاع العصـر ومقـتضياته أن فى هذا تشـويقاً وترغيـبا لهذه الطائفـة التي تشغل الناس كثيرا عن التفكيـر فى أنفسهم ، ومن ثم فإن الحكومة تمنح الألـقاب والنـيـاشين الرفيعـة لأفراد هذه الطائفة ، فعلى سـبيل المثال ، تلقب شـخصـا منهم باسم صدر الذاكريـن وآخر سلطان الذاكرين وفخر العلماء وصـدر العلماء وما إلى ذلك ، وهنا ينتقل لقب حسام العلماء من شخص لآخر ، وإذا ما قُدر لشخص ما أن يصطحب حسام العلمـاء هذا ، يدرك إلى أى درجة بلغ به الفسق والفجور ، وبالله إن الأحاديث التى يتحدثهـا (حسـام العـلـماء) فى مجالسه الخاصة ، ليخجل من سـماعها السفلة السوقة ، وكل من قابل ذلك اللص سـيصدق ما أقوله ، وهذه هى سـياسة هذه

المدينة ، فقلت أخى العـزيز استودعك الله ، فحيـنما أتحدث عن مثل هذه الأمراض المستعصـية مع أحد من الناس فإن الهم والحزن ينقشـعان عنا ، ولكن لسـوء الحظ غالباً مـا يكون مَن نلتقى مـعه باعثا على الهم والحزن .

وعدنا إلى المنـزل بعد أن ودعنا ذلك الشاب ، وعـمومـا فإن سكان هذه المدينة على قدر كبير من طلاقه الوجه وحسن المظهر ، وهم يختلفون عن سـائر المواطنين فى المدن الإيرانية كلها ، وذلك بإطـلاقـهـم للشعـور الطويلة ، ولما كـان هذا الوضع يعد عـادة شائعة ، فمن هنا لايعتبر عيبا يؤخذ على المواطنين .

وقد مر من الوقت أربع سـاعات منذ ذهاب عمى يوسف إلى الحـمام ، ولـم يأت بعد فـقلقت ، فـذهبت أتفـرج على المحـال والدكاكين بالقرب من المنزل ، وأتى عـمى يوسف قبيل الغروب ، وسألتـه لماذا تأخرت كل هذا الـوقت ؟ قال : أنت قطعت عـهدا على نفـسك أن لاتذهب إلى أى حمـام فى إيران ، وكان السـبب فى عدم ذهابك إلى حوض الحمام ، هو أن ماءه آسن ويدخله كل إنسان ، فـهنا الوضع يخـتلف عما سـبق ، فلن تدخل الحـمام ، فهنا للحمامات مظهر غـريب ، وينبغى أن نذهب سويا فى الصباح وذلك من أجلى ، لأنك لن تدخل حـوض الحمـام ، ويمكنك أن تغـتـسل بمـاء بـارد ونظيـف ، قلت ومـا هـدفك من وراء هذا الإصرار ؟ قـال : أنت أتيت للسيـاحة لكى تكتب كـل ما تراه ،

ويوجد بحمام هذه المنطقة أشياء كثيرة جديرة بالمشاهدة والتدوين ، قلت إنك تدرك مصلحتنا ، ولا ضرر من الذهاب فغدا نذهب معا ، ولحسن الحظ أن صباح ذلك اليوم يوافق يوم الجمعة ، فذهبت إلى الحمام بالاتفاق مع عمى يوسف ، وكالعادة خلعنا ملابسنا ودخلنا الحمام ، وما كدنا نخطو عدة خطوات حتى رش رجل فجأة إناء ماء على قدمى ، وفعل شخص آخر نفسى هذا الأمر مع عمى يوسف ، فنظرت مندهشا نحو يوسف عمى ، وسألته : بالإشارة عن معنى رش الماء ؟ فقال : تعال نجلس فى ركن حوض الماء البارد حتى أقول لك ما معنى ذلك ، ووصلنا هناك فجلسنا ، ورأيت أنهم قد كسوا ما يقرب من أربعين مكانا من الحمام بالقماش حتى يسترخى المستحمون فوقها ، كما خضب المستحمون أيديهم وأرجلهم ولحاهم وشواربهم وشعورهم بالحناء وكانت جماعة منهم تدخن الغليون ، وكانت جماعة ثانية تدخن النرجيلة وكانت الجماعة الثالثة ترتشف الشاى ، فقال يوسف عمى ، أولئك الذين رشوا الماء على أقدامنا هم الدلاكون وعليهم خدمة غسل المستحمين ، وبالحمام عدد من الدلاكين ، وهؤلاء الذين رشوا إناء الماء على أقدامنا صرنا ملكا لهم ، وليس من حق دلاك آخر خدمتنا ، فضحكت ويعلم القراء أنفسهم (سبب ضحكى) .

الخلاصة : كان علينا أن ننتظر طويلاً حتى يحمل الأستاذ الدلاك الصابون واللوفة للمستحمين والذين جاءوا قبلنا ، فرأيت

أن هناك أربعين شخصا من المستحمين ، بينما كان الدلاكون أربعة أفراد ، فكان علينا أن ننتظر مدة ثلاث ساعات حتى يحين دورنا على الأقل .

وقال عمى يوسف إنى احضرتك هنا لكى تشاهد هذا الوضع حتى تعرف لماذا تأخرت أنا بالأمس ، فقلت: عجبا هل كل يوم على هذا المنوال ، إن ذلك بمناسبة يوم الجمعة والذى هو عطلة أسبوعية ، ومن ثم فأن المواطنين يتدفقون على الحمام ؟ ، فقال لقد كان الحمام بالأمس على هذا النحو من الازدحام ، فسألت بنفسى ، فقيل لى إن جميع حمامات المدينة يومياً على هذا المنوال كما ترى ، فقلت لماذا خضب هؤلاء الرجال أيديهم وأرجلهم بالحناء كالنساء ؟ قال : يقال أولاً إن الحناء تجعل يدى المرء وقدميه على قدر كبير من الرقة والنعومة ، وثانياً : إن هذه سنة سنية وعليها ثواب ، فقلت : هذا دليل على البطالة والخمول ، فهل اتممتم كل حسنة وثواب وبقى لكم أن تحظوا بثواب الحناء ؟ وهؤلاء لايعلمون قدر الوطنية ، وهم غير مستفدين من ثمار خدمة الوطن ، ونظراتهم قاصرة وهممهم واهية ، وإن إشباع جوف جائع واحد لفيه ثواب أكثر ألف مرة من التخضيب والاسترخاء فى الحمامات .

الخلاصة : أخذ شخصان يستعملان خضاب الحناء فى أحد أركان الحمام ، وراح يدخنان النرجيلة ، فسألت أحدهما : أيها

السيد هل أنت من أهل هذه المدينة ؟ فـقال نعم ، فقلت : ما هو هدف المواطنين من تخـضيب أيديهـم وأرجلهم بالحناء ؟ فرمـقنى بنظرة مـتجهـمة بعـد تعجب طويل ، وقـال : أولاً : إنها ثواب وثـانيـاً : إنها تكسب الأيدى والأرجل رقة ونعـومة ، فـتأوهت حزنا ، وقلت : سيـدى العزيز أبحث لك عن دواء حتى ترقق به قلبك ، حـتي تـفكر ولو قليـلا فى رقى البـــلاد والمحـافظة على حقوقـها ، فأيها المواطنون الغافلون ، إن مـدينتكم قد وقعت فى مكان حساس وخطيـر للغاية ، فإذا ما اقتـضى الزمان ، وحدثت فتـنة أو تمرد من الخـــارج ، فإنه بإمـكـــان خمسمائة من جنود الأكـراد ، أن يخربوا هذه المدينـة فى يوم واحد فـقط ، فى حين إنكم لاتفكرون فى الدفاع عن وطنكم مطلقاً ، وليس لديكم مثلا قلعة أو حصن يُتخـذ مكاناً استراتيجيا ، تسـتطيعون من خلاله أن تدافعوا ضد أعدائكم البرابرة فى هذه المدينة ، وليس عندكم أيضاً من وسائل الدفاع الأخرى كالبندقية والمدفع ، ولا يمكن لأى زمان أن يوقظكم من غفلتكم ، إذ بالأمس أحرق " الشـيخ عبيد الله " الأخضـر واليابس فى ضـواحى هذه المدينة ، وجعـل ذلك رمادا ظلمـا وعدوانا ، فى حين اليـوم أراكم مشغـولين بترقـيق أيديكم وأرجلكم المزينة ، وتقضون نصف اليوم ، مـشغولين بهذه الأمور فى الحمام كعادة النساء ، وقـال ذلك الرجل مجيبا ، واضح إنك عربى ، والأمـر العجـيب هو إعجـابك بنفسك . وقـد قيل : إن الإعجاب بالنفس والتكبر غالباً ما يكونان فى الغربة .

فالى أى شعب تنتـمى ؟ فإما أنك تعيش فى صـحراء ، وإما إنك تعيش فى منفى عن العـالم ، ومثلك حينما يموت يـحتار المرء فى أن ينسبك إلى أى مذهب أو أى شـعب ، ويا ترى بأي طريقة يدفنونك ويكفـنونك ؟ فليـست هناك أية عـلامة فى كـل أعضـاء جسـمك تبين أنك مسلم ، فلـو كان لي سلطة على الحـمام ، لم أسمح لـك بدخوله ، ورأيت أن الأمـر قد أتخـذ طابعاً مـغايرا ، وقلت أن لدى برهانا على إسلامى ، فقـال : إن اليهود لهم نفس ذلك البرهان ، وهنا فـقط طويت بساط الحـديث وأخذت أفكر ، وضـقت ذرعـاً ، وناديت الدلاك ، وسـمـعت رده بعـد قليل ، فرأيت إنساناً ضخما وقد وقف أمامى ، وحقيقة لم أكن أرى شيئاً من كثرة البـخار عند دخولى الحمام ، وقلت : أيهـا " الأستاذ " أعطنى شيئاً من الصـابون لكى أنظف جسدى بنفسى ، ومع ذلك سأعطيك حقك كاملاً غير منقوص ، وأيضاً لن أستهلك كثيراً من اللوف والصـابـون ، فـذهب وأحـضـر قطعـــة من الصـابون ، وأغتـسلت بالماء البـارد مع الصابون مـا يقرب من ثـلاث مرات ، وجـاءوا بالنرجـيلة ، فلم أدخن ، وذهب يوسف عـمى لحـوض الحمام ، وعاد بعد أن اغتـسل وخرجنا سوياً وقضينا اليوم كله فى الحمام ، وصباح ذلك اليوم (السـبت)، خرجنا عازمين التجوال فى سوق المدينة ، ورأى يوسف عمى أمام منزل القافلة دكاناً يبيع الجوارب ، فقال عـمى يوسف ، ليس لدى جوارب ، فـسأذهب لأشـتـرى زوجـا أو زوجين من الجوارب ، فـقلت أنت نفـسك

تحسن الاختيار ، فشُغل يوسف عمى بشراء الجوارب ، وجلست أنا على مصطبة الدكان ، وكان فى مواجهتى دكان للعطارة ، وقد جلس شاب وسيم للغاية يناهز السابعة عشرة من عمره فى ذلك الدكان ، وتجمع المشترون حوله كالذباب ، فما يكاد يذهب واحد حتى يأتى اثنان بدلاً منه ، ولم يكونوا ليشتروا أشياء كثيرة ، وكان أقصى شرائهم ، لايتجاوز عباسيا واحدا ، أو شاهيا واحدا ، أو شاهيين ، واتضح أن هؤلاء مرضي ، وكان الشاب يلاطف كل شخص منهم ، بأسلوب خاص ، وكان دائماً بشوش الوجه أثناء معاملته معهم .

الخلاصة : كان يتزاحم المشترون على دكانه ، وقلت لنفسى واضح أن من يبيع الحلوى يقبل عليه كثير من المشترين ، ورأيت شخصا وقد جلس بجوار دكان بائع الجوارب ، وكان يمسك بقلم وورقة ، وكان ينظر فى وجه الصبى ويرسم شيئاً ، فتصورت أن هذا رجل رسام . إذ أنه راح يرسم وجه الشاب ، كما يرسم الرسامون المشاهير وجوه الحسان فى الغرب ، ويبيعون بعد ذلك ما يرسمونه بأقلامهم الحاذقة بمبالغ باهظة ، وتحدثت مع نفسى قائلاً : حسناً هكذا الرسم هنا موجود ، فسررت سروراً لاحد له ، وسألت بائع الجوارب والذى كان شيخاً : أيها العم ما هذا الرسام الذى أشير لك عليه ؟ فقال يا بنى أين الرسام ؟ فقلت هذا الرجل الذى يرسم وجه ذلك الصبى العطار ، فضحك وقال : أيها الابن العزيز هذا الرجل الذى تراه وتظنه رساما ، ليس

رسـاما ، بل ربما كـان شاعـرا ، ويتغـزل فى هذا الصبى ، وقـد شغلنى هؤلاء الشعراء السفـهاء عن رزقى وعملى وجعلونى أضيق ذرعا به ، وفـى كل ساعة يذهب شـخص ليأتى آخـر بدلاً منه ، بحجة اللهو برؤية هذا الشاب ، ولا تخلو مـصطبتى دقيقة واحدة من هؤلاء المشتـرين سيئى الأخـلاق والذين لافائدة من ورائهم ، فهـؤلاء الرجال لايخجلون قط ، فـقلت مَنْ هذا الشاب ؟ فـقال اسم هذا الصبى " غـلامعلى بيك " ونظراً لوسامـته فقـد أصبح وجهه لايفارق أهل المدينة الخاص منهم والعام وذاع صيته فى كل أنحاء المدينة ، ولعل جـميع أهل هذه المدينة مفتـونون بحسن هذا الصبى ووسامته ، فتعجبت كثيراً وقلت وكيف حال الصبى ، هل هو سيئ الخلق ؟ فقال حـاشا لله ، فإن الصبى غيور على كـرامته ومشـغول بعـمله ، ولدى أسرة الصـبى ثروة كبيـرة ، وليس في حاجة إلى شئ ، قـلت لماذا إذن هذه الجلبة ؟ فقال : إنهـا مجرد سفالة وبطالة عن العمل ، فحيثما تذهب يتحدثون عن هذا الشاب ليل ونهـار ، وذات ليلة تجـمع عـدد من الأفـراد من كل حـدب وصوب ، وأخذوا يتسامرون وهم يتحدثون حديث هذا الصبى فى مجلسهم ، ومـا كان من الصبى إلا أن مكث فى بيتـه واستراح ، على الرغم من إنه لم يكن يخـشاهم ، فقلت أيهـا العم العزيز ، نحن أغـراب عن هـذه المدينة ، فـأين تلـك المـدينة الجـديـرة بالمشاهدة ، والتى يمكننا أن نقـوم بالسياحة فيهـا ، فقال يا بنى إن داخل المدينة هكذا كـما ترى ، أمـا الأماكن السـياحيـة فى هـذه

المدينة فهى خـارج البوابة ، حيث تكثـر بها البساتين والخـضرة ، وهى تبعث على الـسعادة وصفـاء النفس ، لاسيـما أثناء الربيع ، حيث تتـفتح الورود الحـمراء ، وحول المدينة بـساتين ورياض هى كالجنة بعينها ، ولكن الآن لايوجد من هذه البساتين شئ قط[1] ، وذلك بسـبب غزو جـيش بهمن ، وهذه الحـدائق والبسـاتين التى تحيط بنا ، يوجد مثلها فى الأحياء السكنية ، و (بـازار جـاى) أو سوق الشـاى والعمـارات الأخرى هى أيضاً جـديرة بالرؤية ، فقلت أين (بازار جاى) ؟ فقال : اذهبـا مباشرة من هذا السوق حتى تخرجا منها ، وستريان ساقية جارية ، فأتجها نحوها ، إذ أن آخـرها ينتـهى بمـحلة الأرمن ، وتلك المناطق لاتـخلو أيضـاً من الجمال ، وعندما توقفت عن الحديث مع بائع الجوارب المسن .

دفع يوسف عمى ثمن الجوارب، وتوجـهنا نحو تلك المنطقة متفـرجين كسـائحين حتى وصلنا إلى شـارع كبير ، فـسرنا حتى آخره ، فـرأينا هناك مقبرة ، فـقرأنا الفاتحـة وسرنا فى دربنا ، ثم رأينا حيا سكنيا آخر ، فدخلناه ، ووجدنا أن معظم المترددين علي هذا المكان من الأرمن ، واتـضح بعـد ذلك أنه مـحلة الأرمن ،

(١) نرى أن فى هذه الفقرة تناقضا فى الحديث ، ولا ندري هل هذا التناقض من الكاتب أم من الشخص الذى نـقل عنه هذا الحديث ، " فهـو يقول أن البـساتين والرياض والخضـرة خارج المدينة تبعث على السعادة . . . ألخ ، ثم يقول " ولكن الآن لايوجد من هذه البساتين شئ قط ، وذلك بسبب غـزو جيش بهمـن ، ومن الممكن أن نقول أن الكاتب يريد أن يعـرض لتاريخ هذه المدينة بهذا الحديث .

وتقـدمنا أكثـر ، فرأينـا لوحة صـغيـرة وقد كـتب عليـها باللغـة الإنجليزية (printing) أى الطباعـة وقد علقت هذه اللـوحة على باب غرفـة صغيـرة فى إحدى العمـائر ، وكانت المطبـعة ، وعند رؤيتى لهـذه اللوحـة المكتوبة بـاللغة الإنجليـزية ، وبقـرأتى اسم المطبـعة ، غـرقت فى بحر من الحـيرة ، وقلت لنفـسى (أهـذه مطبــعـة . . . مـن أين هذا التطور ؟) ولـم أصـدق نفـسى ، وأغمضت عينى ، وأمسكت شيئاً بإصبعى ، وفتحت عينى ثانية ، فرأيت أنها المطبعة والسلام ، وتقدمت وسألت شخصاً من الأرمن ممن كـانوا هناك ، مـاذا يعملون هـنا ؟ فأجـابنى هل أحـضـرت الورق ؟ فرأيت أن هذا الشخص قد ظننى شخصاً آخر ، فقلت : نعم أحضرته ، فقال : إنه نفسه خرج وسيعود بعد قليل ، ولكن خادمـة موجـود ، فسـأناديه ليحـضر لك المفتـاح ، وذهب وأتى بصـحبـته شـخص أرمنى آخـر ، فقـال هذا الشخص أيضـاً هل أحضـرت الورق ، قلت : نعم ، وبعـد ذلك اتضح لى أن هؤلاء ظنوا أننا تجار وقـد أحضرنا الورق من (تبريز) لنبـيعه ، إذ إنهم كانوا فى حاجة إلى الورق ، وعلى كل حال فقد فتحت لنا أبواب المطبـعـة على مـصـارعـهـا ودخــلـنـاها ، ورأيـــت فى أحـد الجـوانب كثيراً من الكتـب المجلدة ، وفى جانب آخر لُفت كتب لم تجلد بعد ، ولم يظن الرجل الأرمنى أننى مسلم وأتحدث اللغة الإنجليزية ، ومن ثم فقد أمـسكت ببعض الكتب ، وأخذت أنظر فيها متجاهلاً مَنْ حـوالى ، وهكذا أخذت أتصفحـها ، فرأيـت

أن كل الكتب بروتستانتية المذهب ، وقد كُتبت للرد على معظم الأديان خاصة شريعة الإسلام الغراء ، ولعل هذه الكتب السالفة الذكر قد فُسر كلام الله بها من أجل تضليل العقول غير الناضجة ، كما ترجموا بعضا من الكتب الإسلامية ، واتضح أن هدفهم من وراء هذا هو تضليل الناس ، وعلى الرغم من أن هذه الكتب لاتضلل المسلمين عن شريعتهم الغراء بهذه الأعمال التافهة وكذلك فهى لاتضللهم عن الفضل الإلهى ، ولكن لا أدرى لماذا تسمح الدولة الإيرانية لهؤلاء الأشرار والذين هم أس جميع أنواع الشر والفساد بالمجئ إلى البلاد ، وقد منحت الحرية لجهلاء البلاد من المسلمين والنصارى ، حتى يتدفق الأمريكيون والإنجليز هنا ، وبذلك ينشرون بذور الفساد في قلوب عوام الشعب ، فهم استقروا فى البلاد الإسلامية لكى يؤلفوا الكتب المعادية لشريعة الإسلام الحنيف ، وكان هذا الألم أكثر وقعاً على نفسى ، من كل الآلام المستعصية السالفة الذكر ، فأظلمت الدنيا أمام ناظري وقلت لم يأت حتى الآن المستلم للورق ونحن لدينا أعمال أخرى لذلك سوق نأتى فى وقت آخر .

وفى تلك الأثناء تقدم نحوي نفسى الرجل الأرمنى ، وهمس فى أذنى قائلاً أن المطبعة معطلة منذ أسبوع ، وليس لديهم ورق فكن يقظا ولا تتهاون فى الأسعار ، وأريد منك تومانا واحدا بعد إتمام هذه البيعة ، نظير هذه الخدمة ،فقلت : أنى شاكر ، وسوف أنعم عليك بالكثير ، وعدنا من هناك وأتينا إلى المنزل ، وفى تلك

الأثناء رأيت الحارس وقد دنا منى ضاحكاً ، وقال : أحسنت صنعا ، يا سيدى ، فقد أنهيت المهمة على جناح السرعة ، فقلت أى شئ أنهيته بسرعة ؟ فقال : لعلى لم أر أنك جلست ساعة بحجه شراء الجوارب فى دكان محمد قاسم الكربلائى بائع الجوارب ، وقد فُتنت بجمال " غلامعلى بيك " فلا عيب يا سيدى ، " فنحن أيضاً ممن يكتمون السر ويخفون العيب " ، فرأيت أن كل ما يقوله هذا الرجل الأحمق ليس له أساس من الصحة ، فتأوهت وقلت لنفسى .... إنه عالم عجيب ، وجميع سكان هذه المدينة مجانين ، فحيثما تذهب تسمع حديثا عن هذا الصبي البسيط ، فجميعهم مشغولون بذلك الصبى الصغير منهم والكبير على حد سواء ، والجميع أيضاً غافلون عن الدنيا وما فيها ، فهم لم يقرأوا شيئاً عن علم الاجتماع ، ولايعلمون أن الله جلت عظمته قد خلقهم من أجل التعاون والتآلف معا وقد كان للتغزل فى النساء وضع خاص ، ولم يكن بالرجال ، ولا أدرى لماذا لايخجل هؤلاء الرجال سيئو الفطرة من هذه الأفعال القبيحة ، وعلى الرغم من أنهم يجهلون عاقبة ذلك الأمر إلا أنهم بلا خجل يلقون بأنفسهم فى بدعة مهلكة ، ومن ثم فعلينا أن ننأي بأنفسنا حتى لاينزل البلاء بنا بعيداً عن أتباع قوم لوط هولاء لكى لايحترق الأخضر مع اليابس ، ومن هناك حزمنا أمتعتنا قاصدين (تبريز) من أجل السياحة .

"مجمل السياحة فى آرومية"

لايهتم سكان هذه المدينة بشئ سوى إيثارهم لأنفسهم وتزيينهم لها ، وذلك بسبب جهلهم الشديد ونظراتهم القاصرة ، أما عملهم فهو العبث والهراء بعينه ، وهم غافلون تماما عن وسائل رقى التجارة ،وزيادة الثروة القومية والتى أساسها إنشاء الشركات وإنجاز الأعمال الكبرى ، وليس للوطن وحبه أدنى اهتمام عندهم ، وهم غالباً منساقون وراء أهواء أنفسهم ، ويتسابقون بغية تحقيق كل أمر لاه وعابث ، ويجهلون تماما الوضع الراهن لعصرهم ، وكذا ما يقتضيه زمانهم ، وهم لم يحظوا بشئ قط من غذاء تحصيل العلوم والفنون المتدولة والتى هى غذاء الروح .

الخلاصة : أننا كنا صباح ذلك اليوم على أهبة الاستعداد ، إذ ننوى السياحة فى " تبريز " وذهبنا حتى نستأجر الجياد لنواصل سيرنا ، فرأينا مكاريا فطلبنا منه جوادا ، فقال ينبغى أن تصبروا أربعة أيام أخرى ، إذ أن هناك عشرة أشخاص مسافرين أيضاً ، ولنذهب بصحبتهم سوياً ، واضطررنا أن ندفع العربون ، ورجعنا ، وفى اليوم المحدد جاء السائس وقد أحضر معه رأسين من البغال ، وحزمنا نحن بدورنا أمتعتنا ، وتوجهنا نحو (تبريز) وكانت القافلة تسير فى طرق وعرة وصخرية أثناء مرورها وقطعها للمنازل ، وقد سرنا مدة ثمانية أيام ، ودخلنا " تبريز " فى اليوم

التاسع ، ولم ير أثناء سيرنا شئ جدير بالذكر ، ولكن بدخولنا " تبريز " فقد بدا وضع المدينة مثيرا للدهشة ، وكانت هناك همهمة بين أفراد القافلة ، وقال أحد الرفقاء والذى كان من أهل أرومية لابد وأن هناك حادثة عظمى قد وقعت اليوم فى هذه المدينة ، إذ أن جميع المحال والدكاكين مغلقة ، وبلاشك أن امرا جللاً قد حدث ، إذ أن الأحياء خالية من المارة ، وفى الحقيقة لم يظهر أحد من الأشخاص لنسأله ، حتى اقتربنا أكثر من المدينة ، فرأينا عددا من الأفراد ، وذلك من مسافة بعيدة حيث مروا مسرعين ، فسأل الشخص الأرومى واحدا من بينهم قائلاً : يا أخى أي حادثة وقعت فى هذه المدينة حتى توصد محالها وتبدو عليها آثار الخراب والدمار فى كل مكان ؟ قال واضح أنكم لاتعلمون أن الأهالى قد أغاروا على بيت ناظر المدينة ، والآن فقد ولى هو هاربا ، فقلت من هو الناظر ؟ فقال : الحاكم ، فقلت كيف .. كيف .. بيت الحاكم ؟ فقال الرجل الذى أخذ يعدو (إني أموت فكف عنى)[1] ولما لم أكن قد سمعت هذا اللفظ من قبل ، فلم التفت لقبحه ، وقلت أستحلفك بالله أجبنى حقيقة ماذا حدث ؟

قال يا والدى أن أهالى المدينة قد أغاروا على بيت الناظر أى الحاكم فقلت إننى حتى الآن رأيت وسمعت أن الناظر وحاكم

(١) العبارة التى وردت فى النص هى : من أو لوم قمش قوياً ، وهى مصطلح يستخدم فى مواضع مختلفة ، والمصطلح هنا يعادل المصطلح الفارسى (من بميرم دست بردار) .
- باقر مؤمنى : سياحتنامة إبراهيم بك ، ص ١٥٩ ، طهران ، ١٣٥٣ ق .

المدينة هما اللذان يغيـران على منازل الأهالى ، والآن كيف حدث أن الأهالى يغيـرون على بيتهـما ؟؟ فقـال : " هكذا نظام الفلك القاس " .

" حينا تعتلى السرج ، وحينا آخر يعتليك السرج "[1]

إن الزمان يتغير من حال إلى حال يومياً ، وكل شئ فى وقته وأوانه حسن ، قـالوا هذه الكلمات ومروا ، وقـد دهش السائس والمسافـرون ، وكنت أنا أيضاً أفكر فيـما أصنعه ، فـصديقى ومن أعرفـه فى هذه المدينة ، لاشك أنه قـد أغلق دكانه ، بسـبب هذه الأوضاع ، فأين أذهب ؟

الخلاصة : أن الجميع خائفـون ومرتعدون ، وقـد أنزلنا السـائس عند منزل القـافلة ، أى فى نفس المكان الذى يـسمـونه محلة "هفت كجل" ، ودخل هو نفسه (السائس) من بويب لمنزل القافلة ، وبعد ذلك نادى الحارس ، فأتوا وفتحوا الباب ، ودخلنا نحن أيضـاً ، ثم أغلق الباب وراءنـا على جناح السرعـة ، ودلونا على إحدى الحجرات لنقيم فيها ، وحططنا رحالنا فى ذلك المكان الذى سنقـيم فيـه ، ولكن يوسف عـمى كـان يرتعد من الخـوف كشجرة الصفصاف ، وقال باكيا فلنعد يا بيك من هنا إلى "مصر" مبـاشرة ، فانا أيـضاً ليست لدى القـدرة على تحمل مـصائب هذا السفر وهذه السياحة ، وإنى أخـشى من سوء عاقبة هذه الرحلة ،

(١) چنين است اين چرخ درشت . . . گهى پُشت زين وگهى زين بِاپشت

إذ أنه منذ بدء هذه الرحلة ، لم يمر علينا يوم واحد ولم نتعرض فيه لأحد الأخطار في هذه المنطقة ، ولا أعلم ماذا سيلحق بنا في هذه البلاد ، فقلت إننى فكرت أن أذهب لمدينة (خوى) من أجل السياحة ، والآن أعدك لو تخلصنا من هنا سالمين ، فإننا سنصرف النظر ، ونعود إلى " مصر " مباشرة ، وبعد ذلك سنختار مكان السياحة معاً ، وسنذهب إلى أى مكان تنشده .

وقضينا تلك الليلة فى قلق وفزع ، وحتى وقت السحر لم نكن نسمع أخباراً جديدة وكانت السوق ودكاكين المدينة مفتوحة كلها ، ومع ذلك كان الصمت يخيم على المدينة ، وتغاضينا عن تلك الحادثة ، وسرنا فى طريق السوق ، حيث كان يقع هناك دكان صديقى ، ووصلنا الدكان بعد أن سألنا عنه فى مكان أو اثنين ، وألقينا السلام ، وبعد أن عرَّفت بنفسى لذلك الصديق العزيز ، نهض وراح يقبلنى ، وسألنى فى حنو بالغ عن أحوالى ، وقال : لقد كانت جاريتك[1] تسألنى عن أحوالك ، وذلك كل أسبوع فى خطاب كانت ترسله لى ، فلعل والدتك كانت قلقة جداً ، وقد كتبت لى فى آخر خطاب مؤكدة على بأن أبعث تلغرافا أخبرهم فيه بمجيئك ، ثم طلب ذلك الصديق من خادمه أن يكتب تلغرافا بهذا المضمون " وصل إبراهيم " ، وأوصى خادمة قائلاً : أحمل هذا التلغراف وأعطة للشخص

(١) ذكر الكاتب فى الجزء الثالث أن اسم هذه " الجارية " هى (محبوبة) ، أنظر :
– زين العابدين المراغى : سياحتنامه إبراهيم بيك ، جـ ٣ ، ص ١١ .

الفلانى فى المكان الفلانى ، وأبلغه سلامى ، وقل له أن يكتب هذا باللغة الفرنسية ، وبعد ذلك احمل التلغراف إلى مقره وعد سريعاً ، وبعد هذه (الوصايا) سألنى أين أمتعتك ؟ فقلت لقد وصلنا الليلة الماضية ، وكانت المدينة مضطربة ، ومحالها كلها مغلقة ، فاضطررنا أن ننزل بمنزل (هفت كجل) ، وسألت هل حقيقة ما فعله أهل هذه المدينة بالأمس ؟ فقال : يا عزيزى هذه " تبريز " وسكانها يفعلون ما يريدون ، وسوف أحكى لك تفصيل هذا بعد ذلك ، فقلت : لم أسمع أنا نفسى قط ، أن الرعية تغير على بيت الحاكم فى أى مكان ، فقال أن مالا يرد بخاطرك ، يحدث هنا فى تبريز ، وفى تلك الأثناء عاد خادمة من مقر التلغراف .

فأرسله مع يوسف عمى حتى ينقلا أمتعتنا من منزل القافلة لبيته ، وأغلق دكانه عصرا ، وذهبنا إلى البيت ، وأثناء الطريق ، مررنا بحى من الأحياء فرأيت أمام أحدى العمارات عددا من الجنود ، وقد وقفوا متسلحين بالبنادق من أجل الحراسة ، فسألت لمن هذا البيت ؟ فقال هذا بيت رجل تاجر ، وقد أتى لتوه من السفر ، وقد أرسلت الحكومة الجنود لحراسته ، تقديرا واحتراما لشخصه ، فقلت حقيقة لم أفهم ، فقال مكررا ماسبق أن قاله ، فقلت وماذا يعنى هذا يا والدى ؟ ومن رأى أو سمع أن يرسل الجنود متسلحين بالبنادق لاحترام تاجر من التجار ؟ وماذا يعنى أن يأتى تاجر من سفر من الأسفار ؟ ولماذا يقوم بعض الأفراد

بحراسته بالبنادق ؟ فمثل هذا الشخص لم يأت من أجل الحكومة ، كما أنه ليس من الأمراء وأصحاب المناصب العسكرية ، وبيته ليس وزارة من الوزارات ، إنه حقا لأمر عجيب ، فقال على أيه حال هذه عادة المدينة ، وحينئذ عقبت حزينا : الآن فقط اتضح أن ألم هذا الشعب لم يعد له دواء ، إذ أن الرعية والتجار قد سارا فى طريق السوء ، وبالنسبة لهذا التاجر فمن السهل أن تحصل الحكومة على نفع من ورائه ، أما المواطنون فلا اكتراث بهم ، لأن ساسة الحكومة خصوا هؤلاء (التجار) بامتياز الاحترام اللائق بهم وحدهم ، وسوف يضر هذا بالمصالح الحكومية ، ومن ثم ستخسر الطرفين فى أقل فترة زمنية بسبب هذا النوع من المظاهر الجوفاء ، فهؤلاء الحكام الظلمة يعاملون هذه الطبقة من التجار بكل احترام وتقدير فى حين أن المواطنين المساكين يعملون معاملة الذل والهوان[1] .

فقال : منذ عامين أو يزيد ، يقال إنهم (الحكام) ، كانوا يخصون " مشهدى محمد التاجر المشهور ، بنفس هذا الامتياز ، وفى خلال مدة قصيرة ، ضاعت منه ثروة كبيرة ، بل أنه فقد كل ما يمتلكه ، وفى نهاية الأمر ، لم يكن بإمكان العودة للوطن فأسلم الروح فى الغربة ، ولم يكن ليترك شيئاً لورثته ، فى حين إن المسكن قد ذاع صيته ، وسترى فى هذه المدينة

(١) من يقرأ هذه الفقرة ، قد يظن أن الكاتب لاينتمى إلى مهنة التجارة ، فى حين إنه كان تاجرا ومن أسرة كلها تجار ، لكن هذا لم يمنعه من لوم الحكومة الإيرانية لاهتمامها الزائد بطبقة التجار وإهمالها للطبقة الدنيا من المجتمع الإيرانى . أنظر :
- سياحتنامة إبراهيم بيك ، جـ ٣ ، ص : ١٠ ، ١١ .

من هذه الأشيــاء الغريبــة والتى هى فى نظر العقــلاء وذوى الفكر الناضج فيها ما يبعث على المزيد من العظة والعبرة ، والأنكى من ذلك أنه قد يرى كـثيــر من الأفراد ، هذه العجــائب الباعــثة على العبرة ، ومع ذلك فإنهم لايهتمون بهذا الأمر .

ولما وصلنا البــيت ، رأيت عمارة عــالية جــميلة ، وهى ذات عدة غرف خارجية ، فجلسنا ، فقدموا لنا بعضا من أنواع الحلوى والفواكــه ، وشغلنا بالحــديث ، فقــال المضيف أثناء الحــديث لقد كانــت جاريتك تكتب لى عن أحــوالك فى " مصــر " بما ينمّ عن غيرة وتعصب قومى لديها أكثــر من الإيرانيين أنفسهم ، كما كتبت لى أيضاً عن هدفك من وراء هذه السياحة ، ولكنها كانت تقول : ليتك لم تذهب ، ولم تر إيران ، . . . . " فماذا أعلم الآن ؟ إنه سوف يعانى كل المعاناة " ، فقلت ماذا يمكن أن أفعل . . . ينبغى أن نرى بلادنا ، وفكرت في أن اشــترى منزلا لأعــيش فى وطننا الأصلى ، لو وجدت مكانا مناسبا فى " مشهد " أو "طهران" ، فقال وماذا حدث هل أعجبك أى مكان ؟ فــتحـــــسرت وقلت : لا ، فقال لماذا تتحسر ؟ قلت : لقد تحسرت عفوياً . وإن لم يكن هناك باعث على الحســرة والحزن ، قال : حــسن ،وماذا رأيت ؟ قلت : لقد رأيت كل ما هــو جدير بالرؤية ، ومــا هو غير جدير بها ، ومع ذلك لم أر شيئاً واحدا يتحقق به هدفى من السياحة ، فقال وما هدفك ؟ قلت رؤيتى مدرسة فيها كل بهجتى وسعادتى ،

ويكفى أن اليوم : قوة الدولة وعزة الشعب وتعـمير البلاد . أمور كلها منوطة بوجـود مدرسة . وبينما كنا نتـجاذب أطراف الحديث وإذا بهم يخبرونا أن العشاء معد ، فذهبنا حيث وضع العشاء على المائدة ، وبعد أن انتهينا من العشاء جاءوا لنا بالشاى فأرتشفنا كوباً منه ، وبعد أن تحدثنا قليلا ، قـال صاحب البيت ، أنتم لاتزالون لم تستريحوا من عناء الطريق بعـد ، فلتناموا على الفور قليلا من الوقت ، حتى تنالوا قسطا من الراحة ، وكـان قد أدرك جيدا إننا مرهقون ، فأعدوا لنا مضاجعنا ونمنا .

وفى الصـباح اسـتيقظـنا وذهبنا إلى السوق ، بعـد أن تناولنا الشاى بصحبه ذلك الصديق المحترم ، وجلسنا قدرا من الوقت فى الدكـان ، فقـال لى : هل ترغب أن نـسيـر مـتجـولين قـدرا من الوقت، قلت ليس هناك مـانع ، وذهبنا حـيث متـاجر التـجار ، فكانت أمـاكن كـثيـرة وعظيـمة ، ويميل الناس هـنا بفطرتهم إلى التـجارة ، ولـكن مـا الفائـدة ، إذ أن جمـيع المنتجـات أجنبيـة مـسـتـوردة ، ولا يُرى شيء من المنتجـات المحليـة قط ، باستـثناء بعض السلع التى كـانت موجـودة فى أماكن منعـزلة مثل الطـباق والحناء وشيت " همـدان " والملاءات اليزدية والخيـوط القطنية ، وحينئذ استغرقت مفكرا : كم مـن الأموال يحصل عليها شياطين الغرب عن طريق العلم والصناعات سنوياً من هذه المدينة ؟

وسألت الـصديق قائـلاً : يا أخى على الرغم من أننى لم أر مدينتكم كما ينبغى لكنه يتـضح من ازدحام السوق وعدد المترددين أن المدينة كبيرة .

والآن أخـبـرنى هل سـأرى فى هذه المـدينة أية شـركـة من الشركات الكبيرة أم لا ؟ قال ليست هناك أية شركة مطلقاً ، فقلت إنه لأمـر عجيب ، كـيف لاتوجد شـركة واحـدة فى مدينة بـهذه الضخامة ؟ واليوم أن البيع والشراء لايـتعدى أنواع البقالة ، فمتى تصل هذه المعـاملات التـجـارية إلى درجة التـجـارة على نطاقهـا الواسع ؟ وهل لـم يستـفد هؤلاء التجار من الشركـات الكبرى مع كل هذه الروابط والعلاقـات التجارية مع الأجـانب لأى سبب من الأسبـاب ؟ فقـال أنت لاتعرف أهل تبـريز ، فهـؤلاء كلهم (من واحد)[1] ، ولا يظهر بينهم (نصف من) ، فإذا اجتـمع خمسة أشخاص فى مكان ، انتخب عليـهم رئيس منهم ثم يستلبون عمله يعاون بعضهم بعضـا ، فلا يتمكن واحد منهم من الآخر ، وهذه ميـزة واحدة من مـيزات الأعـمال العظيـمة[2] ، وهم أنفـسـهم محـرمون منها فـليس غريبا إذن أن تعـجز البلاد أيـضاً عن الرقي والتقدم ، وذات مرة إتحد عدد من الأفراد وأسسوا شركة كبرى ، فأخذ كل منهم يفكر فى مصلحتـه الشخصية للوصول إلى منصب

(١) المقصود بعبارة : كلهم مَنٌ واحد ، أى أن طبيعتهم واحدة .

(٢) هذه ميزة من ميزات الأعمال العظيمة : عبارة تهكمية .

الرئاسة والقيادة ، فأدى هذا الأمر إلى حدوث الاختلافات ، وبعد أربع سنوات تصدع اساس الشركة ، فأدعى أحدهم إنه بإمكانه أن يشترى كل أسهمهم فى هذه الشركة ، ولم يمض قليل من الوقت حتى تيبس هذا الشخص في مكانه عاجزا ، إذ أنه من الواضح أن شخصا بمفرده لايمكنه أن يتحمل مسئولية عشرة أشخاص .

الخلاصة : أننا عدنا إلى الدكان بعد قليل من التجوال ، وأحضروا الغداء فتناولناه وقلت كيف حال التجارة ؟ قال لاتسأل مطلقاً فهى سيئة ومضطربة للغاية ، فقلت لماذا ؟ قال إن لذلك ألف سبب ، ولكن أسوأ الأسباب كلها هو وجود العملة السوداء[1] ، وتذبذب قيمة هذه العملة فى الأسواق ، مما أضر بالتجار الصغار والفقراء من الشعب ، الأمر الذى أدى إلى تخريب البيوت ، وعلاوة على ذلك فإنك ترى أربعة تومانات ونصف التومان من العملة الفضية ، تساوى اليوم ليرة واحدة ، وغدا سترى أن خمسة تومانات منها سوف تساوى نفس القيمة بشق الأنفس ، وهذا من شأنه أن يسبب على هذا النحو أضرارا وخسائر لايعلم إلا الله مداها ، خاصة بالنسبة إلى الأشخاص الذين يتعاملون مع (إسلامبول) وسائر المدن الأجنبية ، وهم أكثر الخاسرين ، فتاجر أصفهانى واحد ، قلب موازين كل إيران رأسا على عقب ، جازاه الله .

(١) العملة السوداء : المقصود وبها العملات الأخرى غير الذهب والفضة .

قلت ينبغى أن يكون فى " تبـريز " كثير من التـجار الكبار ، قـال لماذا إنـهم مـوجـودون ، ولكن ليس مـعلومـاً أن كـان بإمكانهم أن يثبـتوا فى مـواجهـة كل هـذه الضـربـات أم لا ؟ وعلاوة على ذلك ينتشر مرض الاعـجاب بالنفس والمظاهر الجوفاء بين كثير من تجـار " تبـريز " ذلك المرض الذي يصعب علاجه . وهناك بعض من الأفـراد والـذين التـبس عليـهم الأمـر ، وذلك بسبب مداهنة الآخرين ونفاقهم، فظنوا أنفسهم من كبار الموظفين، فـجمـعوا السـعـاه والفراشين إمـعانـا فى هذه المظاهر الجوفـاء ، واعتبـروا أنفسهم من ذوى السطوة والنفوذ فى بيـوتهم ، ومعلوم أن هذا الوضع لايليق بالتـجارة ، كما أن التجارة بهذا الشكل لن تتقـدم ، وكثيراً مـا تنتشر الشـائعات إن أصاب أحـدهم إفلاس ، وبمجرد أن تشيع مثل هذه الأخبار . فـإن جميع التجار الذين كانوا يتعاملون مع ذلك الشخص المتضـرر أو الضحية منذ قليل ، تراهم اليوم يبتعدون عنه ويقاطعونه ولا يردون سلامه ، ومن بين مظاهر الإسـراف والتبـريز ، أن التاجـر من هؤلاء التـجار قـد ينفق علي ضيـافة (ملا) كبـير خمسين تومـانا على الأقل ، وكل تاجر من هؤلاء التجـار إذ رأى فى حوزته مبـلغ عشرة الاف من التـومانات فإنه ينفق مبلغ أربعة آلاف تومان على بناء عمارة له ، فكيف يمكن الرجاء فى تجارة أولئك على هذا النحو ؟ والآن فـقد ابتدعوا بدعة جديدة ، فكل تاجر منهم رأى فى حوزته قليـلا من التومانات فإنه يسعى جـاهدا لكى يشتـرى الأملاك من الأراضى ، لكى يسـتولى على القرية الـتى فيهـا أملاكه السـالفة الذكر ، وإذا مـا رأى أحد

أحدا قد اشترى قطعتى أرض إحـدى القرى ، فإن نار المنافسة فى قلبه لاتخمد[١] ، حتى يصبح هو صـاحب القرية ، والآن أوضاع هذه المدينة وطبائع أهلها لايمـكن مقارنتها بأية مدينة أخـرى خاصة فى مثل هذه المنافسات التافهة .

فـقلت : حـسن جـداً ، طالما أن لديهم الثـروات ، فلمـاذا لايشتـركون فى تأسـيس الشركات أو مـصانع الغزل والـنسيج فى وطنهم حتى يستطيـعوا تكفين موتاهم[٢] أو يقيموا مـصنعاً لإنتاج الأقـمشـة الملونة ، أو يؤسـسـوا المصانع لإنتـاج السكر والشـمع الكافورى ، حتى تستفيد القرى من هذه المشروعات البناءة[٣] ولماذا

(١) يشير الكاتب هنا إلى تزايد أفراد الطبقة الاقطاعية فى إيران .

(٢) واضح أن الكاتب يستخدم السخرية والتهكم فى حـديثه ليبين كم كان الإيرانيون يعيشـون فى غفلة عن العالم ، وهذا يؤثر في القارئ والسامع إلى حد كبير .

(٣) واضح من الفـقرة السـابقة أن الكاتب يـخلص لبلاده ويأمل أن يراها فى عـداد الدول المتقدمة ، فهو يريد أن يرى فى إيران تجارة على نطاق واسع قوامها الشركات الكبرى وليس بعض الحوانيت والمحال المتفرقـة ، هو يريد أن يرى فى إيران مصـانع الغـزل والنسـيج سواء الحـرير أو القـطن ، حتى لاتكون إيران دائماً في حاجة إلي الأقطار الغربية مما يعطل تقدمها ورقيها ، بل وقد يصل الأمر إلى استعمار الـبلاد سواء كان هذا الاستعمار مباشرا أو غير مـباشر ، استعمار غير مباشر عندما انتهز الروس الأحوال السيئة التى كانت تمر بها إيران وأغرقوها بالقروض القائمة على الفوائد فسيطروا بذلك على جمارك إيران ، وفى نفس الوقت انتهز البريطانيون الفرصة أيضاً وراحوا يحصلون على امتيازات البترول واحتكاره ، وغـير هذا فإن امتياز (البارون جوليوس دو رويتر) في غـنى عن التعريف ، أمـا الاستـعمار المبـاشر فـذلك عندما تحالف هـذان العدونان المتنافسـان (الروس والإنجليز) وقسـما إيران إلى مناطق نفوذ وكـان عام ١٩٠٧م ، وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على يقظة الكاتب واستنارته . أنظر :

- Marlowe (John) ; Iran a short political Guide , p . 30 . London , 1963 .

تركـوا كل هذه الصناعـات المفيـدة قاصـرين أمـرهم على منافسـة بعضهم البعض حيث يستنـزفون دم فقراء الشعب ، وبهذا الشكل يكسبون الثروات والأموال الطائلة ؟ هؤلاء الذين تسميهم تجارا قد رأيت بنفسى مـعامـلاتهم التجارية ، فـهم ليسـوا تجارا بل عبـيدا للغرب ؟ وربمـا أعداء لوطنهم ، لأنهم جـميعـها يحـملون أموال الوطن سنوياً ، حيث ينفـقونها فى البلاد الأجنبيـة ، وفى مقابل هذه الأموال التى يحملونهـا معهم يحملّون أنفـسهم العناء والتعب عائدين إلى وطنهم بمنتجـات مستوردة تافهة وغيـر ثابتة ، ولو كان هناك إحصـاء لما يُنفق كل عام لاتضح أن هؤلاء الإيرانيين ينفـقون آلاف الآلاف من أموال الوطن وثروته والتى تـعد العمود الفـقرى لحيـاة المواطنين ، ينفقهـا هؤلاء الأخساء بأيديـهم فى أشكال شتى من المداهنة والنفاق على الأجانب ، فيشترون بدلاً من المنسوجات الحـريرية لوطنهم الأعـشاب الصـحـراوية دون أن يعلم المواطنون بذلك .

ولا يكاد يمر عـام واحد على تلك المنتـجات المسـتوردة حـتى تنقـرض آثارها تماما ، وقـال : مَنْ فى إيران يمكن أن يلتـفت إلى هذه النكات المقـدسـة بخـصـوص حب الوطن ؟ ولا يوجـد أى

تضامن أو اتحاد بين هؤلاء المواطنين ، وما أسهل أن ينشغلوا يومياً بنصب الكمائن ووضع الشراك فـى الطريق ، وذلك للقضاء على بعضهم البعض ، ولهـم مهارة عجيبة فى الإفـساد وتخريب بيوت بعضهم البعض أيضاً ، وشغلهم الشـاغل منحصر فى تتبع العيوب والتجـسس على معامـلات هذا وذاك ، ولو خسر أحدهم عـشرة تومانات فى مكان ما ، فإنه يستـخدم شتى أنواع الحيل لكى يسترد العشرة تومانات ألفى تومان ، وإذا مـا حصل شخص ما بعد عناء ومشقة على فـائدة أو منفعة تجارية خارج منطقة التـجارة المعروفة فى هذه المدينة ، فإنــهم ينقضون عليـه دفعة واحـدة ، ويقطعون هذه المنفعة التـجارية من جذورها حسدا وحقـدا منهم ، ويسعون فسادا فى إضرار ذلك الشخص فى تجارته .

الخلاصة : أنك لاتعلم الوضع هنا على حقيقته ، وما يقال فى هذا الصدد حـديث لن ينتهى ، وما قـيل قليل من كثيـر حول أعمال وأفـعال طبقة التـجار فى هذه المدينة ، وقد فـسدت أخلاق هؤلاء إلى الحد الذى لايرجى صـلاحها ، ولعل الله يتغـمد العالم بلطفه العميم فيسير فى جادة الصلاح والاستقامة ، ومن ثم فإنهم يسيرون فى الطريق القويمة كمـا فعل أسلافهم من قبل ، ومن ثم يصبـحون رحمـاء فيـما بينهم ولا يبحـثون عن تحـقيق مصـالحهم الشخصية ليضروا الآخرين ، فقلت لقد انتهينا من هذا الحديث ،

فما هو سلوك حاكم المدينة مع الرعيـة جمعاء ؟ قال : لاتسأل قط عن ذلك الموضوع ، إذ سواء كان الحـاكم صالحا أم طالحا ، ليس له بقـاء أو اسـتمـرار (حـتى لايمكنوا الحكام)[1] من دستـورية العـمل أو تنفيـذ القانون ، وهـو لايعلم أنه تابع لأحكام ذلك ، ومكلف بتنفيـذ ذلك كله ، وهو لايملك لنفسه من عـمله الصالح أمل الثواب ولا يأمـن الخوف من العقـاب ، وذلك لسوء تصـرفه فكيف تتوسم الخير فيه ؟ ولافتـرض أن الحاكم صالح معه ، فهو يعمل لمدة يومين وبعد ذلك يذهب لحالة مصطحبا عمله الـصالح مـعه ، وصـبـاح ذلك اليوم الـثالث يحل شـخص آخـر مكانه ، وحيـنئذ الملجـأ لله وحده ، إذ ينبـغي أن يكون فى أيدى حكامك قانون أو كتيب أو برنامج عمل أو بعض التـعليمات ، أو قل شيئاً منظماً مكـتوباً على ظهر ورقـة ، حتى يتصـرف أولئك الحكام مع المواطنين ، وفقاً لتلك المواد المندرجة بها فى الأمور المتعلقة بالجنح والجنايات والحقوق[2] ، ومن ثم تنـصلح الأمـور تدريجيـا ، وتختـفـى المفاسـد من بين الناس ، ويسـتـقـيم كل اعـوجـاج وانحراف بمرور الزمن ، وبدلا من أن يقـولوا أن الملك أو الحاكم

(١) المقصود بعبارة (حتى لايمكنوا الحكام) ، من يرأس هؤلاء الحكام .

(٢) واضح أن الكاتب يريد تطبـيق القانون فى إيران رهو يوجه دعـوته هذه إلى كل حاكم أو ملك بأن يلتزم بالقانون .

سجن المجرم ، يقولون سجنه القـانون ، وأعدمه القانون أيضاً ، فلا يصبح اسم الملك الرفيع رمزا للسمر واللهو ، ولا يلتبس الأمر على الحكام أنفسهم ويعتبرون أنفسهم مطلقى الأيدى بين الرعية ، وحينئـذ لن يعترض مـعترض على حكم القـانون ولو كانت هناك مشكلة تخص القانون فليحسمها القانون نفسه ، ومن هذا المنطلق يختفى اسم الـظلم بين المواطنين وتشيع الألفة والمحبـة بين الرعية والسلطان نفسـه ، فيعـتبر الملك الرعيـة أبناء أعزاء لديه ، وتعتـبر الرعية الملك بدورها الأب الحانى فتعزه ، وتضحى فى سبيله بكل ما تملك ، ومن ثم تصـبح الدنيا مملوءة بالعدل والإنصـاف فيكون سوق المنافقين وأصحاب الفتن فى كساد تام ، وقد رأيت ماذا فعل هؤلاء المواطنون فى غيبة القانون بالأمس القريب .

ثم دعانا صاحب المنزل باحترام إلى أكثـر من مكان معتبر أُعدَّ لنا بمجالس الضيافـة ، ووفقا للاتفاق كنا نذهب كل ليله إلى مكان ما ، وكـانت منازل هذه المدينة عـالية جـداً ، وكانت غـرف هذه المنزل مزينة وجـذابة للغاية ، إذ زينوا كل موضع فيـها بالبللور ، وإذا مـا دخل شخص مـا إحـدى الغرف وجـد أن نور المصـابيح وبريق البللور قد خطفا عينيـه ، وقد عُلق بسقف كل غرفه قناديل كبيـرة ونفيسة رمـز الملك ورمز الأسد والشمس ، كمـا عُلق أيضاً بالجدران أكواب ذات ألوان متنوعة ، ويبعث مظهر منـازل تجـار (تبريز) على الخـيال ، وهناك أيضـاً العديد من الأوانى الصـينية

والنراجيل الذهبية والفضية وآنية السفرة التى لانظير لها ، وحقيقة أن العقل ليحتار فى الإحاطة بجميع هذه المظاهر والتى تسبب فى المنافسة بين تجار المدينة منذ عدة سنين ، والواضح أن هذا الوضع المترف ليتنافى والتجارة تماماً ، وهذا المظهر المترف ليستحق اللوم واللعنه من الجميع ، لأننا نرى أن المصابيح لدى أية أسرة تجارية لاتطفأ إلا في منتصف الليل وغالباً ما تظل حتى الصباح .

الخلاصة : أننى قلت ذات يوم لصديقى (صاحب المنزل) : يا أخى لا أصابك مكروه ، لا يمكننى أن أسكت عن صوت الحق ، فأهل هذه المدينة (تبريز) والذين هم فخر آذربيجان كلها أجن من جميع أهالى مدن إيران كما رأيت ، قال لماذا ؟ وما برهانك ؟ قلت إن أهل الغرب قد خدعوا شيوخ هذه المدينة واعتبروهم أطفالاً صغاراً ، فأهل الغرب يصدرون لأولئك المساكين النقوش والرسوم الخزفية البالية فى مدنهم وصناعاتهم والتى مضى عليها إثنا عشر عاماً .

وقد أخذ الغربيون زجاج النراجيل ورؤسها ، حتى الأوانى الصينية ، وراحوا يرسمون فوقها صورا للملك ، بل إنهم تجاوزوا ذلك ورسموا صورة الملك فوق كل شئ تافه ، فى حين أنه ينبغى علينا أن نزين مجوهراتنا

النفيسة بتلك الصورة ، بل وينبغى أن نبالغ فى تزيين مجالسنا بتلك الصورة (المقدسة) [1] ، وليس أن نرسمها على أوانى القهوة والنرجيلة والشاى أو نلقى بها دون تمييز فى غرف المقاهى وفوق النيران وتحت أيدى الناس وأرجلهم ، وللإنصاف نقول : إن أى شخص مهما كان وضيعاً لايرضى أن يرى صورته مرسومة بهذا الوضع المهين ، فما بالنا بالملك والذى طاعة أمره ونهيه أمر واجب علينا ، وعلاوة على ذلك فإن الغربيين الأذكياء يحصلون على أموال طائلة من وراء ترويج تلك المنتجات ، ورؤوس أموالهم فى هذا الأمر هى التفكير وتحريك رؤوس الأنامل ، ومن ثم تدفقت أموال بلادنا على تلك البلاد الأجنبية ، تلك الأموال التى تمثل العمود الفقرى لتقدم بلادنا ، وأيضاً فمن استهزائهم وسخريتهم بنا فإنهم يستخفون بعقولنا عندما يصدرون لنا هذه المنتجات ، ونحن لانحرك ساكنا ، وينبغى احترام صورة الملك وتوقيرها فى المحاكم ومجلس النواب ومجالس المحاكمات أيضاً وينبغى احترام علامة الاسد والشمس [2] ، والتى هى رمز

(١) صورة الملك لاتعتبر مقدسة بحال من الأحوال ، ويبدو إن الكاتب يقصد أن تكون هذه الصورة موضع احترام .

(٢) يحمل العلم الايرانى علامة (الأسد والشمس) يرمز الاسد إلى السلطان غياث الدين كيخسرو الذى جلس على عرش السلاجقة فى القرن السابع الهجرى ، وترمز الشمس إلى زوجته الجورجية الأصل المسماه (تامار) الجدير بالذكر أن (كيخسرو) قد وضع الشمس على العملة الايرانية آنذاك تخليدا لزوجته السالفة الذكر ، أنظر :

- حسين مجيب المصرى : فارسيات وتركيات ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٧٥ ، ٧٩ .

دولتنا ، بعد احترامنا لصورة الملك ، وعلينا أن نحترم هذا الرمز إلى حد بعيد ، فمثله يضحى عظماء الممالك بأرواحهم فى سبيله ، ويعتبر وضع هذا الرمز فوق أشياء تافهة أمراً منافياً للاحترام ومنافياً أيضاً لأسلوب تقديس الدولة ، أليس من العيب أن يستغل كل تاجر وبقال هذا الرمز بدون أى ترخيص من الدولة من أعمالهم الشخصية ؟ كما أنهم يرسمونه فوق أوراقهم وأكياسهم التجارية ، وبتذكرى هذه المساوىء بلغت بى الحيرة مداها ، ولا أعلم أى شىء قلته ، وأحسست بآثار التعب والنصب ، فصمت عن الحديث ، وقال صاحب البيت : إن كل ماكتبته جاريتك من (مصر) بشأن تعصبك القومى لهو أقل بكثير مما آراه ، وقال : الآن يا أخى العزيز يمتلىء قصر السلطنه نفسه ومنازل وزراء الدولة والأمراء ورجال البلاط بهذه الأوانى وهذه الأشياء المزركشة التافهة ، ولا أحد يذم هذا الأمر ، فما شأننا نحن ؟ وأى ذنب لأهل " تبريز " فى هذا الصدد ؟ وإنى أشاركك رأيك والحق معك ، فى أنهم (أهل تبريز) يسرفون كثيراً فى هذا ، وهم فى سبيل ذلك يكلفهم شراء مثل هذه الأشياء الكثير من الأموال ، إذ أن مايدفعونه للحصول عليها يفوق ثمنها الأصلى .

فهم ينفقون سنوياً المبالغ الباهظة لكى يشتروا هذه الواردات ، وكان المضيف قد أعد هذه الليلة مجلساً عظيماً لضيافتى ، وأغلقنا المحل عصراً وذهبنا إلى البيت ، وبعد أداء الصلاة وارتشاف

الشاى ، أخذوا فى أضـاءة مصابيح المجلس ، فأضـاءوا المصابيح البللورية والفوانيس والمصابيح الكهربائية أيضا ، وأخذت المصابيح من كل صنف تتلألأ فى كل مكان كالبـرق ، وغدت غرف المنزل كاليوم المشـرق ، وبعد نصف الساعة من الغروب أخـذ الضيوف المحـترمـون فى المجىء إلى المجلس ، على فـتـرات مـتقطعـة ، وبعضهم لم يأت إلى المجلس إلا بعـد ساعة من الغروب ، ولعل التأخر بهـذا الشكل فى مجالس الضيافـة كان يدل على علو شأن من يتأخـر ، ولكننى لم أكن ألتفت إلى هذه النكتـة ، فتعـجبت لتأخـر بعض المدعويين ، وبعد ذلك فـهمت السبب فزاد تعـجبى وحيرتى على حد سواء .

الخلاصة : أن المجلس قد أمتـلأ وأن المدعويين جميـعهم قد حضروا ، وقد اتضح من وضع الحـاضرين وتبرمهم ، أن المجلس كان مكتظاً بالحاضـرين ، وكانوا يتحدثون بنغمات خـاصة والفاظ غليظة ، ولكن من نطقهم ورفع أصـواتهم اتضح أن مدى علمهم وثقافتهم كان محدوداً ضـيقاً ، وكان حديث الجالسين فى الغالب حديثـاً بالكناية ، وبلا ربط بين عباراته ، كمـا أنه خال من روح الأنس والمحـبة ، وكان كل شـخص منهم يتـحدث إن صـدقاً أو كذباً عن صـداقته بالخـان الفلانى والعـالم الفلانى ، ويعتـبر هذا الأمر مـوضع فخـره ومباهاتـه ، فكان يقول أحدهم : نـعم لقد حـضر بالأمس جناب ملك الـتجـار فى منزلى . . . . . . وهكذا

كانوا يتحدثون ، وأخذ يقول شخص آخر : أخذت بالأمس ثلاثة آلاف ليرة ،عن القيمة الفلانية المستحقة على حوالة إسلامبول ، وكانت كلمات ضيوف المجلس تحمل أرقاماً خيالية ، فكان الحديث يدور مثلاً عن خمسين ألفاً ، ومائة ألف تومان ، وقال أحدهم أيضاً لو كانوا باعوا لى معظم القرية الفلانية بثمانية عشر ألف تومان لم أشترها ، واحسرتاه فالآن سمعت أنهم باعوها بمبلغ ثلاثين ألف تومان ، وفى تلك الأثناء دار الحديث عن القمح ، فقال شخص من الحاضرين : إن الشخص الفلانى قد خزن ثلاثمائة ألف حمل من القمح ، فى حين أنه ينكر هذا الآن تماماً ، وأيضاً فإن العالم الفلانى يمتلك عشر قطع فى قرية من الأرض الخصبة ، وماشاء الله لدى فلان ثروة كبيرة ، وعن قريب سيمتلك ثمانين قطعة من الأرض فى أحدى القرى .

فضقت ذرعا بهذه الأحاديث التافهة ، وكلما حاولت أن أصبر ، نفد صبرى ، وبالفعل فقد أفلت زمام صبرى من يدى دفعة واحدة .

وقد أثارتنى هذه الأحاديث الفضولية فقلت أيها السادة إن لدى اقتراحا ، فقال أحدهم تفضل ، فالحق معك ، فأنت لم تتحدث قط ، قلت جناب السيد هذا الذى تقولون إن لديه سبعين أو ثمانين قطعة أرض فى إحدى القرى ، ماذا يعمل ؟ قال إنه من علماء " تبريز " الأجلاء ، فقلت لقد أدركت أنه من علماء تبريز

الأجلاء ، ولكن مـا أعنيه مـاذا يعمل وماهى مـهنته ؟ فـضحك سخـرية منى وتعجب لعـدم فهمى ، فـأدركت ذلك ، وقلت إن هذه الثمانين قطعـة تصل قيمة كل قطعة منها إلى حـوالى خمسة عشـر أو عشرين ألف تومان ، قـال هذا صحيح ، قلت بحسـبة بسيطة حسبـتها تخمينا فإن قيمة هذه الأرض سـتصل إلى مايقرب من ثلاثة كرورات ولا أعـلم كيف حصل على كـل هذه الثروة ؟ نعم فعندمـا يحصل شخص ما على مـثل هذه الثروة ، لابد وأن بعض الفلزات المعدنية النفيسة قد ظهرت فى قطعة أرض يملكها ، أو كأن يحصل شخص مـا فى بلاد الغرب على ثروة طائلة بقليل من المال وذلك من خلال ألعـاب الحظ واليانصيب من قبـيل لعبة اللوتارى [1] أو كأن يكون من أسرة قديمة فـيرث . أو كأن يحصل عليها بالتدريج من خلال تجارة كبيرة ، يراها ويعلمها الجميع ، أو بمفهـوم الإيرانيين يكون صاحب " كيـمياء " ، ومـا أعنيه هنا ، بأية طريقة من هذه الطرق التى عـرضت لها ، حصل جناب هذا السيـد على كل هذه الثروة ؟ وكمـا هو معلوم لاينبـغى أن تنتمى ثروة السـيـد السـالف الذكـر إلى أى ضـرب من الضـروب التى عرضت لها ، لأن الجميع يعلم حقيقة أسرة جناب السيد ، إذ أنه قدم هذه المدينة بعد أن فرغ من تحـصيل العلم والإجازة ، وكلكم تعلمون أنه لم يكن يمتلك أكثر من العصا والعباءة التى يرتديها ،

(1) لاتارى : بمعنى بخت آزمائى .

فلاشك أنه جميع هذه الثروة من الشعب بأى شكل من الأشكال ، والآن : ألا ترون أن هذا السيد المحترم قد جمع كل هذه الأملاك والعقارات من الشعب وفى غضون مدة قليلة ، فماذا يحدث لو أنه أنفق ربع عائدها السنوى من أجل خدمة هذا الشعب ؟ كان يؤسس مدرسة من تلك الثروة من أجل تعليم وتنشئة الأطفال الايتام والفقراء لهذا الشعب ، ويجعل أيضاً عائد قطعتين من أرض هذه القرية وقفاً على نفقة تلك المدرسة ورعاية أولئك الأطفال الفقراء الأيتام ، فيحيى بذلك بعضاً من النفوس المتعطشة للعلم والأدب ؟ أو كأن يؤسس مستشفى من أجل الغرباء وفقراء الشعب حتى يمكن أن يجد فيه المرضى الفقراء حاجتهم من الرعاية والعلاج . فلا يموت هؤلاء الغرباء والفقراء فى ذلة وهوان شديدين تحت أنقاض منازلهم المتواضعة .

وهل يليق بشأنك أن لاتوجد مستشفى فى هذه المدينة الكبيرة ، والتى تطلق عليها دار السلطنة ؟ وقسما بالله لايوجد فى أى شىء ثواب قدر مايوجد فى هاتين الخدمتين (المستشفى والمدرسة) ، وهاتان الخدمتان ضروريتان لك كأداء سائر الواجبات ، وحقيقة فأنكم بعيدون كل البعد عن السداد فى الرأى ، إذ لايرى أى مرفق خيرى عام من ذلك القبيل فى هذه المدينة الكبيرة ، وكل غريب يدخل هذه المدينة يظن أنكم لاتعرفون شيئاً عن الحياة الإنسانية ، ولن يخرج بأى انطباع عن هذه المدينة سوى ذمكم ، ولنضرب صفحا عن عدم اهتمامكم

بالأمور القومية للبلاد (نرى) أنكم أيضاً لم تؤسسوا شركة واحدة من أجل ترويج التجارة ، وكذا توسيع نطاق معاملاتكم التجارية ، على حين أن كل المواطنين هنا يعملون بالتجارة ، كما أنكم محتاجون إلى الغرب فى كل شىء من ورق القرآن إلى أكفان موتاكم ، وإذا مامتنع الغرب مستقبلاً عن بيع الملابس لكم بدافع من العداوة ، فحينئذ سوف يظل أحياؤكم عراة بلا ملابس وموتاكم بلا أكفان .

فى حين أنكم تتفاخرون بهذه المصابيح والفوانيس (علامة الملك) ، وتتباهون بهذه المظاهر المترفة ، وعندما تنظرون إلى تلك الزينات الزائلة والتافهة تغلبكم المباهاة وتظنون أنكم وحيدى عصركم ، ولانظير لكم فى العقل والإدراك والثراء وأثاث المنزل ، في حين أنكم تعلمون أن حديث هذه الضيافات ذات الأبهة والثناء على كل هذه المظاهر التافهة سيعفو عليه الزمن ولن يبقى له أثر أو رسم بعد شهر واحد فقط ، وحينما تكونون يداً واحدة ستدركون أن هذه النفقات المترفة الباهظة أمر يستحق الزجر واللوم من العقلاء فى الدنيا و وفى ذات الوقت هو أمر سيترتب عليه عسير الحساب فى الآخرة ، ولو انفقتم فى كل عام نصف هذه النفقات على المرافق الخيرية ، وذلك من خلال معالجة فقراء الشعب ومغتربيه وإنشاء دور الصناعات والمدارس ، وذلك من أجل تنشئة أبناء الشعب الأيتام وتعليمهم ، لاشك سيكون هذا موضع

سموقكم فى الـدنيا والآخرة ، وقسمـاً بالله لو أنكم واظبتم منذ أربعين عامـاً على تنفيـذ هذه الاعمال الخـيرية التى عـرضت لها بالتـفـصيل لـكان اليوم وطنـنا المقدس هـذا أعمـر البـلاد ولكان مواطنونا أعز شعوب العالم .

ولبلغوا الذروة فى مـجال العلوم والمعـرفة ، واحسـرتاه فإن عصـوركم انقضت فى الغفله ، وانتـهى كل شىء قومى يمكن أن نفتخر به ، وأصبحنا اليوم عاجزين وتحت سيطرة الآخرين ، ولو كنتم فتـحتم تلك المدارس التى أعنيـها وأتحدث عنـها منذ أربعين عاماً ، لما سيطر اليوم علينا هوس المظاهـر الخزفية وما دار حديث فى مـثل هذه المجـالس إلا عن وسـائل رقى الدولة والشـعب ، وعندما وصـل طرف الحديث إلى نقطة الملاحظات التـافهـة حيث كان يتوقع أن ينفض المجلس ، استمر مجلس ضيافة هذا المضيف المحتـرم ولم ينفض حتى مـر من الوقت ساعة ونصف الســاعة فقلت : لاتنتظر الضـيوف حتى يأتوا مجلسك وبالنسـبة لى فإنى أذهب فى أى وقت اشاء ، ومكانى فى صدر المجلس .

وهنا التفت وإذا بصاحب المنزل يخـجل من مقولتى وتصبب المسكين عرقـا فأومـأ لى برأسه مامـعناه أن هذا سبب لى حـرجاً وخجلاً شـديدين ، وفى تلك الأثناء قال أحد الضـيوف لصاحب المنزل : أن ضيفـك المحترم فلانا هذا رجل عجـيب ، وهو يثرثر كـثـيراً ، فـأجاب صـاحب المنزل ، إنه شـديد التعـصب لوطنه

وشعبـه ، وهو يسوق كل هذه الأحاديث نظراً لحـبه الزائد لوطنه ومواطنيه ، فهو يتصرف عن غير إرادته بسبب تقديسه لوطنه وحبه لشعبه ،فماذ يفعل ؟ وتحدث شـخصان آخران وقالا : قسما بالله إن مايقوله لحـقيقة ، وكل من رأى المـالك الأخرى وشاهد هممم الشعوب الأجنبية بصدد تقـديس الوطن يعلم جيداً ماذا يقول هذا الشخص ، وكل مايقوله حقـيقة وواقع ، ونحن مازلنا نجهل حب الوطن ، ولم نسـتفـد بعد من منافع الوحـدة ، وفى تلك الأثناء أخبرنا أن العشاء معـد ، فدعانى الجميع قائلين : بسم الله ، بسم الله ، فضـحكت وتقدمت حـيث صدر المأدبة ، ولكن أيـة مأدبة متنوعة . . . . . . وأية أطعمة مختلفة [١] وأثناء تناول الطعام دارت بعض الأحـاديث المتـفرقـة ، ومـضت ليلتنا على هذا النحـو ، ومكثت فى " تبـريز " مـدة ثمـانيـة عـشـر يومـاً ، ولم أر من المواطنين هناك سـوى إبراز الذات والاهتمام بتـوافه الأشـياء ، مما لاينفع فى الدنيـا أو الآخـرة ، ولكن المدينة نفـسهـا لاتخلو من الأهمية ، فأسواقها عظيمة ، ومنازل القوافل بها ومتاجرها عظيمة أيضاً . ولكن وأسـفاه ، فليس هناك شىء من السلع والمنتـجات المحلية يمكن مشاهدتها فى تلك الاسـواق والمتاجر باستثناء " اسم القمح الذى خزنه حضرات السادة فى مخازن مظلمه وأغلقوا على هذا المحصول بالأقفال فألقوا المفاتيح فى نهر (أرس) [٢] ويقولون

(١) أورد الكاتب هذه العبارة (كَلِ كيغم كَل) بمعنى أقبل يامزاجى أقبل .
(٢) يعنى الكاتب بهـذه الفقـرة حول مـحصـول القمح ، أن الغـذاء الرئيسى للمـواطن الإيرانى محتكر ، وأن من يحتكره هم الإيرانيون الأثرياء من الإقطاعيين .

للفقراء لن نبيع لكم مثقال ذرة منه (القمح) حتى ولو دفعتم فيه ثمنا دماء قلوبكم ، وهكذا يرد الفقراء قائلين : أيها السادة لم يبق دم فى قلوبنا ، وأن هذا الجسم الذى ترونه خال من الروح والدم ، ولم تعد له قيمة .

الخلاصة: أننى كنت أفكر فى الذهاب إلى (جلفا) والتى تقع على ساحل نهر (أرس) [1] ، والتى تمثل أيضاً الحد الفاصل بين ايران وروسيا ، وقد أصر المضيف المحترم على أن أمكث عدة أيام أُخر ، فاعتذرت ورفضت ذلك ، ثم أرسلت خادماً فى طلب جوادين من مقر تأجير الجياد ، إذ اننى أردت رسولاً لكى أرحل عن هذه المدينة فلا أرى تلك المساوىء ، ومن ثم أظفر بغرض على جناح السرعة .

(٢) أوردهما الكاتب (جولفه ، واراس) .

وأهل هذه المدينة معجبون بأنفسهم فى الغالب ، ومصابون بهوس المظاهر التافهة وجميعهم على استعداد للنفاق وهم غافلون عن منافع ومزايا الوحدة والاتحاد ، كما أنهم مشغولون دوما بالفتن بين بعضهم البعض ، وقلوبهم تغتبط كثيراً لذلك ، حتى يحدث اختلاف أو خصام بين شخصين من بينهم ، حتى أنهم غدوا فرقتين ، وكثيراً ماتهب فرقة منهما لمناصرة أحد الطرفين المتخاصمين لذا يعقدون الاجتماعات ويتبادلون الرشاوى ، فهم يثيرون الفتن بين الطرفين المتنازعين حتى ينهار الطرفان فى النهاية ، ولايتحدث أحد من باب الإصلاح فى مثل هذه النزاعات ، فالكل ينتظر ساعة الإنتقام حتى يسحقوا كل من تزلٍ قدمه من الآخرين ، وهذا هو شغلهم الشاغل ، وهم غافلون عن أوضاع عصرهم ، فلا دنيا لهم ولا آخرة ، ومنتهى آمالهم أن يعلق يسقف كل غرفة مصباح ماركة (الملك) وعدة زينات أخر ويعتبرون ذلك ذروة فخرهم ومباهاتهم .

(أحياء ولكنهم أموات . . . . . . أموات ولكنهم أحياء) .

الخلاصة : أحضر ذلك الصبى الرسول الجياد ، وفى نفس اليوم ودعنا المضيف ومن هناك توجهنا نحو ساحل (أرس) بقلوب ملوءها الحزن والألم ، ولما خرجنا من المدينة شددنا ركاب

الدواب وسرنا حتى بلغنا منطقة لانرى منها ضواحى المدينة ، ورأينا هناك عدداً من الأشخاص وقد جلسوا على يمين الطريق ويسارها ، وأخذوا ينظرون نحونا ، وسألت الرسول لماذا جلس هؤلاء على يمين الطريق ويسارها ؟ ولماذا اختاروا هذه المنطقة البعيدة عن العمران ليجلسوا بها ؟ فقال سيدى العزيز ربما هؤلاء من سادات القرية ، وهم ينتظرون مجيئكم هنا ، قلت لماذا ؟

قال لاشك ان السادات ينتظرون منكم شيئاً ، وينبغى عليك أن تعطى هؤلاء حاجتهم حتى تمر سالماً ، فقلت : لاغبار ، أعد ياعم يوسف خمسة قرانات حتى إذا ما وصلناهم أعطها لهم ، ورأيت الرسول يضحك عفويا ، فقلت لماذا تضحك ياعزيزى ، قال لإعدادك الخمسة قرانات ، ففهمت أن التعامل مع السادات قد بدأ وشيكاً ، فقلت كم نعطيهم إذن ؟ فأجاب الآن نصلهم وسترون بانفسكم .

الخلاصة : لم يمر وقت طويل حتى بلغناهم ، فرأيت أنهم بين عشرة أو خمسة عشر شخصاً ، وتبدو عليهم سمات السيادة وذلك من عماماتهم وشالاتهم الخضراء والزرقاء ، وتقدموا من جانبى الطريق ووقفوا أمام جيادنا ثم ألقوا السلام ، فرددنا نحن بدورنا السلام ، وقالوا فى صوت واحد أعطونا عطاء السلامة ، فأعد يوسف عمى النقود وأعطاها لهم ، وقال ليس معنا نقود

أخرى فـقَّسموا هذه فـيما بينكم ، وعندمـا سمعـوا هذا الحديث غضبـوا جميعـا ، ونثروا النقود فى وجه عـمى يوسف ، وقالوا اشتر بهذا المبلغ عصيـراً وأمسح به رأسك ، وقال شخص آخر أن لم يكن معكم نفقة الطريقة أعطيناكم عدة قرانات ، . . . . ياللك من رجل ليس عنده أدنى خـجل ، أتظن أنك تتصـدق علينا دون مقـابل ؟ وبينا نحن كنا فى خضم هذا النزاع رأيت شـخصين من بينهم وقـد أمسكا بقـدمى يوسف عمى من الجـهتين ، وأرادا أن ينزلاه من على جواده ليـجراه على الأرض ، ومن ناحيـة أخرى لف عـدد من الاشخـاص عبـاء اتهم على سـواعدهم وأمـسكوا الهراوات تـأهباً واستـعدادا للـعـراك والهجـوم ، فرأيت ضـجه عظيمة ، فقلت سيدى العزيز لـيس لك شأن بهذا الشيخ فأُقتربوا أكثـر حتى نرى ماذا تريدون منـا ، فقال أحـدهم اننا نريد أموال جدنا لـيس غير ، فـقلت : نفـسى فداء جدك ، فـأى دَيْن لكم عندنا ؟ وماهى حقوقكم ومطالبكم منا ؟ قال إن ماتملكونه كله لنا فيـه خمس ، حتى أصـابع يدك الخمـسة ، للسادات واحـد منها كحق لهـم ، قلت سيدى العـزيز أولا : كيف علمـتم أننا أثرياء ونملك أى شىء ؟ ثانياً كيف علمـتم أن لدينا شىء كخمس وحق للسادات ؟ ثالثاً : كيف عرفتمونا ؟ وما أدراكم بمذهبنا وشريعتنا ؟ رابعـاً : كيف نعـرف أنكم سادات وأولاد الرسـول (ﷺ) ، خامساً : متى أمر رسول الله (ﷺ) حتى تقطعوا الطريق على

المسافرين الأغراب فى الصحراء وتطلبوا منهم المال تحت تهديد الضرب بالهراوات ؟

وقال أحدهم : يالك من رجل فضولى كن حكيما وفكر جيداً وحينئذ تحدث ، فأولاً كيف تأتت لك هذه الجرأة فتريد منا بيِّنة على أننا سادات ؟ ثانياً : أننا نعرفك جيدا ، فأسمك إبراهيم بيك ، وتقيم فى " مصر " ، وقد ترك لك والدك مائتى ألف تومان نقداً كميراث ، ولك أيضا أخت ، وقد أتيت فى هذا السفر من زيارة جدى الإمام الرضا (عليه السلام) إلى " طهران " ، ومن طهران إلى تبريز ، والآن أنت بصدد العودة إلى مصر ، ورحم الله والدك ، فقد كان ينعم على السادات بالشيء الكثير ، وقد كان صاحب حسنات وصدقات ليس مثلك ، والآن هل أدركت أننا عرفناك جيداً ولم نحتجزك دون معرفة ؟

لذا فلا تعطلنا أكثر من هذا فيلحق بك الضرر ، إذ لو جاء عشرة أفراد من السادات الآخرين سوف يصبح عبؤك ثقيلاً ، وتعلم أنت أربعة عشر شخصاً من أولاد الرسول (ص) ، وقد انتظرنا قدومك متجشمين حرارة الشمس الشديدة فى هذه المنطقة النائية عن العمران ، فأعط كلا منا خمسة تومانات على الفور ومر سالماً ، وتعلم أن هذا المبلغ التافه الذى نتقاضاه فى مقابل وقوفنا هنا لأداء مثل هذا العمل هو ظلم لأنفسنا ، فإذا انتظرت

لن يبقى معك شيء[1] ، وسوف يضربونك ضربا مبرحاً ، ويسلبونك أيضا كل أموالك ، فرأيت أن مايقوله أمر حقيقى ، وفى النهاية سوق ينتهى الأمر إلى مايقوله ، فأضطررت إلى أن أشير إلى الرسول " السائس ؛ لكى يتوسط بينى وبينهم ليخلصنى من قبضة هؤلاء الأشرار وكان الرسول رجلاً محنكاً ومجرباً ، فتقدم بعد أن فهم إشارتى وصرخ السائس قائلاً : أيها السيد لاتعطلونا أكثر من هذا ، فنحن ينبغى أن نصل إلى المنزل فى ساعة محددة ، وبعد أن أخاف السيد زعيم السادات انتحى بلطف جانباً وعاد الينا بعد حديث طويل ، وقال : أعطوهم عشرة تومانات فقلت ليوسف عمى على الفور أعطهم ليرتين عمثانيتين ، فأخرج المسكين النقود وقال للسيد خذ هذا الحساب ويوم البعث سيجمع بيننا الحساب ، فى حضور جدك ، فأخذ السيد النقود وقال فى عدم إكتراث لاتنسى هذا الموضوع ، ولو أردت اكتب الرسول السائس شاهدا على ذلك ، فرفع يوسف عمى رأسه صوب السماء وقال فى تضرع تام (وكفى بالله شهيداً)[2] .

الخلاصة: إننا تخلصنا من براثن هؤلاء الأوغاد بعشرة تومانات ، والآن فإن الشيء العجيب أن ٠ الرسول) كان مبتهجاً للغاية ، إذ قال : لقد تخلصنا بلا مقابل ، وأخذ يقول أشكروا

(١) أورد الكاتب هذه العبارة حرفيا : سوف تأكل بصلا آخر الأمر .

(٢) النساء / ٧٩

الله أنكم مررتم سالمين ، فهوءلاء لايكفون أيديهم عن جيوب الخلق بسهولة ، فقلت : ماهو الباعث على الشكر ياوالدى ؟ لقد قبضوا علينا نهاراً عند بوابة مدينة كبيرة ، وأخذوا منا أتاوة ، ونشكر الله أيضاً ، فقال سيدى ، ياسيدى أكرر القول ، اشكروا الله . إن أى زائر أو مسافر من التجار وغيرهم لايمكنه أن يعزم على السفر نهاراً من " تبريز " خوفاً من هذه الجماعة ، ولهذا يتخفى البعض فى زى القرويين ، ويتخفى البعض الآخر فى زى الجمالين وبائعى الفحم ، ويسافر جُمع سالكا الطرق الوعرة والتى بها آلاف المخاطر ، وكل من قدر له وسقط ضحية فى قبضتهم يحاولون ضربه بالعصى والشوم ، وهؤلاء نوع من قطاع الطريق والذين لاينالهم أى عقاب . فقلت لعل حاكم المدينة لايعلم بهذا الموضوع ، قال (رحم الله والدك) لماذا لايعلم ؟ أن أعمال هؤلاء لاتخفى على أحد ولكن ماذا يفعل ؟ إنه عاجز عن معاقبة هؤلاء ، وإذا ماتعرض أحد السعاه لواحد من هؤلاء السادات بسبب انحرافاتهم ومفاسدهم ، فإن القيامة تقوم لهذا الأمر ، وعلى الفور سترى أن ألف شخص من الطلاب والسادات فى المدينة سوف يتجهون نحو هذا الساعى مباشرة ليضربوه ضرباً مبرحاً حتى يفارق الحياة ، ولن يستطيع أحد أن يحيمه ، فقلت لماذا لايمنع السادة العلماء فضائح هذه الطائفة ، ولماذا لايمنعون هذا الأمر المخالف للشريعة والدين ؟ ولماذا لايمنعون أيضاً هؤلاء

من ارتكاب مثل هذه الأعمال المشينة والأفعال المحرمة بأية وسيلة من الوسائل ؟ والآن فإن الله ورسوله لضائقان بهذه الأعمال المخالفة للشريعة ، فى حين أنهم ينسبون أنفسهم إلى رسول الله (ﷺ) ، من خلال هذه الأعمال الشريرة والتى يندى لها الجبين . ويقولون نحن سادات وأولاد الرسول (ﷺ) .

(هذا الشبل من ذاك الأسد . . . فقل هل تشبه أنت الرسول ؟) [1] فأى خلق من الأخلاق لهؤلاء اللصوص والمحتالين يمكن أن ينسب إلى خصال الرسول (ﷺ) وذريته الأطهار ؟ قال الرسول : ياعبد الله إن هؤلاء السادة العلماء أنفسهم والذين تتحدث عنهم هم السبب الرئيسى فى جرأة هذه الطائفة ، فهم فى حمى العلماء ، وقد منح العلماء أنفسهم هذه المهنة (قطع الطريق) لهذه الطائفة .

وهؤلاء (السادات) أيضاً سعاة العلماء وجنودهم ، ويحميهم العلماء من أى أذى قد يلحق بهم ، حتى يستخدموهم عند الضرورة ، ولعلك لم تر أى عمل قام به هؤلاء السادات منذ أسبوعين ، إذ أنهم أغاروا على بيت الحاكم فى خلال ساعة واحدة بإشارة من اليد ، وخربوا العمارة من أساسها حتى أنهم سرقوا أمتعة حديقة المنزل ، فهؤلاء يحتاجهم العلماء فى مثل هذه الأمور والمهام ، وقد أصبحوا يفعلون مايريدونه فى الناس

(١) شيررا بچه همی ماندبدو . . . تو به پیغمبر چه میمانی بگو .

سلبـاً ونهباً ، وهم يـنفذون كل مانيـط بهم من حرية ولامـبالاة كاملتين .

الخلاصة : أنني رأيت أن كل مـايقـــوله هذا الرجل أمـر حقيقـي ، فقلت لنفسى ماذا عساى أن أفـعل ؟ إذ ينبغى (الهدم والبناء) فى آن واحد ، وعلى كل فقد جزنا هذه العقبة ، ولكن أطالب قراء هـذه السياحـة أن لايتركـوا قراءة هذا الفـصل حتى يكونوا على بينة حقـيقيـة لما يدور فى هذه المدينة ، وإلى أى حد بلغ الهرج والمرج بها ، وإلى أى درجـة ديست حقوق الشعب ، وإلى أى حد بلغ حال الحكومة من الضعف والغفلة ، وكم ابتعد علمـاء الشعب عن جـادة الطريق ، والذين هم المحـافظون على الشريعة ، وقـد صدق من قال (إذا فسـد العَالم فسد العَالِم) ، فى حين أنه ينبغى أن يـقصر السادة الـعلماء اسم السيـادة عليهم دون غيرهم ، حتى يخلصوا هذه الشرذمه الأوباش من كل عمل غيـر صائب ومخالف للشـريعة ، وينبغى عليـهم (العلماء) أن يعاقـبوهم حـتى لايطغى الأشرار عـلى الأخيار ، حـتى لايصل الأمر كما هو الـيوم ، إذ أن كل طائفة شقية تظن أن شـخصاً ما سيدا فتسلم نفسها له ، وتريد أن تخفى نفسها فى جحر فأر حتى ولو أن ذلك السـيد ليس كمـا تتوقـعه وترجـوه ، وتجد فى كل المساجد وعلى كل المنابر أن مواعظهم منحـصرة فقـط فى فضيلة (الخمس) وتشـجيع الناس على ادائهـا ، ولم أسمع ولم أر أن أى واعظ أو ناصح ينصح السادات بالابتـعاد عن ذلك الطريق ،

إذ أن التسول محرم على ذرية النبى (ﷺ) ، كما أن ابتزاز الناس خارج المدينة وضربهم بالعصى يعد جرماً كبيراً ، وهو مخالف للشريعة وعمل مشين ، وينبغى على السادات أن يجعلوا سيادتهم الرفيعة مقدمة على كل شيء آخر ، وينبغى على السيد أن يعلم إلى أين تنتهى سلسلة نسبه ، نعم إنه ذنب خطباء الشعب الذين لايذكرون هذه الجماعة بالنصائح القيمة لعظمة سلسلة نسبهم .

وهم لايتركون هذه الأعمال المخالفة للشريعة ، وعلى العكس فإنهم يحثون الناس على الأذى والظلم والذلة والبطالة ، وكيف يمكن أن يرضى رسول الله (ﷺ) ، أن يعيش بنوه عاطلين وهم أصحاء ليسألوا الناس حاجتهم ؟ أجل إن كل من كان من أفراد الشعب متعباً أو عليلاً ، وليست لديه القدرة البدنية على العمل سواء كان سيدا أو مسوداً يستحق العطف والحماية من أغنياء الشعب ، أما فيما يتعلق بموضوع الخمس فهو أمر مرتبط بعدل الإنسان ومدى التزامه بأوامر الدين وليس بضرب العصى ، ومعلوم أنه حينما يسعى هؤلاء السادات العاطلون فى طلب العمل والصنعة فبلاشك أن أبواب الرزق لن توصد أمامهم . وحينئذ سوف يصونون عزة أنفسهم وسوف يستفيد من سعيهم وعملهم الدولة والشعب بل وسائر المواطنين .

وحينما يقال أنه لايليق بالسادات أن يمارسوا كل عمل متواضع ، أقول إن ادعاءهم هذا واه . فقد كان جدهم الطاهر حجة الله على العالمين ، ومن ثم وجب على الأمة الإسلامية أن تحذو حذوه فى مستقبلها ، إذ كان يثنى على كدح الآخرين وعلى أية حال ينبغى على الشخص الذى عليه الخمس أن يتوجه إلى سيد المدنية ليقابله ويقبل يديه وقدميه ويطلب منه أن يأخذ الخمس ليتخلص من دينه وليس أن يصول ويجول السادات جماعة جماعة فى البلاد الأجنبية ، ويجبروا الناس فى الأراضى المسيحية على طلب الخمس بشكل فاضح ، حتى بلغ الأمر اليوم أن الدولة الروسية حظرت دخول أى شخص إلى بلادها ممن يرتدون العمامات الخضراء والزرقاء على رءوسهم ، وأخيراً نقول من باب الإنصاف إن طريقة التسول هذه تعد من الأفعال المحرمة التى يرثها أبناء السادات أبا عن جد ، وستظل أبواب هذه الذلة حتى يوم البعث مفتوحة أمامهم ، ومن ثم سوف يعود وبال هذا الأمر نكالا على من كانوا سبباً فى تحريض هذه الطائفة وتشجيعها ، وفى اعتقادى أن أى سيد صحح النسب لايعرض نفسه لمثل هذه الذولة حتى ولو يموت جوعاً والسلام .

الخلاصة: أننا ابتعدنا عن الموضوع ، ولم تكن هذه الأحاديث قد انتهت جميعها ، حتى تراءت عن بعد قصبة

(مرند) [1] ، فشددنا بدورنا ركاب الجياد ، ودخلناها بعد أن سرنا ساعة من الزمن ، فترجلنا فى بيت الرسول ، فقال الرسول واضح إننا بهذا الشكل ستتعطل هنا عدة ساعات ، كما أنه يتواجد فى هذا المكان رسل وسواس كثيرة ، ومن ناحية أخرى يكثر تردد المسافرين من (أورنق وانزاب) [2] إلى تبريد وجلفا .

ومن هنا قلما يكون جواد معد فى مقر الجياد ،

الخلاصة : عندما نزلنا قلت فليعدوا قدرا من الشاى ، وارتشفناه ، ونظرا لعناء الطريق فقد استرحنا قليلاً من الوقت ، ثم رأيت مابين ثلاثة أو أربعة أفراد آخرين قد دخلوا لتوهم مثلنا وقد حزموا مالديهم من حاجيات السفر ولوازمه ، ورأيت واحدا من أولئك ذا قامة طويلة وقد صبغ لحيته باللون الأسود ، و خضب يديه بالحناء ، فكانت أصابعه كخواتم عقيقيه ، وقد وشح رأسه (بوشاح الرضا) . كما وضع ذلك الرجل المميز عمامه سوداء على رقبته ، وجلس غارقاً فى بحر من الحزن والكدر ، وبعد ارتشاف فنجانين فى الشاى ، قلت انهض ياعم يوسف لنذهب ونتجول قدراً من الوقت فى هذه القصبة ،

(١) مرند : قضبة من أشهر قصاب آذر بيجان –
الحموى : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٥٠٣ .

(٢) انزاب : أحدى قرى اردبيل
دهخدا : لغت نامة ، شمارة (حرف) : " أ " ، ص ٣٩٤ .

وسألت أولئك المسافرين قائلاً : أيها السادة من أى طريق يمكن أن نذهب إلى سوق القصبة ؟ فأجاب ذلك الرجل المعمم والمميز قائلاً : إن كنتم ستشترون فاكهة وما إلى ذلك فاذهبوا من هذه الناحية . قلت : لن نشتري شيئاً نحن ذاهبان بغية التجوال والتطواف ، فقال إن كان غرضكم التجوال فلا تذهبوا مطلقاً ، إذ أنك لن ترى أو تسمع شيئاً فى هذه القصبة سوى أعين المواطنين الباكية وشكوى النساء ونواحهن ، (فكل محال المدينة حزينة ثكلى) ، قلت لعل واقعة حدثت فشملت مصيبتها كل المدينة ؟

قال : لقد نزل وباء الجدرى من السماء بأرض هذه المدينة لمدة شهر كامل ولم يسلم من هذا الوباء (الإلهى) بيت واحد إلا وتوفى منه طفل ، وليس هناك أبوان إلا وفجعا فى أحد فلزات أكبادهما ، ومن بين هؤلاء أنا نفس أحد الضحايا التعساء ، إذ أن قلبى مكلوم لموت ابنى المحبوبين فى غضون أسبوع واحد ، وعلاوة على حزنى لوفاة ولدى وبكاء أمهماونواحها عليهما ليل نهار حرمت على نفسى كل شىء فى الحياة ، وهذا الذى جعلنى أنوى السفر هائماً على وجهى فى الصحراء ، ولا أدرى أين أذهب وماذا أفعل ؟وفى تلك الأثناء راح المسكين يتمثل بعض أبيات الرثاء التى تعبر عن حالته فى صوت عال ، ثم أخذ فى البكاء والنواح ، ولما أخذ يبكى بدموع

غذار مــن عينيــه احترق قــلبى حزناً لحــالــته ، فــقلت لعلكم لم تطعمــوا أنفسكم بمصل ضد وباء الجدرى ؟ قــال ياهذا أى مصل للجدرى هذا ؟ هذا كله من أقــوال الغربيين ، فقد كانت المشــيئة الإلهية وراء هذا الأمر .

وقد ردد هذه الكلمات كثيراً ، قلت ياسيدى ماإسمك ؟ قال حــاجى ملا . . . . وقــارىء تعزية ومــن أهل مرند ، قلت أيهــا الحاجى المعلم ، كم توفى من الأطفال فى هذه المدينة بسبب هذا المرض ، قــال بحــساب المــتعــامى ، حــتى أمس وارى بالتــراب ستمــائة شخص ، وقد اصيب أكثــر من مائة طفل هم بين عليل ومشوه وأعمى ، قلت ياسيدى العزيز أن ذنب كل هؤلاء الأطفال الأبرياء فى عنقك وفى أعناق كل من أعــتقــد أن التحــصين ضد مــرض الجــدرى من أقــوال الغــرب ، آلام هذا الجــهل ومــاهذه الأحاديث ؟ إذ أنه بسبب هذا الاعتــقاد الخاطىء توفى كل هؤلاء الأطفال الأبــرياء ؟ الا يكفى انكم تريدون أن ترجئــوا هذا المعنى بلا خجل إلى المشيــئة الالهية ؟ وأنى لألجأ إلى الله لاعــتقاداتكم الباطلة هذه ، فكل هذه النتائج المشئــومة من غفلتكم وجهلكم ، أترجىء هذا الأمر إلى المشيئة الإلهية وهى التى سوت كلاً منا من قطرة مــاء وطين فى أحسن صــورة وأحسن تقــويم ؟ وذلك لكى يكون هذا الإنسان ناطــقاً ومميزاً للخــير من الشر ، وبالعــقل فإن القدرة الإلهيــة تبدع فى عقل الإنسان هذا وقلبــه وتعلمه العلم ،

ولهذا فهو يوحّد الله ويعبده من باب المعرفة فلم يخلق الله أى شىء عبثاً ، وقد خلق لكل داء دواء ، وكثيراً مايوجد فى هذه النباتات والورود والأعشاب فى الصحراء الدواء لمثل هذا النوع من الأمراض ، وقد ترك لنا أجدادنا كثيراً من الحكم ، فقالوا ينبغى على المريض أن يذهب إلى الطبيب ويطلب منه العلاج ، ولعلك لم تسمع أن الله سبحانه وتعالى قد أمر موسى بدُرَرِ الوصايا بقوله سبحانه : ياموسى إننى لاأشفيك بدون وسيله وسبب ، إذ ينبغى أن تذهب إلى الطبيب أولاً ، وتصف له مرضك ، ولعلك لم تقرأ أن حضرة خاتم الأنبياء صلوات الله عليه وعلى آله قد قال : حينما يظهر الطاعون أو وباء فى مدينة ما فلا تدخل هذه المدينة ، وحينما تدخل عند ظهور المرض فلا تخرج منها حتى ينتهى هذا المرض ، وقد عمل الغرب بنفس وصية رسول الله الغراء ، وأطلقوا على ذلك اسم (كرانتين) ، وهم يعملون بقول الرسول (ﷺ) ، ولكن واأسفاه فنحن لانزال لانعلم - أنا وأنت - نظراً لعدم العلم والخبرة مع وجود القدوة فى شريعة الإسلام الغراء وفى أقوال أسلافنا ، أما الغربيون فإنهم يدركون هذا مع أنهم أجانب وفى ذات الوقت فإنهم يعملون بما يفهمونه من الشريعة الغراء ، فانظر إلى أختلاف وجهات النظر من أين وإلى أين ؟ ، واليوم فإن عدد سكان المانيا مائة كرور ، ومع ذلك لايموت ستمائة فرد من أطفال تلك الدولة

فى عام أى اثنى عشر شهراً بسبب مرض الجدرى هذا .

لكنكم نظراً لكسلكم البالغ وضعف همتكم وجهلكم قد أعدتم سبعمائة طفل برىء فى خلال شهر واحد فى هذه القصبة الصغيرة ، والذين كانوا السبب الأول فى زيادة عدد السكان ، وتنسبون ذلك بكل وقاحة إلى المشيئة الالهية .

ولو كانت المشيئة الإلهية قد تسببت فى ذلك حقاً ، لماذا إذن تبكى وتئن ؟ ولماذا كل هذه التأوهات المحرقة ؟ فينبغى أن تكون سعيداً ومبتهجا ، الخلاصة : أن صبرى قد نفد بسبب هذه الأحاديث الطويلة وتغيرت حالتى ، ورأيت أحد المسافرين وقد التفت إلىَّ متفحصا ومدققا فى كلامى ، فسأل : من أين أنت أيها المواطن ؟ قلت من هذا المكان قال أى مرندى ؟ قلت ، لا بل إيرانى ، قال أن الإيرانى لايقول مثل هذا الحديث ، قلت إيرانى ولكنى مقيم فى (مصر) ، قال أرايت أننى لم أخطىء وقد صدق ظنى ، يا أخى العزيز لاتتسرع فتزيد من همِّنا ، فهذا السيد قارىء التعزية فى هذه المدينة ، وما به من ألم يكفيه ، فلماذا تجادله وتؤذيه : قلت لم أقصد مجادلته وأذيته ، وإذا ماسمعت مثل هذه الكلمات التى لايقرها عقل ، فلا يمكن أن أصبر عليها ، فكن منصفاً فى حكمك على ، فإنى لاأتحدث بسوء ، قال بادىء ذى بدء قد التفت لكلامك ، وكل حديثك

صحيح وقد قلت الحق ، ولكن ينبغى أن تراعى الزمان والمكان ، أجل ففي تلك البلاد الأجنبية ، كما رأيت يقومون بالتحصين ضد مرض الجدرى ، ويسمون ذلك (كرانتين) ونفع هذه الأمور (التحصين وغير ذلك) وبالنسبة لعالم الإنسانية واضح كالشمس ، إذ أن المعاملة فى تلك البلاد بين الحكومة والشعب كمعاملة الأب لابنه ، إذا ماتوفى طفل واحد من الشعب (بأجل أو بدون أجل) ، فهكذا تظن الدولة أنها المسئولة عن وفاة ذلك الطفل ، ولاتبخل بجهد فى البحث والتقصى عن أسباب وفاة ذلك الطفل حتى تدرك سبب وفاته وتقضى فى المستقبل على أسباب هذا المرض ، وأنا نفسى كنت فترة فى " إسلامبول " فكنت أرى كل يوم أن أطباء الدولة يجوبون البلاد حياً حياً ، ومحلة محلة ، منزلاً وذلك ليحصنوا الأطفال مجاناً ضد مرض الجدري ، ولو حدث ولم يحصن شخص طفله ضد مرض الجدرى ، ويعتقد مايعتقد به جناب السيد المعلم فعندئذ يصبح هذا الشخص موضع المعاقبة ، وينفذ هذا الأمر فى كل المدن والقصبات حتى فى القرى المنعزلة والساحلية ، وينبغى أن يقيد المواليد باسمائهم وأوصافهم فى سجلات الأفراد ، ويحدث نفس الأمر بالنسبة للوفيات ، وفى كل أسبوع يعلن عدد الوفيات عن طريق الصحف فيقال توفى هذا الأسبوع عدد كذا من أهل المدينة.

ويحدد مرض كل شخص متوفى ، إذا ماظهرت الأمراض

المعدية فحينئذ تستخدم الوسائل اللازمة لوقف ذلك الوباء من الانتشار وتقوم الإدارة الصحية بالمواظبة التامة متخذة فى ذلك بعض الإجراءات التى من شأنها عدم تفشى هذا المرض ، والآن تعالى وانظر إلى حال مدينتنا التعسة هذه ، إذ أنه لو يموت فى ليلة واحدة نصف ساكنى المدينة لسوء الوقاية فلن تهتم الدولة أبداً بالسؤال عن أحوالهم ، ومن السهل جداً أن تحجم الدولة عن أى عمل لدفن الموتى ، طالما كان سبب وفاة المتوفين مرض الجدرى أو الحمى ، وتعتبر حياه الرعية والضعفاء ، خاصة من أتفه الاشياء وكفى .

ولو مات أهل هذه المدينة من القحط والغلاء فإن حاكم المدينة لن يتأخر دقيقة واحدة عن الذهاب للصيد ، وفى المدن الكبرى فى إيران تجد أن كل درويش ذاهل وكل عطار يبيع الدواء للمواطنين بمثابة طبيب وكل امرأة عجوز قروية تجدها قابلة ، كما أن الدلاكين قد ينوب عنهم (الدراويش والعطارون) وتجد دواء كل مرض عندهم ، ويتجول هؤلاء المتطببون كل يوم جمعة ولايسأل واحد من هؤلاء نفسه أين تعلم مهنة الطب ؟ ومن أى مدرسة طبية حصل على الإجازة ؟ وقد كان والدى أيضاً حكيماً وبعد وفاة المرحوم ، تجمع حولى الأقارب والأصدقاء والمعارف وقالوا ، لاينبغى أن تطفىء مصباح والدك ، فالحمد لله إنك متعلم وهذا كتاب الطب لابيك وقد دون فيه جميع الإدوية ، فاحمله وعالج به الناس ، فتطبيب هذا المُلك مقصور على

أسرتكم ، قلت أين والدى وأيـن مهنة الطب؟ فاسـتحلفكم بالله أن تبتعدوا عنى ودعونى وشأنى ، فأى علم تعلمته لأمارس مهنة الطب بما فيها من مرض وعلاج ، ولاتضغطوا علىَّ للاشتراك فى القضاء على المسلمين ، فأنَّى لى ولأجدادى بمزاولة مهنة الطب ؟

الخلاصة : كلما أصروا علىَّ فى هذا الموضوع كنت أرفض ، لامناص من أننى تخلصت مـن كتـاب الطب الذى ورثتـه عن أبى ، وذلك بأن بعته للسيد " صمد العطار " بأربعة عشر تومانا ولكن أغا صمـد أصبح الآن بفضل ذلك الكتاب أغا ميـرزاً عبد الصمـد الحكيم وذاع صيـته ، وغـداً سيـصبح كـبيـر الأطباء ، وسيحظى من الـدولة بلقب ما ، وحينما يسـتبدل الابن بدلاً من الأب قـسراً وجـبـراً كمـا هو واقع فى " مـرند " وسـائر المدن الإيرانية ، فحينئذ واحـسرتاه على حالى ، وكما أعلم أن والدى قتل بسبب علاجـه ودوائه المخالف والمضر مايربو على المائتين من المسلمين (قبل آجالهم) .

وكان يصف المسـكين (والد المتحدث) الغـائر من الماء لكل مريض ، أما الغذاء فكان يصف عصير الأجاص الأصفر ، وكان يأمـر بالقصـد والحجـامـة لكل مريض ، وذات يوم جـاء بعض الأشخـاص برجل شيخ ، إذ كـان مريضـاً منذ أكثـر من عام ، جاءوا به إلى والدى لمعـالجته ، وكنت موجـوداً ، فقال والدى : يلزمـه حجامـة ، وبعد ذهاب المريض قلـت ياسيدى لو فـعلت

الحجـامة لأخراج الدم ، فـواضح من هيئة المريض أنه ليس فـيه مثقال ذرة من الدم من كـل عروقـــه ، ولو كان الغـــرض هو (كـأس الحجـامه) ، فـقد أضـاع هذا الرجل الطاعن فى السن حياته أدراجٍ الرياح وهـو نفسه يلفظ أنفاسه الأخـيرة ، وفى تلك الأثناء نظرً إلىَّ والدى وهو فى قـمة الغـضب وسألنى مـاذا قلت للمريض ؟

قلت ماذا سـأقول له ؟ قال الآن لاتـعلم ، . . . لاتثرثر ، وهنا انتهى الحـديث وفى الحقيقـة أنني لم أر قط أى إيرانى بهذا الإنصاف ، فقد كان رجـلاً على خلق كريم ، خفيف الظل يميل إلى المزاح ويبدو من حديثـه أنه على دراية بالثقافة الأجنبـية وقد قضـيت وقتاً طيـباً بصحبـته وقد أهديتـه بمناسبة تعـرفى به علبه سجـائر البقـية البـاقية مـعى من " مصـر " ، وكانت بهـا مائة سيجارة ، فـقبلها شاكراً ، وعلى هذا النحو تعـارفنا وقد أعطيته بطاقة دعوى للزيارة وسألت عن اســمه وعنوانه ودونته فى كتيب معى ، وقد ودعنا ذلك الصديق الجديد بعد أربع ساعات في مقر الجياد .

الخلاصة : أننا تركنا (مـرند) ، وصباح ذلك اليـوم دخلنا ساحل " نهر أرس ؛ ظهراً ، ثم حططنا ركـابنا ،ورأيت شخصاً وقـد وقـف فى مـواجهـتنا ، وقال فى لهـجة الآمـر : إن الخان يريدكم ، قلت أى خان ؟ وما اسمه وما شأنه بنا ؟ قال إنه الخان أمين التذكرة ، فهو يريد أن يرى تذاكركـما ليعتمدها ، قلت إذن

قل إنه يريد التذاكر ولايريدكـما ، قال : نعم ، فأعطيتـه التذاكر فـحملهـا ، وبعد عـدة دقائق ، طـلب أربعة عـشر قـراناً ثمن التـصريح علـى التذاكـر فأعـطيتـه مـا أراد ، وقال نحن أيضـاً خدمناكـما ، فـأعطيته قـوانين فشكرني ، وقـال : مرحـباً بكم ولتـصحبـكم السـلامة وذهب لحـاله ، وبعد أن فـرغنا من هذا الأمر ، أخـذن أنظر من حـولى فرأيت مـايقرب من مـائتين من المواطنـين المعـدمين المضطـربين ممـن رأيـت منهـم الكثير فى (باطوم) ، و (بادكوبه) ، وهناك وقفـوا جماعات تحت وهج الشمس وقـد تجمع حولهم أمناء التـذاكر الذين شغلوا بتحـصيل ثمنها ، وكانوا يأخذون من النقود مايفوق ثمن التذكرة خاص من الأفراد الذين يدركون جيداً أن لديهم مالاً .

وكانوا يسبـون من ليس معه نقود بل ويضربونه بالصـفعات والركلات ، فهى جلبـه وهمهمة غريبة ،وقد احـترق قلبى حزناً لأحوالهم ، وفى تلك الأثناء رأيت فى ناحـية أخرى جمـعاً من الناس ، وقـد وقفـوا ممسكين الدفـوف والطبول وبعض القـرود الراقصة ، كما رأيت عدداً اخـر من الأطفال الصغار ذوى شعور طويلة ، وفى زى أشبه بزى النساء ، وكان أولئك أيضاً يتنازعون ويتشـاحنون مع أمناء التـذاكر ، فسـألت من هؤلاء ؟ ولماذا هذا الصياح وهذه الشكوى ؟ قالوا أن هذه الجمـاعة تريد أن تعبر نهر الأرس . إذ أن عـمل أولئك فى الأراضى القـوقـازية هو رقص

هؤلاء الصبيه مع هذه القرود بغرض سؤال الناس والتسول ، وهذه الجلبة لأن الخان أمين التذكرة يريد أن يأخذ ثمن التذاكر على القرود ، فرفض هؤلاء الأفراد أن يدفعوا وقالوا أن هذا بدعة وقد تعطل هؤلاء ثلاثة أيام بلياليهن ، وترى أن هذه الجماعة كل يوم على هذا المنوال ، فى نزاع مع أمناء التذاكر ، فصار هذا المشهد باعثاً على المزيد من حيرتى وتعجبى .

الخلاصة: أننى أردت أن اترك تلك الناحية منذ الساعة الأولى ، حتى لا أرى هذه الأحوال الباعثة على الهم والكدر ، وانيت إلى ناحية معبر النهر ، فرأيت أن وسائل النقل على هذه الضفة تنحصر فى القوارب ، ولعلها لقدمها تنسب إلى " سفينة نوح عليه وعلى نبينا السلام "[1] ، وهذا القارب ينقل المسافرين للضفة الأخرى من النهر أى أول الحدود الروسية ، وأنعمنا بقرانين على شخصين وجلسنا فى القارب ، ولما ابتعد القارب قليلاً عن الشاطىء ، نظر يوسف عمى نحو إيران وقال : ألف حمد لك يارب ، أننا تخلصنا من هذه المملكة الخربة سالمين وعلى الرغم من أن يوسف عمى قد أظهر هذا الشكر للتعبير عن سلامتنا ، ولكنه تحدث كثيراً دون أن يلاحظ ذلك ، فماذا يعلم أن هذه الكلمات كانت تتنافى تماماً مع حبى وعشقى للوطن ، وقد حزَّ فى نفسى كثيراً حديثة هذا غير المتوقع والذى لم يكن ليلاحظه ، وقد تأثرت تأثراً شديداً بشكل لايمكن وصفة ، وكان

(١) هذه جمله تهكمية ساخرة من أحوال وسائل النقل خاصة البحرية منها .

ذلك أناء ماء فائر وحارق وقد صُب على رأسى فتصاعد منى الدخان وقلت أيها الرجل الظالم ماجرم هذه الأرض الطاهرة ؟ فأنت تغادر أرض الوطن ، وبدلاً من أن تقرأ دعاء الوداع وتطلب من الله أن يهيىء لك العودة ثانية ، فإنك على النقيض تظهر الفرح والشكر فعجبا لك إن قلبك لقاسٍ ، وقلت هذا ولم أتمه بعد حتى اغرورقت عيناى بالدموع فلم أستطع أن أسيطر على نفسى .

واشتد نحيبى ونواحى وقلت : أيها الموطن العزيز أن جسدى وروحى فداء ترابك ، فأنت فى مذهبى واعتقادى أفضل من جنة الخلد ، فترابك أساس الحياة ، وهواؤك هواء جنة الخلد ، وا أسفاه فإن أشخاصاً قطع الله خلفهم قد قللوا من شأنك السامق ولم يرعوا جلال شأنك ، وجعلوك فى نظر الأجانب تافهاً وحقيراً ، أهملوا حبك الذى قرنه رسول الله (ﷺ) بالإيمان ، غافلين عن أنه فى النهاية سوف يؤول أمر هذه المذلة والهوان عليهم أنفسهم وعلى أحفادهم و فأيها الوطن المقدس قد ترك أبناؤك الجهلة قدرك مجهولاً لفترة طويلة .

وكل جاحد يخرج عن حضن تربيتك بدلاً من أن يبكى دما لفراقك ، أو يشق جيب الصبر فى ذكرى حبك ، نراه يعيش متنعماً سعيداً وهو بعيد عنك ولكننى الآن مكلوم الفؤاد لفراقك ، وعيناى تذرفان الدموع دوماً وفى مذهبى أن تركك أصعب من ترك الروح .

(إنى ذاهب وأنظر إلى الوراء لشدة الحسرة ولا أعلم قط أنى أودع الأرض) [1] أجل إن على لسانى ألف شكوى ، ولكن شكواى كلها بسبب المواطنين الجاحدين الذين لم يؤدوا لك حق التنشئة بل يظلموك ، وأى ذنب للبستان أن يكون صاحبه ضعيفاً كسولاً فيخربه بيديه ؟ أيها الوطن العزيز على الرغم من أننى أشكو من أولادك الجفاة ، والذين هم أخوتى ، لكننى أعلم أنهم غير راضين عنى ، وبعد ذلك سوف يشكون منى فى المجالس والمحافل وسيلحقون بى كل نقيصة ، وليس ببعيد أن يدونوا اسمى فى سجلاتهم على أننى كنت ثرثاراً وعابثاً ومختل العقل ، ولو ذكر تاريخ إيران لهم إننى مجنون فلا حرج عليهم طالما أنهم غافلون عن حب الوطن وتقديسه ، وشيئاً فشيئاً اشتد بكائى ، واختنقت أنفاسى ، واصيب لسانى بالخرس عن الكلام ، وأدرك يوسف عمى أنه أخطأ وتحدث بما لاينبغى الحديث عنه ، وأراد أن يحدثنى فيخرجنى من تلك الحالة الكئيبة ، فقال : ياحضرة البيك لاتؤاخذنى فيما تحدثت عنه ، ومعلوم أنه كان نادماً كل الندم وخجلاً أشد الخجل على ماقاله .

وبعد ذلك تأثرت بدورى من تلك الحالة ، ووصل قارب من ناحية الساحل والذى هو الحد الفاصل بين إيران وروسيا ، وخرج

(١) ميروم أزسر حسرت بقفا من نِكَرم خبر أزپاى ندارم كه زمين مى سبرم .

كلانا ، وأخرجنا أمتعتنا وفى نفس الوقت جاء موظفوا الجمرك (على الحدود الروسية) ، ورأوا جوازات السفر وصرحوا لنا بالدخول ،وبعد ذلك رأيت مؤجر الدواب ، فطلبت حصانا فأحضره لنا وركبنا وسرنا ، وأثناء الطريق لم نر مكاناً جديراً بالاهتمام باستثناء مدينة (نخجوان) ومررنا من هناك ، وبعد أن طوينا مسافة طويلة وصلنا مدينة (إيروان) والتى هى من بلاد القوقاز المشهورة وبسبب كثرة تردد المسافرين هنا لم يكن هناك حصان جاهز فى مقر تأجير الجياد ، وقد تعطلنا مدة ثلاث أو أربع ساعات لانتظار حصان ، لهذا تجولت هناك قليلاً من الوقت وفجأة رأيت ساعياً قد وضع على رأسه قلنسوة (ماركة الأسد والشمس) وقال ياسيدى ينبغى أن تبرزوا تذاكركم فأريناه إياها ، وقال أدفعوا اثنين من المنات فدفعت على الفور فأخذ النقود وذهب وقال أحد مؤجرى الجياد لماذا دفعتم نقوداً ، فهؤلاء ليس لهم حق فيها ، فهم يأخذون نقوداً من المسافرين بهذه الحجة . ولكن من يرفض أن يدفع لهم وكثيراً مايحدث هذا فإنهم يضربونه ضرباً مبرحاً ،باستثناء بعض الأشخاص العاجزين والمتشردين والذى لايملكون شيئاً ، فقلت لاضير فنحن أيضاً من زمرة العاجزين والمتشردين .

وبعد أربع ساعات من الانتظار أحضروا جوادا وأعدوه ، وتوجهنا من ذلك المكان إلى (أخسقة) ، وقد كان برفقتنا شخص إيرانى ، فسألت من أين أنت ؟ قال من أهل (خوى)

قلت فى هذه الرحلة السياحية ، كان فى نيتى أن أذهب إلى (خوى) ولكن يوسف عمى منعنى ، واأسفاه أننى لم أر تلك المدينة ، ثم سألته عن وضع تلك المدينة قائلاً : كيف حال المدينة ؟ فحدثنى الرفيق عن ذلك وسألت عن تجارتها وزراعتها ، فقال كل شىء موجود ، ولكن تجارة " إسلامبول " انتهت بالمرة ، والأفراد الذين كانوا يتعاملون مع إسلامبول جميعهم أفلسوا ، وضاعت أموالهم ، فتحسرت أنا أيضاً قائلاً لماذا لم أتجلد بالصبر وأقوم بالسياحة في تلك المدينة ؟ فقال واأسفاه ليتك أتيت ورأيت ، فقد جاء إلى (خوى) قارىء تعزيه جديد وهو من تلامذة (الشيخ حسين الجنى) ، وعلى الرغم من وجود شاب كان يقرأ المرثيه كأستاذه ، إلا أن (طائفة الجن) كانت تتحدث معه (من تحت إبطه) ليتعلموا منه المرثيات الجديدة ، والتى لم تسمعها أذن قط .

وكتاب الرثاء الذى كتبه الجن لايمكن لأحد أن يقرأة غيره ، وفى المجالس التى يقرأ فيها المرثيه ، لايرى مكان لأحد من ازدحام الناس ، (ويبكى الناس دماً بدلاً من الدموع ، فأصبح سوق قراء التعزية جميعهم فى كساد ، وعلا أمره علوا كبيرا ، فقلت أريد أن تغيروا نمط هذا الحديث ، فليس فى وسعى سماع أكثر من هذا ، ولم أذهب إلى (خوى) وقد أتممت سياحتى ، وأدركت جيداً أى مرض ذلك الذى ابُتلى به أهل تلك المدينة ؟ وقلت سيدى العزيز هذا أمر مخالف للشعائر الإسلامية ، إذ

كيف تعلّم الجن الانسان الرثاء من تحت إبطه أو ثيابه ؟ وبعد ذلك طويت بساط هذا الحديث تماماً واستغرقت فى التفكير ، وعندما أدركت أننا وصلنا إلى المنزل جلسنا فى ذلك المكان أربع ساعات منتظرين تحرك قطار " باطوم " ، وبعد ذلك توجهنا نحو باطوم ، وحتى هذا المكان كنت أكملت كتاب " سياحتى " والنتيجة التى خرجت بها من سياحتى فى كل تلك المدن التى رأيتها فى " إيران " : أنه لايبدو أى اثر للرقى والحضارة فى أية مدينة يمكن أن يكون فيه سرورى وبهجتى ، وماتعلموه (الإيرانيون) عن أجدادهم بشأن أساليب الزراعة والتجارة القديمة مكتفون به ، والأمر العجيب الذى يفتخرون به أن أسلوب أسلافهم لايزال يُمارس بينهم بحذافيره ، ومن ناحية أخرى فقد تقدموا فى المظاهر التافهة . وهم على دراية وعلم واسعين بخصوص أدوات الزينة المنزلية إلى الحد الذى لم يبلغه أجدادهم مطلقاً ولو حتى فى الأحلام ، وبدلاً من أن يشتروا الأوانى النحاسية التى هى من منتجات الوطن العزيز والتى تكفى الأسرة الكبيرة لسد حاجتها مائة عام ، وتقدر بمائتى تومان ، اليوم هم يشترون بمائة تومان نجفه أو قنديلاً من القناديل ليعلقوها فى أسقُف بيوتهم ، ولو سقط قنديل من هذه القناديل على الأرض لن يتبقى لصاحبه سوى الحسرة والندم ، ومن الواضح أن أجدادهم لم يفكروا قط فى مثل هذه الأشياء .

ولم يفكر أحد من المواطنين كلهم والذين هم فى الغالب من

ذوى الامـلاك لم يفكر أحـد منـهم فى أن يسـتـورد من البـلاد المجاورة آله لحصد المحاصـيل أو آله ذات مناجل لحصد الغلال ، أو آله لعزل القمح عن القش كنموذج مما يشترونه .

وذلك لكى يسـتخدمـونها في مـزارعهم وقراهـم حتى يروا مزاياها رأى الـعين ، ففى جمـيع هذه المدن الكبيـرة من المملكة حتى القصبات والقرى ، لاتُرى مدخنة آله أو مصنع واحد حيث يتصاعد منها الدخـان ، ولايسمع فى أى مكان صوت أو صفارة لحـركـة قطار سـواء فى الذهاب أو الإياب ، ولاتوجـد مـرافق حكومية ذات أبنية ضخـمة وشاهقة فى أية مدينة من المدن ، ولا أثر للمـدارس الحكومـية أو المسـتـشفـيـات فى أى مكان قط ، ولايشـاهد فى أى بقعـة من بقاع المـملكة شركـة أو بنك مما يدل على الرقى والتـحضـر ولايهتم أحـد بوضع المساجـد وأضرحـة السلاطين الأولين كالصفـويين وغيرهـم ، فجميـعها خربة ، ولـم تذكـر كلمـة واحــدة عن أعمـال نائب السلطنة المرحـوم عبـاس ميرزا ، أو عن منجزات المغفور له ميرزا تقى خان أمير كبير تلك الأعمال والمنجزات التى قدماها من أجل خدمة الدولة والشعب . ولـم يذكر أحـفادهمـا من الإيرانيين شيـئاً من هذا مطلقـاً ، فهم لايترحمون علي الأخيـار ولايذمون الأشرار وشغلهم الشاغل هو إهمالهم لحـقوقهـم ، وقطع صلة الرحم والتكاسل والظلم وأذية الآخرين ، ومع هذا الوضع السىء ، إذا اجتـمع عدد من الأفراد فإنهم يقولون : يابنى الدنيا رحلة قصـيرة (خمسة أيام) وينبغى

التـفكير فى دار الآخـرة ، لكنهم جمـيعـاً يكذبون وينكرون هذا بالفعل ، فـالسؤال عن يوم الحساب هو مـالا يدور بأخلادهم ، وهم يفـعلون الخيـر لكنه في غيـر موضعـه ، إذ أنهم يطعـمون الأغنياء بدلاً من الفقـراء ، وأعمالهم كلها مغرضـه أى فى سبيل الحصول على المناصب والرئاسة والتى قـوامها الطمع ليس غير ، وهم دائمـاً يضمـرون سـوء النية ، فـهم لايقـدمون شـيئـاً إلا وينتظرون مقابل هذا الشيء أو هذه الخدمـة ، وقد فسدت أخلاق المواطنين كثـيراً إلى الحد الذى يشكُلُ إصـلاحها ، ونقـول لمجرد الترويح عن أنفسنا (هكذا لم يبق شيء ولن يبقى أيضاً) ، وإذا مـــاقُدِّر لك أن تمـر بطريق من الـطرق ، ترى أن كل مـكان من الأرض صالح لأى نوع من الزراعة والحـراثة ، ولكن ما الجدوى فقد بارت الأرض ولم يُزرع أغلبهـا ، وهكذا بعض المدن الكبيرة والصـغيـرة تشبـه من قلة السكان (وادى الموتى) ، ومـا أكثـر الأهالى الذين أضطروا للهجـرة للمدن الأجنبيـة ، وهكذا تبدو المدن خاليـة من المخلوقات تماماً ، وأشـقى سكان هذه الدولة هم طبقة الكادحين والفعلة والحمالين فينبغى على المساكين أن يشتغلوا يوماً ويتـجولون يوماً آخـر وراء رغيف الخبز من دكـان إلى آخر حتى المساء ، فلعلهم يمكنهم أن يحصلوا على رغيف خبز يقتات به أطفـالهم الصغـار ، ومع وجود الأرض الخـصبـه والإيرادات السنوية إلا أن هذا القـحط مـوجود على الدوام وليس لعـام أو لعامين ، إذ يخـزن كثير من ذوى الأمـلاك والذين هم فى سفك

الدماء أبرع من أتباع جنكيز خان ، يخزنون محصول القمح ويفسدونه فى حين ، لايترفقون بالمواطنين الكادحين والله وحده سيقتص للفقراء من أولئك الظلمة البخلاء .

واليوم ليس هناك شعب أتعس من الشعب الإيرانى على وجه البسيطة ، وقد حصل زنوج السودان والحبشة على حقوقهم الإنسانية ، وهم يوماً فيوماً يسيرون نحو التقدم ، فى حين أن الإيرانيين التعساء لايتقدمون خطوة واحدة وكل يوم يمر عليهم هو أسوأ من سابقه ، وحينما نقول أن هذا الأمر مشيئة الله فقد أخطأنا بل كفرنا ، فالله عالم عادل ورحيم ، ولماذا يريد الذلة والهوان لهذه القلة ألا وهى الشعب الإيرانى ؟ ولو قلنا إننا ضللنا الطريق فهذا في اعتقادى أيضاً باطل ، إذن علينا أن نقول إن سبب هذه الذلة وهذا الشقاء هو نتيجة أعمالنا المشينة والتى كلها نابعة من الكسل والغفلة وعدم المعرفة والجهل ، وإذا مانظرنا بعين العلم والإنصاف ، سنرى أن جميع مالدى الغربيين ومايفتخرون به اليوم هو من عندنا [1] ، نحن قد علمنا وفهمنا أننا نتهافت على وسائل الراحة والمظاهر الجوفاء التافهة ، ولكن الغربيين جمعوا الأمرين (التقدم ورفاهية الحياة) .

إذا اهتموا بالأمور الحياتية التى تخصهم وسعوا فى طريق

(١) هذه دعوى خاطئة ، فليس مالدى الغربيين كله من عندنا أو من تراثنا ، وإنما هناك مالديهم قد يكون موجوداً عندنا .

التقدم والرقى ، وتلك الأمور هى نفسها قوانين شريعة الإسلام الغراء ، وأحكامه ، فالعدل والمساواة وحب الوطن والوحدة ، ووجوب إطاعة الملك وأخوة الشعب والإنصاف والمروءة والأخذ بأيدى المطحونين ، كل هذا من الأحكام المقدسة للقرآن الكريم ، ومن الأحاديث النبوية الشريفة لخاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ) ومن وصايا أئمة الدين ، والتى نصدقها قولا ولكنهم يصدقونها فعلاً ، ويعلم جميع عقلاء المسلمين إن كان لقوانين الغرب من مزايا فهى جميعها مأخوذة عن شريعة الإسلام الغراء [1] حيث سرقوها فى غفلة منا ، عندما سنحت لهم الفرصة بذلك ، ولكن واأسفاه فنحن الآن ننظر إليها فى أيدى الغربيين نظرة المتعجب ونحسدهم عليها ، ولانعلم أن هذه القوانين كانت مصدر سعادتنا ، ولكن فى غفلة منا سقطت فى أيدى الآخرين وطمسوا معالمها ونحن ننظر إليها عن بعد بعين الحسرة .

وما كان لديه أخذ يتمناه من الأجنبى

هذه إيران التى نشرت أسس الحكم والعدل النابعة من تلك (الأرض الطاهرة) حتى أواخر أيام الساسانيين فى هذه المملكة وكانوا منبع التعمير وأساس العدل ، فأذهل ضوء حضارة تلك المنطقة سائر سكان العالم ، والآن فأقاليم إيران أفضل أقاليم

(١) ليست كل القوانين الغربية مأخوذة من شريعة الإسلام ، كما يدعى الكاتب .

العالم من حيث الماء والهواء والأرض الخصبة والثناء على هذه النعم واجب علينا ، ولكن ماجدوى هذا ، فأرض إيران الحالية والتى فى حوزتها ضعفا اتساع أرض " فرنسا " ومع ذلك ليس لدى ايران من السكان ماهو ربع أرض فرنسا ، وكما هو واضح فاليوم يقدر تعداد " فرنسا " حسب الإحصائيات الموثوق بها بخمسة وثمانين كروراً ، ولكن إيران ليس لديها هذا العدد من السكان ، ويكتب بعض الجغرافيين الاجانب فيقول : أن عدد سكان ايران خمسة عشر كروراً ويرى البعض الآخر أن بها عشرين كروراً ولو سلمنا لكى نرضى أنفسنا بالإحصاء الثانى (العشرين كروراً) ، سنرى أيضاً أنه لدينا من السكان ربع ماهو موجود بأرض فرنسا ، وحينما تسألون ماذا حدث لهذه المملكة المترامية الأطراف (إيران) حتى قل سكانها إلى هذا الحد ، نقول إن نفس الجواب قد ذكر فى مواضع عدة ، فما أكثر المواطنين الذين هاجروا إلى البلاد الأجنبية نظرا لتعدى الحكام ، فاضطروا إلى ترك الوطن ، ومن ثم انقرضت ذرياتهم وانقطع تناسلهم وتناكحهم ، إذن ينبغى أن نبكى دماً على هذه الأحوال وقد حصر بعض الجغرافيين سكان إيران فى أواخر عهد دولة نادرشاه فوجد مع كل تلك الضربات المتوالية من الحرب والنزاع فى ذلك الوقت أن عدد الإيرانيين ما بين أربعين أو ستين كروراً ، والآن وبعد مائة وخمسين عاماً باع هؤلاء الحكام الظلمة العشرين كروراً من سكان هذه المملكة للأجانب ، وهاجم نفس هؤلاء الحكام

العشرين كروراً الأخرى فأجبروهم على ترك البلاد ، ولاتوجد حسرة أشد على النفس من هذا خاصة عندما نبحث عن أسباب هذا الاضطراب ، فحينما كان بإيران العلم والفضل والحضارة كان الغرب لايملك شيئاً من التحضر وقيمه الإنسانية ، وبعد ذلك ماذا حدث ؟ فقد انقلبت الموازين ، وماذا أصاب هذه الأرض التعسة والتى يرجع أصلها إلى ذلك الشعب النجيب القديم حتى تحتاج فى كل شىء إلى الخارج بل غدت فريسة لسيطرة الأجانب، ونحن محتاجون إلى الغرب إبتداء من الحذاء إلى القبعة [1] ، وحينما كنا لانتعامل تجاريا مع الغرب ماذا حدث لنا ، هل توقف سعينا نحو التقدم ؟ ولماذا تغلبوا علينا فى تعاملهم فجعلونا محتاجين لهم فى كل شىء ؟ وواضح أن سبب جهلنا هو تفكيرنا المحدود والقاصر ، إذ فُتنا بمنتجات الغرب الزائفة فتونا وانصرفنا عن تحسين وتطوير منتجاتنا ولم نكتف بها .

ومن جراء هذه الغفلة أصبنا اليوم (بمرض) الحاجة إلى الغرب ، وصدق السابقون حينما قالوا :

(تزينك بثيابك القديمة . . أفضل من أن تستعير ثياب غيرك) [2] أى لو عقدنا العزم ، وتخلصنا من قيد الحاجة

(١) واضح أن الكاتب يريد أن يقول إن شعبنا مستعمر، لأن من لايملك قوته وفى حاجة إلى الغرب فى كل هذه الأشياء فهو لايملك استقلاله .

(٢) يدعو الكاتب الإيرانيين إلى ضرورة الإنتاج من أجل التقدم ومن أجل الحفاظ على استقلال البلاد .

للأجانب اليوم ، لما ملأت ثروات مملكتنا سنوياً جيوب الأجانب بسبب هذه الحاجة لهم .

الخلاصة : فقد وردت على بالي حكاية وقد سمعتها من رجل موثوق به صادق ولا أرى أن ذكرها وقصها هنا يخلو من المناسبة حتى نلفت بها أنظار حكام المملكة ، وقد حكى القائل العظيم إنه ذات يوم كان يتجول أحد أباطرة الروس متخفياً فى سوق (موسكو) ، فرأى فى أحد المتاجر الخاصة بتلك المدينة بعضاً من قماش الجوخ السميك حيث طُوى والُقى جانباً ، فتعجب الإمبراطور من عدم مبالاة صاحب المتجر ، فدخل المتجر وسأل صاحبه من باب اللوم والمعاتبة قائلاً : لماذا ألقيت هذا القماش الجيد بهذا الشكل من عدم الإكتراث والاهتمام وسط الغبار والتراب ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عدم مهارتك فى أمر التجارة : فقال صاحب المتجر : أيها السيد لاتجدد لى ألمى الاخير ولاتستخف بجُرح قلبى القديم ، ودعنى وشأنى ، فألمى يصعب علاجه ، فأصر الامبراطور على موقفة وقال : تحدث عن ذلك الضرر حتى لايصيبك الأذى ، لأرى ماداؤك ؟ فقال صاحب المتجر : هذا القماش الذى يبدو فى نظرك جيداً تسبب فى خراب بيتى ، إذ قبل هذا الوقت كان معى ثروة لابأس بها ، فذهبت إلى (لندن) من أجل التجارة ، فرأيت هناك بعض الآلات لغزل قماش الجوخ ، ففكرت فى أن أجلب لبلادى مثل هذه الآلات وذلك لكى أخلص بلادى من احتياجها لهذا القماش ، وقضيت وقتا طويلاً فى هذا الأمر ،

وأنفقت أيضاً أموالا طائلة حتى جلبت آلات تصنيع هذا القماش في بلادنا ، والآن كل من أتى يعيب عليّ فعلتي ويستنكرها وقد ضيعت كل ثروتي ونصف عمري في هذا الامر ، والآن ضيعت نفسي ولا أدري ماذا أفعل ؟ فقال الإمبراطور في الواقع إنك محق فيما تقول ، لكن لاتيأس فالله قادر على إصلاح هذا الامر ، والآن أعطني عشرين ذراعاً على الفور ، فأعطاه صاحب المتجر ما أراد ، وأخذ ثمن القماش ونشر الامبراطور إعلانا صباح ذلك اليوم في الصحف بتوقيعه قائلاً : (يوجد في المتجر الفلاني قماش جوخ محلي جيد ، وأنا نفسي أخذت منه وحكت لي ثياب وارتديته ، وهو جميل وجيد للغاية ، وللآخرين حرية الاختيار) .

ولكن قبل هذا الاعلان ينبغي أن نرى أنه لم تتوافر لدى أحد من الوزراء والامراء وكبار المملكة الجرأة ليفعل هذا الامر ، إذ أن هؤلاء الوزراء والامراء يرتدون ملابسهم من الجوخ الأجنبي المستورد ، لهذا فقد تدفق الناس على ذلك المتجر من الجهات الست ، والجوانب الأربع ، وفي خلال فترة قصيرة ، بيع ماكان موجودا من القماش ، بل وراج بعد ذلك رواجاً كبيراً وأنشأ هذا الرجل عدة مصانع وحتى اليوم ، فقد أقيم في هذه المنطقة خمسة وأربعون مصنعاً لغزل الجوخ ، وذلك بفضل هذا الإعلان نفسه ، فالكل يعمل ويستنفع ، وهذا الأمر يختلف عن مصابيحكم البللوريه (ماركة الملك) وسائر زيناتكم البللورية الأخرى .

الخلاصة : إننا ابتعدنا عن الموضوع إذ أن الإيرانيين وفقا لإجماع العلماء فى كل الشعوب لديهم استعداد فطرى وأذكياء ، ولديهم كل مقومات الرقى والتحضر ، ولما أنهم على استعداد للتهذيب والتعليم فيمكنهم أيضاً أن يقدموا خدمات جليلة لوطنهم ، ولإثبات مانزعم يمكن أن نأتى بأدلة واضحة ، أولها : على الرغم من الابتعاد عن العلوم والفنون المتداولة نرى أن جزءاً من منتجات إيران هو من نتاج بنات أفكار الإيرانيين وإبداعهم وأثر من آثار أيديهم الماهرة ، مما يبعث على الحيرة ، والاستحسان لدى الصديق والغريب ، وحينما نزين هذا الشعب النجيب ذاته بزينة العلوم والفنون الحديثة ، فحينئذ سوف يكون هذا الشعب أحد الشعوب المتحضرة المتفتحة والفاضلة من العالم ، وهكذا الحال فى تحصيل العلوم ، ونعرف عدداً من أمراء إيران والذين التحقوا بالمدارس الروسية المتعددة وكذلك المدارس الفرنسية والإنجليزية وذلك من أجل تحصيل العلوم ، ومع كل الصعاب التى واجهتهم من غربة ووحدة فى أمر التحصيل إلا أنهم تفوقوا على الطلاب المحليين من أهل البلاد ، ولكن مع كل هذا الاستعداد الوراثى ، سوف يسأل القراء لماذا تخلف الإيرانيون فى كل شىء عن الآخرين ؟ نقول إن السبب فى هذا أمر واضح فهو افتقاد المربى ، افتقاد المربى ، افتقاد المربى ، وكما هو معلوم فإن نظام الحكومة الإيرانية لم يهتم فى أى عصر من العصور بهذا الموضوع (العلم والفضل) ، وينبغى على الانسان الذى يريد أن

يصل إلى المراتب العليا عليه أن يكون قد اعتمد على نفوذ قوى جداً ، وأن يكون ذا مال وفير ، وحينما لايستفيد المرء من هاتين الوسيلتين (النقوذ والمال) ، لن يكترث به أحد حتى ولو كان في العلم والفضل والخبرة وحيد زمانه ، وهناك عنصر ثالث من أجل الوصول إلى المراتب العليا ، ولكننى تركته واستنكفت أن أذكره استحياء ، وهكذا فإن الإنسان الذى لايمتلك عنصراً واحداً من هذه العناصر الثلاثة ، يجب عليه أن يجلس كأحد المصابين بالأمراض المعدية في منزله وأن يغلق الباب على نفسه .

ولهذا فأى علم وفن يجدى طالما أن الشخص (يرث) فضل أبيه وشهرته ؟ فهذا نفسه كاف ، فى الوقت الذى يُولى فيه الإيرانيون الرئاسة لابن الرابعة عشر وينادونه بلقبه الرفيع ، ومن ثم كيف يمكن الرجاء فى الرقى والتحضر لتلك الدولة ، إذ أنه مع وجود الاستعداد الفطرى لدى ابن الرابعة عشر بخصوص منصب وزير الحربية والذى هو من حق رجل فى سن الأربعين ، إلا أن كثيراً من العقبات التى يصعب اجتيازها سوف تقابله ، لهذا ينبغى علي الشخص أولا أن يدرس فى إحدى المدارس الحربية المشهورة ، وأن يحصل على الإجازة منها بتفوق ، وبعد ذلك يختار من هو أول الأفواج العسكرية ، وشيئاً فشيئاً وبعد إثبات حسن الخدمة ، فإنه يرتقى سلم المناصب ويصل إلى منصب (العقيد) و (العميد) و (اللواء) و (الفريق) ، وحين يصدق لدولته وشعبه ، ويتفوق على الجميع فى علمه وشجاعته فإنه يرتقى منصباً أعلى ، ومن ثم يصبح أهلاً لذلك

اللقب المحترم عن جدارة واستحقاق ، ولو كان الحصول على المناصب بهذه الطريقة (المنظمة) لبحث المواطنون عن العلم والفنون أملاً فى الوصول إلى المناصب الرفيعة فى الدولة ولكانوا جديرين بخدمات الدولة ومناصبها ، وحينئذ قد تستقيم جميع الأمور والأعمال ، وتصبح الدولة ذات قوة ومكانه ويعيش الشعب أيضاً فى فخار وسموق ، وحينئذ يسود التعمير البلاد ، ولما شوهد أى اثر لهذه الذلة وهذا الاضطراب ، على حين نجد اليوم أن أعظم فضل لمنصب وزير الحربية هو أكل رواتب الضعفاء وحقوقهم ، والتقليل من عدد الأفواج وسلب نفقات الجيش من ملبس ومأكل وغير ذلك ، ففى حين يمنحون الجندى سيفاً ، تراهم يمنعون عنه الزى العسكرى ، فأى فضل سوف يبقى لهذا الجندى ؟ وكل مايمتلكه هذا الإنسان شىء عرضى وثانوى ، فهو لايمتلك أية كلمة ولايستطيع أن يعبر عن شىء ، ويشير التاريخ نفسه إلى أمثال هؤلاء الأشخاص ، أصحاب هذه المناصب الرفيعة والذين بلغوا هذه المناصب العليا بدون أدنى جدارة أو استحقاق ونذكر على سبيل المثال (سيرة آل برمك) أنفسهم ، إذ أن " جعفر البرمكى " قد أنفق خلال حياته مايقرب من ثلاثين مليوناً ذهباً من خزانة الدولة ، وفى يوم واحد كره الخليفة جعفر البرمكى ، فأشعل ناراً بالنفط والحصير ، وألقى بجعفر فى تلك النار وتخلص الخليفة من آل برمك جميعهم ، وظل أولاده لفترة طويلة جوعى ومتشردين ، وهكذا أورث العطاء الذى لاحدود له مثل هذا العقاب الشديد ، فالعطاء

المسرف والشح يؤديان إلـى نتيجـة واحدة ، والأمر العـجيب أنه الآن يريدون أن يمدحـوا كل وزير فى " ايران " فيـقولون إن هذا مثلاً فى السخاء والكرم هو حاتم الطائى الثانى .

وإذا أرادوا أن يذموا وزيراً فإنهم يقولون إن هذا الوزير رجل طيب ولكنه خـسيس ، وإنه لمن الاجحـاف أن نلقب هذا الرجل بهذا اللـقب الرفيع ، والآن فإن حـسنات الأول هى أنه يسـتولى على مايملكه الناس جبراً وقـسراً ويعطى الآخرين رياء وإسرافا ، وعيـوب الوزير الثانى (المذمـوم) أنه لايتعدى علـى شىء ظلماً ولايعطى أحداً مسرفاً أو مبذراً .

والاختلاف بين هذين العالمين يبيِّن كيف يفكر كل منهما ،

الخلاصة : فقد ذُكـر مجمل القول بخصـوص وضع التجار والمتكسبين والرعيةُ وخلاصة أحوال حكام المملكة هو أنه ليس فى إيران صدر أعظم قط يمكن أن يتـصف بالأمانه فيكـون مستقـبلاً وأهلاً لإدارة المهام الجسام فى الدولة ، ولايوجد بين حراس قصر السلطنة حـارس يمكن أن يكـون جديراً بـالصدارة ، فـالجـمـيع مشغولون باقتناء الجياد والخدم والحشم ، أما قدسية الوطن وتعمير المملكة وتأمين مـستقـبل أحفـادهم ، والعمل على تطويـر البلاد وتقوية نفوذها وما إلى ذلك أمـر لايفكر فيه أحد فى إيـــران ، (ينام الناس فإذا ماتوا انتبهوا) .

(الجـــميـــع غـــافلون عن الآخـــرة

وتصدق حين تـشبهـهم بالموتى النائمين)

(إنهـم يبـــذرون ضـــرر الغـــفـلة

وعندما يموتون حينئذ يعلمون ذلك [1])

أجل فـقـد بلغت ســيطرة الدول المجـارة لإيران ، رؤوس الإيرانيين ، وسوف يندمون غفلتهم اليوم ، ولكن واأسفاه فحينئذ لن يجدى الندم شيئاً .

وهنا مر بذهنى بعض الأشـعار والتى هى من شعـر المرحوم والمغفـور له (أبى نصر فتح الله خـان الشيبـانى) فاللهم أسكنه جنة الخلد ، وكمـا هو معلوم فقط طبـعت مختارات من أشـعار ذلك الشاعر الحكيم طبقاً لأوامـر جناب ميرزا رضا خان ، وذلك الجنرال القنصل الإيرانى والمقيم فى تفليس ، طبعت هذه الأشعار فى " إسلامـبول " ، وحينئـذ فقد أرسل لى أحد الأصـدقاء ، نسخـة من ذلك الديوان كهـدية منه ، وأنا أيضـاً نظراً لتعـصبى المعروف ، قد لعـنت الشاعر والناشر لذلك الديوان ، واعـتبرت كلاً من هذين العظمين ، إنسـانا غير غيـور ، والآن فقط رأيت بنفس الأوضاع ، وإنــى لاعتذر لكليـهما بـكل تواضع ، وأسأل

(١) همى غاقلند أز عقبى . . . . راست كَويى بخُفتكَان مانند
ضرر غفلتى كه ميو رزند . . . چون بمير ند آنكَهى وافند

الله أن يجعل تلك التربة الطاهرة لذلك الحكيم البليغ مهبط الأنوار المتلألئة برحمته ، على مانظمه من جيد الشعر ، وأن هذا الشعر الجميل ليناسب أحوالنا اليوم ، فى رسالتنا المضطربة .

(البستان مضطرب والسرو والصنوبر مضطربان

المُلك مضطرب والعرش والتاج مضطربان)

(اللهم العن النزاع والخصام اللذين حدثا

فأمْرُ بلاط السلطان من النزاع والخصام مضطرب)

(واحسرتاه على المُلك الذى اضطرب

فالدخل مضطرب والاستهلاك مضطرب)

(لايرى راعى الأغنام خيراً فى أغنامه من دهنها وصوفها ،

لأن نتاج كل قطيع خرِبُ)

(ولابد من طبيب حاذق للمملكه

التى أعتلت صحتها)

وهكذا اعتذر بكل تواضع لجناب مؤلف (كتاب أحمد) ، ذلك الرجل الحكيم والمستنير ، إذ إنه بسبب بلاد هذا التعصب ، ظننت سوءاً بذلك الكاتب الفذ ، والآن أفهم جيداً نكات شعر ذلك الرجل العظيم والحكيم ، وأنى على يقين من أن أصل هذه النار كانت تشتعل فى روحه ووجدانه (ليهلك كل من ليست

لديه هذه النار) [1] ، ومع كل هذا الاضطراب ليس معلوما ، كيف تكون كل القلوب خائفة وجلة ، فعسى الله أن يرسل طبيباً حاذقاً في حين لايوجد أى تكاتف بين وزراء المملكة ، فهم يفكرون فى ايذاء بعضهم البعض ، ويحاول قسم آخر (من الوزراء) الدفاع عن أنفسهم ، وفى خضم هذا التنازع (من المد والجزر) كيف يمكن أن تدار أزمة الحكم ، وكيف يمكن أن تنظم أمور المملكة وراحة الرعية ورفاهيتها ؟ وأى رجاء فى رقى ذلك الملك فى الوقت الذى يكون فيه السخاء والخسة مقياس لحسنات الوزراء ومساوئهم ؟ إذ أن هاتين الصفتين بعيدتان عن أمر وظائف الوزراء وواجباتهم ، وينبغى أن نمدح الوزير الذى يتفوق فى العلم والمعرفة ويتفانى فى العمل ويكون أميناً ، وليس يُمدح لسخاء مصطنع ، وينبغى علينا أن نذم الآخر للخيانة فى العمل وسوء السلوك ، وليس بخسة الطبع سواء كان خيراً أو شريراً ، فهاتان الصفتان متعلقتان بشخصه وليس بوظيفته وواجباته .

أجل ينبغى على الوزير أن يقوم بممارسة أمور مهنته ، وأن يكون لديه عدد من الخدم وأن يعد مجالس الضيافة اللائقة إذا

(١) مقطع من بيت شعرى من المثنوى المعنوى لمولانا جلال الدين الرومى المشهور باغنية الناى والمقطع الآخر من هذا البيت هو " أن صوت هذا الناى نار " أنظر :

– جلال الدين الرومى : المثنوى ، ترجمة محمد عبد السلام كفافى ، البيت التاسع من أغنية الناى . ص : ٧٣

اقتــضت الحاجــة ، وينبغى أيضــاً على الدولة أن تقدم النفــقات اللازمة والتــى يحتاجــها ، وينبــغى على الوزير أن يشكر الدولة على هذا ، وحينما لايــقنع الوزير بهذا ، فبلاشك أنه سيــبدّد ما فى حوزته أو يعتدى على الرعية والضعفاء من الشعب ظلماً ، أو يمد يده إلى خزانة الدولة ، ونتيجة هذا أمر لايحمد عقباه ، ونجد الوزراء يبيعــون حقوق الدولة والشعب للأجانب غيــر مبالين فى مقــابل بعض الأموال ، غروراً منهم بالتــمتع فى الدنيــا أيــــاماً معــدودة ، فى حين أنهم يجودون بالقليل من المال تضــليلاً منهم للشعب ، ويعتــبرون أنفسهــم فى أنظــار عــوام الشعب أنهم من أخيــار الشعب ، وهم يظلمــون أنفســهم ، وإذا ما أقبل عــليهم الزمان بضــعة أيام فــأنهم لايهتــمون إلا بالمصالح الشــخصــية ، ولافتــرض أنه لايوجد أحــد من هؤلاء فلا يمكن أن تكــمم أفواه المؤرخين وتحطم أقلامهم .

وهذا لايتمــشى مع منصب الوزير الذى يطمح إلى الســموق والسمعة الطيبة ، أن يُنعم بمائة تومان أو أكــثر علي قصيدة شاعر كســول منافق مغمــور ، يحاول أن يتملقــه بشعره وهذا الشــاعر يتملــقه كمــا يتملق الأخــرين ويجرؤ عليــهم والوزير المحنك هو الذى يجعــل مثل هذا الشاعــر وغيــره من الشعراء يتــخلون عن

الكذب والنفـاق والخداع ، ويحث على نظم الاشـعار الممـزوجة بالحكمـة مما يكون باعثـاً على تهذيب الأخـلاق العامـة واصلاح اللغة واللهـجات الشعـبية ، لقد كـانت وعود السلطان محـمود الغزنوى بمكافـأة الفردوس السطوسى على جـهوده - أسكنه الله جنة الخلد سبباً فى طمع شعراء ذلك العصر ولكن أولئك الشعراء لايعلمون هـذا ، وهو أن اليوم قد انقـضى ذلك العصـر ، ففى ذلك الزمان كـان ملوك إيران يغيرون على الـهند ويغنمون الأبل بالقطعان وكـذلك الذهب والفضة والجـواهر النفيسة ، أمـا اليوم فتلك الدولة (إيران) أصـبحت فى فم تمساح (روسـيا) [1] ، وذلك لغفلتنا نحـن ، وحينـئذ فـقـد استحـق الفردوس كل تلك الجوائز عن جدارة ، بـل وكان جديراً بأكثر من هـذا ، لأنه أحيا لغة شعبه المهجورة ، وقدم خدمة جليلة لشعبه وليس مثل شعراء هذا الزمـان والذين يخلو شـعـرهم من النصـائح والحكم ، بل ويستحق اللعنات والاستنكار التام .

(١) واضح أن الكاتب مطلع على تاريخ إيران فى المـاضى وكذلك سيـاستهـا فى ذلـك الوقت ، كما أن هذه الفقرة توضح اطلاعه على سيرة الفردوس والخدمة الجليلة التى قدمها هذا الشاعر لإيران من خلال شاهنامته .

الخلاصة: أن ابراهيم بيك المسكين قد أتم فى هذا المكان ما أعده فى سياحته خلال تجواله وتطوافه بين مدن ايران ، ويقول حينما ينتقد أحد القراء هذا السياحة ويسأل لماذا لم احدد وأكتب عدد سكان هذه المدن الإيرانية فإننى أرد قائلاً :

إن كل إنسان سيعترض علىَّ فى هذا الموضوع والحق معه ، ولكننى أقول بمنتهى الأسف إننى أردت أن أكتب فلم استطع ذلك ، إذ لم يتوفر لدى أى مصدر ، وليس فى إيران نظام متداول للحصر ، وليس لديهم سجل سنوى فى هذا الصدد كسائر الشعوب والذى عن طريقه يمكن الاطلاع على مثل هذه الأمور ، وكل من يتحدث فى هذا المضمار هو من باب التخمين والقياس ، وعلى سبيل المثال سألت أحد الاشخاص فى مدينة (أردبيل) قائلاً كم عدد سكان هذه المدينة ؟ فأجاب بشكل عشوائى : بها أكثر من مائتى ألف شخص ، فضحكت ضحكة مقتضبة ، فغضب قائلاً : لماذا تضحك ؟ فقلت له . لإنك تجهل الحساب ، فاضحك لأنك لاتعرف ماهو الألف ، فقال متسرعاً

لماذا لا أعرف قلت ياوالدى العزيز لاتجادل فمـائتنا ألف كثير فكن عادلاً فى حسابك ، فقال إن كنت لاتصدقنى فاذهب صباح الغد إلى سوق بائعى الحطب ، وانظر سترى أنه من العـسير العبور أو المرور وذلك لكثرة أعداد الناس .

ثم سألت شخصاً آخر ماعدد سكان هذه المدينة ؟ قال إن بها ثلاثين ألفاً ، وعلى الـرغم من أن جوابه كان تخـمينا وقيـاساً ، لكنه إلى حـد ما قريب من الحـقيـقة والصـواب ، وكنت أسأل الدليل كل يوم عن مـسافـة المنازل والتى كـانت بطريقنا فى هذه السياحة قائلاً : كم فرسـخا طول مسافة منزلنا هذا ؟ فكان يقول ستة فراسخ فى حين أننا سرنا مـايقرب من ثمانى ساعات ، وفي بعض الأحيـان كنا نسير مدة عـشر ساعـات حتى نصل المنزل ، وواضح أن أولئك قـد سمـعوا هذا من السـابقين ، وليس هناك حـساب دقـيق ، وهذا كله أمـره هين ، ولكن هناك كـثيـراً من الأهالى والذين يجهلـون تاريخ حيواتهم وأعـمارهم ، والتى هى فى الغالب وقائع هامة فى تواريخ ولادتهم ، فيقولون على سبيل المثـال إنـــنى ولدت أثـناء الـزلزال الفـلانى أو الوبـاء أو الحـرب الفلانية ، أو اثناء وفـاة العالم الكبير العـلانى أو فى عصر حكم الحاكـم الفلانى ، وكـأنه لايعرف شـيئاً اسـمه القلم والـورقة ، مصدر تواريخ حيواتهم هو الوقـائع الكبرى والهامة ، وقلما يرى شخص يحدد تاريخ عـمره ، وعلى سبيل المثال رأيت كـثيراً من

جوازات السفـر والتذاكر ، فوجدت فى يد رجل يـناهز السبعين عـاماً تذكـرة باربعين عـامـاً و والعكس صحـيح وكل شىء مـر بأخلادهـم يحتفظـون به مكتوباً فى أيديهم ، وعلى هذا الـنحو أصحاب جوازات السفر ، ولايوجد عندهـم مقر لتقصى الحقائق وإمعـان النظر طالما أن همهـم هو أخذ الأموال وعـدم النظام فى العمل .

وهكذا يظن التعـساء أن سائر الـدول تهتم بعمل التـذاكر ، وذلك من أجل الحـصول على الرشـاوى (فليجـتث الله اسمـها المشـئون من على وجـه البسـيطة) وهم يغفلون أن سـائر الدول والشـعوب ترفض رشـاوى هذا النوع من الأعـمـال ، كمـا أن الغرض الأساسى من عمل مـثل هذه التذاكر فى أى دولة وشعب هو تنظيم العـمل من أجل الرائـح والغادى ، وكـذلك المحـافظة على الرعية حـتى تحيط هذه الشعوب علمـاً بما يقع لرعاياهم من أحداث ، فمثلاً فى أية منطقة يكون قد حكم على شخص بحكم معين ، فمن المتعـذر أن يحصل هذا الشخص على تذكرة بالمرور والعبور ، وذلك بالنسـبة لسائر رعاية الدول ، وتقـوم السفارات بإجراء التـحقيـقات المستـفيضة بـالنسبة للفـرد الذى يريد تذكره للخارج ، وفـى " إيران " يعتـــبـر مقر التـذاكر شـيئـاً جديراً بالمشاهدة ، فأولاً وبطبيعة الحال يستطيع أى مقر للتذاكر فى إيران أن يطبع مـايشـاء من التـذاكـر دون أى مـسـاءلة ، طالما أن هذا الشخص يريد أن يحـصل على الأموال وليس هناك ثمن مـحدد

لهذه التذكرة ، وكان يحكى لى أحد الأصدقاء قائلاً : رأيت فى ميناء (جده) أكثر من عشـرة أنواع من التذاكر فى أنواع مختلفة فى ايدى الحـجـاج الايرانيين ، وقـد رأفـقت أحـد الحـــجـاج الايرانيين ، وكـــان هذا الشـــخـــص من أهل " مـــازندران " الأشراف ، وكان قـد دفع النقود من أجل التصديق عـلى التذاكر فى الذهاب والإيـــاب ، وقـد دون كل شىء فى كتـيب وأرانى اياه ، وقـد دفع من أجل التصـديق على التذاكـر مبلـغ خمـسة وأربعين تومـانا ونصف التـومـان ، وكان يـحكى لى نفس هذا الشخص فيقـول : إن كثيراً من القرويين لايفهـمون معنى القدرة واليسر ، فـهم إذا رأوا فى جيوبهم مائة تومان أو مـائة وخمسين تومانا فـإنهم يعزمون على السـفر " للحجاز " وذلك بتـحريض العلمـاء لهم ، فـيخـسـر المسـاكين هذا المبلغ فى بدء الأمـر مما يضطرون إلى التسـول وسؤال الناس ، ولهذا فـقد توفى اثنان أو ثلاثة من الحجاج الايـــرانيين ، إذ لم يتحـملوا شدة العسر وقلة المال ، وذلك عند العـــودة من (جدة) فتوفـوا إما فى الباخرة أو أنهم القـوا بأنفـسهـم فى البحـر ، وقـد رأيت عـدداً مـــن الاشـــــخاص فـــى الكرانتيـــــنة فى (طور سيناء) ، وقد أخذوا يتسولون هناك ووصلوا وطنهم بين مـوت وحياة ، وحينما اجتـهدت رايى وحكمت بهذا وهو : إن كل شـخص قلَّ مايملكه كنفقة طريق عن سبعمائة تومان لايجوز له الحج ، فقلت يا أخى لقد صدقت فـانك لم تجتهد فى بداية الأمر حـتى تحرم حلالاً ، وقـال لاتضق بى أيها المواطن إذا كـنت قد ثرثرت كـثيـراً وذلك

لشدة حزنى ، كما أنك لم تعلم ولو رأيت أحوال هؤلاء بنفسك ، وعانيت الشدائد التى عانوا منها فى " مكة " و " المدينة " ، بسبب النقود ، لكنت تحدثت أكثر مما تحدثت عنه أنا نفسى .

وليجعل الله لك نصيباً حتى ترى بنفسك وحينئذ ستفهم ماقلته ، كما أن هلهلة ملابسهم وأمر حياتهم ، يجعلان الإنسان يخجل من أولئك الأعراب العراة الحفاة .

الخلاصة: لما أنه ينبغى أن انتظر مجىء السفينة فى " باطوم " مدة أربعة أيام ، ولما لم يكن لدينا أى عمل نقوم به رأيت أنه من الأفضل أن أدوِّن بعض هذه الكلمات فى ذيل سياحتى ، على الرغم من أنها تخرج عن موضوعات السياحة ، ولما أن الغرض الأساسى هو نصيحة المواطنين بتحصيل العلوم المتداولة فإن ذكر هذه النصيحة الموجزة لايخلو من الفائدة والنفع ، وفى إيران رأيت أن الحصول على المنصب واللقب وحكم أى اقليم متاح لكل شخص بالمال من أية طبقة أو فئة . وأن المشاكل كلها نابعة من كثرة الرشاوى ، وكل من يعترض على هذا الحديث فليذهب إلى " إيران " فهى موجودة وشاهدة على ما أقول ، ولايمكن أن ينكر أحد هذا المعنى ، ولكننا نستثنى منصباً أو مهنة واحدة ، تشذ عن هذه القاعدة وفيها لايأخذ أحد مالاً أو رشوة أو ثمن وساطة ، وذلك لأن الحصول على ذلك المنصب منوط بالعلم ، وبناء على هذا فالمنصب المذكور مصون

بفضل العلم من أى نوع مــن تجاوز جامعى الأموال الجـهلاء ، وإذا لم تعرفوا ذلك المنصب ، أقول لكــم إنه مهنة مكاتب المبرقة فى إيران .

وذلك لأن أساس تلك المهنة متعلق بوجود العلم كمــا سبق القول ، وإذا مــا اجتمع فى " ايران " فى يوم من الأيام عــشرة وزراء أو مائة أميــر من أمـراء الجيش كالعقـيد والعميـد ومافوق ذلك ، فإنهم يثرثرون حتى المساء باستثناء موظفى المبرقة ، إذا لو ابتعــدوا عن أعمــالهم مـرة فى اليوم فـإن الاتصالات ستـعطل برمــتها ، ومن ثـــم سيظهـر الهـرج والمرج الواضح فى شئــون المملـكـة ، إذ أنه لـيس كل شـــخص علـى دراية بفن وعــلم التلغـراف ، على الرغــم من أن مـعـرفة هــذا العلم فى البــلاد الأجنبيــة ميسر لكل طفل ، أى أنه من أســهل العلوم المتداولة ، وليس له أهمية بين الناس ، ولايمكن للمرء أن يتدرج فى مناصب هذا العلم الرفيع إذا كان هذا المرء يجهل هذا العلم حتى ولو قدم رشوة مالية قدرها مائة ألف تومان ، وحتماً سيرفضون أن يسندوا لهذا المرء مــهنة رجل التلغراف ، فـدرجة شرف العلم وجــلالته أرفع من ذلك ، وعليه أن يأتى بالأدلة ليثبت أنه على دراية وعلم بهذه المهنة ، وحينما تتحـسن أوضاع مدارس البلاد بالشكل الذى نعرفه ويحصل المواطنون العلوم والفنون المتداولة ، فأى شىء آخر يلزمهم من أجل الحصول على أرزاقهم ؟

فى حين أن أولادهم أنفسهم يكذبون أو يرضون بالأضرار الأخرى ويخونون الدولة والشعب والوطن ، والكيمياء المزعومة والتى يعتقد فيها أهل الشرق هى جزء من العلم ، وكما هو معلوم فقد خرب كثير من المنازل الكبيرة وذهبت أدراج الرياح ، وذلك من جراء هذه الكيمياء المزعومة ، وقد اتجه كثير من المشعوذين إلى إيران ولقب هؤلاء المشعوذون أنفسهم بلقب الكيميائيين وراحوا يخربون بيوت المواطنين ، وذلك بسبب جهل الناس ، فى حين لم يجد واحد منهم أذنا صاغية لأحاديثه البلهاء الكاذبة فى أى مكان من العالم ، وذلك بفضل العلم والمعرفة ، وراح هؤلاء الدجالون يجبرون الناس المحترمين من بدء الليل حتى تنفس الصباح على النفخ فى الكور ، ويحرمونهم من لذة رؤية أولادهم وأطفالهم ، ومن السهل أن ينتقل ذلك المرض المُعدى أيضاً لأحفادهم ، وما أكثر المنازل العظيمة التى أراها فى إيران ، وقد غدت حطاماً ورماداً محروقة بنار الإكسير ، وحينما يكون الشخص على دراية بالعلوم والفنون المتداولة ، سيعلم بلاشك أنك لايمكن تغيير ماهية الشىء ، وأن تغيير اللون الظاهر لايعد دليلاً على جودة أصله .

(لو لونت الدمع بلون الدم . . .

لن يتغير لونه إلى لعل بدخشان اللامع) (١)

(١) كَرد اشك رنكَنى قانيله ملون ايده سن . .رنكَى تغيير تابار لعل بدخشان أولمز

وهناك بالفعل علم الكيمياء وهو علم جليل للغاية ، ولا أحد ينكر ذلك، ولكن ليس كما يشيع بين أهل الشرق ، أن مصدره (هكذا قال الشخص الهندى الفلانى ، وهكذا ذكر فلان المغربى ؟) ، إذ ينبغى تعلّمُ هذا العلم الجليل فى المدرسة من المعلم ، وليس من الدرويش الإيرانى الفلانى أو الدرويش النورانى ، ولو تعلم الشعب هذا العلم الجليل فى المدارس من الكتب وتلقين المعلمين ودروسهم الحكيمة ، لاكتشف أفراد الشعب اليوم العديد من المعادن النفيسة فى بقاع هذه المملكة ، ولكانوا خلّصوا بلادهم من كل ما تحتاجه من الخارج إلى حد ما ، ولخلصوا كثيراً من البيوت التى أحرقها الدجالون والذين يزعمون أنهم كيميائيون ، خلصوها من تلك النار المخربة للبيوت ، ولصانوا قاطنى هذه البيوت من كوارث الذلة بعد العزة ، ولبلغوا أعلى درجات الرقى فى تعمير وطنهم ، وحينما أقول إنه بفضل المدارس وشرف العلم يعمل فى مطبعة واحدة زهاء أربعة آلاف عامل يوميا وذلك فى البلاد الأجنبية لن يصدقنى مواطن واحد من مواطنى المحترمين ، وفى إنجلترا وحدها يعمل وفقاً للإحصاءات مايقرب من ثلاثمائة ألف عامل يومياً فى المطابع ، ولكن مواطنى نظراً لجهلهم فإنهم يجتاحون البلاد الأجنبية بالالاف ويشتغلون لدى الشعوب الأجنبية فى أعمال حقيرة .

وثمرة هذا الإكسير هو ما يطلق عليه اسم (المدرسة) ، إن شباب المملكة بعد الحصول على شهادة التفرغ من العلوم والفنون فإنهم يأتون بالآلات من الخارج ويعملون بقوة العلم فى أدغال مازندران التى هى اليوم فريسة مطامع الأجانب ويقطعون ما بها من أشجار عتيقة ، ومن ناحية أخرى فإنهم يصنعون الورق من قشرها والذى أمامى نموذج الآن منه (الورق) ويدرس علم الهاتف فى تلك المدارس ، ولو تهيأت مقومات ذلك الآن ، أى لو كان هناك هاتف ، لكنت اتصلت اليوم من هذا المكان بذلك (الوجود المحترم) فى طهران ، وكنت سألته عن بعض الموضوعات التى كنت نسيتها آنذاك ، وعلى سبيل المثال كنا تحدثنا مع ذلك السيد النجيب فى مكتبته ولما رفعت صوتى أكثر من هذا ، أو كنت اتصلت بوالدتى المقيمة فى مصر ، وتجاذبنا أطراف الحديث إذ أنها الآن قلقة على ، إن العلم هو أن تضاء المدينة الكبيرة فى الليل الحالك وفى ثوان بلا زيت أو فتيل ، ويصبح الإكسير أفضل من العلم لو أن الرجل الغربى يبيع الفولاذ بقيمة الذهب فى تلقين العلم ، والإكسير الحقيقى هو ليس باطلاق الشباب للشعور الطويلة وفى أى مكان من العالم إذا سألت عن المدرسة دلوك عليها ، أما المكان المجهول والذى لايعرفه أحد فهو إيران ، وهذا كاف ولا أعلم لماذا هذه الدولة القديمة والعريقة وهذا الشعب النجيب الذكى لماذا لايبحثان عن ضالتهما (المدرسة) وكما يقال :

(الحكمة ضالة المؤمن أخذوها حيث وجدوها)

والشيء العجيب أن كثيراً من الناس يثرثرون شفاهة قائلين إن الأدوار الفلكية تقتضى هذه الحالة ، غافلين عن أن الفلك نفسه فى حيرة أمام افتراءاتهم هذه ، وقد أمهلكم الفلك المسكين مهلة خمسين عاماً [1] كاملاً وقد عاصر كثيراً من الحروب الخارجية والفتن الداخلية ، وقد جلست أنت أيها المواطن خلال هذه المدة الطويلة فى بيتك فى ظلام حالك ، وشاهدت من بعد ضياء بيوت الجيران ، ومع ذلك لم تطمع أن تستفيد من ذلك الضياء ، فما هو ذنب الفلك وغير الفلك ؟ فى حين أن الفلك يقول بلسان الحال : ليس لى أى ذنب فانا لازلت محكوما كحكم رؤساء عسكم وكبار سعاتكم وواضح أن لخالق هذه الأفلاك حكمة خفية من ذلك الخلق .

كما أن الله لم يخلق أولئك شعباً ضعيفاً منكوب الطالع ، وحينما يعمل أى شعب وعلى الأخص الإيرانيين ، يعملون وفقاً لأحكام الله وأوامر رسوله بحيث يتقنون أعمالهم فإن الشعب لن يمسه أى أذى .

وحينما يسعون فى طريق العلم والمعرفة ويتألمون لألم الدين وحب الوطن والغيرة القومية فحينئذ يوفقهم الله فى أعمالهم وأحوالهم ، ويسعدون فى الدنيا والآخرة ويعيشون حياتهم فى

(١) اشارة إلى حكم ناصر الدين شاه الذى اقترب من الخمسين عاماً .

عز وفخار ، وحينئذ لن تبقى هناك شكوى من الفلك أو الملك ، وهم أنفسهم سيعلمون أنه منذ بدء بزوغ شمس الإسلام أن الفلك لم يساعد أى شعب من الشعوب مثل شعب ايران . وحينما يغفلون عن إصلاح المدارس والبحث عن وسائل الرقى والحضارة ، ويتصرفون بالرؤية السالفة الذكر فمن السهل أن تظهر الكوارث والمصائب من بلاد الشمال من ناحية ، وسوف تهيج أمواج بحر عمان الهادرة من ناحية أخرى [١] ، فتشمل الوطن ، ولن تترك اثراً لقوميتنا وشرفنا واستقلالنا على ظهر البسيطة ، وحينئذ سوف يجتاح الأعداء بلادنا ، وقسما بالله ، عندما يحدث مثل هذا ، سوف يتجمد الدم فى العروق الإنسانية .

كما أن سائر الشعوب على الرغم من أن لديها الملايين من الجنود المدربين ، وهم موزعون بالآلاف على المهام القتالية بما فى هذه المهام من أسلحة مختلفة كالمدفع والبندقية وغير ذلك ، إلا أن مثل هذه الشعوب تزيد أرباح بلادها على المليارات ، ومع كل هذا فهم لايتوانون لحظة واحدة عن زيادة قدراتهم وكفاءاتهم ، بل ويعملون ليل نهار ، ودائماً يفكرون فى توسيع رقعة بلادهم ، فنجد وزير المالية مشغولاً بضرورة زيادة الدخل ، من

(١) يقصد الكاتب بالخطر المقبل من الشمال هو الخطر الروسى ، أما الخطر الجنوبى فهو الخطر الإنجليزى وقد صدقت نبوءة المراغى هذه بالفعل ، إذ قسمت كل من روسيا وإنجلترا إيران بينهما كمناطق نفوذ فى عام ١٩٠٧م أى بعد الثورة الدستورية بعام واحد .

- Elwell : Modern Iran, p. 61 .

ناحية ، ومن ناحية ثانية فوزير الحـربية مشغول بإصلاح مساوىء المعسكرات ، ومن ناحيـة ثالثة نجد وزير التعليم مشغـولاً بافتتاح المدارس الجديدة وإصلاح أوضاع المدارس الموجودة) ، ولايتدخل واحد من هؤلاء فـى شئون الآخـر ، فالجمـيع يتمنطقـون بنطاق الهـمـة وذلك لإخلاصـهم ، وهم يخـدمـون الدولة والشـعب بأرواحهـم ، وهدفهم جمـيعـاً هو أن يُظهروا وطنهم فى مـظهر محترم فى نظر الغـير ، ومن ثم يهيئون مقومـات العزة والفخار لأحفادهم .

الخلاصة : أنهم يعتبرون الوطن بيـتاً لهم وأن مواطنيهم هم أولادهـم ، وتعتبـر تنشئة الأطفال وتعـمير البيـوت من الواجبات الإنسانية الأولى ، ومن ثم يخلصون بلادهم عن الجملة المنحوسة ألا وهى (ومـا شأنى) ، حـتى لايسمـع أطفالهم هذه الجـملة المشئومة ، فيتحدثوا بها فى الكبر .

وحينمـا تنزل بالشعب نازلة أو يصـيبهم مكروه ، كـالحرق والغرق ، فينبغى أن تقدم فى كل مكان الإعانات ويساعد الجميع المنكوبـين عن طيب خـاطـر بما يليق بهـم ويأخـذون بأيـــدى العـاجزين بمخـتلف الوسائل والأسـاليب . ويفهم كلمـاتى هذه جيـداً من هو مثلى قد امتـزجت طبيعـته المكونة من الماء والطين بحب الوطن ، والآن فإنى فى حيرة من أمر الأشخـــاص الذين كانوا يعارضوننى دائـــماً فى (مصر) فبماذا أجـيب ؟ فحينما أتحدث بصدق على كل ماشاهدته فقد صدقت أقوالهم ولايرضى

قلبى بذلك ، ولو كذبت فقد خالفت ما أوصانى به أبى ، إذ قد نصحنى بترك الكذب ، وينبغى أن اتــــضرع إلـى الله بالدعاء أن يسلبنى هذه الخصيصة أو يميتنى ، وأن يهيىء مقومات تعمير إيران وسعادة الإيرانيين ، والموت أسهل من تحقيق مثل هذه الآمـــال ، (ولكن أمى المسكينة ليست لها بين الناس سـواى) ، ومع هذا فإن الآمال تحدونى ، إذ أن حكام الدولة الإيرانية قد سافروا عدة مرات للسيــاحة فى البلاد الأجنبية وقـد راوا بأعينهم وسائل رقى شعوب بلاد الشـمال والغرب ، ولاشك أنه بسبـب هذه الأسفار المتوالية قد تحركت دماء الحمية فى عروقهم ، ومن ثم سيحاولون أن يعـملوا على تطوير البـلاد وتقدمـها ، وإصـلاح هذه المملكة المترامية الأطراف محتاج إلى وقت طويل ولاشك فى هذا ، وهذا الأمر ليس كطبخ الحلوى طالما يشرعـون فى العمل والإصلاح ، وقد شُغلت اليابان مدة عشرين عـاماً كاملاً فى إصلاح أمورها ، ولـم يعلم أحـد أنهـا أغلقت الأبواب علـى نفسـهـا وبعـد ذلك أصلحت أمورها ، وانـفتحت ثانيـة على العالم ، وحـينئذ رأى جيرانهـا أنها استبـدلت الظلام بانوار الرقى والحضارة ، فـمحوا الجـهـل وعـدم المـعـرفـة من هناك ، واسـتـبـدلوا ذلـك بالعلم والبصيرة ، وربمـا يفكر حكام دولة إيران هكذا أن وراء كل عسر يسراً ، وإلا فانظر إلى أهل الحبشة والزنوج العراة والذين افترشوا الحـصى فى الصحـراء ، سـتـرى أنهم يقـفون أمـام دولة كبـرى كايطـاليا ، ولايسمـحون لتلك الدولـة الكبرى أن تتقـدم خطوة

واحدة نحـوهم ، ولما بدأ من هذه الأفكار مايبـعث على الترويح عن النفس كأننى كنت فى غير وعيى وأفقت ثانية ، قلت لنفسى يا إبراهيم كفى أم ستتـحدث ثانية واجبت على نفـسى قائلاً : لا بل هدفـى هو أن يكون لدينـا من المدارس الحـديثـة والـسكك الحديدية والطرق المرصوفة فى بلادنا .

وأن نقيم المعسكرات المنظمة فى المناطق الرئيسية من البلاد ، واللائقة بسكان الوطن واتساع المملكة ، وأن نتـوسع فى علاقاتنا التجارية حتى لايطمع جيراننا فى بلادنا ، وأقرب جارة لنا عاجزة عن المحافظة علـى بلادها ، فلا ينبغى أن نسـمح لسائر جـيراننا بالتعدى علـى حقوقنا الصريحة ، ولانسـمح لأحد أن يطمع فى ملكنا ، ويقنع بما يغـتصبه مـنا ، وإذا لم يحدث هذا لا يمكن أن نحفظ وطننـا ودينا وكذلك النواميس المقـدسة لشـريعتنا ولو أن أجدادنا المتأخرين رحمـهم الله كانـوا يقـولون مثلنا اليـوم (ماشأنى) وعـلى هذا النحو كانوا يتصـرفون ، لما بقى لنا هذا البـيت الحقـير ، ومـعلوم أن الإنسان الذى يريد أن يعـد بستـانا ويزرع أشجاراً مثمـرة ، هدفه من وراء ذلك هو انتفاع أولاده من بعده بالتمتع بالورود وأعشاب ذلك البستان وثمار هذا البستان أن أسلافنـا قد اشتـروا هذا الوطن العزيز بدمـائهم كثـمن له ، ثم صانوه وحـافظوا عليه من أجلنا ، وحينمـا ننعم النظر فى تراب وطننـنا لانجـد حـفنة من هذا التـراب لم تمتـزج بدماء أجـدادنا الاعـزاء ، وكم من الأرواح الغالـية سـفكت فى سـبيل الدفـاع

والمحافـظة على هذه الحفنة الرملية ، وعندمـا حاصرنـا الأعداء الأقوياء من كل مكان تنازع أجدادنا النجباء مع كل أولئك الأعداء ليل نهـار حتى طهـروا ساحـة الوطن بعـد تضحـيات عـدة مع الأجانب الأقـوياء المهاجـمين ، والذين كانوا عـدو كل شـــىء عندنا ، والآن فإننا لم نتـقدم خطوة واحدة نحـو الأمام ،وذلك بسـبب الكسل وعدم التـفكيـر وهل يجوز أن لانعـمل من أجل المحافظة على الشيء القليل من أرضنا والذى حـفظه لنا الزمان ، خاصة وأننا خـسرنا جزءاً كبـيراً من بلادنا ؟ أم ندوس على ديننا ووطنناً بالأقدام ، ولانشكر الله على هذه النعمة الكبرى إن خصنا بالمساجد والمعابد ؟ وهل يجـوز أن لانحافظ عليها بالشكل اللائق لشأن الإسلام السامى ؟ وأخشى من الله أن يحاسبنا حساباً عسيراً جزاء للكفر بنعمه ، فيطيح القدر الإلهى بأسس كل عزة لنا وهذا ما أعـنيه ، ولا فلو أن اليـوم أحتـرقت ايران كلها ظلمـا فلست بينهم ، وربما يحـزن قلبى وأنا بعـيد عنهم فـقط ، ومن ناحيـة أخرى فلو علقت سـلاسل العدل فى كل ناحـية من تلك الدولة كعهد الملك (أنور شيروان) العادل فلن يعود على شىء من بين الناس سوى الفخر والغبطة لهم فقط ، ولو أن مواطنى المحترمين يقولون ماذا أصاب هذا الشاب الفضولى حتى ينصح أهل المملكة بما يتصل بالعقل والمنطق .

أرد عليهم بمنتُهى التواضع أن تلك الذرة التى لاتقدر هـــى " أنا " ولكن اعمـلوا بقول العظماء ، إذ يقـولون (أنظروا إلى ماقال ولاتنظروا إلى من قال) .

(إن شرف القائل وخسته

لايؤثران قط فى كلامه) [1]

(فانظر أنت إلى الحديث ماحاله

ولاتنظر إلى صاحبه)

وأتضرع إلى الله بالدعاء أن يمد فى عمرى إلى اليوم الذى أرى فيه بعينى أيام السعادة التى وعدنى بها (ذلك الوجود المحترم) فى " طهران " وأول مقومات تلك السعادة منوط بحدوث وحدة واتحاد بين كافة وزراء المملكه وحكام الشعب ومن ثم يتركون جانباً برجولة أهواءهم الشخصية ليتكاتفوا ويهبّوا لمساعدة بعضهم البعض لإصلاح مفاسد الوطن ، ويعتبروا أنفسهم مثل وزراء سائر الدول ، وذلك فى خدمة الوطن وتقديس الدولة . وبينما كنت بصدد هذه الأفكار حدثنى يوسف عمى فجأة قائلاً : ياحضرة البيك : لعلك لاترغب فى الغداء ؟ فإنى جائع ، وقد مر على الغداء كثير من الوقت ، فرأيت أن مايقوله صواب ، فنحن على وشك العصر ، فقلت لامانع ولنذهب نأكل شيئاً ، وحتى نشترى ساعة من السوق بدلاً من ساعتى التى ضاعت فى " طهران " وقال العم يوسف حقاً ياحضرة البيك ، فكم أردت أن أسألك أين ساعتك ، فلم أجد

(١) شرف قائل وخساست أو . . .نكند در كلام هيج اثر توسخن را نكَر كه حالش چيست . . . بر كَذار نده سخن منكَر .

الوقت المناسب لسؤالى ، والآن أنت بنفسك أثرت الموضوع ، فذكرتنى حقيقة بالموضوع . . . فماذا حدث لساعتك ؟ فقلت لاتسألنى لأننى لن اتحدث فقال لماذا ؟ قلت لاننى بالفعل لايمكننى أن أتحدث عن تلك الحادثة ، وأنت تعلم أنه ليس من عادتى الكذب ، فخفض المسكين الرأس وصمت تماماً ، وخرج الاثنان من أجل تناول وجبة الغذاء وشراء ساعة ، وأقبل شخص إيرانى فى نفس المكان ، فسألت هذا المواطن : أيوجد هنا مطعم لطهى الارز ؟ قال لا ، وإن أردتم الغداء ، فهناك مطعم كباب ، قلت لاضير ، فلو تدلنا على مكانه فلك جزيل الشكر ، فقال لكم ماتريدون ، ودلنا على مطعم كباب ، بل وأوصلنا إلى المطعم نفسه ، فقمت بالواجب قائلاً : تفضل معنا لنتناول الغداء سوياً ، فقال لقد تناولته . . . صحبتكم السلامة ، ورحل .

ودخلنا نحن بدورنا مطعم الشواء ، وطلبناه وانتهينا من الأكل ، وبعد ذلك دخلنا محلا لشراء ساعة ، فتقدم صاحب المحل وكان رجلاً يهودى الأصل ، فسألته عن قيمتها ، فأجابنى باللغة الروسية ، إذ أنه لايعرف التركيه فحدثته باللغة الفرنسية والإنجليزية لقضاء طلبى فلم يفهم ، واتضح أنه يعرف الروسية فقط ، فأردنا أن نعود ، لكنه سرعان ماأتى بتشكيله من الساعات واشار الينا قائلاً تعالا ، فأدركت أنه يبحث عن مترجم ، وكان فى الدكان سلم ، فأعتلاه ، ودخل فى أحد الأماكن فتعقبناه ، حتى وصلنا أحد المنازل ، فطرق باب أحد الغرف ، فارتفع صوت (ادخل) باللغة الفرنسية من داخل المنزل على غرار

الفرنسيين ، ودخل بائع الساعـة ، واتبعناه نحن بدورنا ، فرأيت ثلاثة أفراد ايرانيين يتناولون وجبه الغـداء ، فالقينا السلام ، فلما رأونا دعونا قـائلين تفضلوا على بركـة الله قلت : شكراً ، فمنذ قليل تناولنا الطعـام ، فعرض صـاحب المحل اليهـودى الموضوع عليـهم قائلاً : يريد هذان المـواطنان أن يشتـريا ساعـة ، وذلك باللغة الروسية .

الخـلاصـة : أننا اشـتـرينا سـاعـة بواسطة ترجـمـة أولئك الأشخاص ، ثمنها اثنا عشر منا ، وأخذ اليهودى حقه ، وذهب لحاله ، ولما أن الشاى كان معداً دائماً فى المنازل والبيوت بالأقاليم الروسيـة ، فقد دعيـنا لتناول الشاى فارتشـفناه ، وبعد ذلك دار الحـديث ، واتضح أن صـاحب المنزل أحد التـجـار الإيرانيين ، حيث يقيم فى " باطوم " بصفة دائمة ويزاول التجارة ، وهو فى أغلب الأحيـان مشغـول بالاتجار فى الشاى ، فـسألنا عن الاسم والموطن فقلت : إننى إيرانى ومقـيم فى " مصر " وابن فلان ، فسعد للغاية ورحب بنا ثانية بعد أن سألنا عن غربتنا وعن أخص أحوالنا ، واتضح أن بينه وبـين والدى صداقة قديمة ، وقـد حزن حزناً شـديداً لوفاة المرحوم والدى . وقد تأثر بالحـادثة تأثراً بالغا وسألتـه أيضاً عن اسـمى هذين المواطنين اللذين يجلسان مـعه ، فأشار على أحدهما وقال هذا المواطن اسمه كربلائى تقى ، وهو من أهل " مـرند " ، وهو يقـيم فى هذه المدينة ، وذاك أيضـاً اسمـه خليل سلطان زوج أختـى ، وقد أرسلته لى حـتى أحكم بينهما ، ولما أنـه يجهل مايريحنى فهو يريد أن يـتسبب فى بلائى

وأذيتى وذلك بسبب الحب والود الذى بيننـا ، ودار حديث مازح لفتـرة من الوقت ، وفى تلك الأثناء دخل شـخص وقال دون أن يمهد للمـوضوع ، ياحـاجى هذا الرجل يماطل ثانية واسـتحلفك بالله أن تخلصنى من براثن هذا الظـالم ، فقال الحـاجى ياوالدى العزيز .

مـاذا أفـعل ، فـقد ذهبـت له ثلاثة مـرات وطلبت منه أن يعطيك من المنات مائة وخمسين ، وقد وعد هو نفسه بذلك فأية مماطلة هذه ؟ ولـيلعن الله تلك الطائفـة الـتى لاتخـجل من الله ورسـوله ، التى تجرأت على أكل أمـوال الأيتام والضـعفـاء من الناس ، واذهب أنت وأنا سأذهب اليوم ثانية ، فـربما أفعل شيئاً حتى أخلصك ، ودعا له ذلك الـشخص ، وأثنى عليه ورحل ، فسأل " خليل سلطان " ماالخبر ؟ ومن هو هذا الشخص ؟ فقال الحاجى توفى العـام الماضى مواطن هنا ، وكان له دكـان بقالة ، فباع القنصل محتويات الدكان فبلغ ثمن مايحتويه الدكان سبعمائة وخمسين وبعض المنات ، واستولى عليها جـميعها ، والآن فهذا الشخـص الذى جاء هنا أخـو المتوفى ، ولديه شـهادة من كـبار علماء المملكة تفـيد أنه أخو المتوفى ووارثه ، والآن مـضت عدة أشهر وهو معطل على العمل ، ولم يذهب القنصل لإعطائه تركة المتوفى ، حتى أننا حددناه بمائة وخمسين من المنات ، وذلك بشق الأنـفس ، وهو لايـريد أن يعـطيه هـذا المبـلغ ظلمـاً وعـدوانا ، وسـألـت من يُعين القنـصل ؟ قـال

إنه يتعين من قبل چنرال سفارة "تفليس" ، فقلت فليعرض موضوعه هذا على الفريق القنصل فى "تفليس" ويشكو له منه ، فقال رحم الله والدك ، فقد تعلَّمَ هو نفسه هذا الأسلوب من هناك (إيران) ، فقال خليل سلطان : ما ذنب القنصل المسكين ، إنهم لا يعطونه شيئاً من المال فماذا يفعل ؟ وليس ببعيد أنهم يأخذون المبلغ أيضاً تحت اسم الرشوة والهدية ، فقلت يا سيد سلطان أنتما زميلان فى العمل ، وتعملان معاً فى الديوان ، ولاشك أنكما تريدان أن تحميا القنصل ، وربما لا يعطونكم شيئاً؟، فقال بالله لو أنهم لا يتقاضون شيئاً فأنا راض ليكون ربحهم حلالاً ، فقلت ما هذا ؟ قال أنا لم أر شيئاً من تلك الرشاوى منذ سنوات وكان لدى جواد أصيل ، وكنت أحبه أكثر من عينى ، وقد رأى عميدنا هذا الجواد فطمع فيه ، وكلما لَمَّح لى عن غرضه بالإشارة لم أكترث بذلك ، حتى أفصح عن غرضه بلسانه ، فأصررت أن لا أعطيه إياه ، فحاول أن يخلعنى من منصبى وبحث عن مشترٍ لمنصبى وطلب منه سبعمائة تومان كرشوة له حتى يعطيه قيادة الفوج ، فقلت له وأنا بين جمع من الناس : يا سيادة العميد إن هذا المنصب ورثته عن أجدادى ، وقد خدم أجدادى الدولة كثيراً ، وقد عانى والدى من فتنة القيادة عامين فى "خراسان" ، وتحمل الكثير من العناء والمشاق ، فلو أعطيت منصبى لأحد غيرى ، سوف أذهب مباشرة إلى المبرقة لأشكوك

للملك ، وسأسعى فى هذا الأمر حتى ولو كلفنى حياتى ، لأننى لاحظت أنه لا جزاء لمن يعمل ، وما هو جدير بالقول فقد قلته .

فرأى العميد أننى لست كسائر الأشخاص ، فعدل عن فكرته بل وأهتم بـى وخلع على خلعــاً ، ومع كل هذا لم أفــرط فى الجـواد، وقلت أصـدقنى القـول أليس لديك عـائد مـادى منتظم أساساً أم لا يعطونكم ؟ قال ماذا تقول ، إن خزانة الدولة تقرر لنا مـرتبات مـعينة ومـحددة ، ولكنهـم يأكلونها ولا يعطون شـيئاً لأمثالـى، ولما أننى من فضل الله لست فى حاجة لهـا فإن الحكام الكبار يسـتولون عليها ، ونظراً للعـراقيل السالفة الذكـر قد يصل صاحب هذه المرتبات عُشـرها أو قد لا يصله شىء منها ، وأنا لم أر منها شيئاً قط ، (ومن السـهل جداً أن أتعرف على الأشخاص الذين هم امثالى)[1] ، وأولئك لا يرون منها شيـئاً أيضاً ، وقال صاحـب المنزل أتحبـون أن نخرج ونمشى قليـلاً ؟ قلت لا بأس ، وخرجنـا معهم وقـد شاهدنا كل شىء حـتى وصلنا إلى حـديقة حكوميـة ، وكانت فى غاية الازدحـام وبها أناس كثيـرون ، وقد مضـى من الليل نصف الساعـة بعد أن عـدنا ، وفى لحظة الوداع قلت لصاحب المنزل ، ربما لا يمكننا أن نزورك بـالغد ، وقد أتت الباخرة اليوم ، وغداً إن شاء الله سوف نتوجه إلى "إسلامبول" ، فأدعُو لنا ، فـقال الحاج لا يمكن أن أسمح لكـم أن تذهبوا غداً فظننت أنه يدعونا إلى البيت ، فقلت : لا يمكن لابد وأن أذهب،

(١) أى أن امثالى كثيرون .

قال : لا فالســاعة الآن نحسة ، فرأيت أن الموضوع قــد تغير وأن جناب الحاج رجل ســاذج ، فقلت متجــاهلاً إننا اشترينا الســاعة بواسطتك ، فلو كانت سيئة لما لم تخبرنى حينئذ حتى لا نشتريها؟ قال لا أقصد تلك الساعة فبالأمس كنت أنظر فى التقويم ، فرأيت أنه لا يستحب سفر البحــر اليوم ، فشعرت بمرارة شديدة وقلت : لعنة الله على ذلك التقويم وكاتبه والمعتقد فيه ، فيا عبد الله أليس من العيب أن تقضى عمرك فى هذا العبث وتضيع وقتك الثمين ؟ إن ذلك الشــخص الذى لا دين له قد كــتب أن اليوم الفــلانى لا يستحب فيه سفر البــحر ، وأن الساعة كذا مناسبة لرؤية الحكام ، وهو نفسه يغــفل عما يدور ببيته ، وليــترك (ابن المحروق) الأمور السماوية أو الغيبية لحالها وليفكر فى الأمور الأرضية التى حوله ، فأولاً يخــبر مواطنيــه بعدد سكان إيران ويخبــر المواطنين أيضاً كم تبلغ مســاحة المملكة وكم تبــلغ مسافــة حدودها وبعــد ذلك يهتم بالسمــاء ، وأشد ما يؤلمنى من جراء هؤلاء المنجــمين وتقويمهم أن يخون المرء ربه الذى هو يعــيش بفضله فيقــول : إن اليوم الفلانى ليس مناسباً لرؤية وجوه الملوك ، وسىء الحظ بالنسبة لرؤية الملوك دائماً مبارك ، . . . فكن أميناً وعبداً صديقاً وقريناً ملازماً لتحرك الملك ، وكلمــا اتيحت الفــرصــة انظر فى وجوههم حــتى تكون ميموناً وسعيداً !

وعلى العكس فحينمــا تخون الدولة والملك يكون بالك دائماً مشــغولاً ومشــوشاً من جراء ذلك ، واعلم إن أى يوم أو ســاعة

مـباركـة لا يمكن أن ينجـيك من أعمـال السـوء والخيـانة للملك والشـعب ولا أعلم إلام تنتشـر هذه الألاعـيب والشعـوذات فى "إيران" وبين الإيرانيين ؟ فياجناب الحاجى إنى أشير عليك بهذا: حينما تحتاج أن تنظف بدنك فاذهب إلى الحمام بدون تحديد ساعة الخير أو الشر ، وهذا الوقت هو أسعد الأيام والساعات ، وحينما تشكل عليك مسـألة شرعيـة فاذهب إلى فقـيه المدينة دون اعتـبار للتقـويم ، فإن أفضل الأوقـات هو هذا الوقت ، وإذا مرضت لا قدر الله فاذهب إلى طبـيب ليعالجك ، ودع هذا التقـويم جانباً إذ أن كله خرافات ، ودعك من هذه الكلمات العابثة التى يتشدق بها صاحب الـتقويم ، من الـتَنعُّم فى السكر والحرير ، ومـا ينعم به المغنون والراقصون فكله كذب واختلاق ، ومن ذلك سعادة رجال البلاط وسـوء جلسة النساء وتفـشى المرض بين الرجال، فكل هذا كذب وهذيان ، فـرأيت أن الحاجى قد استاء وقـال إذن بعد إذنك ينبغى أن نلقى بهذا التقويم ؟ . . . حسن لولا هذا التقويم من أين كنت تعلم اليوم كم يوماً فى الشهر ؟

فقلت أيها الحاجى العزيز إنى لا أقول إن التقويم ليس لازماً، فـبلاشك هـو ضرورى لكل قـوم وشـعب ، ولكن ليس تقـويم "إيران" هذا الذى يكتب فى صـدر كل صـحيـفة (أوضـاع هذا الشـهر تدل عـلى ملوحة الجبن وحـلاوة السكر ونعـومـة القطن وخشونة الحجر !) .

الخلاصة: أننى رأيت أن الحاج مستعد أن يطوى بساط الحديث، فودعته ورحلت ، ونمنا تلك الليلة بالمنزل ، ومع تنفس الصبح وبعد أداء الصلاة وارتشاف الشاى حيث اشتد طلوع الشمس ، أخذ عمى يوسف التذاكر يصحبه خادم الفندق إلى قنصلتى "إيران" و "تركيا" واعتمدها ، وأخذت القنصلية الإيرانية على كل تذكرة منين ، وأخذت القنصلية التركية منا واحداً وثمانين (كابك) ، وقد الصقت القنصلية التركية فوق التذاكر طوابع بعشرين قرشاً ، ثمنها عشرون قرشاً ، فاتضح أن ما أعطيناه للقنصل التركى قد ذهب إلى دولته المشار إليها ، وما أعطيناه للقنصل الإيرانى فقد ذهب إلى جيبه .

الخلاصة: انتهى أمر التأشير على التذاكر بعد أن مر من اليوم أربع ساعات ، ذهبنا إلى مرسى الباخرة ، ورأينا أن السفينة لا تزال تشحن ، ولما أن الباخرة قد تأخرت عن الوقت المحدد ، فقد سرت فوق الكوبرى ، وكان فكرى وحواسى فى غاية الاضطراب وعدم الاتزان . وكأننى فقدت عقلى ، وسمعت يوسف عمى يقول : عُد إلىَّ يا بيك ، إنك سقطت فى الحجر ، ولما التفت نحو اتجاه صوته رأيت أن نفس الخطوة التى كنت أخطوها كانت فى البحر ، فالتفتُّ بعد أن تراجعت ، ونظرت إلى يوسف عمى فرأيت أنه يلطم رأسه بيديه .

وخلاصة القول : أننا انتظرنا كثيراً فى ذلك المكان ، حتى حانت لحظة تحرك الباخرة ، ودخلناها ، فرأيت أنها نفس السفينة (أزوف) الروسية التى ركبناها عند بدء سياحتنا لهذه المنطقة ، وقد تعرفت على عمال السفينة ، وتجاذبنا معهم أطراف الحديث ، ودار هذا الحديث عن السؤال على أحوال كل منا ، وبهذه الفرصة الطيبة قضيت وقتاً ممتعاً ، وتحركت الباخرة ، إذ كان الجو جميلاً ، والبحر هادئاً ، وقد مررنا بمراس (طربزون وسينوب وكيره سون وصامسون) واحدة تلو الأخرى ، وفى صباح اليوم الخامس دخلنا بوغاز "إسلامبول" ، وأمام حاجز (قواق) حيث مدخل البوغاز حسبتُ (مدة السياحة) فوجدت أننى مررت من هنا من أجل زيارة المشهد المقدس والسياحة فى "إيران؛ منذ ثمانية أشهر وواحد وعشرين يوماً .

ويقول صاحب المنزل عندما قرأت تلك السياحة المحزنة وانهيتها غرقت فى بحر من الحيرة ، وحينئذ نظرت إلى الساعة ، فرأيت أنه بقيت عشر دقائق على الغروب ، وقد زادت حيرتى أكثر ، لأننى شغلت مدة تسع ساعات بقراءة تلك السياحة ، وفى تلك الفترة لم أشعل سيجارة ولم آكل شيئاً ولم أحرِّك شيئاً من مكانه ، وكنت غافلاً تماماً عن نفسى ، ولم أكن أعلم شيئاً عن الضيوف المساكين ، فقد ذهبوا إلى الحمام لاغتسال أبدانهم وعادوا، والآن غربت الشمس ولا أعلم شيئاً عنهم ، وكان كل تفكيرى منحصر فى هذا أين مكث هؤلاء وأين تناولوا غداءهم ؟

فناديت الخادم فـأتى ، ولما رآنى تعجب وقال هل كنت يا سـيدى بالبيت ؟ لقـد ظننا أنك ذهبت بصحـبة الضيـوف ، والآن كانت السيـدة تسألنى قائلة لماذا لم يـأتوا بعد ، فقلت : لا تثـرثر فكما ترى إننى مكثت هنـا ولا معنى لأى سـؤال آخـر ، واذهب على الفـور إلى بيت الوالدة فى الدور العـلوى ، حجـرة رقم كـذا ، واطرق البـاب وانظر هناك فلعل الضـيـوف فى ذلك المكان ، ثم تعال بهم إلى البـيت ، وإذا لم يكونوا هناك اسأل صـاحب البيت هل جـاءوا عنده أم لا ؟ ثم عـد على جناح السـرعـة ، وذهب الخادم فأخـذت أفكر فى الضيوف ، وخجلت كل الخـجل لفعلتى هذه ، فلمـاذا لم أذهب معـهم ؟ ولم يمر وقت طويل حتـى جاء الضيفان ، فنهضت واستقبلتهما .

ولما جلسـا قلت يا أخى لقد جـعلتنى فى حالة عـجيـبة من أمرى، وقد تصفحت كتاب (المصيبة) هذا ، أو كتاب سياحتك، فشغلنى عن الذهاب إلى أى مكان ، وأصبحت من جرائه لا أعلم شيـئاً عن ذاتى أو عنكما ، وحـتى الآن لم أكل أى شىء ، ولم أشعـل سيـجارة ، وربما لم اتحـرك من المكان الذى جلست به ، حتى ظن أهل البيت أننى ذهبت معكما ، والآن عدت إلى يقظتى ففكرت فيكمـا . . . تُرى أين مكثتما ، فقـال نحن أيضاً خرجنا من الحمام ، وذهبنا إلى أحـد المواطنين والذى كنا نعرفه ، وذهبنا معـه إلى بيـته ، وهناك تناولنا الغـذاء والشاى ، ولم يسـمح لنا بالانصراف قائلاً : ينبغى أن تقـضوا هذه الليلة هنا ، وبعد إلحاح

شديد رضينا واتينا مباشرةً إلى البيت وأثناء الطريق قابلنا خادمك والذى كان يتعقبنا .

سيرة إبراهيم بيك بعد دخول إسلامبول

الخلاصة : أننا تحدثنـا قليلاً ، وبعد ذلك قلـت إنهم يعدون العـشـاء ، وفى تلك اللحظـة تذكـرت أن خطاباً قـد وصل من "مصـر" باسم إبراهيم بيك ، فـقلت يا أخى فى الحقـيقـة إننى نسيـت فقد وصلـت ورقة من "مصـر" باسمك ، ثـم أخرجت الورقة من جيبى وأعطيتـها له ، وأخذ إبراهيم بيك الرسالة بشوق ولهفة وبدأ فى قراءة الخطاب على الملأ .

محتوى الخطاب المذكور

أخى العزيز الحمد لله والشكر له ، فكل من يخصك بخير ، وآمل أن تكون فى هذه الأيام قد دخلت "إسـلامبول" ، فكم كنا فى قلق مـن أجلك . . . قلق لا يمكن أن نـصـفـه ، وقـد ملَّ اصدقاؤك من طول وقت سياحتك ، وجميعهم كانوا يعلمون أنك قد نشـأت فى حرية تامـة فى "مصر" ، وقـد وجدت أن الوضع مخـتلف فى إيران عن "مصر" ، وفى الواقع إنـنا كنا نخشى أن تُصدم فى "إيران" بسبب ما نشـأت عليه من حرية ، خاصةً أمك

العجوز والتى كـانت يشغلها جداً هذا الموضـوع ، اذ كانت تبكى وتتـألم ليل نهـار ، ولافـتـرض أنك رجل جـحـود ، أنسـيت أصـدقاءك تمامـاً ، ثم أين ذهب حب البنوة ؟ ثم إنه خـلال هذه المدة الطويلة لم يصل أى خطاب أو تلغراف يطمئن أصدقاءك ومن ثم يطمئن قلب أمك المـسكينة التى هجرتها ، إننى ادركت جـيداً وكنت أعلم أنك سـوف تنسى الدنيا ومـا فيـها عند رؤية جـمال معشوقتك (إيران خاتون) الخلاصة : الشكر لله ، فمنذ عدة أيام وصل تلغـراف يزفُّ لنا بشـرى تحركك من "تبـريز" وقـد سعـد الأصدقاء كثيراً عند سماعهم هذه البشرى ، ولاسيما أنها جددت الأمل لدى والدتك ، فـكانت تبكى ليل نهـــار وذلك من فـرط سعادتها وفرحها ، فهى تشم تلغرافك وتقبله وتمرره على عينيها ، ولحسن الحظ أن التلغـراف قد وصل بسرعـة فائقة ، كانت مـثار الدهشة والحـيرة لدى الجميع ، ولعله كـان يدرك حالة الملل لدى الأصدقـاء ، وحالة القـلق لدى والدتك ، فوصلنا التلغـراف فى غضـون ثلاث ساعـات وأربع وثلاثين دقيـقة ، وزف لنا بـشرى تحـركك وسـلامتك فى نفـس الوقت ، ويصف "مـيرزا رضـا" الشاعر سرعة البريد التى تفوق البرق فيقول :

(أيها التلغراف أنت أفضل واسطة لطالب العدل

فأخـبر الملـك عن أحـوال الشحـاذ)

(وأنت تطوى طريقاً مسافته مائة سنة
وذلك فى لحظة واحدة وحركة واحدة كشعاع الشمس)
(وطيك للفراسخ كالطيران
من محجر العين إلى الأهداب) [1]

الخلاصة : لا أخفى عليك أن جميع أصدقائك بخير وليس لديهم حديث سوى ذكراك ، ويقول البعض أثناء الحديث عنك .... آه لو كنا فى "إيران" عند إبراهيم بيك لتفرجنا كيف يغضب عند رؤية تلك الأوضاع ، ولمن سيوجه شتائمه الغلاظ ؟

ويا تُرى مَنْ مِنْ الاشخاص سيعتبره لا دين له ولا غيره عنده؟ فهم يتحدثون عن هذه المقولة ويضحكون متحسرين ، فلتعجل لنا العودة إن شاء الله ، فإن الأصدقاء فى انتظارك ، وإذا أردت أن لا تختلف معهم فأسبقهم إلى ما سوف يقولونه ، وكن مثلهم فى الضحك والمزاح ، حتى تستريح منهم ، وإلا فسد أمرك، واعدّوا لك كل ما سيغضبك .

(لقد تحدثت إجمالاً عن تفصيل هذه النكتة
فأقرأ أنت حديثاً مفصلاً عن ذلك المجمل) [2]

(١) أى تل تونيك واسطة داد خواه را ... آكَاه كن زحال كَدا يا دشاه را
دريك زمان بيك حركت چون شعاع شمس ... طى ميكفى مسافة صد ساله راه را
فرسخ بريدن تو/ بقدر بريدن است ... از صحن ديده تاصف مُژْ كان فكَاه را
(٢) من از مفصل أين نكتة مجملى كَفتم ... تو خود حديث مفصل بخوان از آن مجمل

وبعد مغادرتك البلاد وقع حادث محزن يؤسف له ألا وهو وفاة المرحوم "على بابا السلماسى" ، وقد حزن جميع الأصدقاء على وفاة ذلك المرحوم الغريب، وبعد العزاء آتى موظفو القنصلية الروسية ، وقد حددوا وعاينوا أمواله النقدية وأملاكه ومستحقاته.

وقد بالغ الناس كثيراً فى الثروة المشار إليها ، وقد ترك من كل الثروة أربعاً وثلاثين ألف ليرة من الأموال النقدية والأملاك بما فى ذلك الديون ، وكانت تلك أسهم "على رضا الصغير" و "محمد على" الذى كان مختل العقل . وقد أودعت هذه الأسهم فى البنك ، وقد تم تحديد مبلغ خمس وعشرين ليرة شهرياً لنفقة على رضا من أجل نفقة المدرسة وما إلى ذلك ، وثمانى ليرات أخرى لنفقة محمد على ، وسُلم الورثة الكبار نصيبهم ، وقد شغل موظفو القنصلية أسبوعاً كاملاً بتقسيم ميراث المتوفى بما فيه من أموال نقدية وعينية ، وقد أخذ أفراد القنصلية مبلغ خمس ليرات ونصف ليرة نظير العناء أو كحق للحكومة ، وقد أخذوها من الوريث الكبير ، ولم يأخذوا شيئاً من نصيب الورثة الصغار ، وهذه واقعة وانقضت ، وقد وقعت حادثة أخرى عجيبة للغاية فصديقك الذى كان يمتلك محلاً فى ميناء (السويس) كان قد ذهب فى عمل تجارى إلى (السودان) ، وهكذا كان يبدو أنك كنت فى ذلك الوقت فى "مصر" .

الخلاصة: منذ عدة أيام شاع خبر وفاته ، فأرسل الخان أى قنصل "إيران" رجلاً من "مصر" لكى يقفل محله فى (السويس)، وطرد من يعمل بالمحل ، وقد ضاع كل ما كان بالمحل من أموال نقدية وبضائع ، ولا أعلم كيف عرف صاحب المحل المسكين فى (السودان) بتلك الواقعة ، وبعد شهر ونصف الشهر من انتشار خبر وفاته وصل صاحب المحل نفسه إلى السويس ، فوجد أن محله شُمع ، وجاء إلى "مصر" وأخذ يصيح قائلاً : أنا لم أمت حتى تفتحوا محلى ، وتودعوا أموالى،وهذا الأمر لم يحدث فى أى مكان ، وأخذ جناب القنصل يماطله ، فاضطر المسكين أن يلجأ إلى الحكومة المصرية ، لكنه لم يجد اهتماماً من أحد ، .... إنه لعمل غريب ، وبالأمس كان السيد "ميرزا عباس" و "حاجى خليل" يمزحان حول قصته هذه قائلين يا عبد الله لقد ثبت للقنصلية إنك ميت ، والآن ينبغى أن تذهب إلى السودان لكى تُحضر شهادة تفيد إنك بقيد الحياة ، فحينئذ يبحثون فى موضوعك ، وقد جُنَّ المسكين لسماع هذه الكلمات . والآن حتام يتردد على الأبواب ؟ ويقول المواطنون فى "مصر" لقد أوحشنا إبراهيم بيك ، ولو رأى هذه الحادثة بعينيه هل يدرك صدق ما نقول أم كان يعتبرنا بلا غيره أو حميه على وطننا ؟

فرأيت أن يدى إبراهيم أخذتا ترتعشان ، وقد شحب وجهه، واضطرب اضطراباً شديداً ، فمزق الخطاب إرْباً ، إربا ، وألقى به

جانباً ، وقال لا أدرى ما هذا البلاء الذى حط على رأسى ؟ . . . إن المصائب ورائى فى كل مكان ، وكأنهم أرادوا أن يجـمعوا كل تلك المقدمـات وذلك لإذابة قلبى خاصةً ، ولا يـعلمون أن قلبى المريض هذا قد غدا قطعة دامية .

ياله من رجل ثرثار ، وكأنه أرسل هدية لاستقبالـى ، فبالله هل أنا راضٍ عن كل هذا ، حتى يغيـرُ علىَّ قنصل إيران ويتسبب لى فى أشـد المصائـب ؟ ولكن بعد مـوتى لن يأتى لى عـدد من الأشخـاص النصارى الحلاقين ممن يرتدون القـلنسوات ، لن يأتوا لوارثى الشرعى فى بيتى من أجل تقسـيم تركتى ، فهؤلاء الأفراد الغـافلون هكذا يظنون أنه ليس بروسـيا ظلم ، وأن الموظفين لا يرتشون، وقسماً بالله إن أولئك يتخلصون من القيود كثور خواجه نصر الدين ، ويفعلون أسوأ بكثير مما يفعله موظفوا إيران .

أمـا سبب ألمنا هنا فـإننا أس الخراب ، وإذا مـا حذوا حـذو موظفى الروس فى الخيـانة . فإنهم لن يستطيعـوا أن يتخلصوا مما فطروا عليه ، وأن يبلغوا ما بلغوه حتى ولو كانوا من أفراد الأسرة الإمبراطورية . كمـا أنه ليس بينهم مكان للوساطة وما حكمت به المحكمة جـزاء جرمٍ مـا ينفذ بحذافـيره ، ولا تمثل الرشـوة معنى العـدالة ، فإذا مـا وصل أمر إلى مـحكمة العـدل ، فإن قـوانين المساواة تراعى بحـذافيرها ، وهـذا ما قاله الحكمـاء (المساواة فى

الظلم عـدل) ، ولكن فى إيراننا التعـسة يخون الفـرد الدولة بمائة ألف تومان ، ويتـعدى على ممتلكات الآخرين ، وإذا مـا ظهرت تلك الخيانة أو ذلك التعدى ، فـإن ذلك الفرد إذا ما رشا رؤساءه بعشرين ألف تومان فبلاشك أنه سيحصل على نصيبه مما بقى ومن ثم سوف يتخلص هو نفسه من هذه الخيانة .

ويقول صاحب البـيت : على الرغم من أننى عرفت من قبل مدى التـعصب القـومى لدى إبراهيم بيك ، وهكذا كنت أظن أنه بعد سـياحـته فى إيران ورؤية كل هذه المفاسـد ، إن نار تعصـبه القومى سـوف تخمد ، ولكن بملاحظتى هذه الحالة وسـماع هذه التفاصيل ، وجدت أن ظنى كـان على غير صواب ، بل بالعكس فقد زاد تعصبه القـومى أكثر من ذى قبل ، ثم إننى تيقنت تماماً ، أن هذا الطبع لديه فـطرى ، وليس بعـارض ، (فقـد مُـزج هذا التعـصب بلبن الأم ، وهو يسرى فى روحه) ، وفى الواقع فـقد رق قلبى لأنَّاته الحـزينة المتوالية ، فنهـضتُ من مكانى دون وعى واحتضنتـه باكياً بل وقبلته ، وقلت يا أخى العـزيز أدام الله نعمة حب الوطن وعشقه عليك .

(رحمة الله على أبيك الذى رباك وأمـك التى ولدتك) [1]

فحقاً ما تقوله ، فقد أدركت جيداً أننا أس الخراب .

وليس كل الحكام المسلمين ظلمـة ، وليس كل غيـر المسلمين عادلين ، ولدينا هنـا قنصل مسيـحى وهو أكثر ظلمـاً وغدراً من

(١) آفرين خد أى بر بدرى . . . . كه تورا برورد وما درى كه تورا زاد

العديد من القناصل السابقين بل إن الفظائع التى يرتكبها لا تعد ولا تحصى ولا أعلم كيف جاءوا به إلى هذه السفارة ، ووضعوا فى يد هذا الظالم مصائر كل طبقات الشعب لفترة طويلة من الزمن ، بل وسلطوه على أموالهم وأعراضهم وأرواحهم ، وكم هو متجرىء وغير مبال بنهب وسلب ضعاف طبقات الشعب ، ومحاولته النيل من شأن المواطنين المحترمين ، فجميع القناصل والسفراء يرحمون ويراعون الله باستثناء قنصل واحد ألا وهو القنصل موضوع الحديث ، وكان يحكى لى أحد الأصدقاء قائلاً: إننى ترددت على السفارة عدة أيام لقضاء أحدى المهام ، فرأيت اثنين من عوام الشعب هناك ، وكان أحدهما دائناً والآخر مديناً، فقال المدين ليس فى استطاعتى قضاء الدين ، فصاح الدائن دون أن يشعر بما قال : (أيها الخان نفسى فداؤك ، أنصفنى من هذا الظالم ، فمالى مال أرمنى) ، فضحك جميع الحاضرين ، وعلى الرغم من أن خاننا قد ضحك ضحكة مفتعلة ، لكننى رأيت أن وجهه بدت عليه علامات الاضطراب والشىء العجيب أن هذا القنصل كان يُفتى فى قضايا النكاح والطلاق عندنا وفقاً لما تقتضيه وظيفته ، أذن ليس هناك دليل أوضح من هذا على أننا أس الخراب ، فمن الممكن لأى شخص أن يحظى بأية وظيفة طالما قدم الرشوة للحكام الأقوياء حتى ولو كان أحد الحكام الصغار ممن يرتكبون المظالم ، وكلما زادت شقاوته استطاع أن يتقرب أكثر لبلاط الدولة والحكومة ، كما صار المسيحى قاضياً للمسلمين !

وهنا قطع يوسف عمى الحديث وقال يا سيدى العزيز ما هذه الأحكام ؟

فأى ذنب للعرق أو الأصل ؟ إن الشقى فى كل مكان والشقى موجود فى كل شعب ، وليرحم الله الجنرال (ميرزا أحمد خان) القنصل فى "مصر" اذ كان ذلك القنصل يستقى من نفس المنبع والأصل . وكان من موظفى دولة إيران ، وكان يعامل الضعاف من الرعية معاملة الأب لأولاده ، وكان يفتخر الإيرانيون فى ذلك الوقت بوظيفة ذلك المرحوم ، وأولئك الذين كانوا قد تركوا جنسيتهم من السابقين خوفاً من السلب والنهب ، كانوا قد ندموا ندماً شديداً ، ولم يؤذ أحداً من أفراد الرعية الإيرانية سواء من ذلك المرحوم أو من أقاربه ، وكان المسكين دائماً مديوناً ، وكل ما كان يحصل عليه كان يتصدق به على السادات والدراويش، وأذكر أنه ذات ليلة كان قد كتب ورقة للمرحوم الحاجى والد البيك ، يطلب منه فيها خمسين ليرة كقرض ، ولما كان الحاج المرحوم يعلم بعدل ذلك القنصل وعطائه ، فقد سلم لى المبلغ وأوصانى قائلاً : سلم بنفسك هذا المبلغ فلاناً ، وانظر ماذا يفعل فى منتصف الليل بهذه النقود ، فسلمته المبلغ ، ورأيت هناك ثلاثة أشخاص من السادات ، وهناك سألت تقريباً الناظر (وكيل الإنفاق) قائلاً لماذا تريدون نقوداً فى منتصف الليل ؟ قال من أجل هؤلاء السادات الثلاثة ، أذ أن الخان قد وعدهم بأن يقضى لهم حاجتهم أثناء ذهابهم، والآن هم ذاهبون، لذلك

سنقضى لهم حاجتهم ، وفى الحقيقة لم يمر وقت طويل حتى استدعاهم الخان ، وقسّم عليهم كل تلك النقود ، وبعد فترة من وفاة المرحوم تغير القنصل ، وأتى حاجى ميرزا نجفعلى خان (الذى أضاء مصباح الكيروسين بدلاً من الشمع الكافورى) ، وأهمل كل أعمال الخير المشرفة والتى كان قد هيأها قبله ذلك المرحوم بشق الأنفس فى مصر من أجل الدولة الإيرانية ، وتجرأ أكثر على سلب الرعية ونهبها إلى الحد الذى كان الناس يترحمون على حكم أتباع جنكيزخان وحسن خان نفسه الذى تولى القنصلية أكثر منه وذاع صيته فى الظلم ، لم يبلغ ما بلغه (نجفعلى) فى ارتكاب المظالم ، فاللهم عذبه حتى يوم القيامة ، إذن فواضح أن الشقاوة الفطرية القائمة على الظلم تتعلق بالشخص نفسه ، فأى ذنب للمنبع والأصل ، وفى تلك الأثناء قيل إن العشاء معد .

وقال إبراهيم بيك : هل تتناولون العشاء كل ليلة بهذه العجلة مثل هذا اليوم أم إنكم تغيّرون نظامكم من أجلنا ؟ قلت يا أخى العزيز إننى اليوم كنت صائماً وذلك بسبب اطلاعى على سياحتكم ، ولكننى للأسف لم أؤد الصلاة فضحك الجميع ، وفى الواقع هكذا نسيت الصلاة تماماً ، ثم ذهبت حيث مأدبة العشاء ، وقد دارت بعض الأحاديث أثناء الطعام ، ولكننى رأيت أن حالة إبراهيم بيك قد تغيرت تماماً ، ولاحظت أنه أخذ يتحرك دون أن يشعر بذلك فعلى سبيل المثال أنه كان يسأل بعض

الأحاديث أكثر من مرة ، وكأنه قد دخل البيت تواً ، فغفل عن بداية الحديث وهكذا كان يكرر بعض الكلمات ، وعلى كل حال إننى تناولت العشاء ونهضت تاركاً المائدة ، وقال إبراهيم بيك سوف أصلى ، وقال بلطف مَنْ يريد قضاء صلوات الظهر أو العصر فليذهب معى ، فذهب هو للمسجد وبقيت أنا والعم يوسف ، فقلت : إيها العم العزيز ، تحدث لأرى كيف حالك ، فقال أيها السيد لا تسألنى عن أحوالى فإن روحى قد بلغت حلقى ، فلو تعلم كم تجشمت من عناء فى هذا السفر لاشفقت علىّ ، كما أن هذا العناء لم ينته مع هذا الشاب ، اذ أنه كان يسير لعدة أيام شارد الذهن وهو يتجرع الحسرات ، فحيناً كان يعض شفتيه ذاهلاً ، وحيناً آخر كان يضرب على ركبتيه أسفاً دونما سبب واضح ، وكان كثيراً ما يحدِّث نفسه فى بعض الأوقات حيث يغلق فمه مثل الأفراد المصابين بمرض الصرع ، ويتحرك إنسان عينه فى حجرة العين ، وفى النهاية يرتعش ويسقط مغشياً عليه فيستغرق فى النوم .

وحينئذ لن أشعر بالراحة مطلقاً ، اذ أنه وهو نائم سوف يتحدث مع نفسه حديثاً عن الوطن مما يتحدث به فى يقظته ، وأحياناً أرى أنه خاطب شخصاً ما وعاتبه ، فيصيح قائلاً : أنتم سبب الفساد فى البلاد ، وسبب ما يعانى منه مواطنوكم من عجز واضطراب ، فأنتم لا تعرفون معنى حب الوطن ، فهو يتحدث العديد من هذه الأحاديث التى تترك أثراً فىَّ إلى حد كبير ، ولهذا

أوقظه من نومه وأسأله ما هذا الصياح وهذه الشكوى فى نومك ؟ ومن هذا الذى تجادله ؟ فيقول لا شىء ، ويعود إلى نومه ومن ثم يعود إلى حالتـه السابقة ، ولا أدرى ماذا عساى أن أفـعل معه ؟ وأنى أطلب من الله أن يمهلنى بعض الوقت قبل الموت حتى أوصل هذا الشاب سـالماً إلى والدته فى "مصـر" ، وبعد ذلك ليس لى أمل فى الدنيا غـير هذا ، فأحـوال هذا الشاب كلهـا مضطربة ، فأنصـحه أنت ببعض النصـائح ، فربما أجْدَت معـه هذه الحيلة ، فيـعود إلى صـوابه بعد فـقدانه للرشـد والتعقل ، فـقلت : منذ البداية سمعت بسياحته وعلـمت بما ستعانيان منه ، فأحمد الله أن أموركما انتهت إلى خير وسلامة ، وفى تلك الاثناء كان "إبراهيم بيك" قـد أتم صـلاته ، وألقى الـسـلام وجلس ، وقـال لو من الممكن أن نكتب تلغرافاً إلى "مصر" ويحمله خادمكم ليسلمه إلى المبرقة ، ؟ فقلت لماذا لا يمكن ؟ إن الأمر سهل ويسير ، ثم كتب تلغرافاً وأرسلناه ، وقلت حسن يا أخى تحدث قليـلاً لكى نستفيد من سـياحـتكم ، ولكن أرجـو أن لا تتحـدث عن شىء يتـعلق باضطراب "إيران" لأننى قـرأت فى سياحـتك كل شىء إلى الحد الذى علمت أنك نقلت بعـضاً من مـزايا الوطن والتى كنت قـد رأيتها ، فقال : كل ما رأيته من مزايا مدون ولاشك أنك رأيته ، فقلت من وجهة نظرى لم أر شـيئاً ، ومن ثم أريد منك أن أسمع وصفـاً لمحبـوبتـك (إيران) على لسـانك ، قال لقـد رأيت فى أنحاء "إيران" كلها أربعة أشيـاء جميلة والتى يمكن أن تكون باعثاً

على سعادتى خاصة وفخر عشاق الوطن عامة ، أولها الروضة المطهرة لحضرة الإمام الرضا (عليه السلام) ، ثانيها تلك المنازل أى منازل القوافل وبعض الطرق المرصوفة والتى هى من آثار الملك المغفور له (عباس الصفوى) طيب الله ثراه ، وثالثها وجود شخص عالم عظيم ألا وهو (الوجود المحترم) فى "طهران ، رابعاً : دار الفنون الناصرية فى "طهران" أيضاً والسلام ، قلت والسلام لماذا؟ هل تجولت فى كل هذه المدن الجميلة وتفرجت عليها ؟ وهل هذه الأشياء الأربعة فقط هى التى لفتت نظرك وأعجبتك ؟ ومدينة "اروميه" وما بها من رياض خضراء جميلة ، وبساتين نادرة . . . لعلك لم تقُم بالسياحة بها ؟ إذ أن جو كل ناحية فيها يعبق بالمسك ، ونسيمها يفوح منه العنبر ، كما أن معظم الذين كانوا قد رأوها ، قالوا عنها إنها جنة .

كما أن أفنية حدائقها وبساتينها لا تستطيع أن ترسمه ريشة رسام ، وذلك لكثرة ورودها وأزهارها المتنوعة ، أرضها يفوح منها العنبر فى كل مكان ، وبالله؟ كيف لا تصف تلك المدينة؟ والتى هى روضة الدنيا ، فقال لقد وجدت الحدائق والبساتين ذابلة ، كما وجدت نواطير البساتين نائمين والورود جميعها يبدو عليها الاصفرار والذبول ولا نضرة فى ورودها قط لقد وجدت آثار الخريف فى كل مكان ، ولا أظن بهذا الشكل أن يعقب هذا الخريف ربيع ، ففصول السنة كلها خريف وكفى .

فقلت يتضح من كلماتك وأحاديثك أنك قد عانيت الأمرين فى "إيران" ، فقال إبراهيم حاشا لله؟ إن أضيق ذرعاً أو أعانى

من محبوبتي (إيران) وإني لأتباهى بالعشق حينما أتحدث عن إيران أو انتقدها ، وحياتي جزء لا يتجزأ عن هذه الأرض المقدسة، أما ألمي ومعاناتي ، فبسبب غفلة (البستاني) ، ولا ذنب للبستان قط، وكما وصفت أنت فمدينة "أرومية" وسائر مدن إيران جميلة جداً ، كما يصفون أدغال "مازندران" بأنها جنة الدنيا ، وليس هناك مكان في كل أنحاء العالم أفضل من جو هذه المنطقة في صفائه ونقائه علاوة على خضرة أرضها ونضرتها ، ولكن واأسفاه فقد تدفق إلى هناك اشرار الأجانب منذ عدة سنوات وذلك بسبب غفلة البستاني ، كما سبق القول ، فراح هؤلاء الأجانب ينفثون سمومهم في تلك الأرض، وستظل جروح عاشقي الوطن دامية بلا تضميد إلى يوم القيامة ، وذلك من جراء الأعمال المشينة التي ارتكبها هؤلاء الأخساء ، وفي النهاية ماذا عساي أن أفعل ؟ وما هي مزايا هذا الملك المبارك والتي يمكن أن اتحدث عنها ؟ ولماذا لا تحمل السفن في موانيء أرضنا المقدسة أعلاماً بها علامة الأسد والشمس تعبيراً عن السطوة وكيان الدولة والشعب ، ولو أن حكام دولتنا قد أنفقوا على "إيران" ما أنفقوه في الأسفار الثلاثة [1] على السياحة في الغرب ، أي أنهم أنفقوا أموالهم من أجل تعمير إيران ، لعاد تعمير البلاد بالخير والنفع على خزانة الدولة ، ولما اضطرت الدولة إلى نهب الرعية وسلبها، وأخذ تراب هذا الوطن يصيح في كل مكان ويقول بلسان الحال : أيها الإيرانيون . . . . وأيها الأبناء الجاحدون لا تغفلوا عني ، لقد

(١) السفرات الثلاث هي سفرات ناصر الدين شاه القاجاري .

امتلكت فى جوف أرضى كنوزاً لا حـصر لها ، وهى تنتظركم ، فاسـعوا وجـدوا لتحـظوا وتناولوا من خيـرى ، ولكن نداءها لم يسمعه أحد . (ولهم آذان لا يسمعون بها) [1] .

فـقلت إذن من الواضح إنك عانيت مـن أهـل المملـكة أي من مـواطـنيـك ، وهـذا واضـح فى حديـثك وسيـاحـتك ، ولكننى أنصحك أن تتـخلى عن هذا الوهم والهوس . إذ أنك لن تجنى أية ثمرة من وراء حزن الشاب إبراهيم ، فأنت تعذب نفسك من أجل إصـلاح أوضاع البـلاد ، وسـتظل دوماً فى هم وحـزن بسـبب اضطراب تلك الأوضـاع فى البـلاد ، فكل شىء يحـدث (فى إيران) ، ولن تـنال إلا الحـزن ، ويقـول حـضـرة أمـيـر المؤمنـين (على بن أبى طالب) كـرم الله وجهـه : (الجزع عند البلايا هو كل المحنة) .

(لا تجزع عـنـد البـلاء فـإن الجـزع

يؤذيك من رأسك حتى أخمص قدميك)

(وليـس هـنـاك عـنـاء قـط أكـثـر من

أن يجعـلك تبتـعـد عـن ثـواب الله)

وأخشى لا قدر الله أن تؤذى فى جسدك وصحتك بسبب هذا التفكير المضطرب ، وربما أثرت حـالتك هذه عليك والتى قصدت

(١) الاعراف / ١٧٩ .

بها حياتك ، وهذا من الذنوب الكبيرة ، وهى فى الآخرة باعثة على سخط الله وغضبه ، وحينما لا تشفق على نفسك من أجل تلك العجوز ألا وهى (والدتك) ، فاسمح لى أن أقول لك إنها اليوم وليس لها فى الدنيا سواك وحياتها متعلقة بحياتك والأشياء التى كتبتها فى سياحتك وتتأذى منها لا يخفى منها موضوع على أحد ، والجميع يراها يومياً ، وقد تعودوا على رؤية تلك الأوضاع، ويرى الجميع أكثر من هذه الأوضاع ، ولكن لا أحد يعيرها أدنى اهتمام ، ولكن واحسرتاه على تلك الأوضاع . . . . . وماذا يمكن أن نفعل ؟ ولو أن إصلاح هذه المساوىء متعلق بموتى وموتك ، فقم أنت أولاً ، وأنا بعدك لكى ننتحر ، ولما كان علاج هذه الآلام ليس بيدى أو بيدك ، فعلينا أن نصبر حتى يبعث الله الفرج ، فيوقظ كبار الشعب وولاة أمور الدولة .

قال : إبراهيم ، يا أخى العزيز ، إننى لم أكتب كل ما رأيته من مفاسد البلاد حتى لا يعترض عليها المعترضون ، وأكون موضع لومهم ومن ثم يجعلون اليوم المضىء أظلم من دياجير الظلام شماتة منهم بى .

(لغيرتى لا أقول إنها قتلتنى

حتى لا يعلم الناس ما اسم معشوقتى)

وبينما كنا نجلس على هيئة حلقة ونتحدث هذه الأحاديث ، وإذا بالباب قد طُرق ففتحه الخادم ، فدخل أحد الإيرانيين والذى

كان معمماً ويشبه فى هيئته العلماء ، ولعله كان قد جاء لقضاء تلك الليلة ، وعلى كل حال فقد قال بعد التعارف المعتاد .

فى الحقيقة إننى سمعت بوصول الضيف العزيز ، وفى الصباح كنت أريد أن أحظى بشرف لقائه ولكن بعد ذلك فكرت وقلت لنفسى إن الليالى كثيرة ، لكن من الأفضل أن أذهب الليلة ونقضى الوقت فى سمر ، فقلت إنك أحسنت صنعاً بمجيئك ، فمرحباً بك وخيم على المجلس الصمت والسكون ، وقال الملا : أرى أنى كدرت صفو مجلسكم ، فإن كنتم تتحدثون أحاديث سرية فلا ضير من أن أتناول قهوتى وأستأذن ، فقلت لا يا ضيفنا المحترم ، فنحن اتينا من "إيران" منذ قليل ، ونحن غير راضين عن سياحتنا فى تلك المنطقة ، وذلك لمشاهدتنا بعض المساوىء والمفاسد ، وتكدير المجلس ليس منى أو منك ، فأمعن الملا النظر فى إبراهيم بيك وقال : أخى الضيف ماذا جدَّ فى "إيران" . . . فهل من أخبار جديدة وماذا حدث حتى تصبح مكدر الخاطر ؟ فتحدث لنرى نحن أيضاً ، فقال إبراهيم ليس هناك أى خبر ، فأصر الملا ثانية ، فقال إبراهيم بيك إن السبب الرئيسى الذى كدر صفوى هو أنت ، فقال الملا أنا ! ، فقال إبراهيم سواء أنت أو إخوتك فليس هناك فرق ، فقال الملا ماذا فعلنا لك أنا وإخوتى؟ قال إنكم لم تفعلوا شيئاً لى ولكنكم ضيعتم حقوق جميع إخوتى ، فقال الملا أى حقوق ؟ . . . وما هى حقوق إخوتك ؟ قال إبراهيم إنها حقوق إخوتى فى الوطن فقال الملا :

إننى فى الحقـيقة لم أفهم حـقاً ، فقال إبراهيم الآن سـأشرح لك الموضوع بالتفصيل ، وستفهم . أيها السيد أنا وهذا (العم يوسف) اللذان يجلسـان أمامك ذهبنا إلى مـلا معلم بحـجة ما فى مـدينة (شهـرود) وكان يوسف عمى البـائع وأنا المشترى ، فكتب حـجة اشتـرط فيـها بيع بيـته فى مقـابل مبلغ من المال ، وتقـاضى منا (المعلم) قراناً واحـداً (كأجرة للقلم) وختم تلك الحـجة الكاذبة ذات البـيع الوهمى ، وكتب شـهادة بدون أن يحـقق فى صحـة الموضوع ، أو يسـألنا كلمة من باب تقصى الحـقيقة ، فـربما يبيع يوسف عمى هذا ممتلكات شـخص آخر لى من باب التزوير ، إذ أن الملا المذكور يـجهل كلاً منا ، فـكيف ختم تلك الحـجة وبأى دليل شرعى شهد على تلك الحجة ؟ فقال الملا مستهزئاً ، ما هذا الحديث الذى تتحدثه يا سيدى العزيز ؟ وما ذنب الكاتب ؟ فأنتما ذهبتمـا وكتبتمـا إقراراً ، وقد كتبـه هو بدوره فقال إبراهيم لو أن البيت ملك شخص آخر فليس من حقه أن يبيعه لى ، فحينئذ ماذا يحدث ؟ فقال الملا أن لم يبعه لن يحدث أى شىء ، فقال إبراهيم إن لم يبعـه فسأذهب إلى حاكم المدينة كى أشكو له ، فـقال الملا أنت تعلم هذا فـاذهب وافعل ، قـال إبراهيم حينمـا أشكو لدى الحاكم ، فـبلاشك أنه سـيفوض كـبيـر السعاه فـى أمر الحكم ، والذى سيأخذ بدوره العقار أو الممتلكات ويعطيها لى .

وحـينئذ سـوف يأخذون رشـوة من الطرفين ، وسنعلم بعـد ذلك أن أمـر كل منا قـد انتهى ، والآن نحن تـركنا ملا المدرسـة

هذا، فماذا تقول فى حق رجال الفتاوى الكبار ؟ إذ أنه قد يصدر من عالم واحد العديد من الأحكام المتناقضة فى قضية (زيد وعمرو) . وقد رأيت الكثير من قضايا الممتلكات والتى هى من هذا القبيل ، وقد يحصل الطرفان على عدة أحكام من عالم واحد وهما لم ينتهيا من قضيتهما بعد ، وعند تغيير الحكام تتجدد القضية مع كل حاكم جديد وفى النهاية يتنازع أسرتا الطرفين مع بعضهما نزاعاً شديداً لنفس هذا السبب ، وقد تشتعل النار بين الطرفين حتى تأتى على الأخضر واليابس ، فهل يليق هذا بالمقام الرفيع للعلماء ؟ وهل يجوز أن تكون أحكام الله وأوامر الشريعة الغراء متناقضة فى إحقاق حقوق الناس ؟ ولماذا لا يبت فى قضايا الممتلكات التى قد تستمر لأعوام ؟ فقال الملا أنا لم أر عالماً بعينى أخذ رشاوى وبذا لا يمكننى أن أتطاول عليه ، فقال إبراهيم أنا لا أقول هذا ، ولكن ما أقوله : لماذا لا يكون للعالم الذى اختير للفصل بين أهل المدينة ، لماذا لا يكون لديه سجلات شرعية منظمة للحسم فى قضايا الناس ؟ ولماذا لا يحدد وقتاً معيناً ومكاناً محدداً للمحاكمات والمرافعات بين الناس ، فقد يكون فى يد البعض حرية التصديق على حكم (دون البعض الآخر)، اذ يصدق الحاكم على حكم فى بيته ويعطيه لأحد المتنازعين وبعد يومين يصدق الحاكم أيضاً على حكم مخالف للأول (بين صلاتين) فى المحراب ويعطيه إلى المدعى عليه حتى يصل الأمر إلى أن يناقض هذا الأحكام العرفية .

وأقـول لماذا لا توجد قـاعدة أو نظام فى إيران بشـأن جمـيع الأمور الروحية والجسمانية ، ولماذا تورث المناصب العلمية والملكية وهل يجوز أن يتولى المرء منصب القـضاء دون أن يكون أهلاً لهذا المنصب ، وذلك لأن والده كان قـاضياً ؟ أو أن يصـبح الشخص "عميداً" بعد وفاة أبيه فى سن الثامنة عشرة ، فى حين أنه يجهل كل شىء وذلك لأن والده كـان عمـيداً قـبله ؟ فكل هذه حقـوق الشعب وحقوق اخوتى فى الوطن والتى هى الآن مداسة بالنعال، قال الملا : يا سـيدى العـزيز وفقـاً لفتواك هذه ينبـغى أن يجلس علماء الشعب فى البيت . فقال إبراهيم : استغفر الله فلست من أهل الشورى وممن فـى أيديهم حل الأمور وعقـدها ، ولست من ذوى النفوذ حتى أصدر أحكامى ولكن التعصب القومى لا يمنعنى من أن أرد على الكلمـات المجانبـة للحق والصواب فى مـجالس الصمـت والجدال وأن أتحدث عن هذا المـوضوع بعد إذن العـلماء والفضلاء .

أليس اليـوم لدينا قانون يشـتمل على الأحكام الآلهـية ، أم سيكون تنفيذ هذا القانون عند ظهور حضرة إمام العصر عجل الله فـرجه ، واليـوم فإن أسـاس الأحكام هو ما يعـتمـد على الأدلة العـقليـة والنقليـة ونحن فى حـاجة إلى وجـود منفـذ للقـوانين والأحكام الشرعية أكثر من أى شىء آخر ، وفى بداية الأمر ينبغى أن نشـرح ذلك ، ويمكن أن يتحـقق ذلك على هذا النحـو : أن يشكل مجلس كبير مكون من ثقـات علماء الشعب ويكون مرجعاً

لكل العلمـاء فى أحكامه ويتعين على ذلك المجـلس نظراً لاتساع الأقاليم وكثرة عدد سكان المدن أن يعين عدداً من العلماء فى تلك المنطقة من أجل حـسم القضايا وإحـقاق حقوق الناس ، وحـينئذ يختار من العلمـاء أولئك الذين يعملون فى مجال الخدمـة العامة ويكونون قدوة للجمـيع فى طلاقة اللسان وعذوبة البيـان والتقوى والتـدين ونور العلم والوقـوف على الأحكـام الشرعـيـة بحـيث يترجـمون أمهات كـتب الفقه ويطبعـونها بل وينشرونهـا فى لغة فارسيـة بسيطة سهلة ، وهى تلك الكتب المتعلقة بالحـقوق والبيع والشراء والتـجارة وما إلى ذلك حـتى يحصل عليهـا كل شخص ويقرأها ، ومن ثم يكون على دراية إلى حـد ما بموضوع حـقوقه الشخـصية وحينئـذ فإن كل حكم يصدر من قـاضى المدينة العادل يكون موضع التنفيذ وقد كتب أوائل الإسلام بشكل موجز أحكام القضايا الهامة فـوق قطع من الجلود والعظام وكانوا يرسلونها إلى كل جهـة فى العالم وكانت تنفـذ بحذافيـرها ، كما أن الشـريعة المحـمـدية الـغـراء فى بادىء الأمـر براء من أى نـوع من الحـيل والدسـائس ولم يكن بها أية حـيلة أو خـدعة قط ، وكم عـانى الشارع المقدس والذى (أفدى شريعته المقدسة بجسدى وروحى)، كم عانى وقـاسى فى سبيل إرسـاء أحكام شريعتـه وكم واجه من المنغصات ومع ذلك تحملها جميـعاً حتى لا يشق الأمر على أتباعه فى حسم القـضايا والأحكام . . . واحسرتاه على أحـوال اليوم إذ أن علماء الشعب يحرفون ويزوّرون أحكام الشريعة الغراء ويطلقون

على ذلك حيلاً شرعية وكأن الله ليس عالماً ومطلعاً على كل شىء وعلاوة على هذا فإنهم يعتبرون العلم متعلق بأربعة مقاييس من الخيوط وكل من أمسك بطرفها وجب علينا أن نعتبره عالماً وعندما نمكن العالم من هؤلاء العلماء فإنه حينئذ سيتكىء على متكأ العلم وينبغى أن يكون العلم والتقوى والدين وكل شىء لديه (من هذا القبيل) جديراً بهذا المتكأ المقدس وإلا فلا ، ثم تدخل صاحب البيت فى الحديث وقال لإبراهيم بيك إن إصرارك على هذا التعصب القومى لا معنى له وابراز عيوب الناس أمام أعينهم وإظهار قبيح أعمالهم .

والإشارة إلى طريف أفعالهم كل هذا لن يسفر عن شىء ، إلا أنك تعادى الناس بلا سبب ومن ثم فإنهم يهربون عن مصاحبتك ومخالطتك ، فلا تكدر صفوهم إلى هذا الحد وابق على سيفك فى غمده .

امض فى طريقك كما مضى السائرون (١)

فقال إبراهيم سيدى المضيف ، تعلم فى بداية الأمر أنه لا يوجد بينى وبين أحد من الناس غرض أو نزاع فى مثل هذه الأحاديث وأنا شخصياً على وفاق تام مع الجميع ولكن دافعى فى هذه الأحاديث هو التعصب القومى وعشق الوطن وكل من

(١) ره جنان روكه رهروان رفتند) .

رأى هذه المفاسـد ولم يسمهـا بمسميـاتها ، ينبـغى أن يخرج عن مجـموع عاشقى الوطن وأعـتقد أن كل من يقول (ومـا شأنى) تلك الجملة المشـئومة ليـستحق اللـعنة ، وقد لعنت فى سيـاحتى الموجـزة هذا النوع من الأفـراد فى عـدة مـواضع منهـا ، فكيف أرضى عن نفسى أن أصبح داخل زمـرة قصار النظر ، ولو أن كل المواطنين الذين ابتعدوا عن الملاحظات الشخصية كانوا يقولون عن السىء سيئاً والحسن حسناً منذ خمسين سنة مضت لا نصلح اليوم حال كثير من الأعمال المشينة ، وما كان هذا الشعب التعس أسير حكم كبير السعاه ورئيس العسس وما أصبح ملات المدارس الجهلة مفوضين فى كل شىء عندنا ، ومعلوم أن سوء الأخلاق والأفعال الذميمـة والعادات الرذيلة غالباً ما تظهـر وسط كل طائفة وقوم ، فإذا تغاضى عنهـا عقلاء القوم أى تغاضـوا عن ذكر تلك العادات السيئة فإن نتيـجة ذلك هو شيوع كل خلق سىء وسط كل قوم ، أو طائفة . وشيئـاً فشيئا سيصـبح أفراد تلك الطوائف والأقوام ، موضع تهكم الأجـانب وسخريتـهم . ومن ثم سيـصبح شـرف أفـراد أولئك القـوم وكـرامـتـهم مـحـواً وعـدمـاً لـدى المحلى والأجنبى ، إذن ينبـغى على علماء الشـعب وعقـلائه أن يذكروا مفاسد تلك الـطائفة وعيوبها بلا أى اعتبـار لشأن أولئك الأشرار المفسدة على الرغم من أنهم فى ظاهر الأمر من ذوى النفوذ والقوة فربما يتـعظون عند سماع ذلـك ويحذون حذو الأخـيار المصلحين وينئون عن الأفعال الذمـيمة ، وشيئاً فشيـئا يحل الإصلاح محل

الفســاد وتنتهى المفاســد تماماً ، فكيف أصــمت ولا أقول أن دين الإســلام الحنيف أمرنا بــالعدل والمســاواة ؟ وينبــغى على حكامنا وقضاتنا أن يحكمــوا بالعدل والحق فى حسم القضايا فــلا يغضون الطرف لمحاباة شــخص أو لرشوة شخص آخر فى شــأن أوامر الله والرسول (ﷺ) ، تلك الأوامــر الواجبــة الطاعة فهــم يعلمون حقوق الضــعفاء ويفهــمونها ومع ذلك يتغاضــون عنها ، كل هذا فإنهم يجــأرون بدعوة الإسلام ويقــولون إنهم ينتمــون إلى رسول آخر الزمان .

وفى (مــصــر) عــدد من تجــار "إيران" الكــبــار والذين يمثل وجودهم فى واقع الأمــر فخراً للشعب الإيرانى ويحــاول موظفو "إيران" والذين كل يوم يذهب واحد منهم ليــأتى آخر بدلاً منه ، يحــاولون أن يضيِّــقــوا الخناق على أولئك التــجــار ، لهذا فــهم يضطرون إلى الهــجرة إلى الدول الأجنبــية حــتى يجدون الحــماية بها، فمــا ذنب هؤلاء المساكين حتى يخرجــوا من دولتهم الأصلية ليتجنســوا بجنسية الأجانب ، ربما دعتــهم ملكة "انجلترا" أو ربما قرر لهم إمبراطور الدولة الروسيــة الرواتب الشهرية ، فهل تساءل واحد من هؤلاء لماذا أنتم تركتم جنسيتكم ؟ وماذا يفعل من ليس له قــاض يحفظ له حــقوقــه ؟ ومن السهل أن تحــرم الرعيــة من حقــوقها الإنسانيــة بعد أن حرمت من حقــوقها المالية ، كــما أنه يوجد فى المدينة الواحدة عدة حكومــات وكل منها تعتدى بطريقة معــينة على الضعــفاء وكل من يتــجرأ بالاعتــراض على الأحكام

الظالمة لأولئك الحكام الفراعنة كأن يقول مثلاً لماذا هذا ؟ . . . .
ولماذا ذاك ؟ فإنه حينئذ يعاقب شرُ العقاب على الفور .

فضاع الحق تماماً بين الناس ، اذ أن كل ما يريدونه يفعلونه ظلماً وعدواناً ، ولكل شخص من هؤلاء الحكام نرجيلة مذهبة وخادمان وأربعة سعاة وجبة وشال وهم مسلطون على أرواح الناس وأموالهم واليوم لم ينته الأمر عند هذا الحد بل أن كثيراً من العلماء قد حذوا حذو الحكام ، فتفوقوا عليهم فى إظهار مواكب الاحتفال وضرب الدفوف ،كل عالم وفاضل من هؤلاء لهو أكثر جرأة فى نهب الرعية وسلبها من الحكام أنفسهم ، وهو خبير فاضل فى هذا أما من كان منهم رحيماً خائفاً من الله إلى حد ما فهو بلا كفاءة وكل من كبرت عمامته وطال كمه اعتبر أعلم العلماء ، وكل من يثرثر كذباً اعتبر أفصح الشعراء ، ولا تظن أننى هكذا كتبت كل ما رأيته من مساوىء ومفاسد فى الوطن ، كلا قسماً بحياتك الغالية إننى غضضت الطرف عن كثير وتركته ، أى أننى ضقت ذرعاً بهذا وعلى سبيل المثال إننا كنا ذات يوم ضيوفاً فى مكان عظيم أى إننى دعيت لذلك المكان عن طريق أحد الأصدقاء ، وحينما دخلنا المجلس كانت القاعة مكتظة بالضيوف، فجلسنا وراء الجميع وفى الحقيقة فإن مكاننا كان ينبغى أن يكون نفس المكان الذى جلسنا به، إذ كان المدعوون جميعهم من العلماء الأعلام والخوانين العظام والتجار الكبار فرأيت عشرة أو اثنى عشر شخصاً وفى يد كل منهم نرجيلة وهم يتزاحمون وفى عجلة من

أمرهم وكأن ورائهم عدواً لدوداً يتعقبهم ودخلوا القاعة وراحو يتسابقون داخل الحجرة بحيث لم يبق مكان للآخرين لكى يتقابلوا معهم وقد اهتزت أبواب القاعة وجدرانها من تزاحمهم وتحركاتهم، فكنت أنظر بعين الحيرة لذلك الوضع .

وراحوا يوزعون النراجيل والغلايين على السادة الضيوف حتى دخن الجميع وكرروا هذا الأمر مرتين وخرجوا . وفى تلك الأثناء سمعت ضجة فى إحدى المقاهى وهى عبارة عن شتائم بذيئة وكلمات متفرقة وكانت الكلمات تتغير وتتبدل فى نغمات وأصوات مختلفة وبمجرد سماعى هذه الشتائم والكلمات السوقية القبيحة تعجبت وسألت صديقى قائلاً : ما هذه الجلبة ؟ فقال اصمت الآن حتى أقول لك بعد ذلك وبعد انتهاء مجلس الضيافة حيث عُدنا ، قال أثناء الطريق : تلك الجلبة والشتائم القبيحة التى تبودلت كانت بين خدم السادة الضيوف ، إذ كان كل منهم يريد أن يسبق الآخر فى تقديم النرجيلة لسيده لأنه كلما أدخلت النرجيلة لشخص أكثر من مرة فى المجلس كان هذا دليلاً على سمو مقامه ونجابته وينتظر حضرات السادة أنفسهم هذه الخدمة من خدمهم لذلك فإن هذا الأمر دائماً ما يتسبب فى حدوث المشادات والمشاجرات بين الخدم فى مثل هذه المجالس ، وكثيراً ما يصل الأمر إلى الشتائم فقط بل إلى ضرب بعضهم البعض . ولا يكترث السادة فى أى وقت من الأوقات بهذا الوضع كما رأيت أنت بنفسك اليوم وكن منصفاً فى حديثك فقد زادت أحوالنا سوءاً

إلى حد كبير ، فيحنما يشُغل خاصة أفراد الشعب بهذه الألاعيب الصبيانيـة فماذا تنتظر من عوامه ؟ وبأى شىء يشـغل عقلاء سائر الشـعـوب ؟ وبأى شىء خاصـتنا ورؤسـاؤنا الروحـيـون وغيـر الروحـيين، والآن فإن الزمـان قد أعطى زمـام حل أمور الشـعب وعقدها إلـى هؤلاء السادة ، فينبغى أن يكونوا هم أنفـسهم على خلق ومـتواضعين كـما تقـتضى ذلك الحـالة الإنسانيـة والتنشـئة الاجتماعية وعليهم أن ينصحوا الآخرين فى تواضع وسلوك حسن وأن ينادوا بـالعـــدل والقـــسطاس من أجل إنصـــاف المظـلومين والكادحين ويحـثوا الشـعب على الاتحاد والإخـوة . وأن ما يرى على النقيض من ذلـك كالنزاع بين عوام الشـعب بدون أى سبب معقول لمجرد اتباع أهواء النفس ، وسببه ما يصدر عنهم من بغض وكراهيـة لبعضهم البـعض كما أن هؤلاء العلماء غـرقى فى بحر أغراضـهم الشخصـية، فـأين تلك الفرصة التى تـتاح لهم، لكى يبتعدوا عن أهوائهم الشخصيـة من أجل حسم قضايا الضعفاء من الشعب ومـن ثم يحكمون بالعـدل والإنصاف فى تلك القـضايا، وينبغى على علماء الشعـب أن يكون هدفهم الأول هو نشر العدل وتوطيد أسس الوحدة والوئـام بين أفراد الشعب، إذ أن هدف الله سبحـانه وتعالى من إرسال الرسل هو نشر العـدل والقسطاس بين عباد الله فى الدنيا حتى يقتصوا من الظلمة للمظلومين، ومنذ عدة سنين قرأ أحد أدباء إيران شعراً فى هذا الصدد للمرحوم والدى ، وقد حـفظته بدورى فليرحـم الله ذلك الشاعر إذ أنه كـان يحسن

القول جداً ، ولما أن هذا الشعر يناسب هذا المقام فلأقرأ عليكم ذلك الشعر فربما يقع المأمول . وهذا هو الشعر :

(منح رب السماء العادل الملكَ العدلَ

حتى يعمرَ الملكُ ملكَه بذلك العدل)

(ولو ظلم الملكُ الناسَ

فإن ربَ السماءِ يقتصُ منه)

(إنه منحَك العدلَ حتى تعدلَ

وإن ظلمت فإنه يقتصُ منك)

(اصغ لشكوى المظلومِ اليوم

وإلا لن تنقذُ فى الغد)

(اعدلْ واعدل إذ أن اللهَ

قد أرسل قافلةَ الأنبياءِ للعدل)

(إن ذلك البناء الذى شيّده الأنبياء فى الدنيا

يقوم أساسُه على لبناتٍ من العدل)

(إن عمار المُلكِ بالعدل

فمتى تُعمر الدنيا بدون ماء العدل)

(إن لـم تـتـعـظ بالـظـلـم والعـدل

فـقـم واذهـب لـبـابـل والمـدائـن وبـغـداد)

(وانظر إلى قصورِ كبارِ الملوكِ الغابرين

سواء ما كان منها من الطوب أو ما كان منها من الفولاذ)

(وكـل مـا يـقـوم على العـدل خـالـدٌ

وكـل مـا يـقـوم عـلـى الـظـلـم ذاهـبٌ)

ولما قرأ إبراهيم الأشعار وفرغ من قراءتها ، قال الملا قولك الشعر من الذنوب الجسيمة ، وأنا لا أصغى لمثل هذه الأشعار ، قال إبراهيم الآن فقط أنت لا تصغى ،وفى اعتقادك أن هذا ذنب، فسألقى عليك شعراً آخر قد نُظم فى الأفراد الذين لا يعلمون ويظهرون أنفسهم للناس فى زى العلماء ، أو أنهم على علم ودراية لكنهم لا يعملون بعلمهم . وذلك الشعر هو :

(قـال شـيـخ لبغيٍّ إنـك سـكـرى

فـكـل يـوم تـقـعـين فى فـخ آخـر)

(قالت أيها الشيخ أنا كل مـا تـقـول

ولـكـنـك لست كـمـا تـتـظـاهـر)

فأضطرب الملا بسبب هذا الحديث وقال ألا تخشى أن تتطاول على العلماء ؟

قال إبراهيم : يا جناب السيد إن العلماء هم الذين يعلمون شئون مقامهم الرفيع كما أنهم ربما بل ويجب أن يحافظوا على ذلك المنصب المقدس ، بل وأعرف أيضاً بعضاً منهم ، وأطلب من الله أن يقصر من عمرى ليطيل فى أعمارهم ، ولو لم يظهر أولئك العلماء الاطهار لانتهينا نحن بدورنا ، فحياتنا متعلقة بوجودهم الكريم وكيف استبدل الذى هو خير بالذى هو أدنى وأقول عن العلماء الأشرار الذين لا يعملون بعلمهم أنهم أخيار ؟

قال الملا : ما هذا الحديث ، العلماء جميعهم نوع واحد ولا اختلاف بينهم ، والآن فقد سببَتَ العلماء ، فأنت مرتد وأبواب النجاة موصدة أمامك ، قال إبراهيم : المرتد الذى لا يعلم ويظهر نفسه فى زى العلماء ، إذ أن كل بلاء حطَّ فوق رؤسنا ورؤس كل الإيرانيين سببه الرئيسى هم أولئك الأفراد الجهلة .

ويقول صاحب المنزل : رأيت أن وجه إبراهيم قد تغير لونه عند سماع لفظة (مرتد) ، فأخذت أطرافه ترتعد واتسعت عيناه وقال إن مثل هذه الكلمات هى التى خربت المملكة المترامية الأطراف وحطمت الشعب القديم والعريق ولهت الناس عن تحصيل العلم واطلقت العنان للجهل فى المملكة وبهذه الكلمات ومن جرائها افتقر الناس وبدت عليهم المسكنة واعتبروا العلم عبارة عن (ضرب زيد عمرا) [1] فغفلوا عن تحصيل العلوم والفنون

(١) أى أن العلماء تركوا جوهر العلم وشغلوا أنفسهم بموضوعات فرعية لا جدوى من الجدال فيها .

المتداولة حتى بلغ الأمر أن هب من كل ناحية شخص يبحث عن الوعظ وطلب الرئاسة .

وبكل وقاحة تجرأوا على تغيير بعض الأحكام المقدسة للشريعة الغراء وتلقبوا بألقاب مختلفة ، فقال واحد أنا (شيخى)، وتجرأ آخر أكثر ممن سبقه وقال أنا (بابى) وقد أسرع الناس الجهلة من كل جانب للانضمام لتلك الدعوات وهنا نفد صبر إبراهيم وأسرع من المكان الذى جلس به وواجه الملأ وجهاً لوجه وتحدث متكئاً على ركبتيه قائلاً أنت من أولئك الأشخاص الذين يدقون رؤوسهم بالكتاب جهلاً أثناء المناقشات العلمية ويتبادلون الكلمات الفظة وهو مما لا يمت لتحصيل العلم بصلة بل هو أساس الجهل، وغدا نفس هؤلاء العلماء سبباً فى الجهل بالسيرة النبوية ، إذ يتهرب الشعب من الدولة وتتنصَّل الدولة من الشعب ويذهبون جميعاً وراء المتاعب والكيمياء المزعومة بل أن ابتلاء الناس بأدمان الأفيون سببه غفلتهم عن علم الاجتماع وشيئاً فشيئا علا صوت إبراهيم ومن كثرة الصياح والجدال ، بدا كجمل يَرغى ويَزبُد ، وأخذ يتصبب عرقاً وذلك لحرارة قلبه وهنا دهشت لهذه الحالة وقال إبراهيم : أى تراب أحطه على رأسى ؟ فهذا يدعى العلم ويجعلنى مرتداً ، وذلك بسبب نطقى كلمتى حق ، فتارة أخذ يضرب كفاً بكف ويخلع القلنسوة ويضرب بقدميه على الأرض كالمجنون وتارة أخرى أمسك بالقلنسوة من على الأرض وألقى بها على المصباح القريب ، فسقط على الأرض وانكسر فسال زيت

المصباح على الأرض واشتعلت النار من الفتيلة ،وعلى الفور تحولت الفتيلة إلى شعلة من نار فأحاطت النار بكل مكان ، وأثناء ذلك الجدال دهشت (لتصرف إبراهيم) بل رأيت أن إبراهيم أصبح فى غير وعيه ، وأشعل النار بفرش الحجرة وحينئذ صحت بقولى : أيها الغلمان تعالوا . . . . هلموا لقد احترقنا ، فأقبل العم يوسف والخدم فقلت للعم يوسف يا عزيزى أخرج إبراهيم وخلصه من النار ولتذهب الحجرة إلى الجحيم ، وأخرج ثلاثتنا جسد إبراهيم وفى تلك الأثناء أراد الملا أن يهرب وينقذ نفسه من حريق النار ، وقد اشتعلت النار بطرف ثيابه ، فصاح قائلاً لقد احترقت . . . . الماء . . . . الماء . . . . الماء . . . ، وصحت أنا بدورى قائلاً (إنه حريق) فتدفق الجيران حيث المنزل من كل حدب وصوب وراحوا يرشون المياه فوق النار ، وفجأة اشتعلت النار فى الستارة ووصلت إلى حلق النافذة والسقف فصحت قائلاً: شدوا الستارة واكسروا الحلوق الخشبية وأمسك الناس بالستارة وأخذوا يرددون : يا علىّ . . يا حسن . . . يا حسين . . . يا على بن الحسين وسقطت الستارة وخمدت النار.

(الآن خرج الشاب من وراء ستارة الصبر . . . فحتام يخرج الزمان من وراء الستارة) .

(تم)

الخاتمة

الحمـد لله الرحمن الرحـيم [1] الذى وفـقنـى إلى طبع هذه السيـاحة وبهذا الأسلوب وفقت إلى أن أذكـر فى الدنيا اسم هذا السائح المحتـرم المبتلى الذى استعذب العناء والخسـائر الفادحة فى سبيل حب الوطن .

وكما ورد فى المقدمة أن الغـرض من طبع ونشر هذه السياحة ليس بهدف المنـفعة الشـخصيـة وقد احتـاجت هذه السيـاحة إلى الكثير من العناء والإنفاق على حد سـواء ومن وجهة نظرى يعتبر هذا العمل ضرباً من ضروب عـشق الوطن وحب الشعب والرغبة فى تشكيل حكومة وقد استقبلت عناءه ونفقاته بطيب خاطر وذلك حتـى ينـظر المطلـعون المحتـرمون من بـاب الإنـصاف إلى محتواه (كتاب السياحة) ومن ثم يشحذون هممهم لمنع مثل هذه المساوىء والمفاسد وإيجاد العـلاج لمساوىء الوطن ، فربما شيئاً فـشيئا يحل الإصلاح محل الفساد وذلك عن طريق وحدتهم واتحادهم ، ومن خلال أيضـاً هممـهم العاليـة ولا ينبغى اليـأس والقنوط من هذا الوضع المضطـرب ، اذ لا يمكن أن يقف هذا عـقبـة فى طريق السعى والعـمل القومى وقـد قيل فى هذا الصـدد (همم الرجال تقلع الجبال) وينبغى أن نتحرك سوياً لإصلاح أمورنا حتى نتغلب على الشدائد .

(١) هذا هو أسلوب وصياغة الكاتب .

وآمل أن يرفض حكام الشعب هذه المذلة سواء لأنفسهم أو لمواطنيهم حتى يتعظوا مما سبق ويبحثوا عن العلاج والذى من خلاله يتحقق مستقبل وطنهم بحيث يكون هذا العلاج باعثاً على القضاء على المفاسد وتوفير الراحة العامة ، حتى يضيء وطننا العزيز نور الحضارة الحقيقية وذلك مما يتوفر فى شريعة الإسلام الإنسانية الغراء ، فتنكشح سحب الجهل والكسل الكثيفة وذلك مع هبوب نسائم العلم والفن والعدل والمساواة ، ومن ثم يصفو أفق مملكتنا والذى هو أفضل منطقة فى العالم من دخان الظلم وغباره ، فتتلاشى آثار الجور والفتن لترتفع راية العدل خفاقة فى كل مكان فى القصبات وثغور الوطن العزيز وفوق عمائر الدولة ، فمن جانب ترفرف علامة الأسد والشمس والتاج الكيانى ومن جانب آخر ترفرف أيضاً آية الفتح المباركة فى مباهاة وافتخار وتعود بين المدن محاكم العدل فى العمائر الفخمة على أساس المساواة بين جميع السكان ، فيكون الغنى والفقير والأسير والأمير سواء أمام حكام العدل ، فتصان حقوق عباد الله من تجاوزات ذوى النفوذ ويراعى قضاة محاكم العدل أوامر مولى الموالى حضرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) ليتخذوا منه قدوة فى أحكامهم فى المحاكم .

وكما خطب ذلك الخليفة الراشد (على بن أبى طالب) فى جمع غفير من المسلمين قائلاً : إننى لا أفضل ابنى الحسن والحسين عليكم ولا أميزهما عنكم أو عن عبد حبشى ، فهذا

سلوك أسلافنا مع الضعفاء من الشعب ، والآن انظروا كم عانى أجدادنا فى أواخر القرن الثانى عشر من جور هؤلاء الحكام الظلمة ومن تعدى رئيس العسس وكبير السعاه والساعى ، وأتباع أولئك الأشرار وأمثالهم ، إذ أنه بإشارة واحدة غير مسئولة يُغير شخص وحشى على أموالهم وأرواحهم .

وكم عانى الشعب والدولة من آثار السلب والنهب من قبل الأعداء الأقوياء ، والآن يشكو أفراد الشعب الإيرانى أوضاع حياتهم فى اليوم مئات المرات ، وهم يدعوون لملك إيران العادل ودولته قائلين اللهم أدم دولته ، ويترحمون فى نفس الوقت على أسلافهم . واليوم لو نظرنا فى تاريخ الأيام السالفة سنرى مذابح المغول (أتباع چنكيزخان) وتخريب وتدمير أولئك الأقوام المتوحشة الجهلة والذين تطاولوا على حقوق وطننا وأسلافنا الكرام وكم نحن فى أسى وحزن من جراء ذلك الأمر ، وبلاشك فإن أحفادنا سيرون تاريخ عصر حياتنا ومن ثم ينبغى أن نتحرك بالشكل الذى لا يرثون عنا مصائبنا ونوائبنا .

والفرق كبير بين ذلك العصر وهذا العصر الذى نعيش فيه . فاليوم قد تغير وضع عصرنا أكثر مما يتصور وإذا ما قورن ذلك الزمان فى كل أرجاء العالم بالوقت الراهن كان ذلك العصر أشبه بالغابة ، إذ أنه لم يكن لأى قوم أو طائفة من عمل سوى الحرب والقتال وسفك دماء بعضهم البعض ولم يكن هناك أثر للرقى والحضارة فى أى مكان من العالم ، لهذا فنحن نلتمس العذر

لأجدادنا لأنهم لم يستطيعوا أن يؤسسوا سوراً أو يقيموا حصناً يقيهم شر ذلك (السبيل) ولكن اليوم فقد أشرقت شمس المدينة والحضارة من ناحية الغرب ، فعم ضياؤها كل مكان وبأمكان كل طائفة أن تنهل من فيض تلك الحضارة ، لهذا فإن أحفادنا وأخلافنا لن يقبلوا بشكل من الأشكال عذراً منا ، وينبغى أن نقول من باب الإنصاف أنه ليس هناك أية دولة يصبح فيها التاجر الكبير عرضة لاستخفاف ساع وقح يبتزه ألا فى "إيران" ، وفى أى مكان يوجد الثواب والعقاب بل إن وظيفة الحاكم والمحكوم وواجباتهما محددة ومقننة ألا فى "إيران" وكل مملكة تحدد ضرائب الدولة بالمساواة والعدل ألا فى "إيران" بل وتدفع رعية أية دولة ضرائبها المحددة فى وقت معلوم ومحدد وقد يطلب جهاز الحكومة تحويل مستحقاته ألا نحن وفى كل مملكة يشترك الشعب والدولة فى الحفاظ على الوطن وحمايته ألا فى "إيران" .

وفى أى مكان من العالم لا يتدخل علماء الدين فى الأمور السياسية ألا فى "إيران" [١] ولا توجد فى أية منطقة من العالم مقامات مقدسة وبيوت علماء وحكام تكون ملجأ للصوص والمحتالين وسفكة الدماء إلا فى "إيران" وينبغى أن نبحث عن علاج للتخلص من كل هذه المفاسد قبل فوات الأوان وهذا الذى قيل ليس خرافة أو حكماً أو وهماً بل أوضاع يراها كل إنسان

(١) ليس صحيحاً أن علماء الدين لا يتدخلون فى الأمور السياسية بل أن التاريخ شاهد على أن أكبر الساسة فى العالم الأسلامى كانوا من رجال أو علماء الدين .

يوميـاً فالأصـدقـاء فى حـزن وألم لرؤية هذه الأوضـاع المشـينة والأعداء فى غبطة وسرور ويتهكمون على الشعب العريق النجيب بل ويمثلون هذه الأوضـاع فى الملاهى والمسـارح فـهل يليق بنا أن نرضى بهذه المذلة لأنفسنا ؟ ولا نتقدم خطوة نحو الرقى والحضارة حتى نصلح ما فسد من أمورنا ؟

وأخشى أيضاً على الرغم من اسـتنارة العالم كله أن يضحك بعض المواطنين سـخـرية وتهكـماً عـلى هذا السـائح وطابع هذا الكتاب وذلك بعد قراءة هذه السياحـة ويعتبروننى أحمق ومجنوناً وليس ببعيد أن لا يكتفى البعض الآخر بهذا النقد بل يعتبرونى بلا دين أو مذهب ولكننى أقول هذا بـجرأة تامة أنه لو أن كل مظلوم كان يشكـو من كل ظالم من أربعين عامـاً ولـم يرض بالظلم على نفـسه والآخرين ولـم يتغاض (مـن لم ير الظلم) عن المظلومين وكتب كل سائح ما شاهده من خـير أو شر دون غرض أو محاباة وكان ينشره لانتهت كل تلك الأمراض المزمنة والمتـفشية فى البلاد بل وشـفى الشـعب والدولة على حـد سـواء من هذه الأسـقـام والأمراض ولكن واحـسرتاه فـان الجمـيع يقولون (ومـا شأنى) ويمرون على هذه الأوضاع مر الكرام ولكن لن يطول الوقت حتى يروا بأنفسهم رأى العين أن ما حـدث قد حدث لهم أنفسهم ، إذ وقتذاك كانت إيديهم بعيدة عن النار أما اليوم فهم وسط تلك النار ولو أن عـقلاء إيران وحكمـاءها وشـعراءها وأدباءها حـالوا دون السياحة الثانية والثالثة للملك [1] بعد أن رأوا عدم انتـفاع الشعب

(١) الملك : هو ناصر الدين شاه .

والدولة من وراء كل تلك المبالغ الباهظة والتى انفقت على السفرفى السياحة للغرب ، ومنعوا الملك من السفر وذلك من خلال الكلمات المناسبة والنصائح المؤثرة المنظومة والمنثورة ، لكانت تلك المبالغ والأموال الطائلة قد عمرت خزانة الدولة والتى ضاعت هدراً فى الغرب ولنجا الشعب من عار تلك الفضائح التى نتجت عن تلك السفرات وللأسف فإن عقلاء الشعب فى مملكتنا لايزالون لم يتذوقوا بعد حرية الأفكار وحرية القلم ولا يعلمون إلى أى مدى قد تكون تلك النعمة باعثاً على تعمير البلاد وسموق الدولة والشعب .

وفى الحقيقة الباعثة على الدهشة والتعجب أنه على الرغم من أن جميع الأفراد يعلمون كل هذه الأمور ويقرون بها إلا إنهم لا يريدون أن يستنتجوا من باب التجربة والاختيار حتى يدركوا ما لذة هذا الأمر ، وا أسفاه فإنهم لسوء الحظ يقولون وما شأنى عند كل وضع يقابلهم ويمرون عليه مر الكرام : فى حين ينبغى على الجنس البشرى أن يكون دائماً تواقاً للرقى والحضارة وأن يحيط علماً بجميع مقومات حرية فكره وقلمه شريطة أن لا يتجاوز نطاق حدود الأدب والإنسانية . بأى شكل من الأشكال حتى يمكنه أن يعيش عزيزاً بين سائر الشعوب ، وكل من يخالف ذلك سوف يصبح حقيراً لا قيمة له فى أنظار الشعوب الغربية كما أصبحنا

ـحن ، وهذا الموضـوع فى غنى عن البـرهان والإثبات وهو مـثل
لشمس الساطعة ، بل ونرى أن الشعـوب الغربية تعيش فى فخار
بفضل ذلك الأمر ولا تعـتبر أمثالنـا من الموجدوات ، ولو نبحث
عن أسبـاب ذلك الرقى وتلـك الحـضـارة سنرى أن ذلـك ليس
إلا وليـد حـرية الفكر والقلـم ، ومن الواضح أن الشـعب الذى
يشب على التحصـيل والتنشئة الحسنة ويكـون قـد حـظى بقسـط
كبيـر من العلوم والفنون المتداولة ويضـيف إلى ذلك حرية الفكر
والقلم لاشك أنه بالغ السعـادة والرقى فى حياته مـثل الغرب فى
حين أننا مـضطرون إلى استـعـمال الشـمع والسكر ، ولابد وأن
نرتدى قمـاش اللباد والسـراويل وأن نستـهلك الورق فى حين أنه
ينبـغى علينا أن نتعلـم تلك الصناعات ، وهى لا تتـحقق أيضـاً
بالجـهل ، وإذا ما حصـلنا العلم لابد لنا أيضاً من الأمن والـعدل
وكلاهمـا لا يتحقـق فى أى مكان بدون حرية الفكر والقلم .

وبإمكان أى صاحب قلم فى الشعوب الغربية من أية طبقة .
ولو كان هذا الشـخص مجنوناً بإمكانه أن يكتب مقـالة فى صدد
المنافع القومـية ، ويسلمـها للصحف وعـد ذلك اليوم سـترى أن
جميع عقلاء الشعب يقرأون مقالة ذلك (المجنون) ، فلو رأوا أن
الكلمة مفيدة فإنهم حيـنئذٍ سيعملون بتـلك المقـالة ، وإلا فإنــهم
لا يشيحـون بوجوههم عنها أو يعـبسون ويذمون مقـالته ، وعلى
النقيض فـحينمـا يقول عاقل فى مملكتنا شـيئـاً من هذه المقولة أو
يكتبـه على ورقة لتصل سواد الـشعب فإنهم يجأرون بالصـياح ،

وذلك بسبب نظرتهم القاصرة وضيق آفاقهم قائلين يا بنى ان مثل هذا الشيء لا يحدث فى العالم ويقيمون الدنيا ويقعدونها إلى أن يصبح العاقل مجنوناً ، وهذا هو الفرق بيننا وبين الشعوب الغربية، إذ أنهم يسمعون إلى النهاية كل ما يقوله الفرد حتى ولو كان من المحال . وبعد ذلك يبين رأيه فى ذلك الصدد ولكننا نحن نظراً لقصر نظرنا نصيح فى منتصف الموضوع دون تقييم له أو تفكير فيه لنقول . . . هذا مستحيل خاصةً لو كان القائل مثلى خالى الوفاض من الدنيا وعلاوة على هذا فلو حالف الحظ شخصاً من الأشخاص وسمح لحديثه المفيد أن ينتشر على الرغم من وجود مثل هذه العقبات التى يصعب اجتيازها فلن يستفيد القائل أو شعبه من هذا الحديث المفيد سوى سماع كلمتين رخيصتين ، ولا أعلم أى ضرر يمكن أن يحدث من حرية الأفكار والعلم سواء بالنسبة للدولة أو الشعب لدرجة أنهم كمموا أفواه الشعراء وحطموا أقلام الكتاب ؟ ، وواضح أنهم لم يفهموا معنى الحرية، أجل فكل قلم يُستعمل فى خيانة الدولة والشعب لاشك أنه ينبغى تحطيمه وكل لسان يتحرك متهماً الأفراد وينطق هاتكاً احترام هذا أو ذاك ظلماً وعدواناً ، لاشك أنه يجب قطعه وليس كما حدث أن صحيفة سيئة الحظ قد تحدثت فى صراحة تامة عن سوء سلوك أمير ظالم ومظالمه الواضحة فصودرت لهذا بدلاً من معاقبة ذلك الظالم وتوبيخه . ويقول بعض الأشخاص وهم من قصار النظر وذوى حمية جاهلية : أن ذكر هذه العيوب وأبراز كل هذه المفاسد

كـتـابة دليل على عـدم الغيـرة أو التـعـصب القـومى فى أنظار الأجانب.

وهكذا يظن أولئك المساكين أن الآخـرين غافلون عن أوضاع إدارة مملكتنا ومظالم الحكام ومفاسد أخلاق الآخرين ، وقسماً بالله إن الصواب قد جـانبهم فى هذه الملاحظة ، فاليـوم لا يخفى أمر من أمـورنا وأن الأجانب لعلى علم بمـفاسـدنا وعيـوبنا أكثـر منا أنفسنا. ومن ثم فـمن وجهة نظر كل العـقلاء أن كل من يريد أن يخفى هذه العيوب لاشك أنه خائن للدين والدولة الشعب .

(فى مذهبى أنك شخص حسن الفعال

لأنك ذلك الشخص الذى يقول أن الشوكة الفلانية

فى طريقك)

ويقول مولِى المتقين أمير المؤمنين على كرم الله وجهه فى هذا الصـدد : إنما سَمى الصـديق صـديقاً لأنه يـصدقك فى نفـسك ومعايبك ، فمن فعل ذلك فاستنم إليه فانه الصديق .

وترجمـة هذا الكلام المعجز فى نظام باب العلم حضـره ختم المرتبة (كرم الله وجهه) بالفارسية كما يلى : [1]

أذن يتضح أن كل من يحب وطـنه ويريد عزة مواطنيـه ينبغى

(١) (الترجمة) : " از برأى آن صديق بصداقت نامـبردار كرده اند كه باتو سخن براستى كَويد ومعايب ترا بـروى توبشمارد ، وجهد كند كه ترا از آن معـايب باز دارد ، هركه كسى را بدين صفت يا فتى از دامن أو دست باز مدار كه أو صديق تست" .

عليه أن يتبع أوامر حضرة مولى الموالى علىّ العالى علـيه السـلام (كرم الله وجهه) وهو مولاهم وقدوتـهم ، فإذا ما رأى شيئاً من مفاسـد المواطنين فعـليه أن يبـرز لـهم تلك المفـاسـد أو المساوىء فى لغة مناسـبة . فربما عـمل بنصيحتـه شخص من بينهم وشيـئاً فشيئا سيتخلون عن تلك المفاسد حتى يزول الظلم والانحراف من بينهم أيضـاً واللذان هما من نتائج الجـهل ومن ثم يحل محلهـما العدل والقسطاس والآن حان الوقت ، فإن شعراء الشعب وأدباءه الذين لا يزالون يقضـون أعمارهم فى مـدح الجبابرة ووصـفهم ، عليـهم أن ينظموا أيضـاً القـصائد والأشـعار حـول حب الوطن وتقديسه ، وكما أننا كنا نبكى فترة من الوقت على كل المصائب، فلنقرأ الآن مـرثيه الوطن أيضاً لفتـرة ونبكى لتلك المرثية ، فكأن الوطن عدمٌ ، فـهم لا يسمحون لنا بتنفـيذ أى نظام فيـه . وكما أنهم ذموا لسنـوات طويلة عاشقى الوطن ، فلـيذموا أيضـاً عمل الخونة نظمـاً ونثراً فترة من الوقت ، وسندعـو الله عدة سنين فى تضرع ونحـيب من أجل تخليصنا من نار الجـحيم ولندعو لفـترة أيضـاً مـن أجل تخليـصنـا من الظلم والجـور وإحـلال العـدل والإنصاف مكانهـما وبدلاً من الأعـمار التى نقضـيها فى خـصام ونفاق مـع بعضنا البـعض وذلك من جراء الأهواء الشـخصـية ، فلنقض هذه الأعمار سالكين سبيل المحبة والوفاق فترة من الوقت وكم هو مـناسب أن نورد تلك الحـكاية التى تنـسب إلى الشـاه (عبـاس الصفوى) أنار الله برهانه . يقـولون : إنه ذات يوم سار

الملك راكباً رضـوان الله عليه وكان يسيـر معه السيد النجـيب مير محـمد باقـر صهـره وكذلك الشـيخ الجليل بهاء الدين العـاملى واللذان كانا من فحول علماء ذلك العـصر وقد سـارا بالتحـديد فى معية موكب الملك .

وخطر ببال الملك أن يختبر هذين العظيمين حتى يعلم أن كان بينهما تنافس أو حقد ولما أن جواد المرحوم سـيد كان كثير التحرك والقفز ، قال الملك للشيخ هامساً : إن جـواد (سيد) كثير القفز واللعب وفى الحقيقة أن امتطاء صهوة مثل هذا الجواد لأمر لا يليق بالعلمـاء فعـقب الشيخ قـائلاً لما أن الجواد يعـرف راكبـه كم هو شخص عالم وعظيم ، لذا فقد تأثر من وَجْد ذلك الرجل العظيم والحق مع الأمير (أن يفضل هذا الجواد) وبعد ذلك قطع الموكب هذا مسافة طويلة من الطريق ، فألتفت الملك هذه المرة نحو (سيد) ذلك الرجل الجليل القـدر وقال : إن جواد الشـيخ كسـول للغاية فهو لا يريد أن يسـير والشيخ نفسـه يجهل نظام الفروسيـة فعقب سيد قائلاً: لا ، ليس جواد الشيخ كسولاً ، بل ما يدعو إلى الحيرة أنه كيف يتـحرك مع كل هذه الأحمال الثـقيلة لفضائـل راكبه؟ ، فحينئذ توجه ذلك الأمير (الشاه عباس) المحبوب يشكر الله على سمـاع هذه الكلمات الجمـيلة من هذين العالمين العظيـمين قائلاً . الحـمـد لله أن يكون علمـاء الشـعب فى أيام حكمى على وفـاق ومحبة مع بعضـهم البعض بهذه الدرجة ، وهذا وحده دليل على

وجود الوحدة والمحبة والوئام بين جميع أفراد الشعب .

إذن ينبغى علينـا أن نتضرع لله الرءوف بالدعـاء ليل نهار كى يمحو النفاق من صدور حكامنا ومواطنينا والذى يتسبب فى خراب البلاد واضطــراب الـشعـب ، ليـأمـرهم بالتـراحم فيمـا بينـهم حتى يحققوا ما فيه تعمـير البلاد وكذا الراحه والسموق للمواطنين ومن ثم يتكاتفـون مـعاً للمـحـافظة على الأمور الـهامـة للدولة والشعب وبذلك يجنبـون الحكم العتيق من الانقراض وأخـلافهم وأسلافـهم من الذلة والهوان اللذين تظهـر آثارهما واضحـة اليوم حتى يتـركوا هذه الدنيا القـصيرة بعـد أن خلفوا وراءهم السمـعة الطيبة والاسم الخالد .

(إنى أتحدث معك عما هو أساس النصيحة

سواء أنت اتعظت من كلامى أو مللته)

ومع كل هذا لا ينبغى أن نيأس من رحـمة الله ، فالله لطيف بعباده وقد يخفى علينا الكثير من رحمته ، ووجدت أنه مما يناسب هذا المقام أن أكتب بعض الأبيات من الأشـعار وأجعل منها مسك الختام لحديثى .

(مناجـــاة)

(إن لـديـنا الهـاً عـفـواً بـحـيـث
أنـنــى آمـــل مع الـذنــوبِ العـــديـــدة)
(أن يـفـتـح البـاب الـــذى يغـلقـهُ
فتعالْ حتى نتضرع بالدعاء على هذه العتبة)
(يا إلهـى إن تـطـردنْى أو تـدعـونى
فـليـس لنـــا بـــابُ آخرِ ســوى أنعـــامِك)
(وفـــخـــارُنـــا أن تـــعـفـــو عـنـــا
وإلا تمـــادينـــا فى اقتـــراف الـذنـــوب)
(إنك خـلقـتنا من حـفـنـة تـــراب
فـكـيــف لا نشكــر هـــذه النـعــمــة)
(إنك وهبتنا الروح والعقل والإيمـان
ولـولاك لظـللنـــا كمـــا كنا حِفنة من تراب)
(يـا إلـهـى أصلـــحْ أحـوالـنـــا
فنحـن مـساكين ومضطربون فى هذا العصر)
(حتى لاننصاع لليأس والقنوط يوماً
من الأيام مبتعدين عن عتبة أنعامك ولطفك)

ملحـــق

هذا العـبد المتـحدث أحـد أبناء تلك الأرض المباركـة والذى عانى معـاناة كل عاشق للوطن غيور وقد عجـز كل مسكين مثلى عن إيجـاد علاج لـتلك المعاناة فـى مجـال الفكر واليـوم دخلت المطبعـة لإنـهاء عـملى الشخصى وبالصدفـة بينما كـان كتاب (سياحـتنامة إبراهيم بيك أو بلاء تعصبه) فـوق الآلة حيث كان يُطبع ، حملت ذلك الجـزء المطبوع وتصفحتـه بل اطلعت عليه ، وفى الواقع فقد تأثرت به تأثراً لا أعلم مداه وفى الحـقيقة فإن من لديهم ذرة واحـدة من حب الوطن فى قلوبهم سوف يعلـمون كم عانى هذا الشـاب الغيور بسبب حب الوطن وعـشق الشعب وكم من الطعنات تحملها من قِبَل جهلة البلاد وكم من المفاسد والمساوئ سمع عنها ، الأمر الذى صدم عقـله وأحساسه ، فقد دخل هناك (إيران) عاقلاً وحكـيماً وعاد ذاهلاً بل مجنوناً وكـيف أحرقت نار عشق معـشوقته "إيران" عقل ذلك الشـاب المتحرر بل أودت هذه النار بحيـاته تماماً ، فهـو يغفل عن وجـوده وكل ماكتـبه المسكين وقاله لهـو خال من أى نوع من المبـالغة والتهـويل ولو ننظر بعين العدل إلى مـا رآه من المفاسد والمسـاوئ ، فإننا نرى أنه لم يكتب من هذه الأمور إلا قليلاً من كثير .

كما أن المساوئ التى تمخضت عن حكام هذه المملكة التعسة لا يمكن أن تحصر فى حديث أو كتابة .

(لا يمكن أن تتحدث عن عيوبه فما ذكر قليل من كثير)

وقد يبدو أن علاج هذا الألم معضلاً فى ظاهر الأمر لكنه يسير للغاية فى حقيقته ، ومن مشاكل هذا الوطن أن هذه الرقعة من الأرض والتى هى وطننا نحن التعساء قد وقعت فى منطقة هى ملتقى الفتن والصراعات ، وهى موضع توالى الضربات السياسية لدولتين كبريين جشعتين تفكران ليل نهار فى أن تقضيا على بعضهما البعض . . ولسوء الحظ فإن وطننا قد كان مسرحاً لحروبهما وبهذه الملاحظة فإن أى يوم تظهر فيه مشكلة سياسية جديدة قد تواجه إحدى هاتين الدولتين المتنافستين الكبريين لن تنتظر هذه الدولة لتسيطر على المناطق الهامة من تلك المملكة (إيران) طالما سنحت الفرصة بذلك ، وذلك من أجل أن تجيش الجيوش وتعد العدة للحرب من خلال وجودها فى إيران ، فتحصل على ضالتها بتلك الوسيلة من خلال هذا الصراع ويصبح هدف الدولة الأخرى أن تبقى هذه المملكة فى هذه الحالة من الخراب والدمار والاضطراب .

فلا صاحب ملك ولا منافس قوى يمكنه أن ينتفع من ذلك حتى تسنح الفرصة فيترجم كل ما يريده من القوة إلى الفعل .

(هذا يشد نحوه ، وذاك يشد نحوه الآخر

ونحن وقعنا فريسة لصين من اللصوص) [١]

لقد أصبح صراع هاتين الدولتين وغفلة حكام المملكة سبباً فى زيادة الاضطراب وخراب هذه المملكة ويوماً فيوما يزيد عدم الاستقرار والشقاء أكثر من ذى قبل ، وا أسفاه فإن أدعياء المدينة الكاذبين هؤلاء ، بدلاً من أن يعمروا البلاد ببعض المتنزهات الباعثة على الصفاء ، فإنهم يدعون على سبيل الإصلاح إنهم يبحثون عن مقومات النور والحضارة التى من خلالها يجمّلون البلاد وينيرونها وهم فى حقيقة الأمر يسعون إلى إظلامها وتخريبها . وقد أدرك أحد علماء "إيران" الأجلاء نوايا هاتين الجارتين القويتين وكتب مقالة مفصلة فى هذا الصدد بعنوان (أين تذهب سفينة سياستنا) وما واجبا ؟ وماذا عسانا أن نفعل ؟ وهذه المقالة تفيد إلى حد كبير فى علاج ألمنا ورأيت أن الوقت مناسب، فطلبت من صاحب المطبعة أن يضمّن هذه السياحة جزءاً من مقالات ذلك العالم المحترم حتى يطلع ذوو الطبائع السليمة

(١) المقصود بذلك روسيا فى الشمال ، وانجلترا فى الجنوب .

والأذهان المستنيرة ، لاسيما حكام الشعب على نوايا أولئك الجيران (روسيا وإنجلترا) ومن ثم يعتبرون من ذلك ويكونون على دراية وعلم بمجريات الأمور ، وقد قبل صاحب المطبعة أيضاً نظراً لعشقه للوطن ، وآمل أن لا يخلو نقل هذا الموضوع الأساسى من الفائدة ، وذلك لكونه فى ذيل السياحة .

هذا موجز من بيانات عالم إيرانى

ما هى سياسة إيران ؟ وإلى أين تذهب سفينة سياستنا ؟ وهل هناك أحداث خطيرة فى هذا البحر أم لا ؟ ولو كان هناك تدارك للأمر منا فما هو ؟ وما هى خطتنا ؟ ومن هو عدونا ؟ وأين صديقنا ؟ ومن أى الطرق ينبغى أن نذهب ؟ وما هى المشكلة أو الورطة التى ينبغى أن تتخلص منها ؟ وفى أى حالة كون ؟ وماذا عسانا أن نفعل ؟ وحتى الآن لم يثر حاكم من حكام إيران مثل هذه الأسئلة ، ولا يعلمون شيئاً عن حل هذه المسائل إذ أن سفينة الدولة ليس لها موجه أو مخطط ، وليس لها أيضاً هدف محدد .

وهى حائرة غارقة فى بحر السياسة ، فتارة كنا نقاتل (العواصف العاتية) دون مبرر لهذا القتال ونعود إلى الطريق المفقود ، وتارة ثانية كنا نسعى لقطع صلاتنا بالصديق ، وتارة ثالثة رحنا نشد من أزر العدو ، وبعد هذه الصدمات والتخبطات

التى لا تحصى ولا تعـد ، تركنا عنان السفـينة فى أيدى الآخرين ولازلنا نجهل مـا هو صلاحنا ، وأين هدفنا ؟ بل وتغوص سـفينة الدولة فى هذا البـحـر الملىء بالمخاطر مـضطرة لأثارة العـواصف العاتية بالقرب من الأعداء دون تحسب للوقوع فى ورطة لا مخرج منها ، ويظن أصحاب السفينة فى نشوة الغفلة أن بواكير العاصفة ما هى إلا نسـائم السعادة والأمل الوحيـد لنجاتنا ، هو أن يوقظ الله سبحانه وتـعالى قبطاننا ليأخذ بيد السـفينة ، ويمكن القول إنه من خلال الفـراسة اللماحـة والهمة العـالية لهذا القـبطان الشاب المحظوظ ، أن الله الرحيم سبـحانه وتعالى لم يبتعد تمامـاً برحمته عن هذه السفـينة التعسـة ، كما أن هذا القـبطان والذى هو منقذ السفينة مـحتاج إلى خطط متعددة من أجل تحـديد الهدف وإعداد سير تحـرك السفينة . لهذا فـقد كنت منذ فتـرة أحذر ركاب هذه السفـينة من ركوب البحر وقـد قدمت لهذا خطة أو مشـروعاً من أجل رحلة السائحين ، وذلك فى عـدة وريقات ولو أن فائدة هذه الخطة السياسية قد قـصرت على إصلاح تحرك السفينة لكانت ذات نتائج عظيـمة ومـوضع فخر قـبطان السفينة ، وبالـنظر إلى عالم السياسة يتضح أن هناك نكتـة جديرة بالتأمل لدينا ألا وهى جزيرة صغيرة تـقع على ساحل (البحر المحيط) والذى شكلته الطـبيعة وتزيد مسـاحته عن الربع المسكون من الأرض وقد أخـضعت هذه الجزيرة أعظم ممالك آسيـا وهى تستولى على العالم بتفكيـر معجز وعظمـة فائقـة ، ولا أرى دولة لا ترتعش من اسم انجلتـرا ، من

موانیء الیابان حتی غابات العالم الجدید ، ومن البحرین المتجمدین حتی صحراء أفریقیا ، وفی مقابل کتلة إنجلترا الاستعماریة والمثیرة للدهشة نری کتلة أخری قد تقدمت علی مسرح الدول لإثبات قدرتها الفائقة فی حروبها الضاریة ، فتقدمت نحو ممالك الهند فی استعداد فظیع وتخطیط کبیر وذلك من ناحیة الشمال (روسیا) من أجل القضاء علی القوة الانجلیزیة والسیطرة علی العالم وقد شمل استیلاء هاتین القوتین العالم ، ولو بحثنا فی کل حادثة من حوادث هذا العصر لرأینا أنه إما کانت هذه الحادثة ناتجة عن حملة أحدی هاتین الدولتین أو ناتجة عن دفاع الأخری ، فأخضاع الکَرجستان وحرب الصین وثورات الافغان وإخضاع السند وحروب سواحل طونة ونزاع سباستوبول [١] ، وحملة المحمرة کلها نجمت عن أغراض وخطط استعماریة لدی هاتین القوتین المتنافستین .

وکما نلاحظ لن نری أیة منطقة فی العالم إلا وتخشی الاصطدام بهاتین القوتین خاصةً إذا ما اشتبکَنا معاً ، ومن خلال مشاهدة هذه الأوضاع نری أن هناك نکتة باعثة علی الخوف والتعجب إلا وهی أن هاتین القوتین العظمیین سوف تدخلان

(١) نزاع سباستوبول : کان هذا النزاع بین الدول الغربیة وترکیا من جانب ، وبین روسیا من جانب آخر سنة ١٨٥٤ م ، وقد تطور إلی حرب مُنی فیها الروس بهزیمة فادحة عند نهر (الما) ، وقد سمی هذا النزاع بسیاستوبول نسبة للقلعة التی دارت عندها الحرب بین المتحاربین . انظر :

کارل بروکلمان : تاریخ الشعوب الإسلامیة (ترجم) نبیه أمین منیر البعلبکی ، ص : ٥٧٠ ، ٥٧١

أرض "إيران" وذلك بعد القضاء على الممالك الأخرى وما يتبع ذلك من خراب ودمار وليس فحسب أنهما ستدخلان أرض "إيران" بل ستستوليان على كل المدن الإيرانية ومع اقتراب الهجوم الوشيك لهاتين القوتين إلا أن أولى الأمر فى دولتنا لا يعلمون شيئاً عن هذا الهجوم ولو سمعوا ولو صدفة بعض الأخبار عن هذا الموضوع فإن تلك الأخبار ستكون إلى حد ما غامضة وبعيدة عن أفكارهم ،لدرجة أنهم لا يعتبرون البحث عن الحقيقة فى مثل هذا الموضوع جديراً باهتمامهم ، ولكن لما كان احتمال صدق ذلك الأمر بخصوص "إيران" يعتبر من أعظم الفتوحات أو منتهى الذلة [1] ، ويعنى أيضاً الانتقال من بقاء دائم إلى انهيار فورى لجميع الاحتمالات الخاصة بحالة الدولة ، لهذا فالبحث عن الحقيقة فى هذا الموضوع لن يخلو من الفائدة بأى حال من الأحوال ، وحينما يكون هجوم الدولتين الكبريين المشار إليهما فرضاً غير صحيح فيمكن القول حينئذ أن دولة إيران فى أمن وأمان ، أما إذا كان اقتراب هذه الحادثة أمراً حقيقياً، فقد ارتكبنا حينئذ حماقة لا حد لها ، وينبغى علينا أن نحيط علماً بمدى صحة وكذب احتمالات هذه الحادثة دون توقف وروية ، ويقول عقلاء إيران : إن أحداً لم يطلع على الغد وبمنطق هذا الفكر الخاطىء فإنهم يعتبرون أن البحث عن الحقيقة فى أوضاع المستقبل أمراً خارجاً عن حدود مهام الدولة فى حين يعتقد حكماء

(١) أعظم الفتوحات للدولة المستعمرة ومنتهى الذلة لإيران .

الغرب (أن الحكم هو التفكير فى أوضاع المستقبل) ، أما فى إيران فإنهم لا يفكرون فى أوضاع المستقبل ، إلا من خلال العقل أى أنهم لا يستقرئون الحوادث أو يتنبأون بها ولكن فى الغرب فقد أعدوا علماً واسعاً فى هذا الصدد ، فعلاوة على العقل الكافى ، يستخدمون العلم السالف الذكر ليستقرئوا به جميع حوادث المستقبل ، فحكمة دولة إيران بالتوسع فى العلم المذكور ، وغفلة دولة إيران من الجهل بالعلم المذكور ، ولو اطلع وزراؤنا على علم الغرب هذا لبكوا دماً من مصائب مستقبل "إيران" .

وينبغى أن نذكر كلمتين فى صدد هذ العلم ، إذ أنه فى الأيام الغابرة كانت طوائف الدول الكبرى ذات عمر خاص بها كالكائن الحى وجميعها فى رقيها وتخلفها مثل عمر الإنسان فقد مرت بالفترات الآتية الطفولة والشباب والشيخوخة .

وعلاوة على العمر الخاص أرى أن للدول الكبرى فى العالم عملاً محدداً ومهمة رئيسية ، ومنذ بدء الظهور اتجهوا إلى غرضهم الخاص بحكم قانون خفى دون إرادة منهم ، وبعد ذلك بحكم نفس القانون الخفى تخلفوا شيئاً فشيئا بل ومحوا من العالم ، وقد قطعت شعوب الغرب عوالم واسعة فى البحث عن حقيقة عمر الدول ، وإذا كان أطباؤهم قد وصفوا كل صغيرة وكبيرة بخصوص أسلوب عمر الإنسان ، فقد وصف حكماؤهم أيضاً رقى وانحطاط عمر الدول وصفاً دقيقاً ، ووفقاً لهذه الأصول

والقواعد أثبتوا مثلاً أن الدولة الفلانيـة سوف تظهر لسبب ما ، وستبقى حية لقوة ما ، وأصبحوا يدركون ماذا حدث لتلك القوة الفلانيـة ، وإلى أين انتهى عمر تلك القوة ؟ وتمر الدول الحالية كلها بلا استثناء بنفس قواعد الرقى والاضمحلال للدول الماضية ، وكما أن الاطباء يصفون من خلال تشريح الأموات أحوال الأحياء وأمراضهم ، فإن علماء الدول أيضاً يحددون طول عمر مستقبل تلك الكتل الدوليـة وكذلك مقومات حياتها ، وذلك من خلال البحث فى الأوضاع السالفة . ومن باب العلم يحكون على ما هو الباعث على بقاء دولة ما ، وإلى أين ستتجه أحوال الدولة الفلانيـة ؟ وما هى عاقبـة الدولة العلانية .

ومن وجهة نظر العلماء فى هذا المجال أنهم لا يشكّون مطلقاً فى صلاحية مقومات عمر كل من الدولتين الروسية والإنجليزية ، ومن باب العلم يدركون أن هاتين الدولتين المتنافستين والمتفقتين فى أنظار الحكماء السابقين سوف تزولان ، وسوف يتنازع الحكماء معاً فى وسط آسيا ، إذ أن جميع وزرائهم قد رأوا هذه الحادثة الكبرى: واعتبروا ظهورها من مقتضيان المشيئة الإلهية .

ويقول أحد المراقبين لأوضاع الهند : لقد قاد الوضع الطبيعى والاحتياجات القومية وضرورة الغزو والمشيئة الإلهية ، قاد كل هذا الدولة الروسية إلى الهند ، وقد أوصى (بطرس الأكبر) أخلافه بهذه الوصية التالية :

نبذة من وصية بطرس الأكبر لأحفاده من بعده

ينبغى على الدولة الروسية أن تستمر فى هذه الحروب وعليها أن تضع هذا الموضوع فى اعتبارها ألا وهو أن تجارة " الهند " هى تجارة العالم كله ، وكل من يسيطر على هذه التجارة يصبح المالك المطلق لجميع ممالك الغرب ، ويقول أحد العلماء الفرنسيين والذى قضى فترة طويلة فى خدمة الدولة الإنجليزية ، وكان مشغولاً بالبحث فى أوضاع الهند ، وقد كتب كثيراً فى هذا الباب من الكتاب ، يقول : (ولم يبتعد الروس لحظة واحدة منذ عصر بطرس الأكبر حتى يومنا هذا عن التفكير فى "الهند" ، وليس بالإمكان أن يصرف الروس أنظارهم عن هذه الفكرة ، إذ أن إخضاع "الهند" ليس هدف الروس وحدهم ، كما أن تحقيق ذلك الهدف أمر لابد منه لتلك الدولة ، لأن هذه المهمة - أى إخضاع الهند - لازمة من لوازم الوضع الطبيعى للدولة الروسية ، ويقول مؤرخ معروف آخر : (تحتم طبيعة الدولة الروسية بحكم الجوار أن تتجه نحو الممالك الأسيوية) ، ويقول فى موضع آخر : (إن الموضوع الذى يستحق منا البحث هو أنه مع وصف حوادث الفرنج فإن الدولة الروسية قد تقدمت فى المنطقة الأسيوية

إلى حد كـبير ، ومن خلال هذه الطرق الـتى قطعتها فى آسـيا ، يمكن الحكم عليها بأنها مناسبة للقاعدة الهندية وعن قريب ستصل إلى غرضها .

ويقـول أحد السـاسة الإنجليـز : (إن تلك الدولة التى تهـز العـالم اليـوم هى الدولة الروسـية ، وتلـك الدولة التى تريد أن تقـضى على دول العالم هـى الدولة الروسيـة ، وأرى أن الدولة الروسية منافس جرىء وموفق فى صحراء التتار وشرق بحر الخزر وغربه وفى شمال البحر الأسود وجنوبه ، بل فى كل مكان) .

ويقول أحد الوزراء الروس : لابد أن نستولى على (خيوه) وحينما نسـتولى عليها ستـتدفق أموال "آسيا" كلهـا كالسيل على الأرض الروسية ، وذلك من خـلال طريق تجارة الهند والروس ، وسينفذ المخطط المطلوب لبطرس الأكبر .

الخلاصة: فحينما نستولى على (خيوة)، سوف نزلزل أركان التجارة الإنجليزية والتى غدت أساس القوة البحرية لتلك الدولة.

ويقـول حكيم فرنسى : (إن الهـند بلاشك فى خطر ولكن الدولـة الإنجليـــزيـة لا يمكن أن تـدفع الاخطار عـن الهنـد فى

"البنجاب" وفى "دهلى" وهذه هى الأخطار الكبرى والتى نزلت بالدولة الهندية ، وحينمـا يفكرون فى علاجها فـينبغى أن يفكروا فى العلاج فى "بترسبورغ" و "موسكو" وليس فى "الهند") .

ويقول حكيم آخر : (لقد كانت الدولة الروسية حتى اليوم. دولة عسكريـة ، وبعد هذا ستظل هكذا ولابد مـن الحرب للدولة الروسية دائماً .

وإذا ما احـتجـت الدولة الإنجليزية على ذلك ، فـإن الدولة الروسيـة سوف تهز آسـيا كلها) . ويقـول أحد السفـراء الإنجليز المشهورين : (أيها الانجليز انظروا كيف أن الدولة الروسية تقترب منكم يومـياً وكـيف تحـاصركم مـثل أمـواج البحـر ، إن الدولة الروسـية تزحف نحـونا بشكل دائم وبدون أن تتحـرك فى شكل ظاهر، وقريباً ستصل إلى تلك الخـزائن التى افتخرتم بها وإذا لم تهبوا على الفور لنقف فى طريق الدولة الروسـية فاعلموا يقيناً أن وقت استيلاء الدولة الروسية قد حان) . ومنذ عشرين عاماً كتب حاكم "الهند" رسـمياً إلى الدولة الإنجـليزية وبعد ظهـور القرائن المؤكدة يقول : (وفقاً للميثاق الذى عقدناه : لا مجال للشك قط فى أن الدولة الروسية تحاول الإفساد وتوسيع نطاق استيلائها حتى حدود الهند) .

ويقول مؤرخ مشهور أيضاً : (إن الدولة الروسية فى محاولة دائبة للإفساد فى الممالك الأسيوية ومن تلك الناحية فإن الدولة الإنجليزية تحاول ليل نهار إفساد هذه الفكرة لدى الروس وتزحف هاتان الدولتان من الناحيتين معاً وليس هناك من شك فى أنه عن قريب سوف تكون آسيا مركزاً للتنافس التجارى والعسكرى بين هاتين الدولتين الكبريين) .

ويقول مؤرخ آخر : (إن كرَّ الزمان أضاع قضايا ومسائل هامة كثيرة ، لكن مسألة الشرق لازالت قائمة وهى تتفاقم يومياً وبعد هذه الأفكار الجليلة والقدرات العظيمة والخطط الجسيمة سوف تتركز أنظار العالم كله حول هذه المسألة ومن هذه الناحية فإن الدولة الروسية قد بلغت ذروة الاستعداد من أجل تنفيذ مخططاتها الكبرى . ومن الناحية الأخرى فإن الدولة الانجليزية فى اضطراب تام ، وذلك لمحاولة افساد التخطيط الروسى وينبغى أن ننظر متى وكيف سينتهى تنافس هاتين الدولتين الكبريين) ؟

ويقول أحد الوزراء الفرنسيين المشهورين للغاية : (انظروا إلى مسرح التنافس العقلى والعسكرى الرهيب ، اذ أنه إمتد من حدود الصين حتى البحر الأبيض بين هاتين الكتلتين المتنافستين وقد جعلت الدولة الانجليزية كل مكان فى العالم مسرحاً للحرب والقتال من أجل دفع الحملة الروسية من قعر العالم حتى سواحلنا

وانظروا إلى هاتين الكتلتين الكبريين ، بأية حيلة تعـدان خنادقهما وحصونهما وبأى شكل تزحفان معاً) .

ويقول أحد السفراء الانجليز :

(لقد وقفت دولتا الروس والإنجليز فى مواجهة ، وذلك من حدود "الصين" حتى "إسلامبـول" وتترقب كل دولة منهما تحرك الدولة المنافسة الأخـرى ، وقد قطعت السـياسة الـعالمية لـهاتين الدولتين مـسافات طـويلة . واستـقرت فى وسط آسـيا . والآن فإنهـما قد إقـتربتا من حـدود بعضهـما البـعض . وكل منها لا تستطيع أن تخطو خطوة واحدة نحـو الأخرى ، مع ملاحظة هذا أنهما لا تلتقيان معاً أبداً والدولتـان مجبرتان على توسيع ممالكهما وهذا التوسـع فى الممالك ضرورة لازمـة لبقـائهما . وقـد بلغت الدولة الإنجليزية الذروة فى التوسع ولكن التوسع الروسى لم يبلغ الحـد الطبـيعى له حـتى الآن . ولا يخـفى على أحـد أن هاتين الدولتين سوف تشـتركان معاً عـن قريب فى الاستيلاء عـلى آسيا وسوف يتعلق مـصير راحة العـالم بهذا التنافس والنزاع ، وهناك مثال على ذلك إذ أن صراعـات هاتين الدولتين قد تجاوزت حدود العالم ، ويمكن القول إنه على الرغم من أن حرب الدولتين المشار إليهما قد تبدو خفية إلا أنها فى قمة العنف) .

ويقول أحد الساسة والعالمين بمجريات الأمور فى شأن مسألة الشرق : (يتضح من قرائن الأمور أن العالم عبارة عن تنافس عظيم وحشر كبير للدول ، وستتنازع دولتا الروس والإنجليز على الحكم فى آسيا واللتان هما طرفا النزاع فى المنطقة ، وسوف يصطدم الجنود الروس والإنجليز على تلك السواحل والتى كانت محل عبور الإسكندر والأمير تيمور وبابرشاه [1] ، وسوف يتدفق الكثير من الجنود فى وديان أفغانستان وصحارى الهند وفقاً لإشارة صادرة من "بترسبوغ" ولندن ، ومع القدرة الفائقة لهاتين الكتلتين اللتين ستشنان الحملات ، إلا أن القدر قد يتدخل ويفصلهما عن بعضهما ، وذلك بسبب الجبال الشاهقة والصحارى الشاسعة والبحار العظيمة ، وسوف تكون "أوروبا" و "أفريقيا" جزءاً من هذه الحرب ، وفى كل ناحية من العالم لن تبقى منطقة إلا وتتأثر من هذه الصراعات المخيفة والمكافأة على هذا الفتح العظيم . والذى هو حقاً جدير بكل سعى وكد وتضحية هى حكم آسيا ، ويصيح أحد الحكام الانجليز فى العالم المضطرب ويقول : (فى صوت عال استيقظوا أيها الوزراء الإنجليز وافيقوا يا ممثلى

(١) بابرشاه : هو ظهير الدين محمد بن ميرزا عمر شيخ بن سلطان بن تيمورلنك ولد عام ٨٨٨ هـ ، وأسس دولة المغول فى الهند وقد حكمت هذه الأسرة مدة ٣٣٢ سنة ومن سلاطينها المشاهير أكبر شاه وأورنك زيب .

- وهخدا : لغت نامة ، جـ ٨ ، ص : ٩٥ .

الشعب . . . أيها الساسة ويا أرباب السيف عجلوا على الفور للتصدى الروسى) ويمكن أن نستنبط من هذه الأقوال المتضاربة إلى أى حد بلغت الخلافات والصراعات الروسية الانجليزية وإلى أى حد تقلق نتائج هذا النزاع عقلاء العالم ولاشك أنه ليس هناك فى عالم السياسة مسألة أكبر وأعجب من خلاف هاتين الدولتين .

وإذا أردنا أن نبين أسلوب المستقبل لهاتين السياستين المتضادتين، ينبغى علينا أن نرى ماذا صنعت هاتان الدولتان من أعمال ومن أى الطرق تقدمت فى الفترة الماضية وكل من كانت له معرفة بعلم الجغرافيا أمكنه أن يعلم أن مركز صراع الدولتين هو سواحل نهر (أتك) ، وهو طريق عبور عدو الهند من أرض "إيران" وأفغانستان" وإفساد مخطط الانجليز على أيدى الروس ليس من هذا الطريق ، وقد شكل نفس هذا الطريق دائماً نوعاً من عدم الاستقرار للدولة الانجلزية ، وأول من لفت نظر الدولة الإنجليزية لأخطار هذا الطريق هو نابليون الأكبر ، ولم يهدف المشار إليه إلى أى شيء من حملته على (مصر) سوى السفر للهند ، ويقول نابليون نفسه : حينما نجحت خطتنا فى (مصر) ، كان يتجمع حولنا عند نهر الفرات مائة ألف شخص ، وفى نهاية الخريف كنا قد تحركنا إلى الهند .

وبعد عودة جنود "فرنسا" من "مصر" سقطت فى أيدى الإنجليز أوامر نابليون ومخططاته فى حرب (بتوصاحب) ، وقد كتب حاكم "الهند" فى هذا الصدد إلى دولته التابعة ما يلى :

الآن أقرأ هذه الأوامر وأشعر فى نفس الوقت بخيفة لا حدود لها وينبغى أن نشكر الله كثيراً الذى نجّانا من هذه الأخطار العظيمة ، وبعد العودة من "مصر" لم ينس نابليون أيضاً فكرة السفر للهند.

فحينما كان القنصل الأول نابليون ، فقد ذكر خطة هذا السفر للإمبراطور (بولس) [1] والد الإسكندر الأول ، وبعد ذلك أصبح هو نفسه إمبراطوراً ، اذ جدد الخطة المذكورة مع الاسكندر نفسه ، والآن فإن مخطط هذين الإمبراطورين يعتبر جاهزاً ، ولكن فى ذلك الوقت كانت دول الغرب غافلة عن أوضاع إيران وأفغانستان تماماً ولكن اليوم فبالنسبة للسفر للهند فلدينا معرفة مفصلة وخطط كاملة والتى يبدو فيها خطة نابليون الناقصة ، ولكن خطة نابليون تعد أساس خطط المتأخرين ، لهذا سنذكر هنا الخطة المذكورة ، خطة نابليون الأكبر فى حملته نحو الهند والغرض من السفر للهند وكما يقول نابليون : (ينبغى أن نخرج إنجلترا تماماً من الهند ونخلص سكان هذه الممالك المليئة بالخير والنعم من طوق الانصياع للإنجليز ، ونفتح أسواقاً جديدة من أجل ازدهار الصناعات والتجارة للشعوب الغريبة ، وعلى الأخص المنتجات الفرنسية ، وهذا هو الغرض من السفر للهند [2] ، والذى سوف يصبح باعثاً على الفخر الأبدى وسينال رؤساء تلك الدول والذين هم مؤسسو مثل هذه الأسفار ، الأثر الجليل .

(١) بولس الأول ، قيصر روسيا من عام (١٧٩٦ - ١٨٠١ م) .

(٢) لعل هذا يفسر لنا التنافس الاستعمارى بين إنجلترا وروسيا فى إيران،اذ أن كل دولة منهما كانت تأمل أن تفتح لنفسها سوقاً جديدة فى إيران ما يكون باعثاً على ازدهار تجارتها ومنتجاتها.

اتفاق دولتى فرنسا وروسيا على السفر للهند على النحو التالى

سوف تتجه كل من روسيا وفرنسا بعد تشكيل سبعين ألفا من الجنود الى سواحل نهر (اتك) وسوف يوطد إمبراطور النمسا العلاقات مع فرنسا وذلك من أجل تيسير عبور الجيش الفرنسى من أرض النمسا حتى ينزل الجيش الفرنسى من نهر (طونة) إلى ساحل البحر الأسود وبمجرد تنفيذ مخطط الحملة هذه ، سيتمكن إمبراطور الروس من تجميع خمسة وثلاثين ألفا فى (حاجى ترخان) وسوف يكون من بين هذا الجيش خمسة وعشرون ألفا كجيش منظم وعشرة آلاف كفرق عسكرية وسوف يشحن هؤلاء الخمسة والثلاثون ألفا على متن سفن وذلك على جناح السرعة ، حيث يحملون إلى (استراباد) وهناك سوف ينتظرون مجىء الجيش الفرنسى ، وستكون استراباد معسكرا لهذه الجيوش جمعاء وهناك سوف تعد جميع المتطلبات والمؤن العسكرية وستصبح مدينة استراباد مركزا للالتقاء والعلاقات الهندية الروسية الفرنسية .

هذا هو طريق عبور الجيش الفرنسى

سوف يكون الجيش الفرنسى قوامه خمسة وثلاثين ألفا من الجنود فى هذا السفر ، وسوف يشحن على متن السفينة خمسة وثلاثون ألفا من الجنود فى نهر « طونه » ، وسوف ينزلون عند

بوغاز النهـر المذكور ، وهناك سوف يسـتقلون السفينة الروسـية ، ويعبرون البحر الأسود ، وينزلون عند مدينة (تكان روك) .

وسيعبر هؤلاء الخمـسة والثلاثون ألفا من سواحل نهر(دون) وستـصل الفرق العـسكرية والتى أسـمـها (بياتى ازبيـانكا) إلى مـدينة صغـيرة ، وهناك سـيعـبرون أيضـا من ضفـة (دون) ، ويذهبون من الـطريق البرى الى مدينة (سـارسين) ، والتى تقع على الساحل الأيمن من نـهر (آتل) وفى هذه المدينة سيـشحنون على متن سـفينة الى (حاجـى ترخان) ومن حاجى تـرخان الى بحر الخزر .

وهناك سـيعبـرون من مدينـة (استرابـاد) ومدة هذا السـفر بالنســبـة للجـيش الفرنـسى من بلادهـم حتـى بوغاز نهـر طونه عشرون يوما .

فمن بوغاز نهر طونه حتى تكانروك	ستة عشر يوما	١٦
ومن تكانروك حتى (بياتى ازبيانكا)	عشرون يوما	٢٠
ومن (بياتى ازبيانكا) الى سارسين	أربعة أيام	٤
ومن سارسين حتى حاجى ترخان	خمسة أيام	٥
ومن حاجى ترخان حتى استراباد	عشرة أيام	١٠
ومن استراباد حتى نهر اتك	خمسة وأربعون يوما	٤٥
	المـدة كـلهـا :	١٢٠

وعلى هذا النحو ستكون مدة سفر الجيش الفرنسى أربعة أشهر ونضع خمسة أشهر أخرى اضافية ، وذلك لاتساع تحرك الجيش فى هذا السفر وأ سلوب هذا السفر على النحو ، (سنترك بعض الفقرات الزائدة فى هذا الفصل وذلك بغية الإيجاز) :
اذ أنه سنترك الجياد ودار المدفعية على أول ضفة نهر طونه ومع ذلك ستحمل الأشياء الثقيلة وما الى ذلك ، وسينقل خبز لمدة شهر من أجل الحرب ، وسيقدم أصحاب المناصب العسكرية قافلة المؤن وسيلحقون بمؤن الجيش فى منازل بالطريق ، ومن أجل عبور ضفاف نهرى (دون) و (آتل)[1] سيعدون ما يلزمهم من الكبارى والسفن ، وينبغى أن يكون قواد الدولتين قد أعدوا الأشياء التالية فى (استراباد) قبل مجىء الجيش ، فأولا : سينقلون المؤن والمهام العسكرية المختلفة كدار مدفعية قلعة (كوب) ، وكذلك المؤن والمهام العسكرية من دار السلاح فى مدينة (حاجى ترخان) و (قازان) و (ساراتوف) .

ثانيًا : سينقلون الجياد من أجل حمل المدافع والأسلحة المختلفة .

(١) آتل : اسم نهر كبير ينبع من جبال (آس) والبلغار ويصب فى بحر الخزر .
- وهخدا : لغت نامة ، جـ ١ ، حرف (أ) ، ص ٤١ .

ثالثًا : سـينقلون الدواب والمناجيق ، وذلك لـكى تحمل هذه الدواب الكبارى ومعدات الجيش .

رابعًا : وقـد قصر امتطاء الجـياد على فرسـان الجيش ، تلك الجياد التى يمكن شراؤها والحصول عليها من أى مكان .

خامسًا : إعداد مـعدات المعسكر ، وذلك من قبيل لوازم هذه المعدات وما تحتاجه .

سادسًا : كما حددت مـخازن المهمات العسكرية من قلنسوات وأحذية وقـفازات للجنـود ، حيث ينبـغى شراء هذه الأشـياء من مكان ما .

سابعًـا :كما حدد مـقر لصيدليـة تكون بها كل الأدوية والتى يمكن شراؤها من أحد الأماكن .

ثامنًا : مـخـازن الأرز واللوبياء والـدقيق واللحـوم المملحـة والزيت والخمور .

تاسعًا : وقد حددوا الثيران التى ينبغى شراؤها من مكان ما .

عاشـرًا :مخازن الشـعير والعلـف الجاف ستـجلب أيضا من مكان ما .

وضع تحرك الجنود المؤتلفين

قـبـل مجىء هذين الجـيشين لاسـتراباد ، سـيتـحرك قـواد الدولتين المشار اليـهما ليخبـروا رؤساد تلك الممالك والتى سيـعبر

الجيش منها ،يخبروهم بالأفكار التالية وسأكتب من باب الاختصار فحواها : من خلال إعلان الأسماء وحسن السلوك والتعقل والصدق فى القول ، يقينا أن أولئك الخوانين والذين هم فى عرض الطريق لن يمنعوا عبور الجيش المشترك ، وعلاوة على هذه الملاحظات لن يكون خوانين هذه الممالك قادرين بحال من الأحوال على منع أو دفع هاتين الدولتين المؤتلفتين ،وسيكون بصحبةقواد الدولتين مهندسون مناسبون والذين سيرسمون خططا للطرق والممالك التى سيجتازونها ومحل المعسكرات والضفاف التى ينبغى عبورها ، وكذلك المدن التى ستقابلهم فى طريقهم ، وكذلك الأماكن التى تشكل عقبة فى حمل ونقل الأسلحة والمدافع وسيقدم هؤلاء المهندسون خططا وخرائط لهذه الأشياء ،وكذلك سيقدمون الحلول للصعوبات التى تعترضهم فى الطريق .

وحينما تدخل أول فرقة من الجيش الفرنسى استراباد ، ستتحرك أول فرقة من الجيش الروسى وستتحرك فرق الجنود المؤتلفين حيث تفصل كل فرقة منهم عن الأخرى مسافة قدرها خمسة أو ستة فراسخ ، وسيتقدم الجيش فى كل مكان أربعة آلاف من فرق القواذق وعدد من الجنود المدججين بأسلحة خفيفة وسيعقب أولئك فرقة صانعة للجسور .

وينبغى أن تقيم فرق الطلائع الجسور على ضفاف الأنهار عند الضرورة ، وأن تقوم بتخريب الجسور الأخرى ، كما يجب أن يواظبوا على الاستطلاع لحراسة الجيش ، كما أن الدولة الفرنسية بقيادتها للجيش فأنها ستجلب من المنتجات الفرنسية الكثير من الأسلحة مثل البنادق والطبنجات والسيوف وغيرها ، والساعات سواء الجيب أو الحائط والمرايا الكبيرة وقماش الجوخ الفاخر فى ألوانه المختلفة كالأحمر والوردى والأخضر والسماوى والتى تقبل عليها شعوب آسيا إقبالا شديدا ،وعلى الأخص الإيرانيين .

وينبغى على الدولة الفرنسية أن تطرح الأقمشة الحريرية وكذلك الستائر الحريرية فى ألوانها وأشكالها المختلفة ، وسائر المنتجات والتى تجد رواجا أو اقبالا على شرائها من تلك الشعوب ،كل ذلك فى أسلوب مهذب ، وذلك حتى تضمن لتجارتها الرواج والانتشار بحيث يؤكد هذا على عطاء الدولة الفرنسية وقوتها ، كما يجب عليهم أن يقيموا فى تلك المناطق ممرا للتجارة من أجل المستقبل وينبغى أن يكون فى هذا السفر العلماء والحرفيون من كل صنف ، وستوفر الدولة الفرنسية جميع الخرائط والكتب التى ألفت فى وضع الممالك والطوائف الواقعة فى عرض الطريق من أجل اطلاع هؤلاء الأشخاص عليها وينبغى أن يكون فى هذا السفر البهلوانات والأفراد الذين يجيدون الألعاب النارية فى الاحتفالات ،وينبغى على الجنود المؤتلفين هؤلاء أن يستولوا على المحافل الكبرى قبل تحركهم ، وذلك من

أجل اظهـار قدرة الدولتين الفـرنسيـة والروسيـة ، كمـا يجب أن يقســموا الجيش على معـارك سبعة وبعـد هذه الانجازات لن يكون هناك أدنى شك فى تحـقـيق أهدافـهم ، لكن هذا الزحف سـوف يكون مرهونا بذكاء قواد الجيش وكذلك مـدى غيرتهم وشجاعتهم واتحادهم ، وحـينما يصل الجنود المؤتلفون هؤلاء الى أول ضـفة نهر اتك ، سيكون هذا حـينئذ أساس التحـرك العسكرى وأساس مـشاكل هذه الحـملة هو طول مـدة السـفر ، وسـوف تزول هذه المشاكل والصعـوبات أمام غيرة الجنود الفـرنسيين والروس وكذلك شجاعتهم وجندهم ، وقـد جاء « نادرشاه » الى « استراباد » من نفس هذا الطريق بعدد كبير من الجنود من « دهلى » فلا يمكن أن نشك أن العـمل الذى أنجزه آسـيوى واحـد لا يستطيع أن ينـجزه جيشا فرنسا وروسـيا ، وفى نفس الوقت الذى أخذ نابليون يفكر فيه للتخطيط لهذه الحملة ، كان يفكر (شاهزمان الأفغانى) أيضا فى هذه الفكرة حتى يتوجـه الى دهلى بأربعين ألفا من الجنود من أجل إخضـاع الهند من خلال طريـق « البنجاب » وحيـنما وصل خبر استعداد (زمانشاه) الى مسامع الإنجليز ، أرسل حاكم الهند فى هذا العالم المضطرب وذلك عـلى جـناح السرعة ، أرسـل (ملكم صاحب) مع برنامج عمل ضخم الى إيران .

خلاصة برنامج العمل للسفير المذكور

ينبغـى عليكم أن توقفـوا حملة زمانــشاه بما تيســر لديكم من الوســائل ، وذلــك بتــوسط الدولة الايرانيـــة بين الطرفين ، ولا تسمــحوا بأن يهــاجم الأفغــان الهند ، واذا ما تحــركوا نحــو الهند فينبغى حينئذ أن تدبروا الأمــر ، وذلك كأن تشغل الدولة الإيرانية زمانشاه بملك الأفـغان بحبث يضطر زمانشــاه الى العودة والعدول عن الحملة .

وعلى الأقل حــتى لا يفكر فى إخــضاع « الهند » مــدة ثلاث سنوات أخرى ، ويقول (ملكم) نفسه فى الكتاب الذى كتبه فى وضع السياسة آنذاك :

لقد تحقق الغرض من مهــمة (ملكم صاحب) أكثر مما ينتظر منها وليس فقط أن سفير إنجلتـرا آثار الدولة الإيرانية حتى تتحرك نحو « خراسان » وذلك لتجبـر (زمانشاه) حتى لا يفكر ثانية فى غزو الهند ، بل وحث شــاه إيران على أن لا يسمح لأية دولة من الدول الأجنـبـيــة بــالمرور من « ايران » ، وأن يجــعــل الدولة الإنجليزية هى المستفيدة وحدها ، ويقول مؤرخ آخر فى صدد هذه المباحثات الجديدة : لقد تحــقق الغرض من مهمة ملكم على وجه أكمل ، وشــغل زمــانشاه المســكين بأفــغانســتان أكــثر ممــا كــان ينتظر الإنجليــز ومنذ ذلك اليوم وحــتى الآن حيث تمر ســتون سنة

ولا تزال أفغانستان لم تتخلص من هذه الاضطرابات ، ومن جراء هذه الاضطرابات أفنى أربعة ملوك أفغان وعشرون قائدا كبيرا ، أفنى بعضهم البعض فى ارتكاب أعمال ظالمة ، فى حين أنهم قبل ذلك كانوا مواطنين تجمعهم القرابة والإخوة ، وبدون أن يعوا ذلك فقد سفكوا دم خمسمائة ألف من المسلمين وذلك بتحريض من السياسة الإنجليزية ، وهذه المصائب الكبرى والتى جعلت أفغانستان تغرق فى دمائها فى هذه الفترة يسمونها بالمصطلح السياسى (انشغال الدولة) .

ولو أن حكام دولة ايران كانوا على علم بمصطلحات هذا العصر كلها ، فيقينا ما تعجلوا بإنهاء مهام ملكم صاحب بهذه السرعة .

ويقول شخص آخر وهو من الساسة المخضرمين : (لقد جعلت الدولة الإنجليزية إيران تثق فى وعودها المختلفة فى شأن تقدم سياستها ، ولكن إنجلترا نفسها حينما استراحت من عزل زمانشاه عن « أفغانستان » ، لم تفكر بعد فى « إيران » وفى تلك الأثناء دارت مفاوضات بين ايران ونابليون وفى نفس الوقت فقد وطد الفرنسيون علاقاتهم بإيران ومن ثم فقد أبدى الإنجليز محبتهم تجاه إيران من جديد ، وقد عكرت مهام الفرنسيين صفو سياسة الإنجليز فى إيران . حتى أنهم استبدلوا سفيرى السفارتين بسفيرين آخرين فى « إيران » وبدون أن يكون حكام الدولة

الإيرانية علـى دراية بأغراض الحلفـاء ونواياهم ، استـجاب حكام ايران الى نداء مال الإنجليز وأخرجوا موظفى نابليون جميعهم من إيران ، ونظراً للتصرف الأحمق هذا ، من قبل الدولة الإيرانية ، فقـد تخلفت سيـاسة إيران مـائة سنة الى الوراء ، بل ربما قـضوا على دولة إيران فى ذلك الوقت ، وقد كان لنابليون من المفاوضة والصداقة مع إيران هدفان :

الهدف الأول : أن يحقق السـفر للهند ، والثانى : أن يضم الدولة الإيرانية الى صفه فى الحـرب الروسية . وقد تضمن هذان الهدفان لنابليـون أعظم مصالح إيران ، وفى الواقع لم تكن هناك سيـاسة أفضل من سيـاسة نابليون مع الدولة الإيرانيـة ، ولما كان إفسـاد أمر الروس عن طريق الاستـيلاء الفرنسى منافـيا للسيـاسة الإنجليـزية ، لهذا فـإن الدولة الإنجليـزية قد حـالت دون تحقـيق الوحدة الفـرنسية ، وذلك بصلحهـا المؤقت مع الدولة الإيرانية ، وأنهت النزاع الإيرانى الروسى عن طـــريق المعـاهدة التى تمت في « الكلستـان » . وفى نفس الوقت فقد كـانت السياسـة الإنجليزية المضطربة تعـارض تماما السـياسـة الفرنسـية فى إيران ، وقـد كان الساسة الإنجليز مشـغولين بنفس الاضطراب فى أفغانستان وأقاليم « السند» كما أن المعاهدات التى عـقدت فى تلك الأثناء كانت كلها تقوم على هدف واحد . وفـيما يلى فقـرة من هذه المعاهدات وقد كانت معاهدة إيران وإنجلترا عام ألف وثمانمائة وتسعة للميلاد .

بعض الفقرات من المعاهدة الإيرانية الإنجليزية والتى عقدت عام ١٨٠٩ م

البند الثالث : لن تسمح الدولة الايرانية بأن يمر أى جيش أجنبى من الأرض الإيرانية أو يشن حملة على الهند أو على أى ميناء من موانىء الهند ،وفى معاهدة أخرى مؤرخة عام ١٨١٤م .
البند الأول : اذا ما أرادت أية دولة من الدول الأجنبية أن تهاجم مملكة « الهند » سواء عن طريق خوارزم أو تتارستان أو بخارى وسمرقند أو من خلال أى طريق آخر ، تتعهد الدولة الإيرانية بما لديها من قوة سواء بقوة الجيش أو عن طريق المفاوضات مع السلاطين وحكام الممالك الواقعة فى عرض الطريق أن تمنع الهجوم المذكور .

معاهدة الدولة الإنجليزية مع أمراء السند

البند الرابع : لن يسمح أمير السند أن يستقر الفرنسيون فى ممالك السند ، ومعاهدة إنجلترا مع شاه شجاع أمير أفغانستان مؤرخة عام ١٨٠٩ م .

البند الأول : ولما تحالفت الدولتان الفرنسية والإيرانية على الحكم المشترك فى إمارة الأفغان ، وجب على حكام الدولة الأفغانية أن يحولوا دون مرور الدولتين السالفتين الذكر من الأراضى الأفغانية ،

وستحارب هاتان الدولتان بما أُوتى لهما من قوة : ولن تستطيعا أن تدخلا أرض « الهند » ، وبعد ذلك استراحت الدولة الإنجليزية من إيران وأفغانستان وتفرغت من الحروب الغربية ، خاصة بعد انهيار دولة نابليون ، وحينئذ رأت نفسها أمام فريسة حقيقية ألا وهى الهند، وكان مخطط نابليون قد دفن معه ، ولكن مخطط (بطرس الأكبر) كان حيًا دائمًا ، ويوماً فيوماً أخذ يكبر وقد تقدم أمر الروس فى الهند فى فترة وجيزة ، وقد اتخذ تدخلهم شكلا واضحًا ومحسوسًا ، ولم يبق هناك شك لإنجلترا فى هذا الأمر ، ولم يعد هناك أيضًا فرصة للروية والتريث ، والشىء الذى جعل إنجلترا مهددة ، إن هذا الخطر الروسى ليس له علاقة بالأخطار السابقة بأ ى شكل من الأشكال . وقد كان لكل من (بيتو صاحب وزمانشاه ونابليون) خطر مؤقت ، ولكن القوة الروسية كان لها خطر دائم ،بل خطر قومى محدق ،كما أن التفكيرالسطحى فى هذا الخطر لاطائل من ورائه، ولم يتغير هذا الموضوع بوفاة الإمبراطور الفلانى أو عزل الوزير الفلانى. وقد أخذت الدولة الروسية تتقدم أكثر كالسيل الجارف ،ولم يقف أى حائل فى مواجهة هذا السيل .وعلى الرغم من هذا الوصف بشأن هذا الموضوع ، فقد هب حكام الدولة الإنجليزية لما تقتضيه الضرورة الحتمية والسياسة القومية لتدبر الأمر بكل ما لديهم من قدرات عقلية ومادية ، وكان تدبير الأمر منحصرا فى تنفيذ الفكرة التالية :

ينبغى إقامة دولة فى تلك الأقاليم والتى تقع بين روسيا والهند بحيث تكون لديها القدرة على دفع الهجوم الروسى من ناحية ، ومن ناحية أخرى لايكون لديها القدرة على معارضة الإنجليز . ويبدو أن إيجاد حل لهذه المسألة يعتبر من المستحيلات ولكن العقل الانجليزى كان قد أوجد حلا لهذه المسألة فى ذلك الوقت فى الهند والآن ينبغى أن نرى ، كم كانت حلولا صائبة ، تلك التى فكر فيها العقل الإنجليزى فى هذا الشأن ، وقد تحملت إنجلترا الكثير من العناء والمرارة فى سبيل إخضاعها لبعض الأقاليم فى الهند . كما أن بقاء هذه الأقاليم فى حالتها الطبيعية دون أن تخضعها إنجلترا أمر مناف لمصالحها ، ولإصلاح هذين الموضوعين المتعارضين إبتكر الإنجليز نوعا من الدول والذى يطلقون عليه اسم (الدولة المنتفعة) وبالمصطلح السياسى للدولة الإنجليزية (الدولة الصديقة أو الحليفة) ، وأساس هذه الدولة الصديقة أن يخضع الإنجليز بقدر ما يستطيعون أرضاً من أقاليم الدولة المستقلة .

وقد نصبوا أحد المتصارعين على الحكم فى تلك المنطقة سلطانا على العرش ، وذلك بفضل قوتهم ولما كانت قوة هذا السلطان الجديد قائمة على الحماية الإنجليزية ، لهذا كان فرضا على تلك الدولة أن تطيع أوامر الإنجليز وذلك من أجل استقرارها وحمايتها وقد كانت العهود التى تمت بين الطرفين على هذا النحو :

تعهدت الدولة الإنجليزية على بقاء الدولة الصديقة ، أى أنها كانت تتعهد بأن تحافظ على تلك الدولة من جميع الأعداء سواء المحليين منهم أو الأجانب . وأمام هذا التعهد من الدولة الإنجليزية كانت تتعهد الدولة الصديقة بالفقرات التالية :

أولاً: تعهدت الدولة الإنجليزية من أجل الإنفاق على هذا الجزء من الضمان ، بأن تدفع مبلغا من المال فى السنة الفلانية ،
ثانيًا : على الطرف الثانى أن لا يجرى أى مفاوضة مع أية دولة من الدول الأجنبية بدون إذن إنجلترا .

ثالثًا : أن يقيم عدد من الجنود الإنجليز فى أقاليم الدولة الصديقة كمستحفظين .

رابعًا : لاينبغى للدولة الصديقة أن تزيد فى الجيش عن عدد معين .

خامسًا : ينبغى أن يكون الإنجليز أصحاب المناصب فى هذا الجيش كله .

سادسًا : سوف تحدد الدولة الصديقة الأموال الخاصة واللازمة لنفقة هذين الجيشين . وينبغى أن تكون كل نفقات هذين الجيشين تحت إمرة السفير الإنجليزى [١] .

(١) هذا يعنى التدخل السافر فى شئون الدولة التى ترضى بهذه الشروط المجحفة . فماذا بقى لهذه الدولة (الصديقة) ؟

وقـد بلغت (الـصـداقـة) أقـصـاها بين الـدولتين مع هذه الشـروط ، وقـبل هذا بعـدة سنين كـان يحكم فى الهند مـائتـان وعشرون حاكما منفصـلا وكانوا يحكمون عشرين دولة كبرى من قبـيل الممالك الآتيـة : (الدكن وكوالبـور وكلناهور وبرار والسند ومـيسـور وستـارة والبنجاب) وغـير ذلك ، وهذه الحكـومـات المتعـددة والتى يبلغ سكان كل منها من سبعة الى عشرين كرورا ، وضـرائبهـا من أربعة الى عـشريـن كرورا ، جـعلت منها إنجلتـرا حليفـات لها ، تتفـاوت كل منها فى مدى ولائهـا لإنجلترا ، وبما لدى الإنجليز من قـوة فقد اهتـموا بمراعاة مـراسم الصـداقة فى نفس الـدولة ، وقـد ارتـبطت تجـاوزات أولى الأمـر فـى تلك الحكومة كـما ارتبطت مفاسـدهم بالرؤساء الصوريين ، بينمـا كان يعود النـفع كله فى هذه الحكومة على الدولة الإنجليـزية ، ونظرا لكل هذه الأوضاع فى الهند فقد اضطر الإنجليـز أن يغيروا صداقة هذه الحكومـات شيئـا فشـيئـا الى السيطرة المطلقـة ومن بين تلك الحكومات التى دامت لفـترة أطول من الأخريات فى صداقـتها ، حكومة(حيدر آباد دكن) وهذه الدولة الكبـيرة والتى كانت بمثابة ثمانية أضـعاف الدولة الإنجليزية . اضطرت بعد الحـروب المتعددة والتقسيمات المتوالية ، اضطرت فى نهاية الأمر أن تجعل من نفسها صـديقـة للدولة الإنجـليـزية ، والآن فـقـد اسـتـراحت فى ظل الصداقة الإنجليزية لمدة سبعين عاما .

ويبلغ عدد سكانها أربعة وعشـرين كرورا ، وتبلغ ثروتها ستة عشـر كرورا . وبالقرب من (حـيدر آباد) والتى هى مقـر عرش الدكن ، تؤوى إنجلتـرا بشكل دائم عـشـرة آلاف جندى هندى . كمـا أن هناك اثنى عـشر ألفـا من جنود الدولة نفسـها تحـت إمرة القـواد الإنجليـز ، وهم مكلفـون بالحـفـاظ على الأمن الداخلى للمملكة ، كـما أن السفيـر الإنجليزى هو الذى يعين الوزير الأول لتلك المنطقة. وتصرف كل نفقات هذين الجيشين بضـمان الإنجليز من خزانة معينة وذلك بواسطة السـفير المذكور . وملك « الدكن » يلقب باسم النظام ، ونظام لفظة مخـتصرة من (نظام الدولة) ، ويدير هذا الملك شـئون الحكم فى البـلاد من عمـارة له وهو فى أريحية تامة ، ويعتبـر الإنجليز أوضاع (حيدر آباد) نموذجا للدولة الصديقـة ، ويقولون دائما نحن جئنا لإيران من أجل الـصداقة ، ومعنى صـــداقتهم مـاذكـر سـلفا ، وحـتى الآن فـإن حكـام دولة إيران لم يـسـتطيـعـوا مع وصف كل تلـك الأخطار ، لم يستطيـعوا أن يدركوا الصداقـة الإنجليزية وذلك لأنهم لم يفهـموا المعنى الحقـيقى للصداقة المذكـورة . ولا تختلف أوضـاع إيـران عن أوضاع حـيدر آباد ، وليس من الممكن أن يعـتبـر الإنجليز أن الدولة الإيرانية جـديرة بصداقتهـا ،وحينما يطلع شـخص ما على أفعال موظفى إنجلترا وأقوالهم فى ايران سيرى أنه فى الستين سنة المنصرمة كانت كل حـيلهم وأفكارهم منصبة حول تهيئـة مقومات الصداقة المذكورة ،فكان الإنجليز يقـدمون الرشاوى «للمغفور له»

الخاقان. وكانوا يتوددون لإيران وذلك عند المفاوضات الأجنبية.
وكانوا يرسلون القواد الإنجليز من أجل تعليم جنود إيران، ويعاملون حاكم فارس معاملة خاصة، وكانوا يقدمون الرشاوى إلى « ميرزا أبى الحسن » بالإضافة إلى التودد الذى كانوا يظهرونه للقائد العام، كل هذه كانت إرهاصات من أجل الصداقة الإنجليزية والآن . . . . فقد بيّنا معنى الدول الصديقة أو الحليفة وفقا للغرض الإنجليزى، ومن ثم نعود إلى موضوعنا الأصلى، فلم يجد حكام الدولة الإنجليزية مبررا للتصدى للروس، سوى أن يفرضوا الحماية على تلك الممالك الواقعة بين الهند وروسيا، ومن ثم يحمون دولتهم. وقد ذرعوا بذور هذه الصداقة فى إيران منذ أوائل حكم المغفور له (الخاقان) ولكنهم بعد فترة أدركوا أن تحقيق الصداقة الكاملة مع الدولة المشار اليها لن يكون سهلا، ونظرا لتقدم الروس فى الكرجستان والتمثيل الديبلوماسى لموظفيهم فى إيران فقد صمموا على أن يبدأوا مخطط هذه الصداقة فى افغانستان[1]. وبعد ذلك سيهون الأمر فى إيران كلها، وشيئا فشيئا يتوسعون فى هذه السياسة، وفى بداية الأمر ذهب عدد من القواد إلى أفغانستان وتركستان، هؤلاء القواد الذين يعتبرون من بين عشاق السياسة ذهبوا للتمهيد لهذا المخطط الجديد. وفى تلك الأثناء فإن الدولة

(١) إن ما ذكره المراغى بشأن السياسة الروسية فى آسيا وخاصة افغانستان وذلك منذ ما يقرب من قرن من الزمان نراه يتحقق اليوم فى افغانستان.

الإيرانية قد مهدت للسفر إلى خراسان دونما أن تكون على علم بأفكار المحيطين بها ،ولم يذهب القواد الأفغان متمسكين بالوعود الإيرانية تحت وطأة الصداقة الإنجليزيةورفض الموظفون الإستجابة لتلك الدولة ويأسوها تماما ، ولا يمكن أن نتصور كم أصاب الإنجليز من اضطراب وذعر من جراء تمهيدات الدولة الروسية وبعض تحركاتها تجاه « تركستان » . والحلية التى بقيت لسياستهم هى أن توطد صداقتها على جناح السرعة وبقوة الجيش فى الممالك الأفغانية ، لهذا فإنهم كانوا يغدقون فى العطاء لشاه شجاع أخى (زمانشاه) والذى كان منذ سنوات مجرد رجل احتياطى ، لكنهم سيحتاجونه في يوم من هذه الأيام فى الهند ، وقد استخدموا هذه الألعوبة الجديدة (شاه شجاع) لتحقيق أهدافهم ، وأغدقوا عليه الكثير من المال وألبوه على ملك افغانستان وكان ذلك أحد شروط الصداقة فى نظر الإنجليز .
وكانت إحدى فقرات هذه المعاهدة كما يلى : أن يتعهد الملك شاه شجاع وأحفاده من بعده : أن لاتتم أية مفاوضات بينه وبين أية دولة من الدول الأجنبية بدون علم انجلترا ورضاها وأن يتعهد أحفاده للإنجليز بمحاربة أية دولة بكل ما أوتوا من قوة للحيلولة دون الاستيلاء على الهند . ولما انتهت هذه المعاهدة كان الشعب الإنجليزى والدولة الإنجليزية قد أبديا سعادتهما ، وذلك بسبب تقدم سياستهما ، كما شعرت الدولة الإنجليزية بأنها أنجزت عملا عظيما ، إذ بهذه المعاهدة قد تحقق أكثر من نصف المخطط

الإنجليـزى بالشكل الذى تـريده ، ولكن فى الوقت الذى حـاول فيـه الإنجليز أن ينجـزوا النصف الآخـر من المخطط وذلك بضـم (هراه) و (بخارى) . فإن غيـرة الأفغان وحميتهم كـما سيعلم الجمـيع بالتـفصـيل قد هدمـتا كل الحـيل والفتـوحات للسـياسـة الإنجليزية ، وذلك فى عاصفة قومية عارمة[1] .

ويقول أحد المؤرخين : (لقد إقترفت الدولة الإنجليزية جرمـا عظيمـا ، ففى حـين أنهـا أرادت بـدون وجـه حــق أن تـؤلب « شاه شجاع » على أفغانستان ، ثأر الإنتقام الإلهى فى النهاية من الجشع الإنجليزى وقـد أعدم رؤساء هذا المخطط جميـعهم شنقا . كما ساق الأفغان أفواج الإنجليز من نهر اتك إلى الهند ، وأغلقوا باب الهند فى وجوههم،وكان مفتاح هذا الباب فى أيدى الروس، وبعد هذا سـوف يكون فتح الباب المذكـور تحت إمرة الروس على الرغم من أن هزيمة الدولة الإنجليـزية فى أفغانسـتان كـانت ضربة قاصمة لسياسة تلك الدولة .

ولكن الإنجليـز ليـسـوا من أولـئك الذين يغـيـرون مـخطط سيـاستهم لمجرد هذه الضـربات المؤقتة ، وقـد احتفظت السيـاسة السابقـة للدولة المشار اليـها بثبـاتها مع كل مـا لحقهـا من ضربات

(١) تمكن الإنجليز فى ذلك من إجلاس ربيبهم (شجاع شاه) على عرش افغانستان ، إلا أن إرادة الأفغـان كانت أمضـى من أسلحة الإنجليز ، إذ قـاموا قـومة رجل واحد وأخـرجوا الإنجليز وصنيعتهم من العاصمة ، كما أبادوا أيضا الجيش الإنجليزى فى « خورد كابول » .
– أحمد محمود الساداتى : تاريخ الدول الاسلامية ، ص ٢٣٦

قاصمة ، والشيء الذى تغير هو أسلوب التقدم (فى هذه السياسة) ونظام تنفيذه ،وعلى الرغم من أن أفغانستان قد ضاعت من يدها، فقد أخضعت أقاليم (السند والبنجاب) دونما جهد ، وعلاوة على ما خسرته إنجلترا فى أفغانستان إلا أنها باخضاعها للمملكتين السابقتين قد هيأت مقومات السياسة القديمة بل وبشكل أفضل وأحكام من ذى قبل ، ويمكن القول الآن إن ممالك الأفغان ، قد اصبحت تحت سيطرة الإنجليز ، وقد كان مخطط سياسة الدولة المشار اليها على النحو الذى ذكر سلفا . والآن فلنذكر بعض الكلمات عن المخطط العسكرى لتلك الدولة ، ويتضمن هذا الموضوع مسألة طبيعية ينبغى أن نعجل بذكرها ، وفى ولايات العالم الجديد ، تلك الولايات التى سقطت تحت سيطرة طوائف الفرنج ، ظهرت من ذرياتهم طوائف كبيرة فى تلك المنطقة ، ولكن لم يكن من الممكن تعايش الإنجليز وتناسلهم فى الأراضى الهندية ، بل وكان يموت كل الأطفال الإنجليز الذين ولدوا فى هذا المُلك (الهند) ، كانوا يموتون جميعا بلا استثناء ، قبل أن يصلوا إلى سن البلوغ ، وهذه الحكمة الطبيعية فى قطع النسل الإنجليزى كانت إحدى المشكلات الرئيسية فى حفظ الهند ، ويمر الآن الإنجليز فئة تلو فئة بالأراضى الهندية بعد مائة وخمسين عاما بدون أن يبقى آثر لذرياتهم فى تلك المنطقة ، أو يستطيعوا أن يكوِّنوا عددا كافيا فى تلك المناطق من جنسهم ، ولكنهم قبل أن يستولوا على البنجاب بفترة زمنية رأوا أن حياة

الجنس الإنجليزى بالفعل فى المنطقة المذكورة (الهند) سهلة وميسورة ، ولما أن ضفاف البنجاب وعلى الأخص نهر (اتك) كان يمتد من أعلى كشمير حتى أراضى السند فبحر عمان ويعد الحد الطبيعى والأعظم لسدود طريق الهند ، لهذا فقد صمم الإنجليز على أن يجمعوا كل قواهم فى أراضى البنجاب ويجعلوا نهر (اتك) حصنهم العسكرى ، ومن منطلق هذا التفكير فقد جعلوا من (بيشاور) نوعا من سياستوبول ووضعوا خطة لمواجهة العدو على سواحل نهر (اتك) ، ولكن بعد تحصين هذه الحدود رأوا أن خطة الدفاع ناقصة وغير كافية .

فأولاً : أن معسكر البنجاب كان بعيدا جداً عن مقر القوة الإنجليزية .

ثانيًا : كان ميدان الحرب قريبا جداً من الأقاليم الهندية .

ومن أجل التغلب على هاتين المشكلتين ، فقد اقترح المهندسون الإنجليز خطة جديدة أخرى والتى ليس لها علاقة بالفكرة الأولى وقد وجد المهندسون الإنجليز أن المحمرة وعربستان الإيرانيتين اللتين تقعان فى وسط طريق الهند ولندن من أفضل المنازل على الإطلاق ، سواء من أجل عبور الجنود الإنجليز أو من أجل التصدى لمهاجمة الروس أو من أجل تيسير التحرك الإيرانى أيضاً ، وكانت الخطة الجديدة تعتمد على هذا وهو أن تجمع الدولة الإنجليزية كل قواها فى العربستان والموانئ

الفارسية وبدلا من أن تنتظر الحملة الروسية على سواحل نهر (اتك) ، تستقر فى الأراضى العراقية ثم تواجه الروس فى (استراباد)[1] ولهذه الخطة كثير من المزايا .

فأولاً : إن الجنود الإنجليز يمكنهم أن يصلوا من لندن على نحو أسرع وأسهل كثيرا إلى فارس حتى البنجاب .

ثانيًا : وفقا للعلوم العسكرية سيكون قسم من هذه الحملة من جيش العدو فى مازندران وقسم آخر فى أفغانستان . وحملة كهذه أفضل بكثير من الحملة تلك السالفة الذكر ، وهذا النمط من الحملات الإنجليزية كان سيضطر الجيش الروسى أن يقوى المقاومة فى فارس وبهذا الشكل فإن الجبال والموانع الطبيعية فى فارس ستضاعف من مقاومة الإنجليز لها .

ثالثًا : حينما تهزم إنجلترا فى تلك المناطق ، سيكون فى إمكانها تجديد الحرب مرة أخرى فى البنجاب .

رابعًا : لن يجدى كثيرا تعاون إيران مع روسيا نظرا لتواجد الإنجليز فى فارس وستكون القوة الرئيسية لإيران فى أيدى الإنجليز .

الخلاصة : لقد تفوقت هذه الخطة الجديدة ألف مرة على الخطط السابقة وليس هناك أى دليل على حرب نهائية لهذه الدولة

(١) استراباد : مدينة بالقرب من ديلمان وجرجان وتقع على طرف الجبال .
- وهخدا : لغت نامة ، جـ ٥ ، شمارة (١) ، ص : ٢١٤٣

مع إيران وبالبحث فى هذا المخطط نجد أن حظ الدولـة الإسلامية وحـسن طالعـهـا قد أخّـرا من تنفـيـذ الهـدف الانجليـزى ولكن الاشـخـاص الذين يحـيطون علمـا بدقـائق السيـاسـة الإنجليـزية وتفـاصيل هذا المخطط يدركـون أن الدولـة الإنجليـزية لن تكف بهـذه السهولـة عن مثل هذا المخطط المؤسف ، والسكة الحـديدية التى يريدون أن ينشـئوها من ساحل البـحر الأبيض حتى المحـمرة وتعيين سفراء (شيراز) و (استراباد) وتعاون الإنجليز مع حاكم (مسـقط) هو نتيـجة لهذا الـذعر الشديد من اسـتقـرار الوجود الأمريكى فى الخـليج الفارسى ، وكذلك مـهمـة (رانسون) فى إيران والذى هو نفـسـه من المؤسـسين والأساتذة المعـروفين لهـذا المخطط الجديد لاشك أن هذه المهمة وتلك السياحة فى بغداد التى قام بهـا أيضا كانتـا لمجرد الإحاطة الكاملـة بدقائق هذا المخطط ، وكل تمهيداتهم وتضحياتهم الأخرى متعلقة بفكرة واحدة .

وهذا المخطط العـسكرى وتلك الخطة السيـاسيـة اللذان ذكرا سلفـا ، أصبحـا أمراً لازمـا لبقـاء الدولة الإنجليزية ، والإنجلـيز مهتمـون بهذه الموضوعات بحيث أن كل أمر يصـدر منهم فى آسيا سـواء للصلح أو للتـهـديد نـابع من تلك السـيـاسـة ، وبمنتـهى الاطمـئنان نقسم بالله إن هدفـهم البـاطنى ليس إلا تحقـيق هذين المخططين فى المدن الإيرانية .

ويعتقد بعض الأشخاص هذا (حينما يطمئن الإنجليز للدولة الإيرانية لن يضيرهم شيء أن يمنحوا افغانستان كلها لإيران ، وفي الواقع أنهم أثاروا حديثا هاما ، وبلاشك أنهم بينوا سبيل الاستقرار ، ولكنني كلما فكرت في الأمر لم أصدق هذا فالحكومة الأفغانية عندما كانت في يد زمانشاه كانت تخشى الإنجليز ، فكيف تستقر الحكومة الأفغانية حينما تضم الى إيران ؟) والآن فإننا على بعد أربعمائة فرسخ من « بيشاور» [1]، وبمجرد أن ننقل مدفعا واحدا من هراة فان الهند كلها سوف تشتبك مع بعضها البعض وبعد ذلك اليوم فإن الجنود الإيرانيين سوف يدخلون (جلال آباد) [2] ، فماذا ستكون أحوال الهند حينئذ ؟ كلما فكرت بروية في هذا الأمر أرى أنه وفقا لأى علم وأى قانون إن قوة إيران لا تكون مع الاستقرار الإنجليزى .

ومن الواضح أن الأشخاص الذين جعلوا اجتماع هذين الضدين أساسا لسياستهم هكذا يتصورون أن معنى الاستقرار الإنجليزى ينحصر فيما يقال من الفاظ منمقة وعهود موثقة من قبل الموظفين الإنجليز والذين يتملقون كما تتملق النساء ويحاولون تعكير صفو سياسة الدولة الروسية في الباطن من أجل راحة العاملين في سفارتهم .

(١) بيتشاور : مدينة كبيرة ناحية البنجاب في باكستان .
- وهخدا : لغت نامة ، جـ ١١ شمارة حرف (ب) ، ص ٧١١
(٢) جلال آباد : قرية صغيرة من قرى نرملشير .
- المرجع السابق ، جـ ١٥ ، ص ٦٧ .

نعم : فلو كان وزراء إنجلترا يكتفون بهذا الاستقرار لكانوا منحونا الهند وأفغانستان ، ولكن من الخطأ أن نصدق أن الدولة الإنجليزية كانت تحصر تحقيق استقرارها فى تلك الوسائل ، وقد روجت لسياستها هذه فى عشرين دولة هندية مستقلة ، وحينما تظهر الصداقة والاستقرار الإنجليزيان في ايران نكون قد حذونا حذو دولة حيدر آباد فى الدكن ، وقد كتب حاكم الهند أثناء سفر المرحوم محمد شاه طيب الله ثراه للإستيلاء على (هراة) [1] كتب لدولته قائلا : ينبغى علينا أن ندبر الأمر بمشيئة الله ولا نسمح بأن يعيث الوجود الأجنبى فسادا فى أفغانستان وينبغى علينا أن نسرع في التصدى لذلك العدوان ونذب عن حدودنا وقد كان لإيران وأفغانستان أثر عظيم فى سياسة الشرق .

وقد كانت أفغانستان على مر الأيام مبعث خوف أصحاب المناصب فى الهند ، وتعتبر كابل وقندهار من أبواب الهند وفى أى وقت تغلق هذه الأبواب تسلم الهند من شرور الأعداء الألداء ،ويقول أيضا حاكم الهند : (كان لابد من أجل تأمين ممالكنا فى الشرق أن نقيم فى أفغانستان حصنا بحيث يوقف الحملات التى يشنها الأجانب ولا ينبغى أن يكون للحكومة

(١) تعتبر هراه مفتاح الهند لذا أولت إنجلترا هراة أهمية كبرى وذلك للإحتفاظ بالهند فى حين كانت روسيا تختلق الفتن والاضطرابات بل والحروب مستخدمة فى ذلك ايران كاداة تحركها كيفما تشاء . أنظر :

- جنك أنكليس وايران : كابتن هنت انكليس ، ترجمة : حسين سعادت نورى ص ٧ ،٨ .

الأفغانية نفسها تلك القوة والقدرة مما يطمع اعداءنا فى التفكير فى الغزو) .

ويقول أحد السفراء الإنجليز والذى كان قبل ذلك مقيما فى ايران ، يقول فى هذا الصدد : إننى أظن ال[illegible]لة الانجليزية لايمكن أن تسمح بأن تتوسع الدولة الإيرانية فى أفغانستان لأن اقتراب إيران من الهند سيكون باعثا على الاضطراب فى ممالكنا. ويقول حاكم هندى آخر : (ينبغى أن نقيم سدا بصفة دائمة فى أفغانستان كى يوقف حملات أعدائنا سواء فى الشمال أو الغرب واذا ماسقطت هراة فى يد الدولة الإيرانية سوف تتوسع هذه الدولة (إيران) فى كل ممالك الهند) .

ويصيح اللورد (بالمرستون) فى البرلمان الإنجليزى قائلا : (تلك الكلمة التى أعتبرها طيلة حياتى وجهة نظرى أكثر من أى شىء آخر هى اذا ما كففنا أيدينا عن أفغانستان فإن معظم المصالح الإنجليزية سوف تتدهور واعلموا يقينا أنكم حينما تتركون أفغانستان اليوم سوف يأتى ذلك اليوم الذى تنفقون فيه من جديد على هذه الممالك المبالغ الباهظة وسوف تضحون فى سبيلها بالجنود الكثيرين) . ومع إدراك هذه الأفكار هناك احتمال لانعرفه هل ستعطى إنجلترا أفغانستان لايران أم لا ؟ وقد كان للسياسة الإنجليزية فى إيران أسلوب غريب والهدف واحد الا وهو الحفاظ على الهند دائما . ولكن مع ادراك وحدة الهدف للدولة الإنجليزية الا أنها سلكت فى هذا المضمار طرقا متعددة

ومختلفة بل حيلا تناقض بعضهـا بعضا ، فمثلا فى بعض الأحيان كانت السيـاسة الإنجليزية تضطر الدولة الروسيـة الى الحفاظ على الصداقـة الروسية وبعـد فترة من الوقت كـانت تعتبـر الخلاف مع الروس أمرا ضـروريا لإصلاح أحوال إيـران وأحيانا أخـرى كانت تنفق مـئات الكرورات لكى تخـرج (دوست محـمد خـان) من أفغانستان .

وفى بعض الأحيـان كانت تبـارك خطوات (دوست محـمد خان) هـذا بل وتحثـه على أن يستـولى على (قندهار وهراة) ، وفى عهد زمانشاه منحت أفغانستان لإيران ، وفى عهد ناصر الدين شاه ، تريد أن تستولى على « سيستان » من إيران .

وأثناء سفر نابليـون وحملته على موسكو وقـعت الخيانة من الفرنسـيين فى إيران وكان الروس وقـتئـذ الأصدقـاء الصادقين ، وبمجرد اشـتعال حرب (سـباستـوبول) فإن السـياسـةالإنجليزية والتى أخرجت نفس الفرنسـيين من إيران أتت بهم ثانية الى إيران وذلك لكى تثير الدولة الإيرانية بهـذه الوحدة حتى تعارض الدولة الروسـيـة . وبديهى أن صـلاح الدولة الإيرانيـة فى السـتين سنة المنصـرفة تلك كـان فى شىء واحد ، ولـم يكن لتناقضـات تلك السيـاسة أى مبرر سـوى ما تقتضـيه السياسـة الإنجليزية بدون أن تدرك الدولة الإيرانية أبعاد سياستها ، وقد كان للسياسة الإنجليزية فى هذه الفترة الـوسائل المختلفة ومع شرح هذه الـوسائل والحيل

الإنجليـزية لم يكن للسيـاحـة الإنجليـزية أى هدف آخـر سـوى التمسك بـالهند ، فمنذ بدء السياسـة حتى نهايتهـا كان الهدف هو الاحتفاظ بالهند وهنـاك فى السيـاسة الإنجليزية نكته أخـرى أكثر غرابة من النكتـة السابقة وهى جـديرة بالنظر والتأمل الا وهى أن الهـدف الانجليزى فى آسيـا هو تكوين جبـهـة مضـادة للهـدف الروسى فى تلك المـنطقـة ، فتـريد واحـدة أن تقـيم الحـصـون الحـصينة من دونهـا وتريد الأخـرى أن تبيـد كل مايواجـهها من حصون ويحـتاج تقدم الأولى الاستيلاء على الممـالك الأجنبية فى حين أن الإسـتيـلاء على الممالك الأجـنبيـة دمـار واضـمحـلال بالنسبة للدولة الثانية وتريد الدولة الروسـية أن تستولى على العالم وتتظـاهر الـدولة الإنجليـزية بأنهـا تتـرك مـعظم ممـالكهـا للدولة الروسيـة ، ولكن الأمر العجيـب أنه مع وضوح هذا التناقض فى سياسة الدولة الإنجليزية فى مدة الستين سنة المنصرمة الا أنهـا قد استـولت على أكثـر من عشـرة أضعـاف الدولة الروسيـة والدليل واضح . وبلاشك فـقد أنحـصر هدف الدولة الإنجليـزية فى هذه الفترة فـى إخضاع السواحل الهندية ونظرا لأن إخـضاع أية مملكة فى الهند كان يؤدى الى إخـضاع مملكة أخرى فوفقـا لتسلسل هذه السيـاسـة سيطرت الدولة الإنجـليزية شيـئا فـشيئـا على كل ممالك الهـنـد ، فإخضاع (مدراس) أدى الى إخضـاع كلكتا (وبنكالة) وإخضاع بنكالة أدى الى إخضـاع الدكن كما أن السيطرة على هذه الممـالك يفـتح البـاب أمـام الإنجـليـز نحـو دهلى ، وترتب على

إخضاع دهلى السيطرة على أفغانستان واقتضت هزيمة كابل فتح حيدر آباد السند وصار فتح حيدر آباد باعثا على هزيمة حكومة البنجاب واضمحلالها ولايمكن الإبقاء على (لاهور) دون استقرار الأمر فى « بيشاور » وقد أوجب وضع هذه الحدود استقلال هراة ، كما أن استقلال هراة يؤدى الى الأستيلاء على سيستان ولاشك أن نفس الضرورة التى حدت بالإنجليز على غير مايرغبون من بين عدة دول مستقلة وأتت بهم من كلكتا الى (هراة) سوف تتقدم بهم أكثر من سيستان وهذا التوسع فى الاستيلاء الإنجليزى من الشروط الجبرية للاستيلاء المذكور

ويقول ذلك السفير الإنجليزى المشهور والذى قُتل فى كابل : (إن الاستيلاء الإنجليزى مثل تلك الدائرة التى تحدث فى حوض كبير عن طريق الضرب الخارجى فوق سطح الماء وتتسع الدائرة المذكورة باستمرار حتى تُمحى فى النهاية من زيادة الاتساع ومن ثم فالاستيلاء الإنجليزى لابد مضطر إلى التوسع على الدوام حتى يُمحى فى النهاية من العالم لكثرة التوسع والتغلغل) .

وقد بينا أوضاع إيران من ناحية والآن ينبغى دراسة أوضاعها من ناحية أخرى ، ويعتبر وضع السياسة الروسية فى الشرق أمرا أوضح من الشمس ولا تخشى تلك الدولة القوية من الدول المجاورة قط وحتى اليوم لم تر من الضرورة بمكان أن تستخدم الحيل والخداع أمام آية دولة ، وتعلن السياسة الروسية فى صوت

جهورى على العـالمين (مدعية أن الله قد فـوضنى فى ممالك آسيا وإخـضاع الهند هو مـصيـرى القـومى) ولن يمنعنى أى شىء من تحقـيق هذه الهبـة الربانية ، وقـد أعلنت الدولة الروسيـة منذ بدء ظهورها هذه الغاية القومية على العالم وهى تتقدم فى هذه المنطقة منذ خـمسين عـامـا خطوة تلو الأخـرى نحو هذا الهـدف ، ولو توقفت وتراجـعت عن مسار هدفـها فهـذا الوقت وذلك التراجـع أمرا مؤقت ، وليس له أدنى تأثير على الإطلاق على تحقيق هدفها الأساسى ، ومنذ مائة وستة وثلاثين عاما وحتى الآن لـم ينته اسم الدولة الروسيـة فى تلك المناطق ، وقد سـار بطرس الأكبر ومـعه أربعون ألف مقاتل من الطرق الوعرة من أجل بدء مخطط إخضاع آسيـا ، وقد أخضع المنطقـة الواقعة من شـرقى الكرجستـان حتى مازندران ، ولكن بعد وفاة بطرس الأكـبر فإن الصولة النادرية قد أحاطت بـكل ذلك المخطط الذى رسمـه مؤسس الدولة الروسـية القوية بتـفكيره العـقلى فى منطقة القوقـاز ولكن على الرغم من هذه الهزيمة فى بادىء الأمر والهزائم الأخـرى فإن الدولة الروسية اليوم تعطـى اهتمامـا كبيـرا لمنطقة جـبل القوقاز عـشرة أضـعاف حملات (بطرس الاكبر) .

ولم تمنع الأحـداث الخـارجيـة أو الثـورات الداخليـة الدولة الروسيـة لحظة واحدة عن تقـدمها الـطبيعى ، وقـد كانت تتـقدم الدولـة الروسـية فى منطقـة آسـيا دائمـا ويمـكن القـول الآن إنها

تحاول انتزاع حكم آسيا فى صحراء (جرجان) [1] وسواحل (جيحون) [2] وحينما يبحث شخص ما عن مدى قوة الدولة الروسية فإن أول نكتة يرى أنها جديرة بالنظر هى : لماذا لم تستول الدولة الروسية على كل ممالك آسيا خلال مدة المائة والثلاثين عاما ؟

وبقاء الممالك الأسيوية وفقا لاعتراف كل وزراء الغرب لايدل الا على الخطأ الفادح الذى ارتكبته الدولة الروسية حتى هذه الأيام المتأخرة وذلك الخطأ الفادح هو أن « بطرس الأكبر » قسم القوة الروسية قسمين فوجه رأس هذه القوة نحو « آسيا » ، ووجه القسم الآخر من القوة الى الغرب ، وقد تمادى أكثر خلفاء « بطرس الأكبر » أيضا فى خطئه وفقا للمخطط الأول تدريجيا ، وقد بددوا كل قواهم على سياسة الفرنج ويجمع كل الساسة والوزراء المشاهير من الغرب على أنه لو أن الدولة الروسية قد أنفقت على « آسيا » عُشر ذلك الكد والسعى اللذين أنفقتهما على الغرب لكانت الآن كل آسيا فى حوزة الدولة الروسية ، وعن طريق إخضاع آسيا كان بامكانها تحقيق هدفها الأساسى فى منطقة الفرنج أيضا وقد خاطب حكام الفرنج

(١) جرجان : مدينة كبيرة ، تقع بين طبرستان وخزاسان .
- وهخدا : لغت نامة ، شمارة حرف (جـ) : ٤ ، ص ٣١٠
(٢) جيحون : نهر يقع بالقرب من بلخ وينتهى بخوارزم ويمر بين خراسان ومنطقة ماوراء النهر .
- المرجع السابق ، جـ ١٥ ، شمارة حرف (جـ) ، ص ١٨٦ .

الإمبراطور (نقولا) [1] ، مدة ثلاثين عاما قائلين : (ليس لك الحق فى التدخل فى شأن الفرنج والشعب الروسى مكلف بإخضاع آسيا بحكم « منزل » ونحن نصدق مهمتكم هذه ، فكفوا أيديكم عن أمور الفرنج واهتموا بإنجاز مهمتكم ولاتقربوا موضعا قط من هذه البلاد) .

ويقول أحد الساسة المشاهير والمعروفين : (إن الدولة الروسية مكلفة بحكم القدر أن تنقل حضارة ممالك الغرب الى ممالك آسيا والشىء الذى منع إتمام هذه المهمة هو أن الدولة الروسية لا تريد أن تبدو مشغولة فى آسيا بحيث تصرف النظر عن مهامها فى منطقة الفرنج) .

كما أن الدولة الروسية كان ينبغى عليها بدلا من أن تضيع جهودها على ممالك الغرب أن توجه اهتمامها نحو آسيا ولو تم هذا لأصبح الآن كثير من ممالك آسيا وعلى الأخص الهند ، أصبح فى حوزة تلك الدولة ولارتفعت الراية الروسية خفاقة فى بعض الممالك الرئيسية من آسيا وعلى ساحل نهر (اتك) وفى كلكتا ، كما أن الدولة الروسية بمقتضى وضعها الطبيعى مكلفة بحكم « مقدر » بأن تجمع بين تجارة آسيا والغرب .

(١) نقولا الأول : قيصر روسيا (١٨٢٥ - ١٨٥٥) عُرف برجعيته الشديدة ، سحق ثورة ديسمبر فى عام (١٨٢٥) .

والشيء الوحيد الذى منعها من إتمام هذه المهمة هو عدم تحضر طوائف آسيا ، وبناء على هذا وجب على الدولة الروسية أن تغير من أحوال الطوائف المذكورة قسرا . كما أنها توسع من نطاق استيلائها يوما فيوما فى تلك المناطق . إذ أنه يجب بل وينبغى أن تنشر حضارة الغرب فى تلك المنطقة .

ويقول عالم آخر : (يجب على الدولة الروسية أن تعمل على رقى الممالك الآسيوية وأن تنهل هذه الممالك من معين نعم حضارة الغرب ويدعو الأسلوب الراقى للعقلية الروسية همة الدولة العظمى أن لاتكف عن هذا الاتجاه وينبغى على الدولة الروسية أن تخضع الممالك الأسيوية وأن توجد مقومات الحضارة فى تلك المناطق أما بقوة التجارة أو السلاح أو السياسة ، ويقول حكيم نمساوى : (إن للدولة الروسية حق ذلك وإصلاحه ، وواجب على عاتق تلك الدولة أن تسيطر على ممالك وسط آسيا وأن تضىء تلك المناطق المظلمة بنور التحضر والمدنية) .

ويقول كاتب فرنسى : (ينبغى على الدولة الفرنسية أن تعاضد الدولة الروسية حتى تخضع مماليك آسيا ، وقد وقفت الدولة الروسية في مواجهة دول الغرب وأيضا فى مواجهة الحكومات الأسيوية ولكن الدولة الروسية انفقت خزائنها كلها من أجل تقدم سياستها فى منطقة الغرب ولو أن الدولة

المشار اليها وجهت جزءا من قـوتها من سواحل بحر البلطيق حتى بحر الخـزر لكان فى حوزتها الآن مـن موانىء الصين حتى البـحر الأبيض ، ولكن (نقولا) إمـبراطور الدولة الروسية نظرا لطـبعه الغيـور وتنافسه ونـظرا لخطأ تلك الحملة الكبـرى والتى وصل بها الى التدخل فى شئون السياسـة الغربية ،لم يستطع أن يتخلف عن درب أسلافه ولكنه تخلص من مساوىء خطئه القديم بهذا الدرس الأخيـر من قبل الـدولة المشار اليـها (فـرنسا) ،كمـا أنه الآن لا يتـدخل فى شئـون دول الغرب باسـتـثناء مراقـبة أوضـاع الدولة الفرنسـية وخلافا لما سبـق فاليوم تقصر الـدولة الروسية اهتمـامها على أوضاع آسيا .

ولما أن أوضاع إيران هى مـثل أوضاع الشعب الإنجليـزى وقد ظهر من بين الإنجليـز من يلفت نظر الشعب الى هذا الأمـر ، فأنا أيضا كالكاتب الإنجليزى أخـذت أصيح قائلا : (ياولاة الأمر فى الدولة والشـعب الإيراني ... انهضوا ... وياحـكـام الإسلام هبوا من السبات العميق الذى ينذر بهـبوب عاصفة شديدة وخراب وشيك من المستحيل دفعهما) .

والآن فقد عاد ذلك السيل الجارف للقوة الروسية من الغرب متـجهـا نحو آسيـا وتلك الاخطار التى لوحظت من قبـل الإنجليز لاتقـارن بشيء أ مام هذا الخـطر العظيم فاليـوم من الممـكن أن تنتهى دولتنـا وشـعبنا بضربة بسـيطة وذلك بإشـارة واحـدة من

(بطرســبورج) [1] ، ومن ثم تنتهى حــياتنا الســياسيــة تماماً ولن أشــرح الطريق والهدف الســياســى الروسى بأكثــر من هذا وهدف سياســة الدولة المشار إليها واضح جدا ، وطــريق سيل البلاء هذا واضح ومحدد للغاية وينبغى على الدولة الروســية أن تتوجه حتما الى الهند ، ولايخفى هدفــها على أحد ، وكل وزير ينكر هدفــها هذا هو كالشخص الأنانى المحب لــذاته والغارق فى الراحة والتى يفضلها عن تقصى الحقائق ، وكل من يدعى الغيرة ويهمه مصلحة الدولة فليتــهيأ للقاء سيل الاســتيلاء الروسى وليس ببعــيد أن ينكر بعض الأشخـاص فى « إيران » نظرا لعدم نشر المـعلومات ، ينكر إمكان الحــملة الروسيــة على « الهند » ، وفى هذه الصدد يــقول شــخص ذو منصب مــعــروف : (إن الوزراء المشـاهير وخـاصــة الأفــراد الذين يحيطون علمًــا بشــأن هـذه المسألة يقــرون جمــيعــا بإمكان وسهولة هذا السفر للهند) .

ويقــول أحد حكام الهند فى خطاب رســمى : (إنى لا أرى أية عقبة تمنح حملة العدو على الهند وبناء على هذا ينبغى علينا أن نكون على حيطة وحذر ، فلا نغفل عن مواجهة هذا الأمر).

ويقول حاكم آخر :(إننا بينا لعدونا طريقه الى الهند وذلك عن طريق سفرنا إلى أفغانســتان وأظهرنا كم هو سهل طريق الهند)،

(١) بطرسبورج : تسمى الآن (لينين گراد) ، وهى مدينة تقع عند مصب نهر(نوﻻ - وهخدا : لغت نامة شمارة حرف (ب) ، ص ١٢١

ويقـول شـخص إنجليـزى ذو منـصب : (كـان يظن الأولون أن أساس المشكلة فى الحـملة الأجنبية على الـهند سيكون فى ممالك الأفغان ، والى عدة سنين كان هذا الاعتقاد صحيحا ولكن الدولة الإنجليزية نفسها تحملت المشاق وأنفقت الأموال وضحت بالأرواح حتى ذللت تلك المشـكلات المتـوقعـة عن طـريق حـملتهـا على أفـغانسـتـان وقد أدرك الجـميع أن عـبـور جيش جـرار من أفغانستان الى الهند فى غاية السهولة واليسر .

ويقول مهندس فرنسى : (ظـل إمكان عبور الجيش الروسى على ساحل نهر اتك لفتـرات موضع جدال ولكن منذ أن سقطت بحـيـرة (آرال) [1] فى حـــوزة الروس أخـذ ينظر حـكام الدولة الروسية الى إخضاع التركستان) .

ولم يبق هناك مجـال للشـك لدى أى مهندس عسكرى فى إمكان السفر وسهولته ، وكل من عرف الأوضاع الحقيقية للجيش الهندى لايمكـن أن يصـرف النظر عن تلك الهـزيمـة الكبـرى التى ستـلحق بالجيش الهندى ، وفى ذلك اليـوم سيلتـقى وسط آسـيا الجيش الهندى بالجنود الروس) .

ويكتب أحـد العلماء المشـاهير والذى قـضى فتـرة طويلة فى الهند مشغولا بدراسـة إمكانية المحافظة على هذه الممالك ، يكتب

(١) آرال : اسم بحيرة كبيرة ومشهورة ببحر الآرال فى تركستان الغر بية .
- وهخدا : لغت نامة ، جـ ١ ، شمارة حرف (أ) ص ٦٥ .

فى صـــدد إعــداد الحـمـلة الإنجـلـيزية التـفاصـــيل المعروفـة الآتيـة: (منذ ذلك اليوم الذى تعـد فـيه إحـدى الدول الأجنبيـة جيشا على ساحل نهـر اتك والذى يتساوى مع ذلك الجيش الذى يمكن أن تعـده الدولـة الإنجـليـزية فى نفس المكـان ، فإن ذلك اليـوم يؤرخ نهـاية عمـر الدولة الإنجليـزية ومـمـلكـة الهنـد ذلك الميدان الوسـيع والذى حدث فيـه مختلف أنواع الخـراب والدمار سواء للدولة أو طـبقات الشـعب المتعـددة ، ســيكفى فيـه عمل طفيف وضربة واحدة ،سيكفيان أن ينشرا الذعر بين هذه الطبقات المختلفة وأن يخـرجا من بين هذه المجموعـة الغربية الطبقـات غير المنتظرة ، وبإمكان رجل واحد بوحدة بسـيطة أن يؤلب الكثير من الجنود على شـق عـصـا طاعـة الإنجليـز ، وقـد أخـرت الحـيل الانجليـزية ظهور هذه الحـادثة حتى هـذه اللحظة ولكن منذ ذلك اليوم سيظهـر فى حدود أفغانستان مـنافس قوى للدولة الانجليزية وفى مقابل هذا ستزيد الدولة الانجليزية من قوتها فى ممالك الهند، وسترى الهند منافسا مستقلا أمامها ومن ثم ستضمحل كل السطوة والقوة الإنجليزيتين أمام تلك القوة الجديدة وسوف يتعجب المنافس نفسه من سرعة هذا الاضملال والانهيار) .

ويقول العـالم المشار اليه : (وجـهة نظرى ومـعلوماتى هذه ليست من فـراغ فلدينا المستندات الكافيـة والتى عن طريقهـا يمكن أن نتبـين قبل الوقت المحـدد كم يبلغ الجيش الإنجليـزى وكم تبلغ

قوته لكى يواجه العدو ، ويحيط الكاتب المشار اليه علما بكل تفاصيل الكفاءة العسكرية للدولة الإنجليزية وعن طريق الشواهد الكثيرة والتحقيقات المفصلة والتى يخرج ذكرها عن محتوى هذا الكتب يبرهن الكاتب أن الدولة الانجليزية لايمكن أن تجمع فى أى مكان أكثر من واحد وستين ألفا من الجنود بحيث يكون خمسة عشر ألفا منهم من الإنجليز وعلى الحدود الغربية للهند ، ويقول العالم المذكور مع شرح تحقيقاته هذه : أرى أن جمع هذا العدد من الجنود غير ممكن للدولة الإنجليزية .

وعلى هذا النحو الذى أرى أنه منتهى ظنى ، ينبغى أن نؤكد أنه حينما يظهر سبعون ألفا من جنود الفرنج فى وادى (خيبر) فإن هذا الجيش كاف لأن يطوى بساط « إنجلترا » من ثغر الهند حتى حدود ذلك المنافس دونما أن يرى أى دفاع أو مواجهة من قبل العدو) .

ويقول هو أيضا : (لم يكن يحتاج نابليون من أجل السفر للهند أكثر من ستين ألف جندى فى حين أن السفر للهند وتسيير حملة لتلك المنطقة فى ذلك الوقت أمر سيقف أمامه كثير من الموانع خاصة وقد بدأ وضع أفغانستان مهيبا ،ولما أن الآخرين ليسوا عل علم بخريطة هذه المنطقة لهذا كان بامكان الأفغان حينئذ أن يتحملوا تلك الضربات القاصمة ، ولكن اليوم أو غدا أو بعد مائة سنة أخرى ليس ببعيد أن يهب شعب الأفغان كله

للإنتقام من الإنجليز وذلك فى نفس واحد ويستوى مثير هذا الصوت الانتقامى سواء من قبل الدولة الإيرانية أو من الروس ، وقد كان فى ذلك الوقت أتباع عديدون للدولة الإنجليزية فى الهند وكان بإمكان بعض الحكام أن يدافعوا عنها ، أما الآن فإن الدولة الإنجليزية كلها وحيدة ودفاعها ينحصر فى الطوائف القديمة ، وقد كتب الكاتب المشار اليه شروحا مفصلة فى صدد مخطط التحركات العسكرية للقائد الروسى فى الهند ، وفى صدد جميع متطلبات هذا السفر والتى لن أترجمها مراعاة لهذا الكتيب الموجز، ويقول مثلا لاينبغى للقائد الروسى أن تواجه أية صعوبة فى شأن المؤن وماهو ضرورى هو أن تملأ جيبه بالأموال دائما ، وبهذا الشكل فإن المخططات المدبرة كافية . وعلى سبيل المثال يتضح من هذا أن مؤن الجيش ستجمع من هذا الموضع كما أن العبور من نهر أتك للمنطقة الفلانية ليس فيه أى اشكال .... وينبغى العبور بالشكل الفلانى ... وهذا كاف ، وقد عبر السلطان محمود الغزنوى سبع مرات بجنود لا حصر لهم من نفس هذا الطريق ، كما عبرالأمير تيمور وبابرشاه وهمايون ونادرشاه والقواد الإنجليز أنفسهم أثناء حرب الأفغان بالطريقة الفلانية من نفس هذا الطريق أيضا،وقد كتب الكثير من قبيل هذه التفاصيل ، وبناء على النماذج القديمة ، ينبغى أن نقر بأن وعورة الأرض لايمكن أ ن تكون بأى حال من الأحوال مانعا يحول دون تقدم جنود العدو فى هذه المنطقة ، وما يمكن أن يحفظ (الهند)

اليوم هو الجيوش المدربة التدريب الجيد وكفى ، وبمجرد أن يهزم الجيش الإنجليزى فى مواجهة الجيش .

الفرنجى مرة واحدة فإن كل القوى الإنجليزية سوف تنهار لأن الجيش الأجنبى بعد هزيمته للإنجليز سوف يصبح جيشا قويا يضم اليه جميع الجيوش الفرعية الأخرى وسيستولى على الهند كلها ، وخطة الدولة الروسية بشأن السفر للهند صائبة للغاية وهناك العديد من الخطط المفصلة بشأن تلك الحملة من قبيل أى الطرق يسلكها الجنود ؟ . . . وكيف يتحرك قواد الجيش أثناء الطريق ؟ وقد أعدت النماذج الكافية لتوضيح ذلك وسأكتفى أنا هنا بالإشارة الى هذه الأقوال موجزا ، فللدولة الروسية طريقان من أجل حملة الهند ، أحدهما من التركستان والآخر من إيران ، وعلى الرغم من أنه حتى اليوم قد سلكت الدولة الروسية هذين الطريقين . وذلك بشكل متساو إلا أنه من الواضح أنها وضعت خطتها الأساسية من ناحية إيران وقد كتب فى هذا المضمار شروح كثيرة وأذكر منها فقط بعض الأفكار التى تتعلق بالمملكة الإيرانية ، فاليوم تعتبر الدولة الإيرانية فى يد الدولة الروسية وفى كل وقت تحاول الدولة الروسية أن تحفظ الوضع كما هو عليه فى إيران . وبعد ذلك فهى تعيد لإيران بعض الأقاليم التى استولت عليها وتعدها أيضا ببعض الأقاليم الأخرى ، فى حين أن روسيا تجبر الدولة الإيرانية من خلال اتفاق سرى على هذا :أن تلتزم الدولةالإيرانية بالوفاق والصداقة لمؤازرة الأهداف الروسية،

وقـد تعرضـت الدولة الإيرانية بـعد حكم نادرشـاه الى حـالة من الضعف والاضـمحـلال وبدت كأنهـا لايمكنها أن تخـرج من حالة الذل هذه ، ولكن مع كل هذا الـضعف العـارض يمكن أن يظهـر منافس كبيـر ويتدخل في مسألة الشرق عن طـريق الوضع الطبيعى لأقالـيمـها ويكون له تأثيـر كبـير فى تغـييـر خريطة شـرق الدولة الإيرانيـة وهذا الامـتداد فى رقـعـة أرض إيران ناتج عن حـالتهـا الطبيعية وليس له أى تأثير فى شأن قوة الدولة . ومن خلال ذلك التوازن والذى يومـا ما ينبغى أن يرسم مـصير إنجلتـرا وروسـيا ، فـإن الدولة الإيرانيـة يمكنهـا أن تشكـل وزنا عظيـمـا بين هـاتين الدولتين ، ولاشك أنه حينما تكلف الدولة الروسـية إيران بالسفر للهند فـإن كل أهل إيران سـوف يذهبـون عن رضـا تام وسـوف تحـمس غنائم الهند وذكـرى نادرشـارو وفكرة ضـعف إنجلتـرا فى الهند ، سوف تحـمس الإيرانيين لهذا الأمر ، كمـا أن وسائل هذا السفـر والمقدرة عليه مهـيأة على أكمل وجـه فى الأرض الإيرانية ولكن حكام الدولة الإيرانيـة تنقـصهـم الإرادة والقوة اللتـان من خلالهـما يحصلون علـى ما يحتـاجون بالاستـفادة من الإمكانات الطبيعية لأقاليمهم ولكن حينما تسقط هذه الدولة فى براثن الدولة الروسية أو يكون لهـا وحدة وثيقة مع الدولة الروسـية فإن الدولة المشـار اليهـا يمكنهـا أن تعد العدة لهذا السـفـر ما بين سـتين إلى سبعين ألف جندى فى « إيران » ، ومـعلوم أن هذا الجيش سوف يكون أحسن حـالا من سائر الجيوش خـاصـة عنـدما يكون تحت

إمـرة القـواد الروس المهـرة وعـلاوة على هـؤلاء الجنود المدربين للدولة الإيرانيـة ، يمكن أن يلحق هذا الجيش ضـعـفـا أولئك الجنود غيـر المدربين ، واليوم فـإن بقاء الدولة الإيرانيـة مقـرون بحجـم مـهام الدولـة الروسـية ، وليس لهذا أى تأثـير فى شأن قوة الدولة .

الخلاصة : أن بعـد المسافـة هو السـبب الرئيسى فى تأخـر الحملة الروسية على الهند وللتغلب على هذه المشكلة يلزم شيئان: أولهما : أن تحدث وحدة تامة بين الدولة الروسية وإيران من أجل تحقـيق هذا الهدف ، ثانيـهمـا : أن تقضى الدولة الروسـية على الدولة الايرانية تماما وحينئذ تسير جيشها من إيران إلى الهند والآن فإن الاهتمام بهذين الشيئين هو أساس السياسة فى إيران .

وقد كتب العـالم المشار اليه تفاصـيل كثيرة فى صدد سـياسة الدولة الفـرنسية والدولة الـعثمـانية مع إيران والتى كلهـا ينم عن الاطلاع على حـقيـقـة الأمر ولكننا نصـرف النظر عن ذكـر تلك التفاصيل لاعتبارات كثيرة،وهنا نتتهى من معلومات جناب العالم.

الخلاصة : أن الدولة الانجليزية أما أن تنتـهى تماما أو تحافظ على الهند بحيث لاتسمح لدولة أخرى أن تطأ أقدامها أراضى تلك المملكة (الهند) ونفـس الأمر بالنسـبة للـدولة الروسيـة فإمـا أن تنتهى أو تسـتولى على المملكة الهندية والسـيطرة على هذه الدولة شىء لازم وضرورى لكلتا الدولتين ، واليوم فحياة هاتين الدولتين

وموتهما مرهون بالاحتفاظ بأرض الهند ، لهذا فقد ذكر العالم الإيرانى فى هذا الصدد من باب الاطلاع على حقائق الأمور وطبقا للظروف الراهنة أى الصراع بين هاتين الدولتين ذكرما يلى: (ينبغى على الدولة الإيرانية من باب التفكير فى المصلحة الشخصية أن تنتهج لنفسها سياسة قوية ومؤثرة بما يخدم مصالح المملكة ومع هذا فقد كتب العالم المشار اليه من باب حب الوطن بعض الأفكار اللازمة . . . . وا أسفاه فإن عقولنا غير الناضجة عاجزة من إدراك النكات السياسية لتلك الأفكار والتى تعتبر إحدى الوسائل الهامة لخلاص المملكة وليس هناك أحد يمكن أن يتبع أو يستفيد من تلك المقترحات السياسية والأفكار السامية لذلك الشخص المحترم ، ولكن يمكن القول أن هذه الخطط وتلك المقترحات السياسية لذلك العالم المشار اليه هى نتيجة لأفكار وتصورات سنوات قد خلت .

ومن الواضح أن كل شىء يتغير بسبب تقلب الدهر لاسيما سياسة الدول فهى كالليل والنهار يتغيران من لون إلى لون آخر فى غضون أربع وعشرين ساعة فهما يتغيران من ظلمة الليل إلى ضوء النهار والعكس .

وسيرى المرء ذات يوم وسائل التكدير مع ثرثرة عن الصداقة قد ظهرت دفعة واحدة بين الدولتين الكبيرتين بسبب حادثة ما قد وقعت فى ناحية من العالم ، وبدأت صحف الطرفين تكتب عن

سوء سلوك بعضهما البعض ، وقد أشار كل منهما إلى الآخر على أنه عدوه القـديم وقدم الأدلة والبراهـين لإثبات ذلك ، وترى أنه بسبب أحـاديث الصحف نفـسها بين الطرفين قـد حدثت تغـيرات رئيسيـة وخسائر كبيرة فى سندات اسـهام قروض هاتين الدولتين ، وذلك فى ظرف يوم واحد ، كـما خسر عالم التـجارة الملايين من جراء ما تنشره هذه الصحف ، وعـلاوة على ذلك فقد زاد الجفاء بين هاتين الدولتين، بحـيث يظن قارئو صـحف الطرفين هكذا أن غـدا موعـد إعلان الحـرب ، فى حين أن ذلك كله يعـتـبر جلبـة سيـاسية ولا يمر أسـبوع واحد حـتى ترى أن الوضع السيـاسى قد اتخـذ شكلا آخر فـتعـود المياه إلى مـجاريهـا ، إذ أنهمـا يغيـران سياستهما من وجهة إلى وجـهة مغايرة تماما عن ذى قبل . فهاهم ينظمـون الشـعر كله عن صداقـة الطرفين ويرفعـون شعار المحـبة والود ، فهـما لوزة ذات نوايتين فى قشرة واحـدة ، وذلك بسبب وحدتهما الفريدة ، وهم يثبـتون أيضا أنهم لايزالون على الصداقة والمودة القديمتين بـل يعدون لبعـضهمـا البعض مـجالس الضيـافة ويحتسون فيها كئوس الخمر نخب سلامتهم .

الخلاصة : لا ينبغى الأمن والاطمئنان إلى أى شىء فى أى مكان يوجد فيه اسم السياسة ، فـينبغى التخوف من العدو واتخاذ الحيطة والحذر لذلك ولا ينبغى ترقب أى خـير من أصدقائهم لأن المعنى الأساسى لكلمـة السياسة هو الخـداع والكذب والغرض من اسـتـخـدام هذه الكلمـات ، هو أنهم يحـصـلون على كل شىء

ويسلبون الآخرين ما يمتلكونه وذلك من خلال حيل لطيفة وهكذا فهم يمنون على الطرف الآخر بهذه المعاملة وكأنهم وهبوه الحياة ويستقي الغرب جميعا من نبع واحد في تحصيل هذا الفن البديع ، ودرسهم جميعا من كتاب واحد وكلهم تلاميذ مدرسة واحدة .

وفى حقيقة الأمر أنهم يبلون بالصداقة أكثر مما يبلون بالعداوة ، فنتيجة عدوانهم إخضاع الممالك ونهاية صداقتهم الدمار والهلاك .

فغاية الصداقة عندهم أن يلقوا بك فى فم أفعى ويتخلون عنك وكما رأينا بأعيننا فى العصر الماضى وما استباحوه فى حقنا، لم يتغاضوا عنه فى حق الآخرين إذن لا ينبغى على الشخص العاقل أن يتوقع الخير من هؤلاء ، وينبغى أن يسعى بنفسه وراء عمله ويبحث عن علاج لآلامه بنفسه وليس بمساعدة الآخرين .

(أن ترك التراب مخزونا فى العين

هو شفاء لها (ولا اللجوء) لهؤلاء القوم)

وعلى كل حال ينبغى على عقلاء الشعب وحكام الدولة الإيرانية أن يتمسكوا بالحبل المتين للوحدة والاتحاد وذلك من باب صفاء العقيدة وحسن النية بحيث يحاولون إصلاح مساوئ البلاد بمساعدة بعضهم البعض وينأون بأنفسهم عن ايثار النفس والهوى .

وعلى كل حال يجعلون من أوامر الأحكام الحقيقية للشريعة المحمدية الغراء وسيلة لتحقيق الهدف ويستعينون بالآية الكاملة للهداية (إياك نعبد وإياك نستعين) ، ويسيرون بنية صافية على طريق (الصراط المستقيم) حتى تشملهم الرحمة الآلهية .

(ذلك الذى يراعى الأعداء   كيف يحرم الأصدقاء ؟)

ويقول عالم إيرانى : أين تذهب سفينة سياستنا ؟ ، والمعلومات المفيدة لذلك الحكيم العالم بشأن سياسة الدولتين العظيمتين المتجاورتين فى غنى عن الوصف والتعريف .

وبفكرنا غير الناضج تجاه السفينة مقرون بالإجراءات الآتية وحيث تكمن النتيجة .

أولاً : وحدة الشعب واتحاده فى العمل الموحد .

ثانيًا : وجوب الإنصياع لأوامو الملك وأحكامه .

ثالثًا : اطلاع الشعب كله على المصالح الشخصية خاصة حكام الدولة .

رابعًا : ايثار السمعة الطيبة على الملذات الشخصية .

خامسًا : الأخوة والمساواة فى مجلس النواب .

سادسًا : إدراج كل عمل تحت طائلة القانون على حدة .

سابعًا : تنفيذ أحكام تلك القوانين بالمساواة ودون استثناء.

ثامنًا : كما هو اليوم شائع بل ومضرب المثل .

لابد من فتح مصنع لتخريج الرجال أو بمعنى أصح فتح مدارس من أجل تحصيل العلوم والفنون المتداولة ، وفى اعتقادى أن أول وسيلة لسعادة شعبنا تكمن فى هذه الأفكار الثمانية. وحينما ينفذ الشعب وحكام الدولة هذه الافكار أو المقترحات ، فبإذن الله سوف تذلل كل الصعوبات ، وعلى الرغم من أن تنفيذ مثل هذه المقترحات فى بلادنا من الصعوبة بمكان ، إلا أنه ينبغى على المرء ألا يخشى المشكلات ، فالمرء يتغلب على كل الشدائد في ظل الكد والعمل من أجل المعرفة ، وحينما يضع حكام الدولة تنفيذ هذه الإصلاحات موضع الاعتبار، فهذا كفيل بتحقيق الهدف ، لأن كل هذه الأشياد لا تحدث دفعة واحدة ، ولكن شيئا فشيئا يمكن أن تتحقق كل هذه الأهداف على أكمل وجه ، والشعب الإيرانى ليس أقل من الشعوب الغربية ذكاء وفطنة وعلما وشجاعة ، فهو ينقصه التعليم والتنشئة حتى يدرك أن معنى حب الوطن من باب العلم والمعرفة ، وحتى يكون على دراية بما فى الوحدة والاتحاد من لذة وافتخار .

الخلاصة : ان اليوم بسبب تقلب الزمان لا تستقر سياسة الدولة الكبرى والمتجاورة فى مكان معين وفى كل يوم تنتقل أوراق (اللعبة) السياسية لديهم من دولة إلى أخرى وذلك بسبب هبوب الرياح العكسية من بعض الجهات غير المتوقعة ، كما أنه بعد حرب الصين واليابان التفتت أنظارهم إلى تلك المنطقة ، ولما وجدوا أن تلك اللقمة دسمة وسائغة فقد أسرعوا دفعة واحدة إلى

تلك المنطقة ، وكل من حصل على جزء فى هذه المنطقة المترامية الأطراف مستأجرا إياه منذ وقت طويل ، ضمه إلى ممتلكاته ، ولكن ليس مستبعدا أن تقع المنافسة بين هؤلاء المغيرين المتنافسين بسبب النقص والزيادة أو الجمال والقبح فى هذه الأملاك المغصوبة ، فيصل الأمر إلى النزاع والعداء أو أن يترك الصينيون أنفسهم الأفيون[1] ويستيقظون من السبات العميق ليهتموا باسترداد ممتلكاتهم ،وعلى هذا فهذا الأمر شرحه يطول، وهذه كلها ظنون وسيكشف الزمان للمعاصرين إن آجلا أو عاجلا عن النتيجة ، وخلاصة حديثنا عن الوضع السياسى للجارتين الكبيرتين المتنافستين على دولة إيران ، من التفاصيل السابقة اتضح إلى حد ما أن سياسة الدول ليست لها استقرار بحكم مقتضيات الزمان وعلى الرغم من أن هدفهم محدد . ولو اتبع حكام الدولة الإيرانية سياسة معتدلة فى صداقة هاتين الدولتين الكبيرتين لكانوا حققوا انجازا كبيرا وعظيما وذلك متعلق بالآتى : أن لا يتعاملوا مع هاتين الجارتين الصديقتين فى الشئون الداخلية للمملكة من قبيل إقامة السكك الحديدية والتنقيب عن المعادن وتعيين القواد العسكريين

(١) حاول الرأسماليون البريطانيون بكل وسيلة ممكنة تغيير توازن تجارتهم غير المتلائم مع الصين ، فوجدوا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر أن الأفيون بضاعة رابحة جدا ولها سوق رائجة فى الصين بين ارستقراطييها وبيروقراطييها وملاك أراضيها وتجارها الأغنياء المبذرين لذلك قرروا استخدامه ليفسحوا لأنفسهم بواسطته موضع قدم داخل عتبة الصين أى غزوها وقد حذا حذو الانجليز الأمريكيون والفرنسيون ، انظر : - سلسلة كتب تاريخ الصين الحديث : حرب الأفيون ، دار النشر للغات الأجنبية ، الطبعة الأولى ، بكين ، ١٩٧٦م . ص : ٨

من أجل تعليم الجنود ، وكـذا تعـيين المعلمين فى المدارس وأن لا يتعاملوا مع هاتين الجارتين في مـسـألة امتيازات[1] المملكة ، كـما يقـــال فى المثل المشـهــور : (اله مع الصديق واشرب مـعه وكل مـعـه لكن لاتعـامله) فـهناك أصـحـاب الملايين فى كل الممـالك الأوروبية ،فيـنبغى على المملكة فى مثل هذا النوع من مـعاملات الحكومة مع أهالى الأقاليم أن تنأى عن الوساطة حتى لاتصيبنا نار تنافس هاتين الجارتين ، وينبـغى على أفراد الشعب من كل طبـقة وفئة أن يشحذوا هممهم جماعة جماعة منتهجين أسلوبا مغايرا عن ذى قبل وذلك فى عمل موحـد من أجل ازدهار التجارة والصناعة فى المملكة ، فينبغى عليهم أن يؤسسوا الشركات حتى تنجز أعمال الوطن ومهامه فتحقق السـعادة فى جميع المجالات . فالمشروعات الحكومية ومواظبة حكام الدولة أمـور لا تكفى لتحقيق الأمانى ، وينبـغى على الدولـة والشـعب أن يكونا يدا واحـدة فى إصـلاح مساوئ المملكة ، ويعتقد كل المواطنين أن جميع مساوئنا ومفاسدنا يمكن أن يصلحهـا شخص الملك ذاته ، وفى الحقـيقة يعتـبر الملك هو الأب الرحـيم للـشـعب ، لكن ينبـغى علـى الأبناء أيضـا أن يظهروا استعداداتهم وأن يطيعوا أوامر والدهم.

الخلاصة : أنه لن تكون نهاية الكد والعمل وشـحذ الهمم سوى السمعة الطيبـة والفخار ، وهكذا فإن « بطرس الأكبر » باق وخالد نظرا للنتائج الطيبة لتلك المشاق التـى استهان بها على نفسه وذلك فى سبيل رقى الشعب وتعمير البلاد ، ومن كل مكان يذكر

(١) ابراهيم تيمورى : عصر بى خبرى ، جلد أول ، ص ٨٣ ، ٨٤

اسمه العدو قبل الصديق باحترام تام ، فمحصلة الغفلة والركون للراحة السمعة السيئة والذلة ، كما يشير تاريخ الشاه سلطان حسين الصفوى علينا بذلك ، وينبغى علينا أن نطلب من الله أن تؤثر الكلمات الصادقة وغير المغرضة فى الغيورين على الشعب حتى تجدى فى قلوب عقلاء الشعب وحكام الدولة ، وحتى لايفسد أمر البلاد كله ومن ثم يهبون جميعا لكى يفكروا فى نجاة الوطن وخلاصة مما هو فيه .

واليوم فنجاتنا متعلقة بوحدة الدولة والشعب والعدالة فى المملكة والوطن المقدس ، وأتضرع إلى الله بالدعاء أن يجعل الدولة رحيمة بالشعب والشعب تابعا ومطيعا لأوامر الملك ، وأن يبعد الكبر والحسد عن قلوب حكام المملكة ، فاللهم اقبل هذا الدعاء من العبد المذنب .

(يا مقلب القلوب والأبصار ويا مدبر الليل والنهار)

(ويا محول الحول والأحوال حول حالنا إلى أحسن حال)

(فأيها المواطنون .. استيقظوا من النوم .. وأفيقوا من سكرة الكبر والتيه)

(وأبتعدوا عن الغفلة والنفاق ... وكونوا أخوة متعاونين على المحافظة على الوطن)

(والسلام)

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ - نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدي أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد علي
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩ - الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١ - مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستي	ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسي التدعيمي	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسي سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
٥٥ - ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : علي يوسف علي
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود علي مكي
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبري محمد عبد الغني
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
٦٢ - لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعي .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ - في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسي العجوز | ت . س . إليوت | ت : فؤاد مجلي

٧٣ – نقد استجابة القارئ | چين . ب . توميكنز | ت : حسن ناظم وعلي حاكم

٧٤ – صلاح الدين والمماليك في مصر | ل . ا . سيمينوڤا | ت : حسن بيومي

٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية | أندريه موروا | ت : أحمد درويش

٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي | مجموعة من الكتاب | ت : عبد المقصود عبد الكريم

٧٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٣ | رينيه ويليك | ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد

٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية | رونالد روبرتسون | ت : أحمد محمود ونورا أمين

٧٩ – شعرية التأليف | بوريس أوسبنسكي | ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي

٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع» | ألكسندر بوشكين | ت : مكارم الغمري

٨١ – الجماعات المتخيلة | بندكت أندرسن | ت : محمد طارق الشرقاوي

٨٢ – مسرح ميجيل | ميجيل دي أونامونو | ت : محمود السيد علي

٨٣ – مختارات | غوتفريد بن | ت : خالد المعالي

٨٤ – موسوعة الأدب والنقد | مجموعة من الكتاب | ت : عبد الحميد شيحة

٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية) | صلاح زكي أقطاي | ت : عبد الرازق بركات

٨٦ – طول الليل | جمال مير صادقي | ت : أحمد فتحي يوسف شتا

٨٧ – نون والقلم | جلال آل أحمد | ت : ماجدة العناني

٨٨ – الابتلاء بالتغرب | جلال آل أحمد | ت : إبراهيم الدسوقي شتا

٨٩ – الطريق الثالث | أنتوني جيدنز | ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين

٩٠ – وسم السيف (قصص) | نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية | ت : محمد إبراهيم مبروك

٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق | باربر الاسوستكا | ت : محمد هناء عبد الفتاح

٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر | كارلوس ميجل | ت : نادية جمال الدين

٩٣ – محدثات العولمة | مايك فيذرستون وسكوت لاش | ت : عبد الوهاب علوب

٩٤ – الحب الأول والصحبة | صمويل بيكيت | ت : فوزية العشماوي

٩٥ – مختارات من المسرح الإسباني | أنطونيو بويرو باييخو | ت : سري محمد محمد عبد اللطيف

٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة | قصص مختارة | ت : إدوار الخراط

٩٧ – هوية فرنسا (مج ١) | فرنان برودل | ت : بشير السباعي

٩٨ – الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني | نماذج ومقالات | ت : أشرف الصباغ

٩٩ – تاريخ السينما العالمية | ديڤيد روبنسون | ت : إبراهيم قنديل

١٠٠ – مساءلة العولمة | بول هيرست وجراهام تومبسون | ت : إبراهيم فتحي

١٠١ – النص الروائي (تقنيات ومناهج) | بيرنار فاليط | ت : رشيد بنحدو

١٠٢ – السياسة والتسامح | عبد الكريم الخطيبي | ت : عز الدين الكتاني الإدريسي

١٠٣ – قبر ابن عربي يليه آياء | عبد الوهاب المؤدب | ت : محمد بنيس

١٠٤ – أوبرا ماهوجني | برتولت بريشت | ت : عبد الغفار مكاوي

١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع | چيرار چينيت | ت : عبد العزيز شبيل

١٠٦ – الأدب الأندلسي | د. ماريا خيسوس روبييرامتي | ت : أشرف علي دعدور

١٠٧ – صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر | نخبة | ت : محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود علي مكي
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادي پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلي
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهري سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيتل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراي	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقي	سيدريك ثورپ ديڤي	ت : سمحه الخولي
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحي	ت : بشير السباعي
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقي جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق علي	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	باري ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	چوزيف ماري مواريه	ت : كاميليا صبحي
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تاروني	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبوري
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومي
١٤٣ – قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديريك لايدار	ت : عدلي السمري
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدوني	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ - غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ - الإيديولوجية	ديڤيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ - من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت : مجموعة من المترجمين
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ – جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ – القاهرة .. حالة لا تنام	هانز إبندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بُزُرْج علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	بول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو – أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم	م. سولوفيتشيك ، ز. روفشوف	ت : أحمد محمود هويدى

(تحت الطبع)

الولاية	ديوان شمس
تاريخ النقد الأدبى الحديث (الجزء الرابع – القسم الثانى)	مصر أرض الوادى
الإسلام فى السودان	الدرافيل أو الجيل الجديد
العربى فى الأدب الإسرائيلى	سحر مصر
المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	الهيولية تصنع علمًا جديدًا
فن الرواية	عولمة السياسة
ما بعد المعلومات	رايولا
علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	بقايا اليوم
عن الذباب والفئران والبشر	لغة التمزق
العولمة والتحرير	فكرة الاضمحلال
علم اجتماع العلوم	حقول عدن الخضراء
قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مأزق البطل الوحيد

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١١٠٤٤ / ٢٠٠٠





سياحت نامه إبراهيم بيك

يحفل الأدب الفارسى بكثير من كُتّاب السياحة والرحالين الذين أثروا الأدب الفارسى بما دوّنوه فى مذكراتهم خلال رحلاتهم ، ومن أولئك الكُتّاب : ناصر خسرو فى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ؛ وناصر الدين شاه فى القرن الرابع عشر الهجرى ، التاسع عشر الميلادى ؛ وزين العابدين المراغى .

ورحلة إبراهيم بيك تضم أجزاءً ثلاثة ؛ حيث جعل كاتبنا من هذه الرحلة المهمة سجلاً تاريخيًا صوّر فيه كافة المجالات السياسية والاجتماعية والفكرية فى المجتمع الإيرانى فى العصر القاجارى ، خاصة فترة حكم (ناصر الدين شاه) ، ثم حوت أخلاطًا من الشعر والأمثلة والمأثورات الدينية والشعبية. وقد عاصر المؤلف أحداث الثورة الدستورية بإيران فى بدايات القرن العشرين ؛ لأنه توفى عام ١٩١٠ و[illegible] يناهز الثالثة والسبعين .

ويعد هذا الكتاب أول رحلة تصف أحوال إيران المعنية يُقدّم فى ثوبه العربى ، وقد تحلّى [illegible] والدقة والجمال فى آنٍ ، أمانة النقل وجمال [illegible] يشعر القارئ الكريم بالمتعة العقلية والروحية إذ [illegible] المؤلّف بين يديه .

تصميم الغلاف : يوسف شاكر